اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

في

أسرار كلمة لا إله إلا الله

قال الله سبحانه وتعالى لرسوله : ﴿ فاعلَمْ أنّه لا إله إلا اللهُ واستغفِرْ لذنبكَ وللمؤمنينَ والمؤمنات ﴾ (1) .

اعلم أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والسبب فيه : أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول ، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع ، والأصل يجب تقديمه على الفرع ، فإنه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته . وهذه الدقيقة معتبرة في آيات كثيرة .

أولها : أن إبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال : ﴿ رب هبْ لي حكماً والحقني بالصَّالحين ﴾ (2) . فقوله : « هب لي حكماً » اشارة إلى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء ، وقوله « والحقني بالصالحين » إشارة إلى استكمال القوة العلمية (3) بالاجتناب عن طرفي الافراط والتفريط . فقدم العلم على العمل .

وثانيها : أنه تعالى لما أوحى إلى موسى عليه السلام راعى هذا الترتيب فقال : ﴿ وأنا أخترتك فاستَمعْ لما يُوحى . إنني أنا اللهُ لا إله إلا أنَا فاعبدني وأقم الصَّلاة لذكري ﴾ (4) . فقوله : « لا إله إلا

(1) سورة محمد ، الآية : ١٩ .
(2) سورة الشعراء ، الآية : ٨٣ .
(3) لعل الأصح (القوة العملية) لما يقتضيه السرد .
(4) سورة طه ، الآية : ١٣ — ١٤ .

أنا » اشارة إلى علم الأصول . وقوله : « فأعبدني » إشـــارة إلى علم الفروع .

وثالثها : أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله تعالى في وقت الطفولية قال : ﴿ إني عبدُ الله آتانيَ الكِتابَ ﴾ [1] . فقوله : « إنّي عبدُ الله » إشارة إلى علم الأصول ، وقوله « آتاني الكتاب » إشارة إلى علم الفروع ، فإن احتياجه إلى الكتاب إنما يكون في معرفة الأحكام والشرائع ، لا في معرفة ذات الله تعالى وصفاته .

ورابعها : الآية التي نحن فيها [2] .

ولا نزاع في أن أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام هؤلاء الأربعة ، فلما ثبت أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع في حق هؤلاء الأنبياء المكرمين ، ثبت أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك . ومما يؤكد ذلك وجوه أخرى .

* * *

الوجه الأول :

إن أكثر المفسرين أجمعوا على أن أول آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ هي قوله : ﴿ اقرأ باسمِ ربكَ الذي خلَقَ . خلَقَ الإنسانَ من علق . اقرأ وربُّكَ الأكرمُ . الذي علَّمَ بالقلمِ . علَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمَ ﴾ [3] . وهذه الآيات مشتملة على دلائل التوحيد . وذلك لأن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم : تولد الانسان من النطفة . ثم إنه تعالى نبه في هذه الآيات على لطيفة عجيبة ، ولا يتأتى شرحها إلا في معرض السؤال والجواب .

فإن قال قائل : لا بد من رعاية النظم بين أجزاء الكلام ، وههنا

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٣٠

(٢) وهي الآية ١٩ من سورة محمد .

(٣) سورة العلق ، الآيات : ١ — ٥ .

ذكر أنه تعالى يولد الانسان من النطفة فقال : ﴿ الذي خلق . خَلَقَ الانسان من علق ﴾ . ثم ذكر بعده أنه ﴿ علم الانسان ما لم يعلم ﴾ . فأي مناسبة بين هذين الأمرين ؟ .

والجواب : أن أخس مراتب الإنسان وأدناها : العلقة ، وذلك لأنه يستقذرها كل أحد . وأعلا المراتب وأشرفها : كون الانسان عالماً محيطاً بحقائق الأشياء ، كأنه قال : عبدي ، تأمل إلى أول حالك حين كنت علقة ، وهي أخس الأشياء ، وإلى آخر حالك حين صرت ناطقاً عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف المراتب ، حتى يظهر لك أنه لا يمكن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة إلا بتدبير أقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون .

* * *

الوجه الثاني :

إنه تعالى مدح المؤمنين في سورة البقرة من أول السورة إلى قوله : ﴿ وأولئك هُمُ المُفْلِحونَ ﴾ [1] . وذم الكافرين في آيتين : أولهما قوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ إلى قوله : ﴿ ولَهُمْ عَذابٌ عظيمٌ ﴾ [2] . ثم ذم المنافقين في ثلاث عشرة آية : أولها قوله تعالى : ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ آمَنّا بالله ﴾ إلى قوله : ﴿ يا أيُّها النّاسُ اعبُدوا ربَّكُمْ ﴾ [3] ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كأنه قيل : هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على اثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة . فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة .

فبدأ أولا بإثبات الصانع وتوحيده ، وبيّن ذلك بخمسة أنواع من الدلائل : أولها : أنه استدل على التوحيد بأنفسهم ، وإليه الاشارة بقوله :

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١ — ٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآيتان : ٦ — ٧ .
(٣) سورة البقرة ، الآيات : ٨ — ٢١ .

﴿ اعبدوا ربَكُمْ الّذي خلَقَكُمْ ﴾ [1] . وثانيها : بأحوال آبائهم وأجدادهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ والذينَ مِنْ قَبْلِكُم ﴾ [2] . وثالثها : بأحوال أهل الأرض ، وإليه الاشارة بقوله : ﴿ الّذي جعَلَ لَكُمُ الأرضَ فِرَاشاً ﴾ [3] . ورابعها : بأحوال أهل السماء ، وإليه الاشارة بقوله : ﴿ والسّماء بِنَاء ﴾ [4] . وخامسها : بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض ، وإليه الاشارة بقوله : ﴿ وأنزَلَ منَ السّماء ماءً فأخرجَ به منَ الثمرات رِزْقاً لَكُمْ ﴾ [5] . فإن السماء كالأب ، والأرض كالأم ، ينزل المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض ، فيتولد منها أنواع النبات ، ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿ فلاَ تَجْعلُوا لله أنْداداً وأنتُم تَعْلَمُونَ ﴾ [6] .

وذلك : أن هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ . وذلك : أن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من وجه ، وعلى كونه تعالى واحداً من وجه آخر : فإنها من حيث أنها حدثت مع جواز ألا تحدث ، ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت به ، يدل على وجود الصانع القادر . ومن حيث أنها حدثت لا على وجه الخلل والفساد دلت على وحدة الصانع القادر . كما قال تعالى : ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا ﴾ [7] . فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل الخمسة ذينك المطلوبين : أحدهما : اثبات الصانع . والثاني : اثبات كونه واحداً ، لأنه قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ [8] ، يشتمل على اثبات الاله ، وعلى اثبات كونه واحداً .

ثم ههنا لطيفة أخرى مرعية في هذه الآية ، وهي : أن الترتيب الحسن المفيد في التعليم أن يقع الابتداء في التعليم من الأظهر فالأظهر ، مرتقياً إلى الأخفى فالأخفى . وهذه الدقيقة مرعية في هذه الآية . وذلك أنه

---

(١) و (٢) و(٣) و(٤) و(٥) و(٦) سورة البقرة ، الآيتان : ٢١ – ٢٢ .
(٧) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .
(٨) سورة البقرة ، الآية : ٢٢ .

سبحانه وتعالى قال : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم ﴾ . فجعل استدلال كل عاقل بنفسه مقدماً على جميع الاستدلالات ، لأن اطلاع كل واحد على أحوال نفسه أتم من اطلاعه على أحوال غيره ، فسيجد بالضرورة من نفسه (أنه) تارة يكون مريضاً ، وتارة صحيحاً ، وتارة ملتذاً ، وتارة متألماً ، وتارة شاباً ، وتارة شيخاً ، والانتقال من بعض هذه الصفات إلى غيرها ليس باختيار أحد من البشر .

وأيضاً فقد يجتهد في طلب كل شيء فلا يجد ، وكثيراً ما يكون غافلاً عنه فيحصل ، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ الهمم : أنه لا بد من مدبر يكون تدبيره فوق تدبير البشر . وربما اجتهد العاقل الذكي في الطلب فلا يجد ، والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب . فعند هذه الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعي رضي الله عنه :

ومن الدليل على القضاء كونـــــه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويظهر له أن هذه المطالب إنما تحصل وتتيسر بناء على قسمة قسام لا يمكن منازعته ولا مغالبته ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ نحنُ قَسَّمنَا بينَهم معيشَتَهُم ﴾ [1] .

ثم إن هذه الاعتبارات غير محصورة ، فتارة كما في قوله تعالى : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ [2] . وأخرى كما في قوله : ﴿ قُلْ مَنْ يكلؤكُم بالليلِ والنّهار ﴾ [3] . وبالجملة ، فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أشد من اطلاعه على أحوال غيره ، لا جرم قدم هذا الدليل على سائر الدلائل .

ثم هذه المراتب يتلوها مرتبة أخرى ، وهي علم كل أحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده . ثم هذه المرتبة الثانية تتلوها مرتبة ثالثة ، وهي معرفة الانسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق ، فإنها مختلفة

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣٢ .
(٢) سورة النمل ، الآية : ٦٢ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٢ .

الأجزاء ، كما قال : ﴿ وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات ﴾ [1] . وقال أيضاً : ﴿ ومن الجبال جُدُدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سُودٌ ﴾ [2] . ثم هذه المرتبة الثالثة تتلوها مرتبة رابعة ، وهي العلم بأحوال الأفلاك ، فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل ، والصغر والكبر ، والبطء والسرعة ، واختلاف أحوال الكواكب المذكورة فيها ، كما قال : ﴿ كُلٌ في فلكٍ يسبحونَ ﴾ [3] . وقال : ﴿ ربُّ المشرقِ والمَغْرب ﴾ [4] . وقال : ﴿ ربُّ المشرقين وربُّ المغربين ﴾ [5] . وقال : ﴿ فلاَ أقسمُ بربِّ المشَارقِ والمغاربِ ﴾ [6] . وقال : ﴿ والشّمسُ والقمرُ والنجومُ مُسَخراتٌ بأمره ﴾ [7] . وقال : ﴿ تباركَ الّذي جَعَلَ في السماء بُرُوجاً وجعلَ فيها سِراجاً وقَمَراً مُنيراً ﴾ [8] . وقال في سورة نوح : ﴿ ألمْ تَرَوا كيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سموات طِباقاً * وجَعَلَ القَمَرَ فيهن نوراً ﴾ [9] . وقال في سورة يس : ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ [10] . وقال : ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس ﴾ [11] .

ثم بعد هذه المرتبة الرابعة مرتبة خامسة ، وهي الأحوال المنزلة من السماء إلى الأرض ، وهي نزول المطر من صلب السماء ووقوعه في رحم الأرض ، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة أنواع من النبات ، بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في الشكل والطعم والخاصية . فمنه ما يكون قوتاً ، ومنه ما يكون فاكهة ، ومنه ما يكون دواء ، ومنه ما

---

(1) سورة الرعد ، الآية : ٤ .
(2) سورة فاطر ، الآية : ٢٧ .
(3) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٣ .
(4) سورة المزمل ، الآية : ٩ .
(5) سورة الرحمن ، الآية : ١٧ .
(6) سورة المعارج ، الآية : ٤٠ .
(7) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ .
(8) سورة الفرقان ، الآية : ٦١ .
(9) سورة نوح ، الآيتان : ١٥ — ١٦ .
(10) سورة يس ، الآية : ٤٠ .
(11) سورة التكوير ، الآيتان : ١٥ — ١٦ .

يكون اداماً ، ومنه ما يكون سماً ، ومنه ما يكون علفاً لسائر الحيوانات . فذكر في تفصيل المطعومات قوله : ﴿ إنّا صببْنا الماء صَبّاً * ثمّ شققنا الأرضَ شقّاً * فأنْبتْنا فيها حبّاً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائقَ غلباً * وفاكهةً وأباً * متاعاً لكُم ولأنعامكُم ﴾ [1] . وقال : ﴿ إنّ اللهَ فالقُ الحبّ والنّوى ﴾ [2] .

بل إذا نظرت إلى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أن أحد وجهيها في غاية الحمرة ، والوجه الآخر في غاية الصفرة ، مع أنها تكون في غاية الرقة . وقلة الثخانة ، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة تأثير الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع إلى كل واحد من وجهي تلك الورقة الرقيقة جداً من الورد نسبة واحدة . فإختصاص أحد وجهي تلك الوردة بالحمراء ، والآخر بالصفرة لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار الذي يفعله بالعلم والقدرة ، لا بالعلية والطبيعة .

وإذا عرفت ذلك ظهر لك أن لله تعالى في ترتيب هذه الدلائل الخمسة ، وتقديم بعضها على بعض حكمة بالغة ، وأسراراً مرعية ، فسبحان من لا نهاية لعلمه ، ولا غاية لحكمته .

ثم إن الله تعالى لما بين دلائل اثبات الصانع ووحدانيته أردف هذه المسألة بمسألة إقامة الدلالة على نبوة محمد ﷺ : ﴿ وإنْ كُنْتُم في ريْب ممّا نزلنا على عَبْدنا فأتُوا بسُورة ٍ منْ مثله ِ ﴾ [3] . وذلك لأن المتحدي به وقع بكل القرآن في قوله : ﴿ قُلْ لئن ِ اجْتَمَعَت الانسُ والجنّ على أنْ يأتُوا بمثل ِ هذا القُرآن لا يأتُونَ بمثله ِ ولوْ كانَ بعضُهُم لبَعْض ٍ ظهيراً ﴾ [4] . فلما عجزوا عن معارضة كل القرآن اتبعه بالتحدي بعشر سور من القرآن فقال : ﴿ فأتُوا بعشر ٍ

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٥ – ٣٢ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .
(٤) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨ .

سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [1] . فلما عجزوا عنه اتبعه بالتحدي بسورة واحدة قال : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ [2] . فلما عجزوا اتبعه بالتحدي بآية فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ [3] . فلما عجزوا عنه مع توافر الدواعي ظهر كونه معجزاً باهراً ، وبرهاناً قاهراً .

ثم أنه اتبع هذه المسألة بمسألة المعاد ، هي قوله : ﴿ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [4] . كأنه قيل : إنما قدمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين ، ولو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه ، ويجد المسيء عاقبة إساءته ، لم يكن ذلك لائقاً بحكمته . وهذا هو المراد من قوله : ﴿ ليجزيَ الَّذِينَ أساءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحسنى ﴾ [5] . وقال في سورة طه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لذكري * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [6] . وقال في ص : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [7] .

فظهر بما ذكرنا : أنه تعالى لم يذكر في أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، فثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع ، فلهذا السبب قدم الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار ، فقال : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [8] .

* * *

الوجه الثالث في تقرير هذا الأصل :

إنه تعالى قال في أول سورة النحل : ﴿ ينزل الملائكة بالرّوحِ مِنْ

---

(1) سورة هود ، الآية : ١٣ .
(2) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .
(3) سورة الطور ، الآية : ٣٤ .
(4) سورة البقرة ، الآية : ٢٥ .
(5) سورة النجم ، الآية : ٣١ .
(6) سورة طه ، الآيتان : ١٤ — ١٥ .
(7) سورة ص ، الآية : ٢٨ .
(8) سورة محمد ، الآية : ١٩ .

أمره على مَنْ يَشَاء منْ عِبَادِه ان انْذِرُوا أنّه لا إله إلاّ أنا فاتّقُون ﴾ [1] .

فقوله : « لا إله إلا أنا» اشارة إلى علم الأصول . وقوله : « فاتقون» إشارة إلى علم الفروع .

* * *

الوجه الرابع :

إن موسى عليه السلام لما ادعى الرسالة عند فرعون قال له فرعون : ﴿ ومَا رَبُّ العَالَمينَ ﴾ [2] . يعني : أن رسالتك متفرعة على اثبات أن للعالم إلهاً ، فما الدليل عليه ؟ ثم إن موسى عليه السلام لم ينكر عليه هذا السؤال ، بل اشتغل بذكر الدلائل على وجود الصانع ، فقال : ﴿ ربّكُمْ وربّ آبائِكُم الأولين ﴾ [3] . فاستدل على وجود الصانع أولاً بأحوال نفسه ، وثانياً بأحوال آبائه . وهو نظير قوله في سورة البقرة : ﴿ اعبُدوا ربّكُمْ الّذي خلَقَكُم والذين منْ قَبْلِكُم ﴾ [4] .

فظهر بما ذكرنا من الوجوه الفائدة في أنه تعالى ذكر أولا قوله : ﴿ فاعْلمْ أنّه لا إله إلاّ الله ﴾ . وذكر ثانياً قوله : ﴿ واستَغْفِرْ لِذَنْبكَ ﴾ . والله أعلم بحقائق كتابه .. فهذا ما يتعلق بالدلائل القرآنية الدالة على وجوب تقديم علم الأصول على علم الفروع . ويؤكد هذا المعنى بعشر حجج أخرى :

الحجة الأولى : وهي أن شرف العلم بشرف المعلوم ، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف ، ولما كان أشرف المعلومات ذات الباري تعالى وصفاته ، وجب أن يكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم .

---

(1) سورة النحل ، الآية : ٢ .
(2) سورة الشعراء ، الآية : ٢٣ .
(3) سورة الشعراء ، الآية : ٢٦ .
(4) سورة الشعراء ، الآية : ٢١ .

الحجة الثانية : أن العلم إما أن يكون دينياً ، أو يكون غير ديني . ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني . وأما العلم الديني فأما أن يكون علم الأصول أو ما عداه . أما ما عداه على الأصول فإن صحته متوقفة على صحة علم الأصول . لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله تعالى ، وذلك فرع على معرفة الصانع المختار المتكلم . وأما المتحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ . وذلك فرع على اثبات نبوته . والفقيه يبحث عن أحكام الله تعالى ، وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوة . فثبت أن هذه العلوم مفسرة إلى علم الأصول . وظاهر أن علم الأصول غني عنها بأسرها ، فوجب أن يكون علم الأصول أشرف .

الحجة الثالثة : أن شرف الشيء قد يظهر بواسطة خساسة ضده ، فكلما كان ضده شيئاً أخس ، كان هو أشرف ، ولا شك أن ضد علم الأصول هو الكفر والبدعة ، وهما من أخس الأشياء ، فوجب أن يكون علم الأصول من أشرف العلوم .

الحجة الرابعة : أن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه ، وتارة لشدة الحاجة إليه ، وتارة لقوة براهينه ودلائله ، وذلك : أن علم الهيئة أشرف من علم الطب ، مع أن الحاجة إلى الطب أشد ، وعلم الحساب أشرف منهما ، من حيث أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب ، وأن كان علم الطب أشرف من حيث أن براهين هذا العلم أقوى ، وعلم الأصول مجتمع لهذه الخصال .

أما شرف هذا الموضوع فذلك لأن المبحوث عنه ذات الله تعالى وصفاته ، وقدرته وعظمته ، ولا شك في أنه أشرف ، وأما شدة الحاجة إليه فظاهر (وذلك) لأن الحاجة أما في الدين وأما في الدنيا .

أما في الدين فلأن من عرف هذه المطالب يستحق الثواب العظيم ، ويتخلص من العقاب الأليم ، ويصير من زمرة الملائكة المقربين ، في

جوار رب العالمين . ومن جهلها صار محروماً من الثواب العظيم ، مستوجباً للعقاب الأليم ، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين ، وبقي في دركات الضلالة أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

وأما في الدنيا فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثـواب ، والرهبـة من العقاب ، وإلا لوقـع الهرج والمـرج في العالم .

وأما قوة براهين هذا العلم فلأن براهينه مركبة من المقدمات البديهية الضرورية ، وهي أقوى العلوم والمعارف .. فثبت أن علم الأصول مستجمع خصال الشرف ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة الخامسة : أن هذا العلم لا يتطرق إليه النسخ والتغيير ولا يختلف باختلاف النواحي والأمم ، بخلاف سائر العلوم ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة السادسة : أن الإنسان لا يكون من أهل النجاة والدرجات إلا مع هذا العلم ، وقد يكون من أهل النجاة ، وان لم يعلم شيئاً من الفقه أصلا البتة . أما أنه لا بد في النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله البتة لا يكون من أهل النجاة بالإجماع . وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقه ، فلأن الانسان قبل البلوغ لا يكون مكلفاً بشيء من الأعمال . فإذا بلغ وقت الضحوة الكبرى ففي هذه الساعة لم يجب عليه شيء من الصلوات والزكوات والصيامات وسائر العبادات . فلو مات في هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد لقي الله مؤمناً حقاً . ولو قدرنا أن هذا الذي بلغ كان امرأة ، ثم لما بلغت حاضت ، وبقيت مدة أخرى في البلوغ ، وهي غير مكلفة لا بالصلاة ولا بالصيام ولا بالقراءة ، فإذا انقضى زمان حيضها وماتت فهي قد لقيت حضرة الله تعالى مؤمنـة حقاً . فعلمنا أن النجاة ، واستيجاب الدرجات ، لا يتوقف على الفقه ، وهو موقوف على علم الأصول .

الحجة السابعة : أن الآيات المشتملة على دلائل علم الأصول أشرف

من الآيات المشتملة على دلائل علم الفروع ، بدليل أنه قد جاء في فضيلة ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحَد ﴾ [1] . و ﴿ آمَنَ الرَّسُولَ ﴾ [2] وآية الكرسي ، و ﴿ شهِدَ الله ﴾ [3] . ما لم يجيء في فضيلة قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ [4] ، ﴿ وأحلّ اللهُ البيع ﴾ [5] ، ﴿ يا أيُّها الّذين آمنُوا إذا تداينتم بدينٍ ﴾ [6] الآية . ولذلك فان الزهاد والعباد يواظبون في شرائف الأوقات على قراءة هذه الآيات المشتملة على الالهيات ، دون الآيات المشتملة على الأحكام .

الحجة الثامنة : ان الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، وأما اللواتي في بيان التوحيد والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين ، وفي اثبات النبوات والمعاد ، ومسألة القضاء والقدر فكثيرة .

وأما الآيات الواردة في القصص منها اما التوحيد ، وأما النبوة ، أما التوحيد فهو : الاستدلال على قدرة الله وعظمته وحكمته ، كما قال : ﴿ لَقَدْ كانَ في قَصَصِهم عِبرة لأولي الألبابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ﴾ [7] . وأما على النبوة فمن وجهين .

الأول : بألفاظ مختلفة كما قال في سورة الشعراء بعد ذكر القصص : ﴿ وأنه لتنزيلُ ربِّ العَالمينَ * نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ المُنْذرين ﴾ [8] . ووجه الاستدلال : أنه عليه السلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يقرأ كتاباً ، ولم يتلمذ الأستاذ ، استحال منه رواية القصص إلا عن وحي الله وتنزيله .

والثاني : أنه يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة بألفاظ مختلفة ، وكل ذلك متشابهة في الفصاحة ، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة مرة واحدة بالألفاظ الفصيحة ، عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى

---

(١) سورة الاخلاص ، الآية : ١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣٢٢ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .
(٧) سورة يوسف ، الآية : ١١١ .
(٨) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٢ — ١٩٤ .

بالألفاظ الفصيحة ، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر . فدل (ذلك) على أن معظم القرآن في علم الأصول ، فلنشر إلى معاني الدلائل .

أما دلائل التوحيد فتارة بإنخلاق الإنسان من النطفة ، والله تعالى ذكر هذا الدليل من ثمانين مرة في القرآن . وتارة بدلائل الآفاق ، وهي أحوال الأرض والسماء والهواء والنبات ، وهي أظهر من أن تحتاج إلى الشرح .

وأما الدلائل الدالة على الصفات فنقول : أما الذي يدل على العلم فقوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يخفى عَلَيْهِ شيءٌ في الأرض ولاَ في السَّماء ﴾ [١] . ثم أردفه بقوله : ﴿ هُوَ الَّذي يُصَوِّرُكُمْ في الأرحامِ كيْفَ يشَاء ﴾ [٢] . وهذا دليل المتكلمين ، فانهم يستدلون بأحكام الأفعال واتقانها على علم الفاعل ، وههنا استدل سبحانه بتصوير الصور في ظلمات الأرحام على كون الفاعل عالماً .

وقال أيضاً : ﴿ الا يعلمُ مَنْ خلَقَ وهُوَ اللَّطيفُ الخبير ﴾ [٣] . وهو غني عن تلك الدلالة . وقال : ﴿ وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمُها إلا هُوَ ﴾ [٤] . وهذا التنبيه للدلالة على كونه تعالى عالماً بكل المعلومات ، لأنه تعالى يخبر عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر ، وذلك يدل على كونه عالماً بكل المغيبات .

وأما صفة القدرة فكل ما ذكر الله تعالى في القرآن من الثمرات المختلفة ، والحيوانات المختلفة ، مع استواء تأثير الطبائع والأفلاك ، فانه يدل على صفة القدرة . وسيجيء الاستقصاء في هذه الدلائل القرآنية .

الحجة التاسعة : أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلائل ، ولنذكر ما ينبه على المقصود .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٥ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٦ .
(٣) سورة الملك ، الآية : ١٤ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩ .

أما الملائكة عليهم السلام فإنهم لما قالوا : ﴿ أتجعلُ فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدّماء ﴾ [1] . فكان المراد من خلق هؤلاء ليكونوا سبب الشر والفتنة ، وذلك قبيح ، والحكيم لا يفعل القبيح ، فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ إني أعلمُ ما لا تعلمُونَ ﴾ [2] . والمعنى والله أعلم : إني لما كنت عالماً بكل المعلومات ، كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم حكمة لا تعلمونها أنتم . فلما سمعوا ذلك سكتوا .

وأما مناظرة الله مع إبليس فالقرآن ناطق بها .

وأما الأنبياء عليهم السلام فأولهم آدم عليه السلام ، وقد أظهر الله تعالى الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة ، وذلك محض الاستدلال .

وأما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ [3] . ومعلوم أن مجادلة الرسول مع الكفار لا تكون في تفاصيل الأحكام الشرعية ، فلم يبق إلا أنها في التوحيد والنبوة . وأيضاً فإنه عليه السلام لما أمرهم بالاستغفار في قوله : ﴿ استغفروا ربّكم أنّه كان غفّاراً ﴾ [4] . ففي الحال ذكر ما يدل على التوحيد فقال : ﴿ ألمْ تروا كيفَ خلَقَ الله سبْع سَمَوات طِباقاً * وجعَلَ القمَرَ فيهن نُوراً وجعَلَ الشمس سِراجاً ﴾ [5] .

وأما إبراهيم عليه السلام فالاستقصاء في شرح أحواله يطول في هذا الباب ، وله مقامات :

أولها : مع نفسه ، وهو قوله : ﴿ فلمّا جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً قَالَ هذا ربي ﴾ [6] . إلى آخر الآية . فهذه طريقة المتكلمين . فإنه استدل بأفولها على حدوثها ، ثم استدل بحدوثها على وجود محدثها ، كما أخبر الله

---

(١) و(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .
(٣) سورة هود ، الآية : ٣٢ .
(٤) سورة نوح ، الآية : ١٠ .
(٥) سورة نوح ، الآيتان : ١٥ – ١٦ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية : ٧٦ .

تعالى بقوله : ﴿ يا قوم إني بريء مما تُشركون * إنّي وجهتُ وجهي للذي فطر السّموات والأرض حنيفاً ﴾ (١) . ثم إن الله تعالى عظم شأنه بسبب ذلك فقال : ﴿ وتلك حجتنا اتيناها إبراهيم على قومه * نرفع درجات من نشاء ﴾ (٢) . وأيضاً ذكر في وقت دعائه ما هو محض الاستدلال ، وهو قوله : ﴿ الّذي خلقني فهو يهدين * والّذي هُو يُطعمني ويسقين ﴾ (٣) . إلى آخر الآيات .

وثانيها : مناظرة إبراهيم مع أبيه ، وهي قوله : ﴿ يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبصر ولا يغني عَنْكَ شيئاً ﴾ (٤) . إلى آخر الآيات .

وثالثها : حاله مع قومه ، تارة بالقول ، وأخرى بالفعل . أما القول فقوله : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكِفُونَ ﴾ (٥) . وأما بالفعل فقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُم جِذَاذاً إلاّ كَبيراً لَهُمْ لعلّهُمْ إليْهِ يرجعُون ﴾ (٦) .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه ، حيث قال : ﴿ ربّي الّذي يُحيي ويُميت ﴾ (٧) . إلى آخر الآية . فهذا كل مباحثة إبراهيم عليه السلام في معرفة المبدأ .

وأما بحثه في معرفة المعاد فهو كقوله : ﴿ ربِّ ارني كيف تحيي الموتى ﴾ (٨) . إلى آخر الآية .

واعلم أن موسى عليه السلام كان يقول في الاستدلال على طريقة دلائل إبراهيم . وذلك أنه حكى في سورة طه أن فرعون قال له ولهارون :

---

(١) سورة الأنعام ، الآيتان : ٧٨-٧٩ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٨٣ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ٧٧-٧٩ .
(٤) سورة مريم ، الآية : ٤٢ .
(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٢ .
(٦) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٨ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .
(٨) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٠ .

﴿ فَمَنْ ربكما يا موسى ﴾ [1] . فرد بقوله : ﴿ ربنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى ﴾ [2] . وهذا هو الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ الّذي خلقني فهو يهدين ﴾ [3] . ثم حكى الله تعالى عن موسى في سورة الشعراء انه قال لفرعون : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأوّلين ﴾ [4] . وهذا هو الذي عول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ ربي الّذي يحيي ويميت ﴾ [5] . فلما لم يكتف فرعون بذلك ، وطالبه بدليل آخر ، قال موسى : ﴿ ربّ المشرق والمغرب ﴾ [6] وهذا هو الذي عول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿ فإنّ اللهَ يأتي بالشمس مِنَ المشرق فأتِ بها مِنَ المغربِ ﴾ [7] .

وهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام . ثم ان موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلائل التوحيد قال : ﴿ أو لوْ جئتك بشيء مبين ﴾ [8] . وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما فرع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة .

وأما سليمان عليه السلام فله مقامان : أحدهما في بيان إثبات التوحيد ، والآخر في إثبات النبوة .

أما المقام الأول في إثبات التوحيد فهو في قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السّموات والأرض ويعلم ما تخفونَ وما تعلنونَ ﴾ [9] . وهذه الآية دالة على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم . أما القدرة فقوله : ﴿ الاّ يسجدُوا لله الّذي يخرجُ الخبء في السّموات والأرض ﴾ ، وسمى الخبء بالمصدر ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق ، واخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات ، وتقريره ما قدمناه . وأما العلم فيدل على ثبوته قوله : ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٤٩ .
(٢) سورة طه ، الآية : ٥٠ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية : ٧٨ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٦ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .
(٦) سورة الشعراء ، الآية : ٢٨ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .
(٨) سورة الشعراء ، الآية : ٣٠ .
(٩) سورة النمل ، الآية : ٢٥ .

واعلم ان المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس ، وتخليص الدلالة على قانون الجدل على وجهين : الأول : الاله . ويجب أن يكون قادراً على إخراج الخبء ، ويكون عالماً بالخفيات ، والشمس ليست كذلك ، فهي لا تكون إلهاً . أما انه سبحانه يجب أن يكون قادراً عالماً على الوجه المذكور ، فكما أنه واجب الوجود لذاته ، فلا تختص قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض . وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه ، وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات . وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن تكون الشمس قادرة على إخراج الخبء وعالمة بالخفيات . وإذا لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضاد فهي ليست إلهاً فرجع حاصل هذا الدليل إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ ولاَ يُغني عَنْكَ شَيْئاً ﴾ (١) .

الوجه الثاني : أن هذا اشارة إلى دليل لإبراهيم في قوله : ﴿ ربّي الّذي يُحيي ويُميت ﴾ (٢) . إلى آخر الآية . وبيانه : أنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق إلى المغرب بعد أفولها ، فهذا هو المراد بإخراج الخبء في السموات والأرض ، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ لا أُحبُّ الآفِلين ﴾ (٣) . ومن قوله : ﴿ فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ (٤) . ومن قول موسى : ﴿ ربُّ المشرق والمغرب ﴾ (٥) .

وحاصل الكلام رجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر ، فكانت العبادة لقاهرها ومدبرها ، والمتصرف فيها أحق .

وأما إخراج الخبء من الأرض فالمراد منه : اخراج النطفة من بين الصلب والترائب ، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربّي الذي يحيي ويميت ﴾ .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٤٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٧٦ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية : ٢٨ .

ومن قول موسى عليه السلام : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[1]

فإن قيل : إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلائل النفس على دلائل الأفلاك . فإن إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ . ثم قال : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ﴾ . وموسى عليه السلام قال : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ . ثم قال : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ . ثم عكس سليمان هذا الترتيب . فقدم دلائل السموات على دلائل النفس فقال : ﴿ الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ [2] .

فاعلم أن موسى وإبراهيم عليهما السلام كانت مناظرتهما مع من ادعى إلهية البشر . فإن نمروذ وفرعون كل واحد منهما كان يدعي الإلهية ، فلا جرم ابتدأ ابراهيم وموسى بإبطال الالهية للبشر ، ثم انتقلا إلى إبطال الالهية للأفلاك . وأما سليمان عليه السلام فإنه كانت مناظرته مع من يدعي إلهية الشمس . فإن الهدهد قال : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ [3] . فلا جرم ابتدأ بذكر السموات ، ثم ذكر الأرضيات .

ثم إن سليمان عليه السلام لما تمم دلائل التوحيد قال بعدها : ﴿ لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ [4] . والمراد : أنه لما بين افتقار السموات والأرض وسائر الأفلاك إلى مدبر خالق . ذكر بعد ذلك أن كل ما كان جسماً فهو مخلوق ومربوب . سواء كان عظيماً أو صغيراً ، فقال : ﴿ لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ . فهذا مقام سليمان عليه السلام في تقرير دلائل التوحيد .

وأما المقام الثاني الذي هو في تقرير دلائل النبوة فهو قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢٦ .
(٢) سورة النمل ، الآية : ٤٢ .
(٣) سورة النمل ، الآية : ٢٤.
(٤) سورة النمل ، الآية : ٢٦ .

مقامك . وإنِّي عليْه لقويٌ أمين * قال الذي عنده علمٌ منَ الكِتاب أنا آتيك به قَبل أن يرتدّ طرفك * فلمّا رآه مُستقرّاً عنده قالَ هـَذا مِنْ فَضل ربّي ليبلوني أأشكر أمْ أكفر ﴾ (١) .

واعلم أن كثيراً من الناس قالوا : ذلك الشخص الذي قال : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ هو غير سليمان ، وظنوا أن الكاف في قوله : « آتيك » خطاب مع سليمان . وعلى هذا التقدير لا بد وأن يكون القائل غير سليمان .. إلا أن هذا ضعيف ، بل الصحيح عندنا : أن الآتي بذلك العرش هو سليمان . وذلك أنه عليه السلام قال : « أيكم يأتيني بعرشها » على سبيل التحدي . فقال العفريت : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » . فقال سليمان عليه السلام للعفريت : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » . فهذا الكلام قاله سليمان للعفريت تقريراً لتحديه الذي ذكره أولاً ، وكسراً للعفريت ، وإظهاراً للمعجزة .

والذي يدل عليه وجوه :

الأول : أن سليمان عليه السلام ذكر دلائل التوحيد أولاً ، ثم افتقر بعد ذلك إلى تقرير دلائل النبوة ، ومع بلقيس فإن سليمان قد كلفها الاقرار بالتوحيد والنبوة ، فلما ذكر دلائل التوحيد وجب عليه أن يذكر بعد ذلك دلائل النبوة ، وهذا معجز دال على النبوة ، فوجب جعله معجزاً لسليمان عليه السلام حتى يتم الدليل .

الثاني : أن لفظة « الذي » موضوعة في اللغة للاشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفها بقصة معلومة ، والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ فَفَهمْناها سُلَيْمان ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمان داوود ﴾ (٣) . فوجب

---

(١) سورة النمل ، الآيات : ٣٨ — ٤٠ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٧٩ .
(٣) سورة النمل ، الآية : ١٦ .

انصرافه إليه . وأقصى ما في الباب : ان آصف أيضاً كان عالماً بالكتاب ، إلا أن سليمان كان أعرف من آصف ، لأن الرسول أعرف بكلام الله من غيره ، فكان صرف اللفظ إلى سليمان أولى .

الثالث : ان احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصل لآصف دون سليمان لاقتضي ذلك تفضيل آصف على سليمان ، وانه غير جائز .

الرابع : ان سليمان لو افتقر في هذا الغرض إلى آصف لاقتضي قصور سليمان في أعين الخلق .

الخامس : ان سليمان قال : ﴿ هذا مِنْ فَضل ربّي ليبلوني أأشكر أمْ أكْفرُ ﴾ [1] . وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان .. فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان عليه السلام بتقرير التوحيد والنبوة ، والله أعلم .

وأما عيسى عليه السلام فانه أول ما تكلم شرح أمر التوحيد ، فقال : ﴿ إنّي عَبْدُ الله ﴾ [2] . وشهادة حاله دالة على صدق مقالته ، وهذه الكلمة الواحدة كانت جامعة لكل المقاصد .

أما دلالتها على التوحيد فان انطاق الطفل في زمان الطفولية لا يتأتى إلا من الإله القادر على كل المقدورات . وأما دلالتها على النبوة ففي دلالتها على براءة أمه من طعن اليهود ، فإنه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية ، والدرجة الشريفة .. ثم انه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض انتقل إلى بيان الشرائع فقال : ﴿ أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ [3] .

وأما محمد ﷺ فاعلم ان اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج فيه إلى مزيد تقرير . وذلك أنه ﷺ كان مبتلي بالرد على جميع فرق الكفار :

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٤٠ .
(٢) و(٣) سورة مريم ، الآية : ٣٠ .

فالأول : الدهرية ، الذين كانوا يقولون : ﴿ وما يُهلِكُنا إلاّ الدّهرُ ﴾ [1] . والله تعالى أبطل قولهم ، فانه خالق الدهر والزمان .

والثاني : الذين ينكرون القادر المختار [2] ، والله تعالى أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات ، وأصناف الحيوانات ، مع اشتراك الكل في تأثير الطبائع والأفلاك .

والثالث : الذين أثبتوا شريكاً مع الله ، وذلك الشريك أما أن يكون علوياً أو سفلياً .

أما الشريك العلوي فمنهم من أثبت أن ذلك الشريك هو الكوكب ، والشمس والقمر ، والله تعالى أبطله بدليل الخليل ، وهو قوله : ﴿ لا أحبُّ الآفِلين ﴾ [3] . ومنهم من قال : هو النور والظلمة ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ الحمدُ لله الّذي خلَقَ السّموات والأرْضَ وجعَلَ الظّلماتِ والنُّور ﴾ [4] . ومنهم من قال : يزدان واهرمن [5] ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ لوْ كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ اللهُ لفسدتَا ﴾ [6] . وبقوله : ﴿ إذاً لأبتغوا إلى ذي العرش سَبيلاً ﴾ [7] . وبقوله : ﴿ ولَعَلا بَعْضُهُم عَلى بَعْضٍ ﴾ [8] .

وأما الشريك السفلي فمنهم من قال بآلهية المسيح ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ لن يَستَنْكِفَ المسيحُ انْ يكُونَ عبْداً لله ﴾ [9] . ومنهم من قال : انه الوثن ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ أفمن يخلُقُ كمَنْ لاَ يخْلُقُ ﴾ [10] .

والرابع : الذين طعنوا في أصل النبوة ، وحكى الله تعالى عنهم قولهم :

---

(١) سورة الجاثية : الآية : ٢٤ .
(٢) وهم الذين يقولون بالصدفة ، وينكرون التدبير والأحكام ، ومن ثم ينكرون الخالق .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٧٦ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١ .
(٥) وهما إله الخير والشر عند الفرس .
(٦) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .
(٧) سورة الإسراء ، الآية : ٤٢ .
(٨) سورة المؤمنون ، الآية : ٩١ .
(٩) سورة النساء ، الآية : ١٧٢ .
(١٠) سورة النحل ، الآية : ١٧ .

أبعثَ اللهُ بَشَراً رسُولاً ﴾ [1] . ثم رد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أهُمْ يَقْسمونَ رحْمَةَ ربّك ﴾ [2] .

والخامس : الذين طعنوا في التكليف ، تارة بأنه لا فائدة فيه ، والله تعالى رد عليهم بقوله : ﴿ إنْ أحْسَنْتُمْ أحْسَنْتُم لأنفُسِكُم وإنْ أسأتُم فَلَهَا ﴾ [3] . وتارة أخرى بأن الحق هو الجبر ، وهو لا ينافي صحة التكليف ، والله تعالى أجاب عنه بقوله : ﴿ لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْئَلُون ﴾ [4] .

والسادس : الذين سلموا أصل النبوة ، وطعنوا في نبوة محمد ﷺ ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

ثم أن طعنهم كان من وجوه : تارة بالطعن في القرآن ، من حيث أنه مشتمل على ذكر خسائس الحيوانات ، من البعوضة والنملة والذبابة ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَسْتَحي أنْ يَضْرب مَثَلاً مَا بَعُوضةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [5] . وتارة بأن القرآن سحر وشعر ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ فأتُوا بسُورةٍ منْ مِثْلِه ﴾ [6] . وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله تعالى : ﴿ وقَالُوا لَنْ نُؤمنَ لَكَ حتّى تَفْجرَ لَنَا منَ الأرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ [7] . فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رسُولاً ﴾ [8] . وذلك أن الدليل لما تم لم يبق للاقتراح في الزيادات فائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ سُبْحانَ ربِي هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رسُولاً ﴾ [9] . وتارة بأن هذا القرآن نزل نجماً نجماً بطريق التهمة ، فأجاب الله بقوله : ﴿ كَذلكَ لِنُثَبّتَ به فُؤادَكَ ﴾ [10] . وتارة بأنه يحتمل أن يكون هذا القرآن من القاء الجن والشياطين ، كما

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٩٤ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٣٢ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية : ٧ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٣ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .
(٧) سورة الاسراء ، الآية : ٩٠ .
(٨) سورة الاسراء ، الآية : ٩٣ .
(٩) سورة الاسراء ، الآية : ٩٣ .
(١٠) سورة الفرقان ، الآية : ٣٢ .

في سورة الشعراء ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [1] .

والسابع : الذين أنكروا الحشر والنشر ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

فثبت بما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الأنبياء عليهم السلام .

الحجة العاشرة على نهاية شرف هذا العلم : قوله تعالى : ﴿ أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [2] . وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرائع ، لأن من أنكر نبوته فلا فائدة من الخوض معه في تفاريع الأحكام ، ومن أثبت نبوته فلا يخالفه . فعلمنا بهذا أن الجدال المأمور به في تقرير دلائل الأصول. فإذا ثبت هذا في حق الرسول ثبت في حق أمته ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [3] . ولقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [4] . وقوله عليه السلام : « عليكُم بسُنَّتي وسنَّة الخلفاء من بعدي » [5] .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [6] . وذلك يقتضي أن الجدال مع العلم لا يكون مذموماً . وأيضاً حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [7] .

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢٢١ ، ٢٢٢ .
(٢) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .
(٥) أخرجه أبو داود في السنة . عن عمران بن حصين .
(٦) سورة الحج ، الآية : ٨ .
(٧) سورة هود ، الآية : ٣٢ .

ومن المعلوم أن ذلك الجدال كان في تقدير دلائل الأصول . وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدال في تقرير الدلائل مستحسن ، ثبت أن المراد من قوله تعالى : ﴿ ما ضَرَبوه لكَ إلاَّ جَدَلاً ، بلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (1) . محمول على ذم الجدال في تقرير الباطل .

الحجة الثانية عشرة : أنه تعالى أمر بالنظر ، فقال : ﴿ أفلاَ يتدَبّرونَ القُرآنَ ﴾ (2) . ﴿ أفلاَ يَنْظرونَ إلى الإبلِ كيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (3) . ﴿ سنريهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم ﴾ (4) . ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا إنّا نأتي الأرضَ نَنْقُصها منْ أطْرافها ﴾ (5) . ﴿ أوَلمْ ينْظروا في مَلَكوت السّموات والأرض ﴾ (6) .

الحجة الثالثة عشرة : أنه تعالى ذكر التفكر في معرض المدح فقال : ﴿ إنَّ في ذلك لذكْرى لأولي الألباب ﴾ (7) . ﴿ إنَّ في ذلكَ لَعِبْرة لأولي الأبصار ﴾ (8) . وأيضاً ذم المعرضين فقال : ﴿ وكأيّنَ منْ آيةٍ في السّموات والأرض يَمُرُّونَ عليْها وهُمْ عنْها مُعْرِضونَ ﴾ (9) . ﴿ ولَهُمْ قُلُوبٌ لا يفْقَهُونَ بها ﴾ (10) .

الحجة الرابعة عشرة : أنه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار : ﴿ إنّا وجَدْنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مُقْتدونَ ﴾ (11) . وقال : ﴿ بَلْ نَتّبعُ ما ألْفَيْنا عليْه آباءنا ﴾ (12) . ﴿ بلْ وجدْنا آباءنا كذَلكَ يفْعَلُونَ ﴾ (13) . وقال : ﴿ إنْ كادَ لَيُضلّنا عنْ آلهتنا لوْلا أنْ صبرْنا عليْها ﴾ (14) . وقال في والد ابراهيم عليه السلام : ﴿ لَئِنْ لَمْ تنْته لأرْجُمنّك واهْجُرني مَلِيّاً ﴾ (15) . وكل ذلك يدل على وجوب النظر وفساد التقليد .

---

(1) سورة الزخرف ، الآية : ٥٨ .
(2) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .
(3) سورة الغاشية ، الآية : ١٧ .
(4) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .
(5) سورة الرعد ، الآية : ٤١ .
(6) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(7) سورة الزمر ، الآية : ٢١ .
(8) سورة آل عمران ، الآية : ١٣ .
(9) سورة يوسف ، الآية : ١٠٥ .
(10) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .
(11) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣ .
(12) سورة البقرة ، الآية : ١٧٠ .
(13) سورة الشعراء ، الآية : ٧٤ .
(14) سورة الفرقان ، الآية : ٤٢ .
(15) سورة مريم ، الآية : ٤٦ .

الحجة الخامسة عشرة : إنه تعالى حكى أنهم سألوا محمداً ﷺ عن أمور ، كقوله : ﴿ ويسألونكَ عنِ المحيض ﴾ [1] . ﴿ يسألونكَ عن الأنفال ﴾ [2] .. فذكر في هذه المواضع كذا وكذا ، إلا في آية واحدة وهي أنهم سألوه عن مسألة أصولية ، وهي قوله : ﴿ويسألونك عنِ الجبالِ فقُلْ ينسِفها ربّي نسْفاً ﴾ [3] . الآية . فههنا حرف التعقيب . يعني : يا محمد ، اذكر هذا الجواب في الحال ، لأن هذه المسألة أصولية ، ولا يجوز تأخير الجواب عنها ، لأن ذلك يقدح في الايمان ، أما سائر المسائل فإنها فروعية ، فلا يكون تأخير الجواب عنها إلى وقت الحاجة ضاراً .

فثبت بجميع هذه الدلائل وجوب تقديم الأصول على الفروع ، فلا جرم . قال الله تعالى : ﴿ فاعلَمْ أنّهُ لا إلَهَ إلاّ اللهُ واستغفِرْ لِذَنْبكَ وللمؤمنينَ والمؤمنات ﴾ [4] . فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والله أعلم .

* * *

---

(1) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .
(2) سورة الأنفال ، الآية : ١ .
(3) سورة طه ، الآية : ١٠٥ .
(4) سورة محمد ، الآية : ١٩ .

الفصل الثاني

في

فوائد كلمة لا إله إلا ألله

الفضيلة الأولى :

اعلم أن هذا الذكر لما كان من أفضل الاذكار فالعدو لما جاءته المحنة فزع اليه ، والولي لما جاءته المحنة فزع اليه .

أما العدو ، فإن فرعون لما قرب من الغرق قال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّه لا إله إلا الَّذي آمَنَتْ به بَنُو إسْرائيلَ ﴾[1] . والمعنى : أنه لا إله يقدر أن يجعل النار راحة كما في حق إبراهيم ، ولا الماء عذاباً كما في حق فرعون ، إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل .

وأما الولي ، فكما في حق يونس . قال الله تعالى : ﴿ فَنَادى في الظُّلُمات أنْ لا إلَه إلاَّ أنْتَ سُبْحانك إنِّي كُنْتُ منَ الظَّالمينَ ﴾[2] والمعنى : لا إله إلا أنت ، فإنك أنت الذي تقدر على حفظ الانسان حياً في بطن الحوت ، ولا قدرة لغيرك على هذا الحال .

فإن قيل : كل واحد منهما نادى ، فلماذا قبل نداء أحدهما ولم يقبل نداء الآخر ؟ .

قلنا : الفرق من وجوه :

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٧ .

الأول : أن يونس عليه السلام كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة ، فسبق المعرفة إعانة على قبولها منه ، وأما فرعون فقد تقدم له سبق الكفر ، وذلك لأن الذي تقدم له هو النداء إلى نفسه كما قال تعالى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى * فقالَ أنَا ربُّكُمُ الأعْلَى ﴾ [1] . وأما يونس عليه السلام فقد كان ينادي الله . قال تعالى : ﴿ ولاَ تكُنْ كصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نادَى وهُوَ مَكْظُوم ﴾ [2] . وأيضاً قال : ﴿ فلَوْلا أنّه كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ * لَلَبِثَ في بَطْنه إلى يوْم يُبْعَثُون ﴾ [3] . وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات ، يحفظه الله في الفلوات .

الثاني : أن يونس عليه السلام إنما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال : (لا إله إلا أنت) . فكان في الحضور والشهود . وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة ، فقال : (آمنت أنه لا إله لا الذي آمنت به بنو إسرائيل) فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير .

الثالث : أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد لبني إسرائيل ، فقال : ﴿ آمنْتُ أنّه لا إله إلا الذي آمَنَتْ به بنو إسْرائيل ﴾ [4] . وأما يونس عليه السلام فإنه إنما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز والانكسار بسبب تلك الكلمات ، ثم قال بعده : ﴿ سُبْحانكَ إنّي كُنْتُ من الظّالمينَ ﴾ [5] . فحصل له العجز والانكسار بسبب الذلة ، فلما كانت هذه مسبوقة بالعجز والانكسار ملحوقة بهما لا جرم صارت مقبولة ، لقوله تعالى : ﴿ أمّنْ يُجيبُ المضْطَرّ إذا دعَاه ﴾ [6] .

الرابع : أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لا للعبودية ، بل لطلب الخلاص من الغرق ، بدليل قوله : ﴿ حتّى إذا أدْركَهُ الغَرقُ قالَ آمنْتُ ﴾ [7] . وأما يونس عليه السلام فهو إنما قالها لما حصل له من

---

(1) سورة النازعات ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(2) سورة القلم ، الآية : ٤٨ .
(3) سورة الصافات ، الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ .
(4) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .
(5) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٧ .
(6) سورة النمل ، الآية : ٦٢ .
(7) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .

الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية ، بدليل قوله بعده : ﴿ سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

* * *

الفضيلة الثانية لهذه الكلمة :

إنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة ، من الصلاة والصيام والحج ، ويستحيل أن يوافقك الله في شيء منها ، ثم أمرك أن تقول : لا إله إلا الله ، ثم إن الله يوافقك فيها فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [1]

والمقصود من التكرير [2] وجهان : أن يكون العبد مواظباً على تكريرها طول عمره . الثاني : كأنه قال : عبدي ، جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها ، فاجعلها أنت أيضاً أول عمرك وآخره ، حتى تفوز بالنجاة والسلامة .

وههنا نكت :

الأولى : أنه جعلك ثالث نفسه [3] في هذه الآية ، وكفاك هذا فخراً .

الثانية : روي أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيراً ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تتخذ فلاناً وزيراً لك . فنظر إليه يوسف عليه السلام ، وكان الرجل في غاية الدناءة ، فسأل جبريل عن السبب ، فقال : إن له عليك حق الشهادة : إنه هو الذي شهد ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ﴾ [4] . الآية . والاشارة : أن من

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .
(٢) يعني تكرير « لا إله إلا هو » في نفس الآية .
(٣) الثلاثة هم : الله سبحانه وتعالى ، والملائكة ، وأولو العلم .
(٤) سورة يوسف ، الآية : ٢٦ .

شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا ، فمن شهد لله بالتوحيد والجلال كيف لا يجد معرفته ورحمته في العقبى .

والثالثة : في الحديث : « أنّ لله ملائكة يُؤمّنُون عنْد تأمين الامام، فمَن وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه » [1] . والاشارة : أن من وافق تأمينه تأمين الملائكة مرة صار مغفوراً له ، فمن وافقت شهادته وجدانية الله شهادة الله ألف مرة أولى أن يصير مغفوراً له .

الرابعة : أنه سبحانه سماك وقت التخليق مختاراً ، فقال : ﴿ وربك يخْلُقُ ما يشاء ويَخْتار ﴾[2] . أي مختاراً له ، لا أنه أثبت الخيار للعبد، وفي موضع الذنب سماه جاهلا فقال : ﴿ إنّه كانَ ظَلُوماً جَهُولا ﴾[3] . وفي موضع الرزق سماه دابة فقال : ﴿ وما منْ دابّةٍ في الأرضِ إلاّ على الله رِزْقُها ﴾ [4] . وفي وقت الطاعة سماه أجيراً : ﴿ فيُوفّيهم أُجورَهُم ﴾ [5] . وعند الشهادة عالماً : ﴿ والملائكة وأولوا العِلْم ﴾ [6] . ثم ان العلم أفضل الدرجات : ﴿ وعلّمكَ ما لَمْ تَكُنْ تعْلمُ ، وكان فضْلُ اللهِ عليْك عظيماً ﴾ [7] .

والغرض منه : التنبيه على الدرجات . فأنت من حيث أني خلقتك مختاري ، فلك درجة موسى حيث قلت : ﴿ وأنَا اخْتَرتُكَ ﴾ [8] . وحين أذنبت فأنت جاهل ، والجهل عذر من بعض الوجوه، وحين تشتغل بطلب الرزق كالبهيمة ، لأنه هو الذي تكفل برزقك ، فما هو مقدور لك يصل اليك ، وما ليس مقدوراً لك لا يصل اليك ، فكأن الطلب عديم الفائدة ، فكان هذا شبيه أفعال البهائم ، وحين تشتغل بالعمل كنت كالأجير . وتلك كلها درجات نازلة ، أما حين تشتغل بالشهادة

---

(١) أخرجه الطبراني ، عن واثلة بن الأسقع وغيره .
(٢) سورة القصص ، الآية : ٦٨ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .
(٤) سورة هود ، الآية : ٦ .
(٥) سورة النساء ، الآية : ١٧٣ .
(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .
(٧) سورة النساء ، الآية : ١١٣ .
(٨) سورة طه ، الآية : ١٣ .

والتوحيد فأنت من العلماء الخائضين في لجة بحر التوحيد . وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف ، كما قال تعالى : ﴿ يَرْفعِ اللهُ الّذينَ آمنُوا مِنْكُم والّذينَ أوتُوا العِلْمَ درَجاتٍ ﴾ [1] .

الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ ومَا تِلكَ بيَمينكَ يا مُوسى ﴾ [2] . وقعت هذه الاشارة على العصا وعلى اليد ، أما العصا فقوله : « **تلك** » وأما اليد فقوله : « بيمينك » . فصارت العصا من قوة هذه الكلمة تلقف حبال السحرة وعصيهم ، وصارت اليد يداً بيضاء ﴿ وادْخِلْ يدَكَ في جيْبكَ تَخْرُجُ بيْضاء منْ غيْر سُوء ﴾ [3] . وكلمة لا إله إلا الله ، وهي صفة وحدانيته وفردانيته في ذاته وجلاله وعزته ، ألا تستقل بإفناء آثار العصيان عن قلب العبد ، وإنارة روحه بنور المعرفة والهداية ؟ .

السادسة : عصا موسى أخرجت من الجنة ، فبطل السحر عندها ، فهذه الكلمة إنما ظهرت من شجرة العزة والربوبية والعظمة ، ونرجو أن تبطل الذنوب عندها .

السابعة : حكى عن الحجاج أنه أمر بضرب عنق رجل ، فقال : لا تقتلني حتى تأخذ بيدي وتمشي معي . فأجابه اليه ، فقال الرجل : بحرمة صحبتي معك في هذه الساعة لا تقتلني . فعفا عنه ، فههنا وقعت للمؤمن صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة ، فنرجو أن يغفر الله له .

الثامنة : وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة ابراهيم ، وهو قوله : ﴿ مِلّةَ أبيكُم إبْراهيمَ ﴾ [4] . وأمومة أزواج النبي ﷺ ﴿ وأزْواجه أمّهاتُهُمْ ﴾ [5] . وأخوة المؤمنين : ﴿ إنّمَا المُؤمِنونَ إخْوةٌ ﴾ [6] واستغفار الأنبياء : ﴿ واسْتغْفِرْ لذنْبكَ وللمؤمنينَ والمُؤمنات ﴾ [7] . واستغفار الملائكة : ﴿ ويستّغفرونَ للّذينَ آمنُوا ﴾ [8] . وشفيعاً مثل

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ١١ .
(٢) سورة طه ، الآية : ١٧ .
(٣) سورة النمل ، الآية : ١٢ .
(٤) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .
(٥) سورة الأحزاب ، الآية : ٦ .
(٦) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .
(٧) سورة محمد ، الآية : ١٩ .
(٨) سورة المؤمن ، الآية : ٧ .

محمد ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أُمتي » [1] . ومشاركة الله تعالى في الاسم « المؤمن » . فذنبه ما أزال عنه هذه التشريفات ، افترى أنه يخرجه عن رحمة أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين .

التاسعة : يحكى أنه عرض على نصر بن أحمد عسكره ، وكان يسأل عن أسماء الرجال فيجيبونه ، فسأل واحداً عن اسمه فسكت ، لأنه كان سميه ، ففطن لذلك ، فأعطاه خلعة ، فإذا كان حال سمي الملك ذلك ، فكيف من كان سمي ربه تعالى « المؤمن » .

* * *

الفضيلة الثالثة لهذه الكلمة :

إن كل طاعة فإنه يصعد بها الملك ، أما قول لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه ، ودليله قوله تعالى : ﴿ إليْه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطّيِّبُ والعمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [2] . أي : عمل الصالح ترفعه الملائكة . هكذا قال بعضهم [3] .

* * *

الفضيلة الرابعة :

قال بعضهم : الحكمة في قوله تعالى : ﴿ إذا الشّمْسُ كُوِّرَتْ * وإذا النُّجومُ انْكدَرَتْ ﴾ [4] . أن يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا الله ، فينمحق في ذلك النور نور الشمس والقمر ، لأن تلك الأنوار مجازية ، ونور لا إله إلا الله نور ذاتي واجب الوجود لذاته ، والمجاز يبطل في مقابلة الحقيقة ، فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٢) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .
(٣) انظر الدر المفقود ، ج ٣/ ص ٩٥ .
(٤) سورة التكوير ، الآيتان ، ١ ، ٢ .

النور ، بل يبطل كل وجود في مقابلة هذا الوجود ، كما قال : ﴿ كلُّ شيءٍ هَالكٌ إلاَّ وجْهَهُ ﴾ [1] .

* * *

الفضيلة الخامسة :

إن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحج ، فإن التكاليف الظاهرة تزول في عالم الغيب ، أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم ، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على أنهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد تدل على المواظبة على الذكر التوحيد . وإنما قلنا : انهم مواظبون على الحمد لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وقالُوا الحمْدُ لله الّذي صَدَقَنا وعْدَهُ ﴾ [2] . ﴿ دعْواهُم فيها سُبْحانَكَ اللهمَّ وتَحيّتُهُم فيهَا سلامٌ ، وآخرُ دعْواهُم أنِ الحمْدُ لله ربِّ العَالمينَ ﴾ [3] . ﴿ لا إلَه إلاَّ هو ، لَهُ الحمْدُ في الأولى والآخِرة ﴾ [4] . فثبت أنهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد مواظبة على الذكر ، فعلمنا أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد .

* * *

الفضيلة السادسة :

ما روي في الآثار أنه قال : « إذا قال العبد : لا إله إلا الله ، فإنه تعالى يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض » [5] . قال المحققون : السبب في ذلك أنه لما قال هذه الكلمة ، فإنه قد رد على

---

(1) سورة القصص ، الآية : ٨٨ .
(2) سورة الزمر ، الآية : ٧٤ .
(3) سورة يونس ، الآية : ١٠ .
(4) سورة القصص ، الآية : ٧٠ .
(5) لم نعثر على هذا الأثر فيما لدينا من مصادر .

كل كافر وكافرة يثبت لله ضداً أو نداً أو شريكاً ، فلا جرم يستحق الثواب بعددهم .

* * *

الفضيلة السابعة :

قال السدي في قوله تعالى : ﴿ حمعسق ﴾ [1] . الحاء حلمه وحكمه وحجته ، والميم ملكه ومجده ، والعين عظمته وعلمه وعزه وعدله ، والسين سناه وسره ، والقاف قدرته وقهره ، يقول : بحلمي وبحكمي وملكي ، وبمجدي وعظمتي ، وعزي وعلمي وعدلي ، وسنائي وسري ، وقدرتي وقهري ، لا أعذب في النار أبداً من قال : لا إله إلا الله [2] .

* * *

الفضيلة الثامنة :

قيل : إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل لا إله إلا الله ، لأن صلاتهم وصومهم يشوبها الرياء والسمعة ، وصدقاتهم يشوبها الحرام والشبهة ، فلا خلاص في شيء منها ، أما كلمة لا إله إلا الله فهي ذكر الله ، والمؤمن لا يذكر الله إلا من صميم القلب .

* * *

الفضيلة التاسعة :

الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة :

فالأول : قوله عليه السلام : « أفضلُ الذّكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » [3] .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١ .
(٢) انظر حقائق التفسير للسلمي ورقة ٢٤٥ .
(٣) أخرجه البيهقي ، وأحمد ، وأبو يعلى ، عن أبي هريرة .

والثاني : عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه السلام قال : «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة الموت ، ولا وحشة عند النشر ، وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون شعورهم من التراب ويقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » [1] .

والثالث : يروى أن المأمون لما انصرف من مرو يريد العراق ، واجتاز نيسابور ، وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا ، فقام اليه قوم من المشايخ ، وقالوا : نسألك بحق قرابتك من رسول الله ﷺ أن تحدثنا حديثاً ينفعنا . فروى عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى انه قال : « لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي» [2]

الرابع : روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « يفتحُ الله أبواب الجنّة ، وينادي منادٍ من تحت العرش : أيتها الجنة ، وكل ما فيك من النعم ، لمن أنت ؟ فتنادي الجنة ومن فيها : نحن لأهل لا إله إلا الله ، ونشتاق لأهل لا إله إلا الله ، ونحن محرمون على من لم يقل لا إله إلا الله . ومن لم يؤمن بلا إله إلا الله » [3] .

الخامس : قال عليه السلام : « أُمرتُ أن أقاتلَ النّاس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » [4] . قال بعض العلماء : إنه تعالى جعل العذاب عذابين : أحدهما السيف من يد المسلمين ، والثاني عذاب الآخرة ، فالسيف في غلاف يرى ، والنار في غلاف لا يرى ، فقال لرسوله : من أخرج لسانه من غلاف المريء وهو الفم فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى ، ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السر ، فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة ، حتى يكون واحد بواحد ، ولا ظلم ولا جور .

---

(١) أخرجه الحكيم في نوادر الأصول . ص : ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الحكيم في نوادر الأصول . ص ٢٠٦ .

(٣) لم نعثر على هذا الحديث في مصادرنا .

(٤) حديث متفق عليه . « وحسابهم على الله » يعني من حيث السرائر .

السادس : عن أنس قال : قال عليه السلام : « من قرأ عند منامه ﴿ شَهِدَ اللهُ أنّه لا إله إلاّ هُوَ والملائكة وأولوا العلْم قائماً بالقسط ، لا إله إلاّ هُو العزيزُ الحكيم * إنّ الدِّينَ عند الله الإسلام ﴾ [1] . خلق الله تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة ، وأنا على ذلكم من الشاهدين » [2] .

السابع : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، و « شهد الله » — إلى قوله — « إن الدين عند الله الاسلام » ، و ﴿ قُلِ اللهمّ مَالكَ المُلك ﴾ إلى قوله — ﴿ بغير حسَابٍ ﴾ [3] . معلقات ما بينهن وبين الله حجاب ، يقول الله عز وجل : « بي حلفت ، لا يقرأكن أحد من عبادي إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وأسكنته حظيرة القدس، ولأنظرن اليه بعين الرحمة كل يوم سبعين ألف مرة ، ولقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وأحفظه من كل عدو وحاسد » [4] .

الثامن : قال أبو سعيد الخدري : قال عليه السلام : « ما من عبدٍ يقول أربع مرات : اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيداً ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك ، إني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، إلا كتب الله له صكاً لعتق من النار » [5] .

التاسع : عن ابن عمر قال : قال ﷺ : « يُجاء برجلٍ منْ أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، فيقال له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك الحافظون؟ فيقول : لا يارب ، فيقال : ألك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

(٢) أخرجه الدارمي ومسدد ، عن أنس كما في كنز العمال ١/٢٢٢ .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) ذكره ابن الجوزي في الواهيات من الأحاديث . انظر العلل المتناهية . ص ١٧٥ .

(٥) أخرجه الدارمي والترمذي عن أبي سعيد .

الله تعالى : إن لك عندنا وديعة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : يارب ، مع هذه البطاقة مع السجلات . فيقول الله : لا ظلم اليوم ، فتوضع البطاقة في كفة ، والسجلات في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء »[1] .

العاشر : عن أنس قال : قال عليه السلام : « ما زلتُ أشفع إلى ربي فيشفعني ، حتى أقول : يا رب شفعني فيمن قال : لا إله إلا الله . فيقول الله تعالى : هذه ليست لك يا محمد ، إنما هذه لي ، وعزتي ورحمتي وحلمي ، لا أدع في النار أحداً قال : لا إله إلا الله »[2] .

واعلم أن أهل العرفان ذكروا في تفسير « لا إله إلا الله » وجوهاً :

الأول : قال ابن عباس : لا إله إلا الله : لا نافع ولا ضار ولا معز ولا مذل ولا معطي ولا مانع إلا الله .

الثاني : لا إله يرجى فضله ، ويخاف عليه ، ويؤمن جوده ، ويؤكل رزقه ، ويسئل عفوه ، ويترك أمره ، ويرتكب نهيه ، ولا يحرم فضله إلا الله الذي هو رب العالمين ، وغفار المذنبين ، وملجأ التائبين المغمومين ، وغاية رجاء الراجين ، ومنتهى مقصد العارفين .

الثالث : قول العبد : لا إله إلا الله ، إشارة إلى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد ، إلى الملك المجيد ، فإذا قال : لا إله إلا الله ، فالمعنى : لا إله له الآلاء والنعماء ، والقدرة والبقاء ، والعظمة والسناء ، والعزة والثناء ، والسخط والرضا ، إلا الله الذي هو رب العالمين ، وخالق الأولين والآخرين ، وديان يوم الدين .

الرابع : لا إله للرغبة ، ولا إله للرهبة ، إلا الله الذي هو كاشف الكربة .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي .
(٢) ذكره السيوطي في البدور السافرة ، وعزاه إلى ابن المنذر وابن الضريسي .

وعن عمران بن حصين قال : قال عليه السلام لأبي حصين : « كم تعبد اليوم من إله » ؟ قال : أعبد تسعة ، أو سبعة في الأرض ، وواحد في السماء . قال : « أيهم تعبده برغبتك ورهبتك » ؟ قال : الذي في السماء . قال : « فيكفيك إله السماء» . ثم قال : « يا حصين ! لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك » . فأسلم حصين ، ثم قال : يارسول الله ! علمني هاتين الكلمتين فقال : « قل ؛ اللهم ألهمني رشدي ، واغفر لي ، واعصمني من شر نفسي »[1] .

الخامس : قيل في قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾[2] . يشهد الله تعالى في عوالم القدس ، وحظائر الجلال ، وسرادقات الصمدية ، والملائكة يشهدون بهذه الشهادة في السموات ، وأولوا العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين .

وقال جعفر الصادق وقد سألوه عن هذه الآية : إن الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأحدية والأزلية ، ثم خلق الخلق ، فشغلهم بعبادة هذه الكلمة[3] ، وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق ، وشهادتهم له رسم ، فكيف يستوي الرسم مع الحق ، ومن أين للتراب طاقة على تجلي نور رب الأرباب .

وقال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما نزل قوله تعالى : « شهد الله » خرت الأصنام سجداً حول الكعبة[4] .

* * *

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه والطبراني وأبو يعلى .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .
(٣) يعني : تعبدهم بها حتى أصبحت شرطاً في الاسلام ، وذكراً يرفع الدرجات .
(٤) انظر الدر المنثور ١/١٣٥ .

الفصل الثالث

في

أسماء كلمة التوحيد

الأول : كلمة التوحيد :

وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الاطلاق . وفائدة قولنا : على الاطلاق ، أنه تعالى لما قال : ﴿ وإلهكُمْ إلهٌ واحِدٌ ﴾ [1] . أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول : إن إلهنا واحد ، فلعل إله غيرنا مغاير لالهنا . فالله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق ، فقال : ﴿ لا إله إلاّ هوَ ﴾ [1] . وذلك لأن قولنا : لا رجل في الدار ، يقتضي نفي الماهية ، ومتى انتفت الماهية ، انتفى جميع افرادها ، إذ لو حصل فرد من أفراد تلك الماهية لحصلت تلك الماهية ، لأن كل فرد من أفراد الماهية يشتمل على الماهية ، وإذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفي الماهية ، فثبت أن قولنا : لا رجل في الدار ، يفيد النفي العام الشامل فإذا قيل بعد ذلك : إلا زيداً ، أفاد التوحيد العام الكامل .

ثم اعلم أن لهذا ثمرتين :

الأولى : إن جوهر الانسان خلق في الأصل مشرفاً مكرماً ، قال تعالى : ﴿ ولَقَدْ كرّمْنا بني آدَمَ ﴾ [2] . فإذا كان الأصل فيه كونه مكرماً ، كان كونه مطهراً على وفق الأصل ، وكونه منجساً على خلاف الأصل ، ثم إنا رأينا الانسان متى أشرك صار نجساً ، بدليل قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٣ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .

﴿ إنّما المُشْركونَ نَجَسٌ ﴾ [1] . فإذا كان الشرك يقتضي كونه نجساً مع ذلك على خلاف الأصل ، فكونه موحداً بأن يقتضي كونه طاهراً أولى ، لأنه على وفق الأصل . وإذا ثبت أن الموحد كامل في كونه طاهراً وجب أن يكون من خواص الله تعالى ، لقوله : ﴿ والطّيِّباتُ للطّيِّبين والطّيِّبون للطّيِّبات ﴾ [2] .

الثانية : أن الشرك سبب لخراب العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تكادُ السّموات يتَفَطّرنَ منه وتنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبَالُ هدّاً * إنْ دَعوا للرّحْمن ولَداً ﴾ [3] . وإذا كان الشرك سبباً لخراب العالم ، وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم ، ضرورة كون الضدين مختلفين في الحكم ، فإذا ثبت أن كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم فأولى أن تكون سبباً لعمارة القلب الذي هو محل الوحدانية ، ولعمارة اللسان الذي هو محل ذكر الوحدانية ، وذلك يناسب عفو الله عن أهل التوحيد .

* * *

الاسم الثاني :

إن هذه الكلمة تسمى « كلمة الاخلاص » . وكان معروف الكرخي[4] يقول : « يا نفسي ، تخلصي » . ثم التحقيق فيه : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه ، وخلص لله ، سمي خالصاً ، وسمي الفعل إخلاصاً .

ولا شك أن كل من أتى بفعل اختياري فلا بد له في ذلك الفعل من غرض ، فمتى كان الغرض في الفعل واحداً ، سمي هذا الفعل إخلاصاً . فمن تصدق وكان غرضه محض الرياء فهو غير مخلص ،

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٨ .
(٢) سورة النور ، الآية : ٢٦ .
(٣) سورة مريم ، الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .
(٤) معروف الكرخي ؛ عابد ، زاهد ، عالم ، مجاب الدعوة . مات سنة ٢٩٥ هـ .

ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الالحاد هو الميل ، ولكن خصصه العرف بالميل عن الحق .

فإذا عرفت هذا فنقول : الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط ، وهو الاخلاص ، أو شيطانياً فقط ، وهو الرياء ، أو مركباً منهما ، وهو على ثلاثة أقسام ، لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية ، أو يكون الروحاني أقوى ، أو يكون النفساني أقوى .

القسم الأول : وهو أن يكون الباعث روحانياً فقط ، وهذا لا يتصور إلا من محب الله ، مستغرق الهم به ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مقر ، حتى لا يحب الأكل والشرب ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث أنه ضرورة الجبلة . فلذلك لا يشتهي الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله . فمثل هذا الشخص إذا أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل في جميع حركاته وسكناته، ولو نام مثلا لتستريح نفسه فتقوى على عبادة الله كان نومه أيضاً عبادة .

أما القسم الثاني : وهو أن يكون الباعث نفسانياً ، فهذا لا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا ، مستغرق الهم بهما ، بحيث لم يبق لحب الله في قلبه مقر . وكما أنه في القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه ، اكتسب بحركاته الاختيارية هذه الصفة ، فكذلك من غلب على قلبه حب النفس والدنيا ، اكتسبت جميع أفعاله تلك الصفة ، فلا يسلم له شيء من عبادته ، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما في الثواب والعقاب .

وأما الأقسام الثلاثة الباقية فنقول :

أما الذي فيه الباعثان متساويين ، فالأظهر أنهما يتعارضان ،ويتناقضان، فيصير ذلك العمل لا له ولا عليه ، وأما الذي يكون أحد الطرفين فيه أغلب ، فينحط منه ما يساوي الطرف الآخر ، وتبقى الزيادة موجبة

أثرها اللائق بها . وذلك هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فمَنْ يعْمَلْ مثْقالَ ذرّةٍ خيْراً يرَهْ * ومَنْ يعْمَلْ مِثْقالَ ذرّةٍ شرّاً يرَه ﴾[1] . وقوله : ﴿ إنّ اللهَ لا يظْلِمُ مِثْقالَ ذرّةٍ ﴾[2] .

وتمام التحقيق فيه : أن الأعمال لها تأثيرات في القلب ، فإذا خلا المؤثر عن المعارض خلا الأثر عن المضعف ، وإذا كان المؤثر مقروناً بالمعارض ، فإن تساويا تساقطا ، وإن كان أحدهما أغلب فلا بد وإن يحصل في الزائد بمقدار الناقص ، فيحصل التساوي بينهما ، أو يحصل التساقط ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض ، فيؤثر لا محالة أثراً ما ، وكما لا يخلو مثقال ذرة من الطعام أو الشراب عن أثر في الجسد ، فكذلك لا يخلو مثقال ذرة من الخير والشر عن أثر في التقريب من باب الله تعالى أو التعبير منه . فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يباعده شبراً فقد عاد إلى ما كان عليه ، لا له ولا عليه . وإذا كان أحد الفعلين مما يقربه شبرين والفعل الثاني مما يباعده شبراً واحداً اقترب لا محالة شبراً إلى الله .

واحتج من زعم أن المشوب لا ثواب عليه بوجهين :

الحجة الأولى : ما روي أن رجلا سأل النبي ﷺ عمن يصنع المعروف ثم يحب أن يحمد عليه ويؤجر ، فلم يدر ما يقول حتى نزل : ﴿ فمَنْ كانَ يرْجو لقاء ربّه فلْيعْمل عَملاً صالحاً ولاَ يُشْرِكْ بِعبادة ربّه أحداً ﴾[3] .

الحجة الثانية : ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام قال لمن أشرك في عمله أحداً : « خذ أجرك ممن عملت له » [4] . وعن النبي ﷺ أن الله يقول : « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري ، تركت نصيبي لشريكي » [5] .

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٤٠ .
(٣) سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .
(٤) الواحدي في أسباب النزول . ص ٧٨ .
(٥) رواه الترمذي ، وأحمد ، والطبراني ، وأبو داود .

والجواب عن الحجة الأولى : أنها محمولة على ما إذا أتى بالعمل لغرض الدنيا فقط .

والجواب عن الثانية : أن لفظ الشرك محمول على تساوي الداعيين ، وقد بينا أنه عند التساوي ينحبط كل واحد منهما بالآخر .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : كلمة لا إله إلا الله ، مسماة بكلمة الاخلاص ، وذلك أن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب ، وهو كون الانسان عارفاً بقلبه وحدانية الله تعالى ، وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب مستحيل أن يأتي بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحبه وعبوديته ، فهذه المعرفة إن طلبت ظلت لوجه الله تعالى ، لا لغرض آخر البتة ، بخلاف سائر الطاعات البدنية ، فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله ، قد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الدنيا ، وطلب المدح والثناء ، فلهذا السبب سميت هذه الكلمة بكلمة الاخلاص .

* * *

الاسم الثاني لهذه الكلمة « كلمة الاحسان » :

ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول . أما القرآن فآيات :

احداها : قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحْسانِ إلاَّ الإحْسان ﴾ [١]

قال المفسرون : المراد من قوله : (هل جزاء الاحسان) : هل جزاء الايمان [٢] . والتحقيق فيه : أن عليك عهد العبودية ، وعلى كرمه عهد الربوبية ، كما قال الله تعالى : ﴿وأوفُوا بعَهْدي أوفِ بعَهْدكُمْ﴾ [٣] وعهد عبوديتك : أن تكون عبداً له لا لغيره . ثم كمال هذه الدرجة : أن تعرف أن كل ما سوى الله فهو عبد له ، كما قال : ﴿ إنْ كلّ مَنْ

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٦٠ .
(٢) تفسير القرطبي ٧٣/١٧ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٤٠ .

في السّموات والأرض إلاّ أتى الرّحمن عَبْداً ﴾ [١] . ومن أتى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسناً فيه . وقوله : لا إله إلا الله ، يدل على اعترافه بأن كل ما سواه فهو عبده ومربوبه . فثبت أن قول : لا إله إلا الله ، احسان من العبد ، فقوله : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) أي : هل جزاء من أتى بقول لا إله إلا الله إلا أن أجعله في حماية لا إله إلا الله .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ للّذينَ أحسَنُوا الحُسْنى وزِيادةٌ ﴾ [٢] . والمراد من قوله : (للذين أحسنوا) هو : قول لا إله إلا الله باتفاق أهل التفسير [٣] . وبدليل أنه لو قال ذلك ومات ولم يتفرع لعمل آخر دخل الجنة .

وثالثها قوله : ﴿ ومَنْ أحْسَنُ قوْلاً ممّنْ دعَا إلى الله وعَمِلَ صالحاً ﴾ [٤] . واتفقوا على أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان ، وما ذلك إلا لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلا الله . وأيضاً فإنه تعالى قال في صفة الكافرين : ﴿ ومَنْ أظْلَمُ ممّن افْترى على اللهِ كَذِباً ﴾ [٥] . فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر ، لا حسن أحسن من كلمة التوحيد . ولهذا قال تعالى في أول سورة المؤمنين : ﴿ قَدْ أفْلَحَ المُؤمنونَ ﴾ [٦] . وقال في آخر السورة : ﴿ إنّه لا يَفْلحُ الكافرونَ ﴾ [٧] .

ثم إنه لما كان قول الموحد حسناً كان مقيله حسناً ، كما قال تعالى : ﴿ أصْحابُ الجنّة يومئذٍ خيْر مُسْتقراً وأحسنُ مَقيلاً ﴾ [٨] . ولما كان قول الكافر قبيحاً كان مقيله أيضاً مظلماً ، قال تعالى : ﴿ والّذين كَفَروا أولياؤهُم الطّاغُوت يَخْرجُونَهُم منَ النُّور إلى الظُّلمات ﴾ [٩] .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٩٣ .
(٢) سورة يونس ، الآية : ٢٦ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ١٥/١١٦ .
(٤) سورة فصلت ، الآية : ٣٣ .
(٥) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٨ .
(٦) سورة المؤمنون ، الآية : ١ .
(٧) سورة المؤمنون ، الآية : ١١٧ .
(٨) سورة الفرقان ، الآية : ٢٤ .
(٩) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٧ .

ورابعها قوله تعالى : ﴿الَّذينَ يَسْتمعُونَ القَوْل فيتّبعونَ أحسنه﴾[1] . ولا شك أن أحسن القول لا إله إلا الله .

وخامسها قوله تعالى : ﴿ إنّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسان ﴾ [2] : قيل : العدل : الاعراض عما سوى الله تعالى ، والاحسان : الاقبال على الله تعالى .

وسادسها : قوله تعالى : ﴿ إنْ أحْسَنْتُم أحْسَنْتُم لأنفُسِكم﴾[3] ولا شك أن الاحسان قول : لا إله إلا الله .

وأما الخبر فما روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) : للذين قالوا : لا إله إلا الله الحسنى وهي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم » [4] .

وأما المعقول فهو : إنه كلما كان الفعل حسناً كان فاعله أكثر إحساناً ، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر لا إله إلا الله ، وأحسن المعارف معرفة لا إله إلا الله ، وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر إحساناً .

* * *

الاسم الرابع « دعوة الحق » :

قال الله تعالى في سورة الرعد : ﴿ لَهُ دَعْوةُ الحَقّ ﴾ [5] . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله [6] . واعلم أن قوله تعالى : « له دعوة الحق » يفيد الحصر ، ومعناه : له هذه الدعوة لا لغيره ، كما ان قوله تعالى : ﴿ لكُمْ دينكُمْ ولي دين ﴾ [7] . معناه : لكم

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ١٨ .
(٢) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٧ .
(٤) انظر الدر المنثور ٣/١٧ .
(٥) سورة الرعد ، الآية : ١٤ .
(٦) انظر الدر المنثور ٣/٢٠٠ .
(٧) سورة الكافرون ، الآية : ٦ .

دينكم لا لغيركم ، ولي ديني ، وتحقيق الكلام في إثبات هذا الحصر : أن الحق نقيض الباطل ، فالحق هو الموجود ، والباطل هو المعدوم ، فلما كان الحق سبحانه وتعالى حقاً في ذاته وبذاته وصفاته ، وكان ممتنع التغير في حقيقته ، كانت معرفته هي المعرفة الحقة ، وذكره هو الذكر الحق ، والدعوة اليه هي الدعوة الحقة .

أما كل ما سواه فهو ممكن لذاته ، ولا يكون حقاً لذاته . فلا تكون معرفته واجبة التحقيق ، ولا ذكره ولا الدعوة اليه . وإذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله تعالى : (له دعوة الحق) .

واعلم أن دعوة الحق تارة تكون من الحق للخلق إلى الحق ، وتارة تكون من الخلق للخلق إلى الحق .

أما الأول فنقول : إما أن دعوة الحق تكون من الحق فلأنه تعالى هو الذي دعا القلوب إلى حضرته ، فلولا دعوته إلى تلك الحضرة ، وتوفيقه في ذلك ما كان الوصول ، وإلا فمن أين يتمكن العقل البشري من الوصول إلى حضرة الله تعالى . وأيضاً فلأن مبادىء الحركات ، وأوائل المحدثات تنتهي إلى قدرة الله تعالى وقضائه وقدره ، ولهذا المعنى قال الله تعالى : ﴿ لله الأمْرُ من قبْلُ ومنْ بعْدُ ﴾ [1] . وأما أن تلك الدعوة للخلق فلقوله تعالى : ﴿ لمَنْ المُلكُ اليوم ﴾ [2] . وأما الانتهاء إلى الحق فلقوله تعالى : ﴿ وإنّ إلى ربكَ المُنْتهى ﴾ [3] .

وأما أن دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله تعالى : ﴿ ومَنْ أحْسَنَ قَوْلاً ممّنْ دعَا إلى الله ﴾ [4] . ولقوله : ﴿ إنّنا سَمِعْنا مُنَادياً يُنَادي للإيمان ﴾ [5] .

* * *

(١) سورة الروم ، الآية : ٤ .
(٢) سورة غافر ، الآية : ١٦ .
(٣) سورة النجم ، الآية : ٤٢ .
(٤) سورة فصلت ، الآية : ٣٣ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٣ .

الاسم الخامس « كلمة العدل » :

قال الله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْل والاحسان ﴾ [1] .
قال عثمان بن مظعون الجمحي : ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياء من رسول الله ﷺ ،وذلك أنه كان كثيراً ما يدعوني إلى الاسلام ، فاستحييت منه وأسلمت ، ولكن الاسلام ما كان مستقراً في قلبي ، ثم إنه عليه السلام دعاني يوماً فجلست اليه ، فبينما هو يحدثني إذ وقع بصري على شخص ينزل من السماء، فإذا هو جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ! « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » . العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والاحسان : القيام بالعبودية . قال عثمان : فوقع الاسلام في قلبي [2] .

وقال ابن عباس : العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والاحسان : الاخلاص فيه [3] .

وقال آخرون : العدل مع الناس بالرعاية ، والاحسان مع نفسك بالطاعة [4] .

قال تعالى : ﴿ إنْ أحْسَنْتُم أحْسَنْتُم لأنفُسِكُم ﴾ [5] .

وقال آخرون : العدل مع الأعضاء ، والاحسان مع القلب [6] .

وقال آخرون : العدل : رؤية الافتقار إلى الحق ، والاحسان : مشاهدة الحق إلى كل شيء في الخلق [7] .

واعلم أن السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه :

الأول : أن العدل في كل شيء : تحصيل ما هو سبب اعتداله ، وكمال حاله. ومن المعلوم أن كمال القوى الحساسة في إدراك المحسوسات، وكمال القوى الشهوانية في طلب الأشياء النافعة الجسمانية ، وكمال

(١) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .
(٢) انظر الدر المنثور ٧٩/٣ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ٨٨/١٠ .
(٤) انظر تفسير القرطبي ٨٨/١٠ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٧.
(٦) انظر الدر المنثور ٩٥/٢.
(٧) انظر الدر المنثور ٩٥/٢ .

القوى الغضبية في دفع الأشياء الجسمانية المنافية ، وأما القوى العقلية وكمال حالها ، وغاية سعادتها ، فبأن ترسم فيها صور الحقائق ، وأشباه المعقولات كما هي ، حتى تصير القوى العقلية كالمرآة التي تتجلى فيها صور الوجود بتمامها .

ولا شك أن أشرف المعقولات وأعلاها : معرفة جلال الله وقدسه وعظمته وعزته ، فكان غاية المعقول ، واعتدال الأرواح البشرية ، والقوى العقلية : كونها مقبلة على هذه الحالة ، مستغرقة فيها . فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلا الله « كلمة العدل » .

السبب الثاني : أن هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل لأن معرفة الله متوسطة بين الافراط الذي هو التشبيه ، وبين التفريط الذي هو التعطيل . فمن بالغ في الاثبات وقع في التشبيه ، ومن بالغ في النفي وقع في التعطيل ، والحق هو طريق الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين .

السبب الثالث : من ترك النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، وعدل على الطريقة التي ألفها بحثه وخياله ، وقع في الضلال . ومن توغل في البحث ، وأراد الوصول إلى كنه العظمة ، وهوية الجلال ، تحير وتردد ، بل عمي ، فإن نور جلال الالهية مما يعمي أحداق العقول البشرية ، فصار هذان الطرفان مذمومين .

والطريق المستقيم هو : أن يخوض الانسان البحر المعتدل في البحث، ويترك التعمق ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : « **تفكّروا في الخلق ، ولا تتفكروا في الخالق** » [1] .

فهذه هي الوجوه التي لأجلها سميت كلمة لا إله إلا الله كلمة العدل .

فإن قيل : كيف أمر الله تعالى بالعدل في بحر التوحيد ، وقد قال تعالى : ﴿ ولَنْ تَسْتَطيعوا أنْ تَعْدلوا بينَ النّساء ولَو حرصتم ﴾ [2] .

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عمر . (٢) سورة النساء ، الآية : ١٢٠ .

فمن يعجز عن العدل في حق النساء يقدر على العدل في معرفة الأحد الصمد ؟ .

فالجواب : إنه تعالى أظهر عجزك في الضعيف، وأقدرك على الشريف، لتعرف أن الكل منه سبحانه وتعالى .

* * *

الأسم السادس « الطيب من القول » :

قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ وهدوا إلى الطّيِّب من القَوْل ﴾[1] . وأي كلمة توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى : ﴿ إنّما المُشْركونَ نَجَسٌ ﴾ [2] . ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة .

وتحقيق القول فيه : أن الطيب هو اللذيذ . واللذة هي : إدراك الملائم . وقد بينا أن الملائم للقوى الحساسة : ادراك المحسوسات ، والملائم للقوى الشهوانية : جلب النافع الجسماني ، وللقوة الغضبية دفع المنافي الجسماني ، وأما الملائم للقوة العقلية فهو إدراك جلال الله وقدسه وعظمته وعزته .

إذا عرفت هذا فنقول : إدراك القوة العاقلة أقوى من إدراك القوة الحساسة ، وسيأتي شرح هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى ، وأما مدركات القوى الحساسة فهي الاعراض القائمة بالأجسام الكائنة الفاسدة ، ومدرك القوة العاقلة هي : ذات الله تعالى وعظمته وجلاله . وظاهر أنه كلما كان الادراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب الادراك أشرف وأعلا .

فعلى هذا نسبة اللذة العقلية إلى اللذة الحسية في الشرف والقوة كنسبة

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٢٨ .

الادراك العقلي إلى الادراك الحسي ، وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في الشرف والتعالي إلى الأعراض القائمة بالأجسام . وكما أنه لا نهاية للنسبة الحاصلة بين هذين الادراكين وبين هذين المدركين ، فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة بين اللذات العقلية الحاصلة بسبب إدراك جلال الله وبين اللذات الحاصلة بسبب الروائح والطعوم وسائر المحسوسات .

وإذا عرفت هذا ظهر أن الطيب المطلق هو : معرفة ألا إله إلا الله، وذكر لا إله إلا الله ، والاستغراق في أنوار جلال لا إله إلا الله ، فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ وهدُوا إلى الطيب من القول ﴾ [1] . والمراد منه : كلمة لا إله إلا الله .

والألف واللام في لفظة (الطيب) للاستغراق — كأنه تعالى ينبه إلى أنه لا لذيذ ولا طيب إلا هذا ، وذلك هو الحق ، لأنا بيّنا أن أطيب المحسوسات بالنسبة إلى طيب هذه الحالة عدم محض ، فلذلك بين بحرف الاستغراق أن كل طيب ليس إلا ذلك .

* * *

الاسم السابع « الكلمة الطيبة » :

قال الله تعالى : ﴿ ألَمْ ترَ كيفَ ضرَبَ اللهُ مثلاً كلمةً طيّبة كشَجرةٍ طيّبة أصْلُها ثابتٌ وفرْعُها في السّماء ﴾ [2] . اختلفوا في أنه تعالى لمَ سماها كلمة طيبة على وجوه :

الأول : أنها طيبة بمعنى أنها طاهرة عن التشبيه والتعطيل ، ولكنها متوسطة بينهما ، مباينة لكل واحدة منهما . كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم ، وهو مبرأ عنهما ، مصفى عن شائبة كل واحد منهما .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٤ .
(٢) سورة ابراهيم ، الآية : ٢٤ .

الثاني : أنها طيبة بمعنى أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا طيب المسكن في العقبى ، أما طيب اسمه فلقوله تعالى : ﴿ والطَّيِّباتُ للطَّيِّبين ﴾ [1] . وأراد به المؤمنين والمؤمنات [2] . وأما طيب المسكن فلقوله : ﴿ ومَسَاكنَ طيِّبة في جنّات عَدْنٍ ﴾ [3] .

الثالث : أنها طيبة بمعنى أنها مقبولة ، يقبلها الله تعالى ، وتصعد إليه ، كما قال تعالى : ﴿ إليْه يصعَدُ الكَلِمُ الطّيبُ ﴾ [4] ، قالوا والسبب في أن هذه الكلمة تصعد إلى الله تعالى بذاتها : أنها طيبة . وقال عليه السلام : « إن اللهَ طيب لا يقبل إلا الطيب » [5] .

وتمام التحقيق فيه : أن العقل والروح عاشقان على التحلي والمعرفة والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان ، والمعرفة مجذوبة إلى المعروف ، وإذا تصاعد العرفان إلى المعروف –والعارف ملازم للعرفان – انجذب العارف إلى المعروف ، وصعد اليه . فذلك هو المراد من قوله : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ .

فإن قيل : قال المفسرون : الشجرة الطيبة هي النخلة [6] . فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة ؟ .

فالجواب عنه من وجوه :

الأول : إن شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان ، بل في البعض دون البعض ، فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان ، ومعرفة التوحيد لا تحصل في كل قلب .

الثاني : أن النخلة أطول الأشجار ، وكذا كلمة التوحيد أعلا الكلمات .

الثالث : إن الشجرة الطيبة ثابتة في الأرض ، وفروعها في السماء ،

---

(1) سورة النور ، الآية : ٢٦ .
(2) انظر الدر المنثور ٢/٢٥٠ .
(3) سورة التوبة ، الآية : ٧٢ .
(4) سورة فاطر ، الآية : ١٠.
(5) أخرجه أبو داود عن ابن عمر.
(6) انظر تفسير القرطبي ١٥/٩.

فكذا أصل الكلمة الطيبة ثابت في القلب ، وهو المعرفة ، وفرعها ثابت في السماء ﴿ إليْه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ ﴾[1] .

الرابع : إن النخلة تحمل كل سنة مرتين ، فكذلك الايمان يحمل في الدنيا مرة فيثاب المؤمن لأجل إيمانة بأهلية الشهادة والولاية والأمانة . ومرة أخرى في الآخرة ، وهي الجنة الباقية ، والنعمة الدائمة .

الخامس : أن النخلة وإن حصل في وسط ثمرتها نواة لا خير فيها ولا منفعة ، فإن قيمة تلك الثمرة لا تنقص بسبب تلك النواة ، وكذا كلمة التوحيد وإن كان يحصل معها شيء من المعاصي ، إلا أن قيمتها لا تنقص بسبب ذلك : ﴿ يا عبادِيَ الّذينَ أسْرفُوا على أنْفُسِهِمْ لا تقْنطُوا منْ رحْمَةِ الله ، إنّ اللهَ يغْفرُ الذّنوبَ جَميعاً ، إنّه هوَ الغفُور الرّحيم ﴾[2] .

السادس : إن النخلة أسفلها الذي يقرب من الناس كله شوك ، والثمرة والمنفعة لا تحصل إلا في أعلاها ، فكذلك الدين ، أوله التكاليف الشاقة التي هي كالشوك ، وفي أعلاه الثمرة الحلوة اللذيذة ، التي هي الجنة والمعرفة .

* * *

الاسم الثامن من « القول الثابت » :

قال الله تعالى : ﴿ يُثبِّتُ اللهُ الّذينَ آمنُوا بالقَوْل الثّابت في الحياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرة ﴾[3] . وعلة التسمية من وجوه :

الأول : أن المذكور المعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته ، ممتنع العدم لذاته . والقول والاعتقاد يتبعان المقول والمعتقد ، فلما كان المقول والمعتقد

(١) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .
(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٢٧ .

واجب الثبوت لذاته ، كان القول والاعتقاد كذلك ، فلهذا سماه الله بالقول الثابت .

الثاني : أن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه ، بل هو مؤثر في ازالة الذنب ، لأن الموحد وإن عظمت ذنوبه ، إلا أنه ترجى له المغفرة، قال الله تعالى : ﴿ إنّ اللهَ لا يغْفِرُ أنْ يُشْرِكَ بهِ ويغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لمنْ يشاء ﴾ [1] . والكافر وإن عظم كفره إذا رجع من الكفر إلى التوحيد هدم التوحيد كفره .

الثالث : إن هذه الكلمة ثابتة في الآخرة ، لا ترتفع عن العبيد ، وذلك لأن أهل الجنة يشتغلون في الجنة بذكر التوحيد . ألا ترى أن الله أخبر عنهم بقوله : ﴿ وقالُوا الحمْدُ لله الذي أذْهَبَ عنّا الحزن ﴾ [2] ﴿ وقالُوا الحمْدُ لله الذي صَدقنا وعْدهُ ﴾ [3] . ﴿ الحمْدُ لله الذي هَدَانا لهذا ﴾ [4] .

الرابع : إنها ثابتة لأن أصلها محكم ، وذلك لأن أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنّه لا إله إلاّ هو ﴾ [5] . فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله تعالى فرع على شهادة الله ، وشهادة الله هي الأصل ، فكل شهادة أصلها شهادة الله فهي ثابتة في الدنيا والآخرة .

الخامس : أن الانسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، ومع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار .

أما بيان أن الانسان بدون هذه الكامة يعمل فيه الماء والنار ، فإن فرعون أغرق في الماء أولاً ، ثم انتقل من الماء إلى النار ، بدليل قوله

(١) سورة النساء ، الآية : ١١٦ .
(٢) سورة فاطر ، الآية : ٣٤ .
(٣) سورة الزمر ، الآية : ٧٤ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٤٣ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

تعالى : ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ (١) . وعجل السامري (٢) احرق بالنار أولاً ، ثم نقل من النار إلى الماء . بدليل قوله تعالى : ﴿ لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ (٣) .

وأما أنه مع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء ولا النار ، فإن إبراهيم وموسى عليهما السلام كانا مع حقيقة هذه الكلمة ، فلم تعمل النار في إبراهيم ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ (٤) . ولم يعمل الماء في موسى ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه من المرسلين ﴾ (٥) .

* * *

الأسم التاسع « كلمة التقوى » :

قال الله تعالى : ﴿ والزمهم كلمة التقوى ﴾ (٦) . وفي سبب هذه التسمية وجوه :

الأول : انه لما اتقى صاحب هذه الكلمة ان يصف ربه بما وصفه به المشركون وصفت هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى ، ورأس التقوى ، اتقاء لكلمة الكفر .

ثم في هذه الآية إشارة وبشارة .

أما الاشارة فهي أنه تعالى سمى نفسه « أهل التقوى » فقال : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ (٧) . وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى فقال : « وألزمهم كلمة التقوى » . وكأنه تعالى يقول : أنا أهل

---

(١) سورة نوح ، الآية : ٢٥ .
(٢) هو عجل صنعه موسى السامري من بني إسرائيل ، وعبدوه في غيبة موسى عليه السلام .
(٣) سورة طه ، الآية : ٩٧ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٦٩ .
(٥) سورة القصص ، الآية : ٧ .
(٦) سورة الفتح ، الآية : ٢٦ .
(٧) سورة المدثر ، الآية : ٥٦ .

أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة ، وأنت أهل لذكر هذه الكلمة ، فما أعظم هذا الشرف .

وأما البشارة فهي أنه تعالى قال : ﴿ وألْزمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وكانُوا أحقّ بها وأهْلها ﴾ [1] . فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة ، وهم أهل هذه الكلمة ، وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه فهذا يدل على أنه لا ينزع الايمان من قلب المؤمن .

الثانـي : في بيان أنه لم سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى : هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف ، ولمالك من الاستغنام ، ولذمتك من الجزية ، ولأولادك من السبى ، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر ، وإن انضم التوفيق اليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي ، ثم قال : « والزمهم كلمة التقوى ». أي : نحن ألزمناهم بهذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة ، فنحن أردناهم أولا ، وهم ما أرادونا ، فلنا المنة عليهم في فتح هذا الباب ، وتقريره بقوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عليْكَ أن أسْلَمُوا ، قلْ لا تَمُنُّوا على إسْلامكُمْ ، بَل اللهُ يمُنُّ عليْكُم إنْ هداكُمْ للإيمان ﴾ [2] .

* * *

الاسم العاشر « الكلمة الباقية » :

روي عن كثير من المفسرين أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وجَعَلَها كَلِمةً باقيةً في عَقِبهِ ﴾ [3] . أنها قول لا إله إلا الله [4]. ويدل عليه وجوه :

الأول : مقدمة هذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيه وقومه إنّني بَرَاء ممّا تعبُدون * إلاّ الذي فطرني فإنّه سيهدين ﴾[5]

(١) سورةالفتح ، الآية : ٢٦ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٧.
(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٢٨ .
(٤) تفسير الخازن ، ٨٦/٣ .
(٥) سورة الزخرف ، الآيتان ، ٢٦ ، ٢٧ .

وكان معنى قوله : (انني براء) نفي الالهية عن الأشياء التي كانوا يعبدونها . ثم قال : (إلا الذي فطرني) . فكان فيه اثبات الالهية للذي فطره ، فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعهما هو قول : لا إله إلا الله . ثم قال : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ . فثبت أن المراد من الكلمة الباقية قول لا إله إلا الله .

الثاني : أنه تعالى قال في سورة القصص : ﴿ ولاَ تَدْعُ معَ اللهِ إلهاً آخَرَ لا إله إلاَّ هوَ ، كلّ شيء هالكٌ إلاَّ وجْهه ﴾ [1] . فبين أن كل شيء هالك إلا هو ، فإنه واجب الدوام والبقاء . والسرمدية ، وقد عرفت أن القول تبع المقول ، والاعتقاد تبع المعتقد ، فكان صدق لا إله إلا الله ، وحقيقة لا إله إلا الله واجبي الثبوت والبقاء والدوام ، وذلك هو المراد بكونها باقية .

الثالث : أنا بينا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية ، والمعصية تزول بسبب التوحيد ، وأيضاً التوحيد يبقى مع أهل الجنة ، وسائر الطاعات لا تبقى ، روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ عن جبريل أن الله يقول يوم القيامة : مالي أرى فلان بن فلان في صفوف أهل النار ؟ فأقول : يارب ، أنا لم نجد له حسنة . فيقول الله تعالى : إني سمعته في الدنيا يقول : ياحنّان يا منّان ، فاذهب اليه فسله . فيأتيه فيجده في زاوية من زوايا جهنم يقول : يا حنان يا منان ، فيسأله جبريل عن هذه الكلمة ، فيقول : وهل حنان منان غير الله . قال جبريل : فأخذ بيده من صفوف أهل النار ، فأدخله في صفوف أهل الجنة .

* * *

الاسم الحادي عشر « كلمة الله العليا » :

قال الله تعالى : ﴿ وجَعَلَ كَلِمَةَ الّذينَ كَفَرُوا السُّفْلى ،

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٨ .

وكَلِمةُ اللهِ هيَ العُلْيا ﴾ [1] . واعلم أن السبب في علو هذه الكلمة وجوه :

الأول : هو أن القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك التجلي نور الربوبية ، ونور الربوبية إذا تجلى في القلب استعقب حصول قوة وهيبة ربانية ، ولهذا السبب صار المتحققون بهذه الكلمة يستحقرون الأحوال الدنيرية ، ويستحقرون عظماء الملوك ، ولا يبالون بالقتل ، ولا يقيمون لشيء من طيبات الدنيا رزناً ، وكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة .

وانظر إلى استغراق سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه الكلمة ، كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل ، وأن محمداً ﷺ لما استغرق في هذا النور لم يلتفت إلى الملكوت ، كما قال تعالى : ﴿ ما زاغَ البَصر وما طَغَى ﴾ [2] .

الثاني : في كون هذه الكلمة عالية : استعلاؤها في الدنيا على سائر الأديان ، كما قال تعالى : ﴿ ليُظْهره على الدّين كلّه ﴾ [3] .

الثالث : كونها مستعلية على جميع الذنوب ، فإنها تزيل جميع الذنوب ، وشيء من الذنوب لا يزيل نور هذه الكلمة .

* * *

الاسم الثاني عشر « المثل الأعلى » :

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ولله المَثَلُ الأعْلى ﴾ [4] . معناه قول « لا إله إلا الله » .. واعلم أن معنى المثل هنا الصفة ، كذا قال أهل اللغة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الجنّة التي وُعِد المُتّقونَ ﴾ [5] .

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .
(٢) سورة النجم ، الآية : ١٧ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ .
(٤) سورة النحل ، الآية : ٦٠ .
(٥) سورة الرعد ، الآية : ٣٥ .

أي صفتها . فصار المراد من قوله : (ولله المثل الأعلى) عين المراد من قوله : (وكلمة الله هي العليا) .

* * *

الأسم الثالث عشر « كلمة السواء » :

قال الله تعالى : ﴿ تَعَالَوا إلى كَلِمةٍ سواء بَيْننا وبَيْنَكُم ﴾ [1] . قال أبو العالية الرباحي : هي كلمة « لَا إلَه إلا الله » . والدليل عليه أنه تعالى قال بعده : ﴿ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله ولا نُشْرِك به شيْئاً ﴾ [2] . ولا معنى لهذه الآية إلا ما هو المراد من قول « لا إله إلا الله » . فثبت أن المراد من كلمة السواء هو كلمة « لا إله إلا الله » .

ومما يقرر ذلك : أن جميع العقول معترفة بصحة « لا إله إلا الله » وجميع الألسنة ناطقة بها ، وجميع الرقاب خاضعة لها ، قال الله تعالى : ﴿ ولَئِنْ سألْتَهُم مَنْ خَلَقَ السّموات والأرضَ وسخّرَ الشّمْسَ والقمرَ لَيقُولُنّ اللهُ ﴾ [3] .

وأيضاً يحتمل أنها سميت كلمة السواء لأنها تفيد الاستواء في الدين والعقل والروح ، وتوجب الاستقامة ، وترك الاعوجاج في الأمور .

* * *

الاسم الرابع عشر « كلمة النجاة » :

والذي يدل عليه القرآن والحديث والعقول :

أما القرآن فمن وجهين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ إنّ اللهَ لا يَغْفرُ أنْ يُشْركَ به ِ ويَغْفر

---

(١) و(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٦١ .

ما دُونَ ذلكَ لمنْ يشاء ﴾ [1] . فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الايمان بلا إله إلا الله ، وتحصل مع الايمان بلا إله إلا الله .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ وياقَوْمِ مَالي أدْعُوكُم إلى النّجاةِ وتَدْعونني إلى النّار ﴾ [2] . النجاة قول لا إله إلا الله .

وأما الاخبار فيدل عليه الأخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني ، ونريد ههنا أخباراً أخرى .

أحدها : ما روى جابر بن عبد الله أنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الموحدين فقال : « مَنْ لقيَ الله لا يشركُ به شيئاً دخلَ الجنّة ، ومَنْ لقيَ الله يُشركُ به شيئاً دخل النار » [3] .

وثانيها : عن أبي سعيد الخدري قال : قال عليه الصلاة والسلام : « لقّنوا موتاكُم شهادة أن لا إله إلا الله » [4] .

وثالثها : رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلحة بن عبيد الله مقبلا مغموماً بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : مالكَ ؟ قال : سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأله إلا القدرة عليه حتى مات ، سمعته يقول : « إني لأعلمُ كلمة لا يقولها عبدٌ عند موته إلا أشرق لها لونه ، ونَفّسَ الله بها كربته » [5] . فقال : إني لأعلم ما هي ، فقال : وما هي ؟ قال : الكلمة التي أمر بها عمه عند الموت ، وهي : لا إله إلا الله ، فقال طلحة : صدقت ، هي والله .

ورابعها : روى أبو أمامة قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ينادي في الناس : « مَنْ شَهِدَ أنْ لا إله إلا الله دخلَ الجنة » [6] .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .
(٢) سورة غافر ، الآية : ٤١ .
(٣) أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي .
(٤) أخرجه أبو داود ، وابن ماجه .
(٥) أخرجه أحمد ، عن عمر ، وعن جابر ، وعن عثمان .
(٦) أخرجه أحمد ، والترمذي .

وخامسها : قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة : اكشفوا عني سجف القبة حتى أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا ، أو تتركوا العمل ، وتردوا النار . سمعته يقول : « من قال : لا إله إلا الله مُخْلصاً من قلبه دخل الجنة ، ولم تمسه النار » (١) .

وسادسها : عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، يجري بها لسانه ، ويطمئن بها قلبه ، حُرّمت عليه النار » (٢) .

وسابعها : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر : « ناد في الناس : من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة » . قال أبو ذر : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : « وإن زنا وإن سرق » — حتى قالها ثلاث مرات — فقال الثالثة : « وإن زنا وإن سرق على رغم أنف أبي ذر » (٣) .

وثامنها : روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، وفاضت نفسه بعده ، دخل الجنة » (٤) .

* * *

الاسم الخامس عشر « العهد » :

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعةَ إلاَّ مَنِ اتَّخذَ عِنْدَ الرَّحْمن عَهْداً ﴾ (٥) : العهد هو قول لا إله إلا الله . وأقول : الذي يدل على صحة هذا القول وجوه :

(١) أخرجه النسائي ، وابن ماجه ، والطبراني في الأوسط .
(٢) أخرجه مسلم ، وابن ماجه ، والترمذي .
(٣) الحديث مروي عن أبي ذر ، وعن الشيخين مع اختلاف في اللفظ .
(٤) أخرجه الترمذي ، والدارمي ، وابن ماجه ، وأحمد .
(٥) سورة مريم ، الآية : ٨٧ .

الأول : أن قوله : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) نكرة في طرف الثبوت ، وذلك لا يفيد إلا عهداً واحداً ، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد ، ثم أجمعنا على أن ما سوى الايمان فإن الواحد منه ، بل مجموعة لا يفيد تلك الشفاعة البتة ، فوجب أن يكون العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الايمان ، وهو قول : لا إله إلا الله .

والثاني : أن جماعة من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهْدي أُوف بعَهْدكُم ﴾ [١] . هو عهد الايمان ، بدليل أن لفظ العهد مجمل ، فلما أعقبه بقوله : ﴿ وآمِنُوا بما أنْزلْتُ مُصدّقاً لما مَعَكُم ﴾ [٢] . علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الايمان ، وهو قول «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

والثالث : ان أول ما وقع من العهد قوله تعالى : ﴿ ألَسْتُ بربكمُ ، قالوا بلى ﴾ [٣] . وذلك في الحقيقة هو قول لا إله إلا الله ، فكأن لفظ العهد محمولاً عليه .

والرابع : أنه تعالى قال : ﴿ انّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المُؤمنينَ أنْفُسهُمْ وأموالهُم بأنّ لهُمُ الجنّةَ ، يُقَاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ ، وعْداً عليْه حقّاً في التّوراة والأنجيلِ والقُرآنِ ، ومَنْ أوفَى بعَهْدهِ مِنَ الله ، فأستبشروا ببيْعكُمُ ﴾ [٤] . فكأن العهد من جانبك عهد الاقرار بالعبودية ، ومن جانب الحق سبحانه وتعالى عهد الكرم والربوبية ، فثبت بهذه الوجوه : أن المراد من قوله : ﴿ إلاّ مَنْ اتّخَذَ عِنْدَ الرّحْمَن عَهْداً ﴾ [٥] . هو قول : لا إله إلا الله .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٤١ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .
(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .
(٥) سورة مريم ، الآية : ٨٧ .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً ﴾ [١] . أي قلتم لا إله إلا الله [٢] .

* * *

الاسم السادس عشر « كلمة الإستقامة » :

قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ قَالُوا ربُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [٣] . قال ابن مسعود رضي الله عنه : المراد من قوله تعالى : « استقاموا » هو قول لا إله إلا الله [٤] ، وذلك لأن قولهم : « ربنا الله » إقرار بوجود الرب ، ثم أن من المقرين بذلك من أثبت له نداً أو شريكاً . فالذين نفوا الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم ، والصراط المستقيم .

وأعلم أن السلامة في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء ، فمن الناس من أنكر الوحدانية ، وهو الشرك الظاهر ، والاستقامة في الدين لا تحصل إلا بنفي الشركاء ، كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا لله انْدَاداً وانْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٥] .

ومنهم من أقر بالوحدانية في الظاهر ، إلا أنه يقول قولاً يهدم ذلك التوحيد ، مثل أن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب ، ويضيف الصحة والمرض إلى الدواء والغذاء ، ويضيف الفعل إلى العبد على سبيل الاستقلال ، فكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق سبحانه وتعالى .

ومنهم من ترك كل ذلك ، ولكنه قد يطيع النفس والشهوة في بعض الأفعال ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿أفَرأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٦] وهذا النوع من الشرك هو المسمى بالشرك الخفي ، وهو المراد من قوله

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٨٠ .
(٢) الدر المنثور ٢٤٠/١ .
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٠ .
(٤) الدر المنثور ٦٥/٤ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٢ .
(٦) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ واجعلنا مسلمين لك ﴾ [1] . وقول يوسف عليه السلام : ﴿ توفني مسلماً ﴾ [2] . فان الأنبياء عليهم السلام مبرأون عن الشرك الجلي ، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي ، وهو الالتفات إلى غير الله ، فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات ، فلذلك السبب تضرع الأنبياء عليهم السلام إلى الله تعالى في أن يصرفه عنهم .

* * *

الاسم السابع عشر « مقاليد السموات والأرض » :

قال الله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّموات والأرضِ ﴾ [3] . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله [4] . وأقول : هذا هو الحق ، ويدل عليه وجوه :

الأول : انه تعالى بين أنه لو كان في الوجود آلهان لحصل الفساد في العالم ، ولاختلت المصالح ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [5] . فثبت أن الشرك سبب لفساد العالم ، وأن التوحيد سبب لانتظام العالم . فثبت أن مقاليد السموات والأرض هو قول : لا إله إلا الله .

الثاني : إنا بينا أن الشرك سبب لفساد العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدّاً * إنْ دَعَوا للرَّحمن وَلَدا ﴾ [6] . وإذا كان كذلك كان التوحيد سبباً لعمران العالم .

الثالث : أن أبواب السموات لا تفتح عند الدعاء إلا بقول لا إله

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٨ .
(٢) سورة يوسف ، الآية : ١٠١ .
(٣) سورة الزمر ، الآية : ٦٣ .
(٤) تفسير القرطبي ، ١٦/٩٥ .
(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .
(٦) سورة مريم ، الآيتان ، ٩٠ ، ٩١ .

إلا الله ، وأبواب الجنان لا تنفتح إلا بهذا القول ، وأبواب النيران لا تغلق إلا بهذا القول ، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمة ، وأنواع الوساوس لا تندفع إلا بهذا القول ، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض ، وأعز مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول.

* * *

الاسم الثامن عشر « السديد » :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمنُوا اتّقُوا الله وقُولُوا قوْلاً سديداً ﴾ [1] . قيل في تفسيره : الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل ، كالسميع بمعنى السامع ، وقد يكون بمعنى المفعول ، كالقتيل بمعنى المقتول ، والجريح بمعنى المجروح . فإذا جعلته بمعنى الفاعل كان معناه : أنه يسد على صاحبه أبواب جهنم . وإذا حملته على معنى المفعول كان معناه : أنه يسد عن أن يضيره شيء من الذنوب .

وأيضاً فإن ذا القرنين بنى السد دفعاً لضرر يأجوج ومأجوج ، والله تعالى جعل الايمان سداً لضرر الشياطين من الجن والانس .

* * *

الاسم التاسع عشر « البر » :

قال الله تعالى : ﴿ ليْسَ البرّ أنْ تُولُّوا وجُوهَكُم قِبَلَ المشْرق والمغْرب ولكنّ البرّ منْ آمنَ بالله واليوم الآخر ﴾ [2] . والاشارة في الآية : أن من كان مشتغلاً بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر ، إنما صاحب البر هو الذي يتوجه إلى صاحب الكعبة : ﴿ إنّي وجّهْتُ وجْهي للذي فَطَرَ السّموات والأرضَ حنيفاً ﴾ [3] .فقوله :

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٧٩ .

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) اشارة إلى الكثرة والقول بالشركاء ، وقوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ اشارة إلى التوحيد ، فصار معناه هو المفهوم من قول « لا إله إلا الله » .

* * *

الاسم العشرون « الدين » :

قال الله تعالى : ﴿ إلاَ لله الدِّينُ الخالصُ ﴾ [1] . وأعلم أن الدين هو : الانقياد والخضوع . قال عليه الصلاة والسلام في دعواته : « يا مَنْ دانت له الرقاب » [2] . أي خضعت . فقوله : « ألا لله الدين الخالص » . أي له الخضوع والخشوع لا لغيره . وإنما يكون كذلك إذا كان واحداً في الالهية ، إذ لو وجد الاهان لكان كما أن الخضوع لأحدهما حاصل كان أيضاً حاصلا للثاني ، فلا يمكن ثبوت الخضوع إلا لله فقط ، فالحصر دل على أنه لا إله سواه ، ولا معبود إلا إياه .

* * *

الاسم الحادي والعشرون « الصراط » :

قال تعالى : ﴿ اهْدنا الصِّراطَ المُسْتقيم ﴾ [3] . وقال حكاية عن رسوله : ﴿ وإنَّ هذا صراطي مُسْتقيماً فاتّبعوه ﴾ [4] . وقال : ﴿ وإنّك لتهْدي إلى صراط مستقيم * صِراط الله الذي له ما في السّموات ومَا في الأرضِ ﴾ [5] .

واعلم أن هذا الصراط المستقيم هو قول لا إله إلا الله . وذلك

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٣ .
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ، عن ابن عمرو بن العاص .
(٣) سورة الفاتحة ، الآية : ٦ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .
(٥) سورة الشورى ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .

باعتبار أن حدوث كل محدث ، وامكان كل ممكن ، يحوجه إلى المؤثر الذي يوجده وينقله من العدم إلى الوجود ، وإذا كان الموجد والمدبر واحداً ، فمتى نسبت حدوث المحدثات ، ووجود الممكنات إلى قدرته كان ذلك صراطاً مستقيماً ، وطريقاً قويماً . ومتى نسبت حدوث محدث ، ووجود ممكن إلى غير قدرته ، كان ذلك طريقاً معوجاً ، وسبيلا منحرفاً . فثبت أن الصراط المستقيم لا يحصل لا باسناد كل الحوادث والممكنات إلى تخليق الله وتكوينه ، وإسناد الكل اليه ، فهو التوحيد . فثبت أن الصراط المستقيم هو قولنا : لا إله إلا الله .

* * *

الاسم الثاني والعشرون « كلمة الحق » :

لقوله تعالى : ﴿ ولاَ يمْلكُ الّذينَ يدْعُونَ منْ دونه الشّفاعةَ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحقّ ﴾ [1] . يعني قول لا إله إلا الله [2] .

* * *

الاسم الثالث والعشرون « العروة الوثقى » :

قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطّاغوتِ ويُؤمنْ بالله فَقَدْ استَمْسكَ بالعُروة الوُثْقى ﴾ [3] . يعني : بكلمة لا إله إلا الله [4] .

* * *

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٨٦ .
(٢) تفسير الخازن ، ١٥/٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦ .
(٤) انظر القرطبي : ١٩٥/١٧ .

الاسم الرابع والعشرون « كلمة الصدق » :

لقوله تعالى : ﴿ والّذي جاء بالصِّدْق وصَدّق بهِ ﴾[1] . أي قول **لا إله إلا الله**[2] .

* * *

فهذا جملة الكلام في لا إله إلا الله .. اللهم بحق أسمائك الطاهرة المقدسة ، احفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة في قلوبنا ، وذكرها على ألسنتنا ، يا أرحم الراحمين .

* * *

(١) سورة الزمر ، الآية : ٣٣ .
(٢) انظر القرطبي : ١٥/٩٧ .

الفصل الرابع

في

الأشياء التي تشبه الله تعالى بها كلمة التوحيد

الأول : النار :

الأول : أن الله تعالى شبه الايمان بالنار ، فقال : ﴿ مَثَلُهُم كَمَثَلِ الّذي اسْتَوقَدَ ناراً ﴾ [1] . وقال في آية أخرى : ﴿ ومِمّا يُوقِدونَ عليْهِ في النّار ﴾ [2] . وفيه إشارتان :

الأولى : كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش أحرقت كل ما فيه من الغش ، وبقي جوهر الذهب سليماً عن الاحتراق ، فكذلك يوم القيامة ، إذا عرض المذنب على النار أحرقت ذنوبه ومعاصيه ، وبقي إيمانه سليماً من الاحراق .

الثانية : أن النار تحرق كل شيء ، وكذا الايمان إذا قوي نوره أحرق ما سوى محبة الله تعالى عن القلب ، ﴿ قُلِ اللهُ ، ثُمّ ذَرْهُم في خَوْضِهم يَلْعَبُونَ ﴾ [3] .

* * *

الثاني : النور :

النوع الثاني من الأمور التي شبه الله بها الايمان : النور ، قال الله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُوره ﴾ [4] . . والسبب في أنه تعالى أضاف المعرفة إلى نفسه وجوه :

---

(1) سورة البقرة ، الآية : ١٧ .

(2) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

(3) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ .

(4) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

الأول : أنه تعالى إنما أضاف المعرفة إلى نفسه قطعاً للأطماع عنها ، وذلك لأنها جوهرة نفيسة ، وقيمتها رفيعة ، وصاحبها غافل ، والشيطان محتال مكار ، وأجل مقصوده أن يسلب المعرفة من العارف ، ويحول بينه وبينها ، والله تعالى برحمته جعل المعرفة في حمايته ، حتى ينقطع طمع إبليس عنها .

وتحقيقه : أنه لما قال : ﴿ إنَّ عِبادي ليْسَ لكَ عليْهم سُلْطانٌ ﴾[1] . فلما أضاف العباد إلى نفسه انقطع طمع إبليس عنهم فقال : ﴿ فبعزّتك لأغْوينّهم أجْمعينَ * إلاَّ عِبَادك منْهمُ المخْلصينَ ﴾[2] . فهنا لما أضاف الايمان إلى نفسه بقوله : (مثل نوره) لا جرم كان إبليس منقطعاً عنه .

الثاني : أن كل ما للعبد فهو للحق ، لأنه حصل بتخليقه وإيجاده ، فإذا بلغ العبد درجة يشهد فيها هذه الحالة فقد كملت حاله ، فعند ذلك قيل له : كل ما له فهو لنا ، وكل ما لنا فهو له . والمعرفة التي له فهي لنا ، فلا جرم اضافها إلى نفسه فقال : (مثل نوره) .

الثالث : أن تخصيص الشيء باضافته إلى الله تعالى سبب لتشريفه ، كما في قوله : ﴿ وطَهِّرْ بيتي ﴾[3] . وقوله : ﴿ هذِهِ نَاقَةُ الله ﴾[4] . وقوله : ﴿ وإنّه لمّا قامَ عَبْدُ الله ﴾[5] . فكذا هنا ، اضافة المعرفة إلى نفسه تدل على أنها أشرف الخلع والتشريفات .

ثم ههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة في أنه شبه نور المعرفة بنور السراج حيث قال : ﴿ مَثَلُ نُوره كَمِشْكاةٌ فيهَا مِصباحٌ ﴾[6] .

والجواب من وجوه :

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ .
(٢) سورة ص ، الآيتان : ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) سورة الحج ، الآية : ٢٦ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٧٣ .
(٥) سورة الجن ، الآية : ١٩ .
(٦) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

الأول : أن البيت إذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله ، مخافة أن يفتضح ، وكذا القلب ، إذا كان فيه سراج المعرفة لم يتجاسر الشيطان على دخوله مخافة أن يفتضح .

الثاني : إن البيت إذا كان فيه سراج اهتدى صاحبه إلى طلب الامتعة ، فكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة ، استدل صاحبه به إلى الشروع في الطاعات .

الثالث : إذا كان في البيت سراج انتفع بضيائه كل أحد من غير أن ينقص من استضاءة صاحبه بنوره شيئاً . وكذا كل قلب كان فيه سراج المعرفة انتفع بنوره غير صاحبه ، من غير أن ينقص من نور صاحبه شيء .

الرابع : أن السراج إذا كان في البيت ، وكان موضوعاً في كوة مسدودة بزجاجة ، إضاء داخل البيت وخارجه ، وكذلك سراج المعرفة يضيء القلب وخارج القلب ، حتى يظهر نوره على الأذنين والعينين واللسان ، فيظهر فنون الطاعات في هذه الأعضاء ، وإليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي عظمي نوراً ، وفي مخي نوراً » [1] .

الخامس : أن البيت إذا كان فيه سراج كان صاحبه مستأنساً مسروراً ، فإذا طفىء السراج صار مستوحشاً ، فكذلك القلب ، مادام فيه سراج المعرفة ، كان صاحبه مستأنساً مسروراً ، فإذا فارقه والعياذ بالله صار حزيناً مغموماً ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدْ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرحْ صَدْرَهُ للإسلام ، ومَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّه يَجْعل صدْرَه ضيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يصَّعَّدُ في السَّماء ﴾ [2] .

السادس : أن جرم السراج صغير ، وضوؤه منتشر عن كل جانب ، فكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب إلى جميع الجوانب كما قال الله

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ، عن ابن مسعود .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ .

تعالى : ﴿ وللهِ المَشْرقُ والمغْربُ فأينَمَا تُولُّوا فثمّ وجهُ الله ﴾ [1] . وخصوصاً من الجانب العلوي ، قال الله تعالى : ﴿ إليْه يَصْعدُ الكَلِم الطّيِّب ﴾ [2] .

السؤال الثاني : ما الفرق بين سراج الدنيا الذي هو الشمس وبين سراج المعرفة ؟ .

والجواب : الفرق من وجوه :

الأول : أن الشمس تحجبها غمامة، والمعرفة لا تحجبها سبع سموات.

الثاني : أن الشمس تغيب بالليل ، والمعرفة لا تغيب لا ليلا ولا نهاراً، بل هي في الليل أكد ، قال الله تعالى : ﴿ إن نَاشئةَ اللّيلِ هيَ أشدُّ وطْأً وأقومُ قيلاً ﴾ [3] . وقال تعالى : ﴿ سُبْحانَ الذي أسْرى بعَبْده ليْلاً ﴾ [4] . وقال : ﴿ ليْلَةُ القَدْرِ خيْرٌ منْ ألْفِ شَهر﴾ [5].

الثالث : إن الشمس تفنى . قال الله تعالى : ﴿إذا الشّمسُ كُوّرتْ﴾ [6] وأما المعرفة فلا تفنى . قال الله تعالى : ﴿ كُلّ شيء هَالكٌ إلاّ وجهه﴾ [7]. أي إلا ما حصل برضاه ..

الرابع : الشمس تنكشف ، والمعرفة لا تنكشف .

الخامس : الشمس تسود الأشياء والمعرفة تبيضها .

السادس : الشمس تحرق ، والمعرفة تنجي من الحرق .

السابع : الشمس تارة تضر وتارة تنفع ، والمعرفة تنفع ولا تضر البتة .

الثامن : الشمس منفعتها في الدنيا ، والمعرفة منفعتها في الدنيا والآخرة.

---

(1) سورة البقرة ، الآية : ١١٥ .
(2) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .
(3) سورة المزمل ، الآية : ٦ .
(4) سورة الإسراء ، الآية : ١ .
(5) سورة القدر ، الآية : ٣ .
(6) سورة التكوير ، الآية : ١ .
(7) سورة القصص ، الآية : ٨٨ .

التاسع : الشمس في السماء زينة لأهل الأرض ، والمعرفة زينة لأهل السماء .

العاشر : الشمس في الفوق ، وهي تضيء ما تحتها ، والمعرفة في قلب المؤمن ، وهو في التحت ، وهي تضيء ما فوقها .

الحادي عشر : بالشمس ينكشف وجود الخلق ، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق . والدليل عليه قول أمير المؤمنين عليّ حين قيل له : هل رأيت ربك ؟ فقال : لا أعبد رباً لم أره .

الثاني عشر : الشمس تقع على العدو والولي ، والمعرفة ليست إلا للولي .

الثالث عشر : ولاية الشمس في الدنيا دون الآخرة ، أما المعرفة فإنها في الدنيا ذات بداية ، وفي الآخرة ذات ولاية .

وأيضاً فإن الكوكب مصباح الخلق والمعرفة مصباح الحق .

وأيضاً فإن الكواكب تطلع من خزانة الفلك ، والمعرفة تطلع من خزانة الملك .

وأيضاً فإن الكواكب علامة ، والمعرفة كرامة .

وأيضاً فإن الكواكب موضع نظر المخلوقين ، والمعرفة موضع نظر رب العالمين . قال عليه السلام : « إنّ اللهَ لا ينظرُ إلى صوركم ولا أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

السؤال الثالث : ما الفرق بين السراج والمعرفة ؟ .

الجواب من وجوه :

الأول : إن سراج الدنيا مشوب نوره بالظلمة ، وهي الدخان الذي يعلوه ، وسراج المعرفة نوره صاف ، لا ظلمة معه .

(١) أخرجه الطبراني ، وأبو يعلى ، عن عمران ابن حصين .

الثاني : إن سراج الدنيا يحرق نفسه لينتفع به غيره ، وسراج المعرفة يحرق الذنب ، ويروح السر ، وينور الصدر .

الثالث : إن سراج الدنيا يضمحل من نور الشمس ، وأما سراج المعرفة والتوحيد فإنه يضمحل نور الشمس من نوره .

الرابع : أن سراج الدنيا لا وفاء له ، يحرق من أوقده ، ومن أمده بالفتيلة ، كما يحرق من لم يوقده ولم يمده بالفتيلة ، وسراج المعرفة ذو وفاء ، لا يحرق صاحبه البتة ، بل ينجيه من الحرق ، فشتان ما بين السراجين .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تشبيه المعرفة بالمصباح ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن المصباح تضره الرياح ، والمعرفة يضرها الوسواس والشبهات .

الثاني : أن المصباح لا يبقى بغير الدهن ، والمعرفة لا تبقى بغير التوفيق .

الثالث : لا بد للمصباح من حافظ يتعهده ، ولا بد لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله ورحمته ..

السؤال الخامس : ما الحكمة في تشبيه القلب بالزجاجة ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنهما كثيفان ، يوقعان الحجاب ، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا توقع الحجاب ، فإنه يرى ظاهرها من باطنها وبالضد ، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه .

الثاني : أنه ليس لآنية الزجاجة خطر ، إنما الخطر في الآنية ، فكذا ليس لقلبك خطر ، إنما الخطر للايمان .

الثالث : إذا انكسرت الزجاجة لم تصلح إلا بادخال النار والاذابة ، وكذا القلب إذا فسد لم يصلح إلا بادخال النار والاذابة ﴿ وإنْ منْكُم إلاَّ واردُها ، كانَ على ربِّكَ حتْماً مقضيّاً * ثمّ نُنجّي الّذينَ اتّقَوا ﴾ [1] .

الرابع : أن صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسرها لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الانكسار ، وأما صاحب الزجاجة فإنه على حذر ووجل ، لعلمه بأنها إذا انكسرت بطلت قيمتها ، فكذلك المؤمن ينبغي أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة ، ولا يكون على أمن كصاحب الذهب والفضة .

الخامس : شبهه بالزجاجة لأن النور من الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه في الذهب والفضة . والزجاجة لقلة قيمتها . واستعدادها للانكسار والبطلان صار النور فيها أحسن ، وهو اشارة إلى قوله : « أنا عند المنكسرة قلوبهم » .

السؤال السادس : ما الحكمة في تشبيه الزجاجة بالكوكب الدري ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن الكوكب الدري فيه لأهل الأرض هداية كما قال تعالى: ﴿ وعلاماتٍ ، وبالنّجم هُمْ يهْتدونَ ﴾ [2] . ولأهل السماء زينة ، قال تعالى : ﴿ إنّا زيّنا السّماء الدُّنْيا بزينةِ الكواكب ﴾ [3] . وكذلك قلب المؤمن ، سبب لهداية صاحبه إلى الخيرات ، وأيضاً نزهة لأهل السماء ، فإنه روي أن معرفة العارف تضيء لأهل السماء كما تضيء الكوكب الدري لأهل الأرض .

الثاني : الكوكب لا قدرة للشياطين عليه ، بل الكوكب يحرق الشياطين ، قال الله تعالى : ﴿ وجَعَلْناها رُجُوماً للشّياطينِ ﴾ [4] .

---

(١) سورة مريم ، الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .
(٢) سورة النحل ، الآية : ١٦ .
(٣) سورة الصافات ، الآية : ٦ .
(٤) سورة الملك ، الآية : ٥ .

فكذلك قلب المؤمن لا سبيل للشياطين عليه ، بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشياطين ، ولذلك قال : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلْطانٌ ﴾ [1]. وقال : ﴿ الّذينَ يُوسوِسُ في صُدُورِ النّاس ﴾ [2] . ولم يقل : في قلوب الناس . وقال : ﴿ إنّ الذينَ اتّقَوْا إذا مَسّهُم طائفٌ منَ الشّيْطانِ تذكّروا فإذا هُمْ مُبْصِرونَ ﴾ [3] . فذلك التذكر هو ظهور نور الايمان . وقوله : ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ اشارة إلى احتراق وساوس الشياطين .

السؤال السابع : ما الحكمة في أنه شبه القلب بالكوكب لا بالشمس والقمر ؟ .

الجواب من وجوه :

الأول : أن الكوكب مستتر بالنهار ويظهر بالليل ، والعارف مستور بالنهار ، فإذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع .

الثاني : أن الكوكب زينة السماء ، والقلب زينة العارف .

الثالث : أن الكوكب مصابيح السماء ﴿ ولَقَدْ زيّنا السّماء الدنْيا بمَصابيحَ ﴾ [4] . والقلب مصباح العارف ، قال تعالى : ﴿ كمشْكاة فيهَا مصْباحٌ ﴾ [5] .

السؤال الثامن : هل في تشبيه الايمان بالسراج بشارة لأهل الايمان ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن الشمس سراج استوقده الله تعالى للفناء ، ثم لا يقدر أحد على اطفائه ، والمعرفة سراج استوقده الله تعالى للبقاء ، فكيف يقدر إبليس على اطفائه ؟ .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ .
(٢) سورة الناس ، الآية : ٥ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠١ .
(٤) سورة الملك ، الآية : ٥ .
(٥) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

الثاني : استوقد الله تعالى سراج الشمس في السماء ، فهي تزيل الظلمة عن بيتك ، فإذا استوقد شمس المعرفة في قلبك كيف لا تزول ظلمة المعصية عنك مع شدة القرب ؟ .

الثالث : من استوقد سراجاً فعليه تعهده ، والله هو الموقد لسراج المعرفة ، قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ في قُلُوبهم الايمَانُ ﴾ (1) . فلا جرم أوجب على رحمته امداده وتعهده ، وعواطف تعهده عاطفة حافظة ، كما قال تعالى : ﴿ إنّا نحنُ نزّلنا الذّكْرَ وإنّا لَهُ لحافظونَ ﴾ (2) .

الرابع : اللص إذا رأى السراج في البيت مستوقداً لا يقصد ذلك البيت بالسرقة ، والله تعالى أوقد سراج المعرفة في قلبك ، فكيف يقدر لص الشيطان من القرب منك ؟ .

الخامس : المجوس أوقدوا ناراً ولا يريدون اطفاءها ، والملك القدوس أوقد نار المعرفة والمحبة في قلبك ، فكيف يرضى باطفائها وإبطالها .

السادس : من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء : إلى زناد . وحجر ، وحراق ، وكبريت ، ومسرجة ، وفتيلة ، ودهن . والعبد إذا طلب أن يوقد سراج المعرفة فلا بد من زناد الجهد ﴿ والّذينَ جاهَدُوا فينَا لنَهْدينّهُم سُبُلَنا ﴾ (3) وحجر التضرع : ﴿ ادْعُوا ربّكُم تَضَرُّعاً وخُفْيةً ﴾ (4) . وأما الحراق فهو إحراق النفس بمنعها من شهواتها قال تعالى : ﴿ ونَهَى النّفْسَ عن الهوى ﴾ (5) . والرابع كبريت الانابة : ﴿ وأنيبُوا إلى ربّكُم ﴾ (6) . والخامس : مسرجة الصبر : ﴿ واصْبروا ، إنّ اللهَ مَعَ الصّابرينَ ﴾ (7) . والسادس : فتيلة الشكر : ﴿ واشْكُروا نِعْمَةَ الله إنْ كُنْتم إيّاهُ تَعْبُدونَ ﴾ (8)

---

(1) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .
(2) سورة الحجر ، الآية : ٩ .
(3) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٩ .
(4) سورة الأعراف ، الآية : ٥٥ .
(5) سورة النازعات ، الآية : ٤٠.
(6) سورة الزمر ، الآية : ٥٤.
(7) سورة الأنفال ، الآية : ٤٦.
(8) سورة النحل ، الآية : ١١٤.

والسابع : دهن الرضاء بقضاء ربك ، قال تعالى : ﴿ واصبرْ لحكم ربِّكَ ﴾ [١] . وقال عليه السلام : « الرضا بالقضاء باب الله الأعظم » [٢] فهذه الحرفة متعلقة بك في حفظ عهد العبودية وإذا وفيت بعهد العبودية فهو أولى أن يفي بعهد الربوبية كما قال تعالى : ﴿ وأوفُوا بعهْدي أوفِ بِعَهْدكُم ﴾ [٣] . فتحفظ هذه المعرفة في قلبك ، وهذا الذكر في لسانك ، واجعلها نوراً باقياً معك في القبر والظلمات والقيامة .

* * *

النوع الثالث : التّراب :

من الأمور التي شبه الله تعالى الايمان بها : التّراب . قال تعالى : ﴿ والبَلَدُ الطيِّبُ يخْرجُ نَبَاتُه بإذْن ربِّه ﴾ [٤] .

ووجه المشابهة : أن التّراب ذو أمانة ، من أودع فيه شيئاً سلم اليه أضعافاً ، قال الله تعالى : ﴿ في كلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [٥] . فكذا المؤمن إذا عمل عملا سلم اليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ إنّما يُوفّى الصَّابرونَ أجْرَهُم بغيْرِ حساب ﴾ [٦] .

الثاني : من خاصية الأرض أنها يطرح عليها كل قبيح ، ويخرج منها كل مليح ، فكذا أرض الايمان ، يطرح عليها قبائح الكفر والذنوب، ثم يخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان : ﴿ فأولئكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ ﴾ [٧] .

---

(١) سورة الطور ، الآية : ٤٨ .
(٢) لم نعثر على هذا النص فيما لدينا من مصادر .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٤٠ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٥٨ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١ .
(٦) سورة الزمر ، الآية : ١٠ .
(٧) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ .

الثالث : من خاصية الأرض أنها كالأم الحاضنة لك ، فهي كالمهد ، قال الله تعالى : ﴿ ألَمْ نجْعلِ الأرضَ مهَاداً ﴾ [1] . وكالخزانة لك ﴿ خلَقَ لَكُمْ ما في الأرضِ جميعاً ﴾ [2] . وكالأم المشفقة عليك : ﴿ منْها خلَقْناكُم وفيهَا نُعيدكُم ومنْها نخرجكُم تارةً أخرى ﴾ [3] فكذا الايمان . منه يحصل جميع منافعك في الدنيا والعقبى .

* * *

النوع الرابع : الماء :

من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الايمان والقرآن : الماء . قال الله تعالى : ﴿ أنْزلَ منَ السّماء ماء فَسَالتْ أوْدية بقَدَرها فاحتمَل السّيْلُ زبَداً رابياً ، ومما يُوقدون عليه في النارِ ابتغاءَ حلية او متاع زبد مثلُه ، كذلك يَضْربُ اللهُ الحقّ والبَاطل ، فأمّا الزّبدُ فيَذْهبُ جفاء ، وأمّا ما ينْفعُ النّاسَ فيمْكثُ في الأرض ، كذلك يضْربُ اللهُ الأمْثالَ ﴾ [4] . أي الايمان والكفر . فالزبد الكفر ، والايمان الماء . وفي تقرير وجه المشابهة وجوه .

الأول : الماء يزيل النجاسة عن الثوب ﴿ وأنْزلنا منَ السّماء ماء طَهُوراً ﴾ [5] . ﴿ وثيَابكَ فَطَهّرْ ﴾ [6] . فكذلك الايمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب ، قال عليه الصلاة والسلام : « الاسلام يجب ما قبله » .

الثاني : ان الله تعالى سمى الماء المنزل من السماء رحمة ، فقال : ﴿ وهُو الذي يُرْسل الرِّياح بُشْراً بيْنَ يَدَيْ رحْمته ﴾ [7] . وسمى القرآن رحمة فقال : ﴿ وهُدىً ورحْمةً للمُؤمنينَ ﴾ [8] . وجعل

---

(١) سورة النبأ ، الآية : ٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٩ .
(٣) سورة طه ، الآية : ٥٥ .
(٤) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .
(٥) سورة الفرقان ، الآية : ٤٨ .
(٦) سورة المدثر ، الآية : ٤ .
(٧) سورة الأعراف ، الآية : ٥٧ .
(٨) سورة يونس ، الآية : ٥٧ .

الايمان رحمة وسبباً للرحمة فقال : ﴿ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الايمانَ ﴾ [1] . وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُم على نفْسه الرّحْمة ﴾ [2] . فلا جرم شبه القرآن والايمان بالماء لهذا السبب .

الثالث : أن الله تعالى سمى القرآن مباركاً فقال : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أنْزلْناهُ ﴾ [3] . وقال في الماء : ﴿ ونزّلْنا منَ السّماء ماء مُبَاركاً ﴾ [4] . فلا جرم شبه الايمان وكذا القرآن بالماء لكون كل منهما مباركاً .

الرابع : أن الماء شفاء للنفوس ، والقرآن شفاء للقلوب ، قال الله تعالى : ﴿ ونُنَزِّلُ منَ القُرْآن ما هُوَ شِفاء ورحْمةٌ للمُؤمنين ﴾ [5] . فهو شفاء لقلوبهم ، ورحمة لذنوبهم .

الخامس : كما أنه تعالى هو الذي أنزل الماء من السماء ، فلا يقدر عليه أحد سواه ....

السادس : كما أن الله تعالى اذا أنزل المطر من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، فكذلك لما أنزل القرآن من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، وادخال الباطل عليه ﴿ وانّهُ كتابٌ عزيزٌ * لا يأتيه البَاطلُ منْ بين يدَيْه ولا مِنْ خلْفه ﴾ [6] .

السابع : أن المطر لا يقدر مخلوق أن يحصي عدد قطراته ، فكذا القرآن لا يحيط أحد بكمال أسراره ، ولطائف حقائقه .

الثامن : كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ، ثم يسيل في الأرض نهراً نهراً ، وبحراً بحراً ، فكذلك القرآن ، ينزل من السماء آية آية ، ونجماً نجماً ، ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً . وفي الخبر : أن القرآن بحر عميق لا يدرك قعره .

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٥٤ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٠ .
(٤) سورة ق ، الآية : ٩.
(٥) سورة الاسراء ، الآية : ٨٢.
(٦) سورة فصلت ، الآيتان : ٤١ ، ٤٢.

التاسع : كما أن المطر لو نزل من السماء دفعة واحدة لاقتلع الأشجار وخرب الديار ، وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح ، فكذا القرآن لو نزل جملة واحدة ، لضلت فيه الأفهام ، وتاهت فيه الأوهام ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أنْزَلْنا هذَا القُرْآن على جبلٍ لرأيْتَه خاشِعاً مُتَصدِّعاً منْ خشيةِ الله ﴾ [1] .

العاشر : كما أن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بالمطر ، فكذلك أحيا القلوب الميتة بالقرآن . قال الله تعالى : ﴿ أوَمَنْ كانَ مَيْتاً فأحْيَيْناهُ ﴾ [2] .

الحادي عشر : كما أن المطر الواحد يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان ، وعلى أرض أخرى فيخرج منه الشوك والسم ، فكذا القرآن ، يقع على قلب المؤمن المطيع فيخرج منه ورد العبودية ، وريحان الطاعة ، ويقع على قلب الكافر ، فيخرج منه سم الكفر ، وشوك المعصية . قال الله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بهِ كثيراً ويهْدي بهِ كثيراً ﴾ [3] .

الثاني عشر : أن في الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه ، فكذلك في القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم .

الثالث عشر : أن الماء الكثير اذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة هلك ، فكذلك القرآن ، اذا تكلم فيه واحد بغير علم . قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ فسَّرَ القرآن برأيه فلْيتبوأ مقعده منَ النار » [4] .

الرابع عشر : كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع ، فكذلك الكلام في القرآن فوق الفهم والفطنة يضر ولا ينفع . قال عليه الصلاة والسلام : « أُمرتُ أن أكلِّم النّاس على قدر عقُولهم » [5] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ٢١ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .
(٤) أخرجه مسلم ، عن ابن عمر .
(٥) أخرجه ابن ماجه ، والترمذي عن ابن مسعود .

الخامس عشر : اذا نزل المطر زال القحط ، وظهر النبات والغذاء والفواكه ، فكذلك كان قبل نزول القرآن قحط الدين ، فلما نزل القرآن زال القحط في الدين ، وظهرت أنواع الغذاء والفواكه للروح ، وهو بيان التوحيد والنبوة والشرائع .

السادس عشر : كما أن الماء يطفيء النار . فكذلك الايمان والقرآن يطفئان عن المؤمن الذي هو حامل القرآن والايمان نار جهنم [1] .

* * *

النوع الخامس : الحبل :

من الأشياء التي شبه الله بها الايمان : الحبل . قال الله تعالى : ﴿ واعْتَصمُوا بحَبْلِ الله جميعاً ﴾ [2] . ووجه المشابهة من وجوه .

الأول : أن من أراد أن يصعد من الأسفل الى العلو ، وخاف من الانزلاق ، فإذا تمسك بحبل أمن من ذلك الخوف . فالعبد اذا أراد أن يصعد من سفل البشرية الى عالم الجلال والكبرياء ، وخاف أن ينزلق قدم عقله ، فإذا تمسك بالقرآن أمن منه .

الثاني : أن الأعمى إذا أراد الذهاب إلى موضع ، فإن كان بين مكانه وبين ذلك الموضع حبل ممدود ، وتمسك بذلك الحبل ذهب فارغاً من كل خوف ، فكذلك العقول البشرية كالأعمى في سلوك سبيل التوحيد والمعرفة ، فإذا تمسكت بالقرآن أمنت من الخوف .

الثالث : أن من سقط في البئر فطريق تخليصه أن يرسل اليه حبل ، حتى يتعلق به ويصعد ، وينجو من المهالك ، فالأرواح البشرية وقعت في هاوية عالم الأجسام ، فالملك الرحيم أرسل اليها حبل القرآن ، فمن

---

(١) وردت أحاديث كثيرة في هذا .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣.

تعلق به وصعد نجا ، ومن لم يتعلق به ففي بئر الظلمات وقع وكان من الهالكين .

* * *

النوع السادس : شجرة الزيتون :

من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الايمان : شجرة الزيتون . قال الله تعالى : ﴿ وشَجَرةً تخْرُجُ منْ طُورِ سيْناء تَنْبُتُ بالدُّهنِ وصبْغٍ للآكلينَ ﴾ (١) . وذكروا في وجه التشبيه أمرين :

الأول : أنه تعالى إنما شبه الايمان بهذه الشجرة ، لأن هذه الشجرة في أكثر الأمور إنما تنبت في الأمكنة المطهرة ، فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب ، بل في القلوب المطهرة .

الثاني : أن شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذي هو في غاية الصفاء ، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الايمان والمعرفة ، وهما أصفى الأنوار وأشرفها .

* * *

تكريم المؤمنين :

واعلم أن الله قد وعد المؤمنين بعشر كرامات :

الأولى : المغفرة . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ للذينَ كَفَروا أنْ يَنْتَهوا يُغْفَرْ لهُمْ ما قدْ سَلَفَ ﴾ (٢) . والمعنى : إن قبلوا الايمان ، وتركوا الكفر .

وثانيها : الأمن ، قال تعالى : ﴿ الّذينَ آمنوا ولَمْ يَلْبسوا إيمانَهُم بظُلْمٍ أولئك لهُمُ الأمْنُ وهُمْ مُهْتَدونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٠ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٣٨ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٨٢ .

وثالثها : الهداية . قال تعالى : ﴿ إنَّ الّذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ يهْديهم ربُّهُمْ بإيمانهم ﴾ (١) .

ورابعها : الزيادة . قال تعالى : ﴿ للّذينَ أحْسَنُوا الحُسْنى وزيادةٌ ﴾ (٢) .

وخامسها : الفلاح . قال تعالى : ﴿ قَدْ أفْلَحَ المُؤمنُونَ ﴾ (٣) .

وسادسها : الثبات . قال الله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الّذينَ آمنُوا بالقَوْل الثّابت ﴾ (٤) .

وسابعها : الشفاعة : قال تعالى : ﴿يومئذٍ لا تنفَعُ الشّفاعة إلاّ مَنْ أذِنَ لهُ الرّحْمنُ ورضيَ لهُ قَوْلاً ﴾ (٥) . يعني قول لا إله إلا الله.

وثامنها : اصلاح الاعمال . قال الله تعالى : ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمنُوا اتّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلاً سديداً ﴾ (٦) إلى قوله : ﴿ يُصْلحُ لَكُمْ أعْمَالكُم ﴾ (٧) .

وتاسعها : البشرى . قال تعالى : ﴿ وابْشِروا بالجنّةِ الّتي كُنْتُم تُوعَدُونَ ﴾ (٨) .

وعاشرها : كلام الله تعالى ورؤيته يوم القيامة . قال تعالى : ﴿سَلامٌ قولا منْ رب رحيم ﴾ (٩) . ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة * إلى ربّها ناظرةٌ ﴾ .

* * *

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩ .
(٢) سورة يونس ، الآية : ٢٦ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية : ١ .
(٤) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧ .
(٥) سورة طه ، الآية : ١٠٩ .
(٦) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٠ .
(٧) سورة الأحزاب ، الآية : ٧١ .
(٨) سورة فصلت ، الآية : ٣٠ .
(٩) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣.

الفصل الخامس

في

شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله

وهي وجوه

البحث الأول :

زعم جماعة من النحويين أن هذا الكلام فيه حذف وإضمار . ثم ذكروا فيه وجهين : أحدهما : التقدير : لا إله لنا إلا الله . والثاني : لا إله في الوجود إلا الله .. واعلم أن هذا الكلام غير سديد لوجوه :

أما الأول : فلأنه لو كان التقدير : لا إله لنا إلا الله ، لم يكن هذا الكلام يفيد التوحيد الحق ، إذ يحتمل أن يقال : هب أنه لاإله لنا إلا الله . فلمَ قلتم : إنه لا إله لجميع المحدثات الممكنات إلا الله ؟ ولهذا السبب فإنه تعالى لما قال : ﴿ وإلهُكُم إلهٌ واحدٌ ﴾ [1] . قال بعده : ﴿ لاَ إلـٰه إلاَّ هوَ الرَّحْمٰن الرَّحيم ﴾[1] . لأنه لما قال : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ بقي للسائل أن يسأل ويقول : هب أن إلهنا واحد ، فلمَ قلتم أن إله الكل واحد ؟ فلأجل ازالة هذا السؤال قال تعالى بعده : (لا إله إلا هو) . ولو كان المراد من قوله (لا إله إلا هو) : أنه لا إله لنا إلا هو كان هذا تكراراً محضاً .

وأما الثاني : فهو قولهم : التقدير : لا إله في الوجود إلا الله . فنقول : وأي حامل يحملكم على التزام هذا الاضمار ؟ بل نقول : حمل هذا الكلام على ظاهره أولى من ذلك الاضمار الذي ذكرتم . وذلك

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٣ .

لأننا لو ألزمنا ذلك الاضمار كان معناه : لا إله في الوجود إلا هو ، فكان هذا نفياً لوجود الاله . أما لو أجرينا الكلام على ظاهره كان هذا نفياً لماهية الاله الثاني . ومعلوم أن نفي الماهية أولى وأقوى من اثبات التوحيد في نفي الوجود ، فثبت أن اجراء الكلام على ظاهره أولى .

فإن قيل : إن نفي الماهية غير معقول ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بسواد ، كنت قد حكمت بأن السواد انقلب إلى نقيضه ، وصيرورة الشيء عين نقيضه غير معقول . أما إذا قلت : السواد غير موجود كان هذا كلاماً معقولا ، فلهذا السبب أضمرنا فيه هذا الاضمار .

فالجواب : أن قولكم نفي الماهية غير معقول باطل . فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود ، لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية ، فإذن نفيت الماهية المسماة بالوجود . وإذا كان كذلك صار نفي الماهية أمراً معقولا ، وإذا عقل ذلك فلمَ لا يجوز اجراء هذه الكلمة على ظاهرها ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فإنك ما نفيت الماهية ، وما نفيت الوجود أيضاً ، وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود ، فنقول : موصوفية الماهية بالوجود ، هل هي أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا . فإن كانت مغايرة لهما كانت تلك المغايرة ماهية ، فكأن قولنا : السواد ليس بموجود نفياً لتلك الماهية المسماة بالموصوفية ، وحتى يعود الكلام المذكور . وأما إن قلنا : أن موصوفية الماهية بالوجود ليست أمراً مغايراً للماهية وللوجود امتنع توجيه النفي اليها ، وإذا امتنع ذلك بقي النفي متوجهاً إما إلى أي ماهية ، وإما إلى الوجود ، وحتى يحصل غرضنا من أن الماهية يمكن نفيها ، وإذا كان الأمر كذلك صح قولنا : لا إله إلا الله حقاً وصدقاً من غير اضمار .

* * *

البحث الثاني :

قال النحويون : قولنا لا إله إلا الله ارتفع لأنه بدل من موضع « لا » مع الاسم . وبيانه : أنك إذا قلت : ما جاءني رجل إلا زيد ، فزيد مرفوع بالبدلية ، لأن البدل هو الاعراض عن الاول ، والأخذ بالثاني ، فصار التقدير : ما جاءني إلا زيد . وهذا معقول ، لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد ، وأما قوله : جاءني القوم إلا زيد ، فههنا البدلية غير ممكنة ، لأنه يصير التقدير : جاءني إلا زيد ، وذلك يقتضي أنه جاءه كل أحد إلا زيداً . وذلك محال ، فظهر الفرق .

* * *

البحث الثالث :

اتفق النحويون على أن محل « الا » في هذه الكلمة محل غير . والتقدير : لا إله غير الله . وهو كقول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه　　لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى : كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه . قال الله تعالى : ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ الله لفَسَدتا ﴾ [1] . قالوا : التقدير : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا . والذي يدل على صحة ما قلناه : أنه لو حملنا « إلا » على الاستثناء لم يكن لا إله إلا الله توحيداً محضاً ، لأنه يصير تقدير الكلام : لا إله يستثنى عنهم الله . فيكون هذا نفياً لآلهة يستثنى عنهم الله ، ولا يكون الآلهة بحيث يستثنى عنهم الله ، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون اثباتاً لذلك ، وهو كفر . فثبت أنه لو كانت كلمة « إلا » محمولة على الاستثناء لم يكن قولنا : لا إله إلا الله توحيداً محضاً . ولما اجتمعت العقلاء على أنها تفيد التوحيد المحض وجب حمل « إلا » على معنى « غير » حتى يكون معنى الكلام : لا إله غير الله .

* * *

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

البحث الرابع :

قال جماعة من الأصوليين : الاستثناء من النفي لا يكون اثباتاً . احتجوا عليه بوجهين :

الأول : أن الاستثناء مأخوذ من قولك : ثنيت الشيء عن جهته ، إذا صرفته عنها ، فإذا قلت : لا عالم ، فههنا أمران : أحدهما الحكم بهذا العدم ، والثاني نفس هذا العدم ، ثم إذا قلت عقيبه : إلا زيد ، فهذا الاستثناء يحتمل أن يكون عائداً إلى الحكم بذلك العدم ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى نفس ذلك العدم . فإذا كان عائداً إلى الحكم بالعدم ، لم يلزم تحقق الثبوت ، لأن سبب الاستثناء يزول بالحكم بالعدم ، وعند زوال الحكم بالعدم يبقى المستثنى مسكوتاً عنه ، غير محكوم عليه لا بالنفي ولا بالاثبات ، وحينئذ لا يلزم الثبوت . أما إن كان تأثير الاستثناء في صرف العدم ومنعه ، فحينئذ يلزم تحقيق الثبوت ، لأنه لما ارتفع العدم وجب حصول الوجود ، ضرورة أنه لا واسطة بين النقيضين . وإذا ثبت هذا فنقول : عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس العدم ، وهذا يدل عليه وجهان :

الأول : أن الالفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية ، لا على الموجودات الخارجية ، فإنك إذا قلت : العالم قديم ، فهذا يدل على كون العالم قديماً في نفسه ، ولكن إذا قلنا : العالم حادث ، لزم كون العالم قديماً وحادثاً ، وذلك محال ، بل هذا الكلام يدل على حكمك بقدم العالم . وإذا كانت الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية كان صرف ذلك الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من صرفه إلى نفس ذلك العدم .

والوجه الثاني : في بيان عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس ذلك العدم ، وذلك لأن عدم الشيء في نفسه ووجوده لا يقبل تصرف هذا القائل ، بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم ، وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء إلى الحكم أولى من عوده إلى المحكوم به .

الحجة الثانية : في بيان كون الاستثناء من النفي ليس باثبات هو أنه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة للاستثناء مع أنه لا يقتضي الثبوت . قال عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح إلا بولي » ، و « لا صلاة إلا بطهور » . ويقال في العرف : لا عز إلا بالمال ، ولا مال إلا بالرجال . ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط . أقصى ما في الباب أن يقال : قد ورد هذا اللفظ في صورة أخرى ، وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي اثباتاً ، لأنا نقول : أنه لا بد وأن يكون مجازاً في إحدى الصورتين ، إلا أنا نقول : إذا قلنا : أنه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي اثباتاً ، بحيث افاد ذلك ، احتمل أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر ، ولا يكون ذلك تركاً لما دل اللفظ عليه ، فإن قلنا : أنه يقتضي أن يكون الخارج من النفي اثباتاً بحيث لا يفيد ذلك ، لزمنا ترك العمل بما يكون اللفظ دليلا عليه ، ومعلوم أن الأول أولى ، لأن اثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدليل ، أما ترك ما دليل عليه يكون مخالفاً للدليل فثبت بما ذكرنا أن الاستثناء من النفي لا يكون اثباتاً . فإذا ثبت هذا كان قولنا « لا إله إلا الله » تصريحاً بنفي سائر الآلهة ، ولا يكون اعترافاً بوجود الله . وإذا كان كذلك لم يكن مجرد هذا القول كافياً في صحة الايمان .

وههنا إشكال آخر ، وهو أننا قد دللنا على أن « إلا » بمعنى غير في هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان قولنا « لا إله إلا الله » معناه : لا إله غير الله . فيصير المعنى نفي إله يغاير الله ، ولا يلزم من نفي ما يغاير الشيء اثبات هذا ، وحينئذ يعود الاشكال .

والجواب من وجهين :

الأول : أن اثبات الاله سبحانه كان متفقاً عليه بين سائر العقلاء بدليل قوله : ﴿ ولئنْ سألْتَهُم مَنْ خَلَقَ السّمواتِ والأرضَ لَيَقُولنّ اللهُ ﴾ [1] . فكان ذلك مفروغاً عنه ، متفقاً عليه ، إلا أنهم

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٥ . وسورة الزمر ، الآية : ٣٨ .

كانوا يثبتون الشركاء والأنداد . فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الأضداد والأنداد ، فأما القول بإثبات الاله للعالم فذلك من لوازم العقول ..

الثاني : إذا سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفي سائر الآلهة دلت على اثبات الهية الله تعالى ، إلا أنّا نقول : هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة . فهذا تمام القول في هذا المقام .

* * *

البحث الخامس :

اعلم أنه يجوز أن يقال : لا رجل في الدار ، وأن يقال : لا رجل إلا في الدار . أما على الوجه الأول فإنه يوجب نفي الرجال بالكلية . والدليل عليه أن قولنا « لا رجل » يقتضي نفي ماهية الرجل . ونفي الماهية يقتضي انتفاء كل افراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية ضرورة أنه متى ثبت فرد من أفراد الماهية فقد ثبتت الماهية لا محالة . وأما قولنا « لا رجل إلا في الدار » فهو نقيض قولنا « لا رجل في الدار » ولكن قولنا : لا رجل إلا في الدار يفيد ثبوت رجل واحد ، فقولنا لا رجل في الدار وجب أن يفيد عموم النفي ، حتى يتحقق التناقض بين القولين .

والحاصل أن قولنا : « لا رجل » أقوى في الدلالة على عموم النفي من قولنا « لا رجل » مع أن كل واحد منهما يفيد عموم النفي ، ولأجل أن كل واحد منهما يفيد العموم قرىء : ﴿ لا ريبَ فيه ﴾ [1] . بالقراءتين ، وكذا قوله : ﴿ فلاَ رفَثَ ولا فُسُوق ولا جِدال ﴾ [2] . ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على العموم اتفقوا عليه في قولنا « لا إله إلا الله » .

* * *

(١) سورة البقرة ، الآية : ١ . (٢) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

البحث السادس :

من الناس من يقول : أن تصور الاثبات مقدم على تصور النفي ، بدليل أن الواحد منا يمكنه أن يتصور الاثبات وان لم يخطر بباله معنى النفي والعدم ، ويمتنع عليه أن يتصور العدم والنفي إلا وقد تصور أولا الاثبات ، وذلك لأن العدم المطلق غير معقول ، بل العدم لا يعقل إلا إذا أضيف إلى معين ، فيقال : عدم الدار ، وعدم الغلام ، فثبت أن تصور الاثبات أصل ومتقدم ، وتصور النفي متأخر وفرع . وإذا ثبت هذا فما السبب في أن جعل النفي الذي هو الفرع متقدماً ، والاثبات الذي هو الأصل مؤخراً ؟ .

والجواب : أن في تقديم النفي ههنا على الاثبات اغراضاً :

الأول : أن نفي الربوبية عن غيره ثم اثباتها له أكد في الاثبات من اثباتها له من غير نفيها عن غيره ، كما أن قول القائل : ليس في البلد عالم غير فلان أقوى في باب المدح من قولنا : فلان عالم البلد .

الثاني : أن لكل انسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد لا يتسع باشتغال شيئين دفعة واحدة ، فبقدر ما يبقى مشغولا بأحد الشيئين يبقى محروماً من الشيء الثاني ، فقولنا « لا إله إلا الله » اخراج لكل ما سوى الله عن القلب ، حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سوى الله ، ثم خطر فيه سلطان الله ، أشرق نوره اشراقاً تاماً ، وكمل استيلاؤه عليه كمالا قوياً .

الثالث : أن النفي الحاصل بـ « لا » يجري مجرى الطهارة ، والاثبات الحاصل بـ « إلا » يجري مجرى الطهارة والصلاة ، فكما أن الطهارة مقدمة على الصلاة ، فكذا وجب تقديم (لا إله) على قولنا (إلا الله) ، ويجري مجرى تقديم الاستعاذة على القراءة ، فكما أن الاستعاذة مقدمة على قراءة القرآن ، فكذا هذا .

وأيضاً : إن من أراد أن يحضر الملك في بيت وجب عليه أن يقدم

تطهير ذلك البيت عن الأقذار ، فكذا هنا . وعن هذا قال المحققون : النصف الأول من هذه الكلمة تنظيف الأسرار ، والنصف الثاني جلالة الأنوار عن حضرة الملك الجبار .. والنصف الأول انفصال ، والنصف الثاني اتصال .. والنصف الأول اشارة إلى قوله : ﴿ ففرُّوا إلى اللهِ ﴾ [1] والنصف الثاني إشارة إلى قوله : ﴿ قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذرْهُم ﴾ [2] .

* * *

البحث السابع :

إن للقائل أن يقول : أن من عرف أن للعالم صانعاً قادراً عالماً ، موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة في الالهية ، من الصفات السلبية والثبوتية ، فقد عرف الله تعالى معرفة تامة ، ثم أن علمه بعدم الاله الثاني لا يزيده علماً بحقيقة ذات الاله وصفاته ، لأن عدم الاله الثاني ليس عبارة عن وجود الاله الاول ، ولا وجود صفات من صفاته ، ثم إنّا أجمعنا على أن علمه بذات الاله وصفاته لا يكفي في تحقق النجاة ، بل ما لم يعلم عدم الاله الثاني لا يحصل العلم المعتبر في النجاة ، فما السبب في إن كانت معرفة ذات الله تعالى وصفاته غير كافية في تحقق النجاة ، بل كان العلم بعدم الثاني معتبراً في تحقق النجاة ؟ .

والجواب : أنه بتقدير أن يكون للعالم إلهان ، فالعبد لا يعلم أنه عبد لهذا الاله أو عبد لذلك الاله ، أو عبد لهما معاً ، فحينئذ لا يكون جازماً بكونه مشتغلا بشكر مولاه وخالقه ، بل يجوز أن يكون عابداً لغير خالقه ، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن جازماً في تلك العبودية . وتلك الطاعة . أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا إله واحد ، فحينئذ يكون جازماً بكونه مشتغلا بعبودية مولاه وخالقه ، فلهذا السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات إلا بمعرفة التوحيد .

* * *

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٠ . (٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ .

البحث الثامن :

أن المكلف إذا تمم النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، ثم مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه : لا إله إلا الله ، فههنا لا شك في أنه يموت مؤمناً ، لأنه أدى ما وجب عليه ، ولم يجد مهلة للتلفظ بهذه الكلمة ، فأما إذا تمم النظر والاستدلال في معرفة الله ، ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه « لا إله إلا الله » ثم لم يقل ، ثم مات ، فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا ؟ .

من الناس من قال : إنه مات كافراً ، لأن صحة الايمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه . ومن الناس من قال : أنه مؤمن ، لأجل أنه حصل له العرفان التام ، وفاسق لأجل أنه كان مأموراً بذكر هذه الكلمة وما ذكرها . والدليل على أنه مؤمن قوله عليه الصلاة والسلام : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان » [1] . فهذا الشخص قلبه مملوء من الايمان ، فكيف لا يخرج من النار ؟ .

* * *

البحث التاسع :

من الناس من قال : تطويل المدة من كلمة (لا) من قولنا : لا إله إلا الله ، مندوب اليه مستحسن ، لأن المكلف في زمان التمديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد وينفيها ، ثم بعد ذلك يعقب ذلك بقوله : إلا الله ، فيكون ذلك أقرب إلى الاخلاص والكمال .

ومنهم من قال : بل يترك التمديد أولى ، لأنه ربما مات في زمان اللفظ بـ « لا » قبل الانتقال إلى كلمة « إلا الله » .

والذي عندي : أن المتلفظ بهذه الكلمة إن كان يتلفظ بها لينتقل من الكفر إلى الايمان فترك التمديد أولى ، حتى يحصل الانتقال من

(١) أخرجه الطبراني عن أبي موسى وابن أبي حاتم مرفوعاً .

الكفر إلى الايمان على أسرع الوجوه . وإن كان المتلفظ بها مؤمناً ، وإنما يذكرها لتجديد هذه الكلمة ، فالتمديد أولى ، حتى يحصل في زمان التمديد صور الأنداد والأضداد . وعلى التفصيل في الخاطر ، ثم ينفيها، ويعقبها بقوله : (إلا الله) . فيكون الاقرار بالالهية أصفى وأكمل .

* * *

البحث العاشر :

إن الناس في هذه الكلمة على مذاهب وطبقات :

فأدناها طبقة من قالها ليحقن دمه ، ويحرز ماله ، على ما اقتضاه موجب قوله عليه الصلاة والسلام : « أُمرتُ أنْ أُقاتلَ الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني ماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . وهذه درجة يشترك فيها المخلصون والمنافقون . فكل من تعلق بهذه الكلمة نال من بركتها ، وأحرز حظاً من فوائدها ، فإن طلب بها الدنيا نال الأمن فيها ، والسلامة من آفاتها ، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين ، وأحرز بها السعادة في الدارين [1] .

والطبقة الثانية : الذين ضموا إلى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد . واعلم أن الاعتقاد لا يكون علماً ، لأن العقد ضد الانحلال والانشراح . والعلم عبارة عن انشراح الصدر . قال تعالى : ﴿ أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسْلام ﴾ [2] . فثبت أن صاحب التقليد لا يكون عالماً ولا عارفاً ، وهل يكون مسلماً ؟ فيه الخلاف المشهور بين الأئمة ، والله أعلم .

الطبقة الثالثة : الذين ضموا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل

---

(١) أي : أن العبرة في الدنيا بالظاهر ، وفي الآخرة بالسرائر . انظر (أسرار أركان الاسلام ، ص ٢٥) .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

الاقناعية القوية لذلك الاعتقاد ، إلا أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينية ، بل إقناعية ظنية .

الطبقة الرابعة : الذين سلموا وأثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية ، والبراهين اليقينية، إلا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات ، ولا من أصحاب مطالعة الآيات .

ثم اعلم أن الاقرار باللسان درجة واحدة ، وأما الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه ، ودوامه وعدم دوامه ، وكثرة تلك الاعتقادات وقلتها ، فإن القلب ربما كان مقلداً في مجرد أن الله تعالى واحد ، وربما زاد عليه وكان مقلداً في ذلك وفي أن صانع العالم قادر عالم .

واعلم أنه كلما كان وقوف الانسان على هذه المطالب أكثر ، كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر ، وذلك لأن الطالب إذا حصل له شعور بهذه المطالب ، وحصل له وقوف على هذه المباحث ، مال إلى العلم ، وترك التقليد ، فيعسر عليه التقليد . أما المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة تقوية الاعتقاد بالدلائل الاقناعية ، فمراتب الخلق فيها متفاوتة غير مضبوطة . وأما المرتبة الرابعة وهي : الترقي من الدلائل الاقناعية إلى البراهين القطعية فالأشخاص الذين يكونون واصلين إلى هذه الدرجة يكونون في غاية القلة ، ونهاية الندرة ، لأن ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين ، واستعمالها في المطالب ، وذلك في غاية العزة ، وأما المرتبة الخامسة ، وهي مرتبة أهل المشاهدات والمكاشفات فنسبتهم إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أصحاب البراهين إلى عوام الخلق .

واعلم أن عالم المكاشفات لا نهاية له ، لأنه عبارة عن سفر العقل في مقامات الجلال الالهي ، ومدارج عظمته ، ومنازل كبريائه وقدسه ، وإذا كان لا نهاية لهذه المقامات ، فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات .

واعلم أن الانسان إذا انكشفت له أسرار « لا إله إلا الله » أقبل على الله ، وأخلص في عبادته ، ولم يلتفت إلى أحد سواه ، فلا يرجو غيره ،

ولا يخاف سواه ، ولا يرى النفع والضراء إلا منه ، فانقطع بالكلية عمن دونه ، وتبرأ من الشرك الباطن ، كما تبرأ من الشرك الظاهر ، وذلك كله موجب كلمة التوحيد .

ولهذا السبب لما قال لمحمد ﷺ : ﴿ فاعْلَمْ أنّه لا إلـه إلاّ الله ﴾ [1] قال بعده : ﴿ واسْتغْفِرْ لذَنْبك ﴾ [1] . والمعنى — والله أعلم — : أن الأمر بالاستغفار لتقصير وقع في موجب كلمة « لا إله إلا الله » . اما لغفلة تحول دونه ، أو لعارض شغل عنه ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة » [2] . وقد روي « مائة مرة » . وفي الحديث وجوه.

الأول : أن المراد بالغين : ما يغشي قلبه من غفلة ، أو يعرض من فترة ، بحكم الطبع البشري ، فكان عند ذلك يفزع إلى الاستغفار .

الثاني : أنه كان عليه الصلاة والسلام أبداً في الترقي ، فإذا انتقل إلى درجة أعلى من الدرجة المنتقل عنها كان يستحقرها في العبودية ، فكان يستغفر الله منها .

الثالث : أنه ربما لاح له شيء من تجلي عالم الغيب فيستعظم تلك الدرجة ، ويستبهج بها ، ثم يصير تعاظمه لها ، وابتهاجه بها ،شاغلاً عن الاستغراق في المبتهج به ، فكان يستغفر الله من ذلك .

الرابع : أن كل ما لاح له من عالم الغيب كان يعلم أن الذي لاح له إنما لاح له بقدر قوته وطاقته ، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة إلى جلال الله وعلو كبريائه كالعدم ، فحينئذ يعلم أن الذي لاح له من كمال الغيب بالنسبة إلى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة إلى الوجود ، فكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل اليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره .

* * *

(١) سورة محمد ، الآية : ١٩ .
(٢) أخرجه أبو يعلى والترمذي ، عن أبي هريرة .

الفصل السادس

في فضـــــل المؤمـــن

اعلم أن الله سمى المؤمنين ثالث نفسه في عشرة مواضع : في المراقبة، والولاية ، والموالاة ، والصلاة ، والعزة ، والطاعة ، والمشاقة ، والأذى ، والالتجاء ، والشهادة .

* * *

المقام الأول : في المراقبة :

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم ورسوله والمؤمنون ﴾ [1] . هدد المذنبين برؤية المؤمنين أعمالهم ، كما هددهم برؤية نفسه ، ورؤية رسوله . وفيه لطائف :

الأولى : روي أن عمر رضي الله عنه خرج ليلة ، فسمع امرأة تقول لابنتها : يا ابنتاه ! قومي فامزجي اللبن بالماء . فقالت ابنتها : أوَليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين ؟ قالت : لا يرانا أمير المؤمنين . قالت : أفلا يرانا رب العالمين ؟ فلما سمع عمر ذلك خطبها في الغد لابنه ، فكان عمر بن عبد العزيز من خير حفدتها .

الثانية : امرأة شاطرة كانت بمكة ، قالت : لا أبرح حتى أفتن طاوس اليماني [2] . وكان رجلا جميلا ، فعرضت نفسها عليه مراراً

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥ .

(٢) طاوس : إمام أهل زمانه من تلاميذ ابن عباس وكان مولى . توفي عام ٤٠ للهجرة .

حتى ظنت أنها تعجبه ، فقال طاووس : احضري الليلة ، فجاء بها إلى المقام فقال لها : اضطجعي هنا . فقالت : سبحان الله ، ألا يرانا الناس ؟ فقال طاووس : أليس يرانا الله في كل مكان ؟ فتابت .

الثالثة : قال أبو عبد الرحمن العتبي : خرجت ليلة فإذا أنا بجارية جميلة ، فأردتها ، فقالت : ويلك ، أما لك من زاجر من عقل إن لم يكن لك ناه من الدين ؟ فقلت لها : لا يرانا إلا الكواكب . فقالت : وأين مكوكبها ؟ .

الرابعة : قال حاتم الأصم [1] : راع نفسك في ثلاثة أوقات : إذا عملت بالجوارح فاذكر نظر الله اليك ، وإذا قلت بلسانك فاذكره سمع الله لك ، وإذا كنت ساكتاً فاذكر علم الله فيك ، لأنه قال : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [2] .

الخامسة : ثلاثة نفر حضروا عند بعض الزهاد ، وقالوا : أوصنا . فقال لواحد : ألست تقول : أنه عالم ؟ فقال : بلى . قال : إياك أن يعلم منك شيئاً فيفضحك به غداً . وقال للثاني : أليس هو بصير ؟ قال : بلى . قال : إياك أن يراك على عمل تستحي منه يوم القيامة . وقال للثالث : أليس هو سميع ؟ قال : بلى . قال : احذر أن يسمع منك شيئاً يردك عن باب رحمته بسببه .

السادسة : قال سفيان : من وجد من نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها بالسعادة : الهيبة للعزيز الجبار ، والحرمة للنبي المختار ، والحياء من الأبرار والأخيار .

* * *

---

(١) حاتم الأصم : عابد ، زاهد ، مجاب الدعوة . مات عام ٢٣٠ هـ.
(٢) سورة طه ، الآية : ٤٦ .

المقام الثاني : الولاية :

فإنه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فقال : ﴿ إنّما وليُّكُمُ اللهُ ورَسُولُه والّذينَ آمنُوا ﴾ [1] . قيل : نزلت في عبد الله بن سلام حين شكا من عداوة اليهود له بعد اسلامه ، فنزلت . وقال محمد بن اسحاق : نزلت في عبادة بن الصامت ، قال : يارسول الله ! تبرأت من حلف اليهود ، وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة ، وفيه نكت :

الأولى : أن يوسف عليه السلام قال : ﴿ أنت وليّي في الدُّنْيا والآخرة ﴾ [2] . فوجد المُلك والعز بسبب ذلك القول الذي هو قائله ، وههنا قال الله تعالى للمؤمنين : ﴿ إنما وليُّكُمُ الله ورسُولُه والّذينَ آمنُوا ﴾ . فأولى أن يرجو المؤمنون بذلك الجنة والمغفرة .

الثانية : قوله : ﴿ إنما وليكم الله ﴾ . يعني حافظكم وناصركم « ورسوله والذين آمنوا » . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « المرء مع من أحب » . ثم أن كل مسلم يحب الله ، فوجب بحكم ذلك الخبر أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله لا يفارقه ، بسبب أنه أحب الله ، فكيف يفارقه حفظ الله مع أن الله وليه وحافظه وناصره ؟ .

الثالثة : هذه الآية دلت على أن الصحابة يحبوننا ، لأن الله تعالى جعل المؤمنين أولياءنا ، وهو قوله : ﴿إنّما وليُّكُمُ الله ورسُولُه والّذينَ آمنُوا الّذينَ يُقيمونَ الصَّلاة ﴾ [3] . ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعْضُهُم أولياء بَعْض ﴾ [4] . ثم أمرنا أن نحب الصحابة بدليل قوله : ﴿والسّابقون الأولون منَ المهاجرينَ والأنْصار والّذينَ اتّبعُوهم باحْسان رضيَ اللهُ عنْهُم ورَضُوا عنْه وأعدّ لهُمْ جنّات تجري تحتَها الأنهارَ ﴾ [5] . فثبت بمجموع هاتين الآيتين حصول المحبة

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٥ .
(٢) سورة يوسف ، الآية : ١٠١ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥٥ .
(٤) سورة التوبة ، الآية : ٧١ .
(٥) سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

بيننا وبين الصحابة ، والحبيب لا يرضى بعذاب حبيبه ، قيل ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين يكونون شفعاء ذنوب المؤمنين .

* * *

المقام الثالث : الموالاة :

قوله تعالى : ﴿ فإنّ اللهَ هُوَ مَوْلاه وجبْريلُ وصَالحُ المُؤمنين ﴾[1] وههنا نكت :

الأولى : حكم أن مولى المؤمنين هو : الله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين . ثم اسقط شركة جبريل والمؤمنين فقال : ﴿ واعْتَصِمُوا بالله هوَ مَوْلاكُم ، فنعْمَ المولى ونعْمَ النّصير ﴾[2] . وقال في حق الكافرين : ﴿ مأواكُمُ النّارُ ، هيَ مَوْلاكُم ﴾[3] . ثم قال : ﴿ وبئسَ المصيرُ ﴾[3] . فمن كانَ الله مولاه فلا يذل ولا يخزى . ومن كان المؤمنون مولاه فلا يضيع ولا يشقى . قال الكفار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أُحد : لنا عزى ولا عزى لكم . فقال عمر رضي الله عنه : « لنا مولى ولا مولى لكم » . فنزل على وفق قوله : ﴿ ذلكَ بأنّ اللهَ مولى الّذينَ آمنُوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[4] .

الثانية : أن الله تعالى سمى النار مولى الكافرين فقال : ﴿ النار هي مولاكم ﴾ . وإنما سمى النار مولاهم لأنها لا تترك اعانتهم .

الثالثة : قال بعضهم : من كان ربه مولاه لا يعذب ، ومن كان ناصره مولاه لا يغلب ، ومن كان هاديه مولاه لا يضل ، ومن كان ربه مغنيه لا يشقى ، ومن كان ربه مولاه لا يضيع ولا يحتاج إلى أحد .

* * *

(١) سورة التحريم ، الآية : ٤ .
(٢) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .
(٣) سورة الحديد ، الآية : ١٥ .
(٤) سورة محمد ، الآية : ١١ .

المقام الرابع : الصلاة :

قال الله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكته يُصَلُّونَ على النّبيّ ، يا أيُّها الّذينَ آمنُوا صلُّوا عليه وسلّموا تسْليماً ﴾ [1] . فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام : « هنئوني . هنئوني » . فقالوا : هنيئاً لك يارسول الله ، فما حظنا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ هُو الذي يُصَلّي عليْكُم وملائكته ﴾ [2] . والاشارة أنه صلى على الرسول عليه السلام في الدنيا ، فما ترك المذنبين حتى صلى الله أيضاً عليهم ، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة .

الثانية : الصلاة من الله تعالى على ثلاثة أوجه : عامة ، وخاصة ، وخاصة الخاصة . فالعامة قوله : ﴿ هو الذي يصلي عليكم ﴾ ، والخاصة قوله : ﴿ أولئكَ عليْهم صَلَواتٌ منْ ربِّهمْ ﴾ [3] . وخاصة الخاصة قوله : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ .

الثالثة : جعل الله أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام مساوين له . في خمسة أشياء في المحبة ، قال تعالى : ﴿ فاتبعوني يُحببكم الله ﴾ [4] وقال لأهل بيته : ﴿قُلْ لا أسألكُم عليْه أجْراً إلاّ المودّة في القُربى﴾[5] والثاني : في تحريم الصدقة. قال عليه الصلاة والسلام : « حرمت الصدقة عليّ وعلى آل بيتي » . والثالث في الطهارة قال الله تعالى : ﴿ ما أنْزلنا عليْكَ القُرْآنَ لتَشْقى * إلاّ تذْكرةً لمنْ يخْشى ﴾[6] . وقال لأهل بيته : ﴿ ويُطَهِّركم تَطْهيراً ﴾ [7] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٦ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .
(٥) سورة الشورى ، الآية : ٢٣ .
(٦) سورة طه ، الآية : ٢ ، ٣ .
(٧) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

الرابعة : السلام . قال : « السلام عليك أيها النبي » . وقال في أهل بيته : ﴿ سَلامٌ على آل ياسين ﴾ [1] .

الخامسة : في الصلاة على الرسول وعلى آله كما في آخر التشهد .

* * *

المقام الخامس : العزة :

قال الله تعالى : ﴿ ولله العِزّةُ ولرسُوله وللمُؤمنينَ ﴾ [2] . وههنا نكت :

الأولى : عزة الله عزة الربوبية ، وعزة الرسول عزة النبوة ، وعزة المؤمنين عزة التلفظ بكلمة « لا إله إلا الله » . ثم كما أن عزة الله وعزة رسوله لا يقبلان الذل ، فكذلك عزة المؤمنين لا تقبل الذل .

الثانية : لله عزة الانشاء والتكوين ، قال الله تعالى : ﴿ إنّمَا أمْرهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيَكون ﴾ [3] . وللرسول عزة الدنيا حين أشار للقمر فانشق ببركة دعائه ، وللمؤمنين عزة الايمان والشهادة. ثم ان الاشياء تكونت عند قوله « كن » . والقمر انشق عند دعاء الرسول ، فنرجو أن يحصل الغفران والرحمة للمؤمنين عند كلمة الشهادة .

الثالثة : عز المؤمن في أن قيده المعرفة ، وصيده الجنة ، وعبده الرؤية ، فإذا كان للعبد المؤمن رب كاف ، وكتاب شاف ، ورسول واف ، اسمه اسم الله ، ولسانه شاهد الله ، ونفسه طالبة مرضاة الله وقلبه محل نظر الله ، وسراجه معرفة الله ، وشهادته محبة الله ، وبصيرته مشتاقة إلى رؤية الله فحقيق أن يكون عزه متصلا بعز الله .

الرابعة : لله العزة سواء أوجد أو أعدم ، وللرسول بالولاية سواء بلغ أو سكت ، فكذلك المؤمن له العزة سواء أطاع أو عصى .

---

(1) سورة الصافات ، الآية : ١٣٠ .
(2) سورة المنافقون ، الآية : ٨ .
(3) سورة يس ، الآية : ٨٢ .

الخامسة : لله العزة بالولاية ، لقوله : ﴿ إنَّ وليِّـي اللهُ الّذي نزّلَ الكِتاب وهـُو يتَولّى الصَّالحين ﴾ [1] . وللرسول بالولاية أيضاً لقوله : ﴿ النّبيُّ أولى بالمُؤمنينَ منْ أنفُسهم ﴾ [2] . وللمؤمنين العزة أيضاً بالولاية لقوله : ﴿ والمُؤمنون والمؤمناتُ بعْضُهُم أولياء بعْض ﴾ [3] .

السادسة : لله العزة بالعلو والعظمة ، لقوله : ﴿ وهـُوَ العَليُّ العظيم ﴾ [4] وللرسول بالرفعة ، لقوله : ﴿ ورَفَعنْا لكَ ذكْركَ ﴾ [5] . وللمؤمنين بالقبول والرحمة ، لقوله : ﴿ إنّ اللهَ يغْفرُ الذّنُوبَ جميعاً ﴾ [6] .

السابعة : لله عزة المعبودية ، لقوله : ﴿ وأنا ربُّكُم فاعبُدون ﴾ [7] وللرسول عزة المتبوعية ، لقوله : ﴿ واتّبعُوه لعلّكُم تَهتَدونَ ﴾ [8] . وللمؤمنين عزة العبودية ، لقوله : ﴿ يا عِبادِيَ الّذينَ أسْرفوا على أنفُسهم لا تَقنْطُوا منْ رحْمة الله ﴾ [9] .

الثامنة : لله عز الاستغناء ، ﴿ والله الغنيُّ وأنتُم الفُقَراء ﴾ [10] . وللرسول عز الاغناء : ﴿ ووجَدَكَ عائلاً فأغْنَى ﴾ [11] . وللمؤمنين عز الاغناء : ﴿ وإنْ يتَفرّقا يُغْنِ الله كلا منْ سعَته ﴾ [12] .

التاسعة : قال علي رضي الله عنه : من أراد عزاً بغير ذل ، وهيبة بغير سلطان ، وغنى بغير مال ، وحسباً بغير نسب ، فليخرج نفسه من ذل المعصية إلى عز الطاعة .

العاشرة : قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار : من أعقل الناس ، وأجهلهم ، وأغناهم ، وأعزهم؟ فقال : اعقلهم محسن خائف ، وأجهلهم مسيء آمن ، وأغناهم القانع ، وأعزهم الأتقياء .

* * *

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٦ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٦ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٧١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .
(٥) سورة الشرح ، الآية : ٤ .
(٦) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .
(٧) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٢ .
(٨) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .
(٩) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .
(١٠) سورة محمد ، الآية : ٣٨ .
(١١) سورة الضحى ، الآية : ٨ .
(١٢) سورة النساء ، الآية : ١٣٠ .

المقام السادس : الطاعة :

قال الله تعالى : ﴿ أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرّسول وأولي الأمْرِ منكُمْ ﴾ [1] . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح ، وقال : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » [2] . وقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ » [3] . وقال : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » [4] . وكل ذلك يدل على أنه كما يجب طاعة الله وطاعة الرسول ، فكذلك يجب طاعة أولي الأمر من المؤمنين .

الثانية : قيل : بقاء الدنيا بسيوف الأمر أو لسان العلماء ، فعليك بطاعتهما إلا في معصية الله .

* * *

المقام السابع : المشاقة :

قال الله تعالى : ﴿ ومَنْ يُشَاقِقِ الرّسُولَ منْ بعْدِ ما تَبَيّنَ له الهدى ويتّبعْ غيرَ سبيلِ المؤمنين ﴾ [5] . الآية : وههنا نكت :

الاولى : لله بحور عظيمة يهلك العبد فيها إن لم يكن له معتصم يتمسك به ، فجعل التوحيد سبباً للنجاة من البدعة ، لقوله : ﴿واعْتصموا بحبْل الله جميعاً ولا تفرّقوا ﴾ [6] . وجعل الاجماع سبباً للنجاة من الفتن ، لقوله تعالى : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾. ثم قال : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ .

(1) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .
(2) أخرجه أبو داود ، عن أبي موسى .
(3) أخرجه الشيخان ، عن عبد الله بن مسعود .
(4) أخرجه الشيخان ، عن أنس .
(5) سورة النساء ، الآية : ١١٥ .
(6) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

الثانية : قال عليه الصلاة والسلام : « سبع من الهدى ، وفيهن الجماعة ، من خرج منهن فقد خرج من الجماعة : لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا بشرك ، واتركوا سرائرهم إلى الله . وصلوا على من مات من أهل القبلة ، وصلوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف كل بر وفاجر . وجاهدوا مع كل خليفة . ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف . وادعوا لهم بالصلاح ولا تدعوا عليهم . وجانبوا الأهواء كلها ، فإن أولها وآخرها باطل » .

الثالثة : سئل واحد عن القلب السليم فقال : هو الذي دينه بلا شك ، ومذهبه بلا هوى ، وعمله بلا رياء ، وبدنه بلا خصم .

* * *

المقام الثامن : في الأذى :

يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذينَ يُؤذُونَ اللهَ ورسُولَه لَعَنَهمُ اللهُ في الدُّنْيا والآخرة وأعدّ لهُمْ عذاباً مُهيناً * والّذينَ يُؤذونَ المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احْتملوا بهْتاناً واثماً مُبيناً ﴾[1] .

اعلم أن الله تعالى نهى عن ايذاء المؤمن كما نهى عن ايذاء نفسه وايذاء رسوله ، ثم أكد ذلك فقال : ﴿ وقُولُوا للنّاسِ حُسْناً ﴾[2]. وقال : ﴿ وإذا خاطَبَهُمُ الجّاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾[3] . وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمنون قوم بررة ، هم المتحابون المتباذلون . والمنافقون قوم فجرة ، هم المتقاطعون المتدابرون »[4] . وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها : «إن الله يبغض الفاحش والمتفحش»[5] وفيه نكت :

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٨٣ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .
(٤) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر .
(٥) أخرجه الطبراني ، عن أبي هريرة .

الأولى : قال الله تعالى : ﴿ ويَستغفرون للذين آمنوا ﴾ [1] ولم يقل : ويلعنونهم ويؤذونهم .

الثانية : قال عليه الصلاة والسلام : «إن الله رفيق يحب الرفقاء » [2].

الثالثة : عاتب الله نوحاً حين دعا على قومه بالهلاك فقال : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [3] . ولم يقل : أعداء بعض . وقال ابن عمر رضي الله عنه : « إذا لعن العبد دابة تقول الدابة : لعن الله أعصانا لربه » .

الرابعة : قال تعالى لرسوله : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ [4] . وقال : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [5] . ونهى عن الهمز واللمز فقال : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ [6] . وقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم ﴾ [7] . وقال لموسى وهارون : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾[9] .

* * *

المقام التاسع : الالتجاء :

قال الله تعالى : ﴿ ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ [10] . فمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي في

---

(١) سورة غافر ، الآية : ٧ .
(٢) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٧١ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .
(٦) سورة الهمزة ، الآية : ١ .
(٧) سورة القلم ، الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٨) سورة طه ، الآية : ٤٤ .
(٩) سورة النازعات ، الآية : ١٨ .
(١٠) سورة التوبة ، الآية : ١٦ .

ذلك بالمؤمنين ، لأن المنافقين كانوا يتولون اليهود ، ويتخذونهم وليجة وبطانة ، فعليك أن تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة . وفيه نكت :

الأولى : أنه مدح ابراهيم حيث تبرأ من أبيه وشكر عن حاطب ابن أبي بلتعة حيث كاتب الكفار فقال : ﴿ لا تتّخذوا عدُوّي وعدوّكُم أولياء ﴾ [1] . وقال : ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ منْ حادَّ اللهَ ورسُوله ولوْ كانُوا آباءهُم أو ابناءهُم أوْ اخْوانهُم أوْ عَشيرتهُم ، أولئكَ كتَبَ في قلُوبهم الايمانَ وأيّدهُم برُوحٍ منْه ، ويُدْخلهم جنّاتٍ تجْري منْ تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ، رضيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنْه ، أولئكَ حزبُ اللهِ ، ألا إنَّ حزبَ الله هُمُ المفْلحونَ ﴾ [2] .

فسمى من يتولى الله ورسوله « حزب الله » ، ثم قال : ﴿ ألا إنّ أولياء اللهِ لا خوْفٌ عليْهمْ ولاَ هُمْ يحْزنونَ ﴾ [3] .

الثانية : قال الواسطي : علامة المؤمن أربعة : لا يشكو من المصائب ، ولا يتخذ عمله رياء ، ويحتمل أذى خلقه ولا يكافئهم ، ويداري عباده على تفاوت أخلاقهم .

* * *

المقام العاشر : في الشهادة على التوحيد :

السؤال الأول : هو أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ومن شهد لنفسه فإن تلك الشهادة لا تقبل في الفقه .

والجواب من وجوه :

الأول : إن هذا في الظاهر شهادة ، وفي المعنى اقرار ، واقرار

(١) سورة الممتحنة ، الآية : ١ .
(٢) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .
(٣) سورة يونس ، الآية : ٦٢ .

المقر على نفسه مقبول . وإنما قلنا : إن هذا اقرار ، لأنه لما ادعى الوحدانية في الألوهية فقد أقر بأن الخلق كلهم عبيده ، ورزق العبيد على المولى لازم ، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بالرزق والحفظ والنصرة ، ألا ترى أنه قال : ﴿ ومَا منْ دابّةٍ في الأرضِ إلاّ على الله رزقُها ﴾ [1] .

الثاني : أن الشهادة عبارة عن قول يدل على شيء دلالة ظاهرة . ثم ذلك القول لا يراد لكونه قولا ، بل لكونه دالاً على ذلك المطلوب . فلا جرم كل فعل قام مقام القول في ذلك التعريف كان شهادة . ثم أن القول الدال لو كانت دلالته قطعية غير محتملة كان أولى بأن يكون شهادة . وإذا ثبت ذلك فجميع المخلوقات دالة على وحدانية الله وإلهيته دلالة قطعية عقلية ، فكانت أولى بأن تكون شهادة ، فاذن شهادة الله على التوحيد لأجل أنه خلق الدلائل الدالة على الوحدانية قطعاً ، وأما شهادة الملائكة وأولي العلم فمعناها شهادة الاقرار والاعتراف ، فكانت شهادة الله على ذلك أقوى .

الثالث : وهو أن كل مسألة يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها فإنه يمكن اثباتها بالدلائل السمعية ، ومسألة الوحدانية كذلك ، فلا جرم ذكر العلماء أنه يمكن اثبات أن الاله واحد بالدلائل السمعية. وإذا كان الأمر كذلك ، كان المقصود من هذه الشهادة أن يستدل بها على وحدانية الله تعالى .

السؤال الثاني : أنه تعالى نهى العباد أن يمدحوا أنفسهم ، فقال : ﴿ فلا تـَزْكوا أنفُسكُم ﴾ [2] . ثم مدح نفسه ، وأثنى على نفسه ، فما السبب ؟

والجواب من وجوه :

الأول : وهو أنه إذا حصل للواحد منا نوع فضيلة فذلك فضل الله وكرمه ، والمستحق للثناء هو الله ، حيث أعطى تلك الفضيلة ، فلا جرم يقبح من الواحد منا أن يثني على نفسه . أما الحق سبحانه فإنه قد

(١) سورة هود ، الآية : ٦ .
(٢) سورة النجم ، الآية : ٣٢ .

حصلت له صفات الكمال ، ونعوت الجلال على وجه يمتنع زواله وتغييره فظهر الفرق .

الثاني : من الفرق أن ما فينا من الخصال الممدوحة لا ينفك عن أضدادها ، فإن علمنا مشوب بالجهل ، وقدرتنا مشوبة بالضعف ، وملكنا لغرض الهلاك [1] ، وبقاءنا لغرض الفناء ، وحياتنا لغرض الموت ، وأما صفات الله تعالى فإنها خالية عن أضدادها ، فإنه عالم بلا جهل ، وقادر بلا عجز ، وملك بلا زوال ، وبقاء بلا فناء ، وحياة بلا موت ، وعزة بلا ذل ، فظهر الفرق .

الثالث : إن الله تعالى إنما نهى عبده عن تزكية نفسه لأن العبد يقدم الدعوى على اظهار المعنى ، فأما سبحانه فإنه كان أظهر المعنى قبل الدعوى ، لأنه خلقك ، وأعطاك الحياة والعقل ، وأنواع المنافع ، فاظهار الدعوى بعد اقامة البرهان على المعنى يكون مستحسناً ، بخلاف حال العبد ، فإن أكثر أحواله يكون باظهار الدعوى مقدمة على اظهار المعنى . والله أعلم .

الرابع : أن من أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وفيما بينهما حمال العذرة لا يليق به أن يمدح نفسه ، إنما يحق مدح النفس لمن هو الأول والظاهر والباطن .

الخامس : إن حب الانسان لنفسه غالب ، فإذا شرع في مدح النفس استولى ذلك عليه ، ثم إن ذلك يعميه ويصمه عن التنبه لما فيه من المعايب ، فيصير ذلك سبباً في بقائه في ظلمات الحماقات والجهالات ، بخلاف الحق سبحانه وتعالى فإنه منزه عن النقائض والآفات ، فلا يصير مدحه لنفسه سبباً لشيء من المعايب والنقائص .

السؤال الثالث : لما شهد لنفسه بالوحدانية ، فأي حاجة مع حصول شهادته إلى شهادة الملائكة وأولي العلم ، وما الحكمة في أنه تعالى ذكر بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة وأولي العلم ؟

---

(١) يعني : ما نملكه لا نملكه ليبقى ، بل ليستهلك في أغراض المعاش .

والجواب من وجهين :

الأول : روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يمشي خلف جنازة ، فقال واحد : هذا الميت كان رجلا صالحاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « واحد .وقال الثاني والثالث كذلك ، فقال : اثنان ، ثلاثة . فلما قال الرابع مثل ذلك قال : وجبت . فقيل : يارسول الله ، وما التي وجبت ؟ فقال : وجبت مغفرته في كرم الله تعالى والجنة »[1] ، لأن المؤمنين شهود الله تعالى على وحدانيته ، فلو لم تقبل شهادتهم هنا لصارت شهادتهم بالوحدانية باطلة غير مقبولة ، وهو حكيم لا يفعل ذلك . وإذا عرفت هذا فنقول : الله تعالى لما جعل المؤمنين شهوداً لوحدانيته ، فلو أظهر ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة كانت شهادتهم مردودة ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم . فلما جعلهم في هذه الآية شهوداً على وحدانيته دل ذلك على أنه تعالى لا يظهر قبح فعلهم يوم القيامة ، اللهم حقق رجاءنا بكرمك .

الثاني : أنه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا المطلوب على شهادتهم ، بل المقصود شهادة الله لهم بأنهم يوافقون الله في كل ما وصل اليهم من نهيه وأمره وخبره ، والمقصود إظهار شرفهم في كونهم موافقين لله في هذه الشهادة ، لا توقيف المطلوب على شهادتهم .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تكرير « لا إله إلا الله » في « شهد الله » الآية ؟ .

والجواب من وجوه :

الأول : أن المقصود من التكرار التنبيه على أن الانسان يجب أن يكون مواظباً على ذكر هذه الكلمة في أكثر أوقات عمره .

الثاني : أنه لما حصلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها صار ذلك تنبيهاً على أنه يجب على العاقل أن يجعل هذه الكلمة مذكورة في أول عمره وآخره ، حتى يكون في الدنيا سعيداً ، وفي الآخرة حميداً .

---

(١) هذا الحديث ، أخرجه أحمد في المسند ، عن عمر .

الثالث : إن احدى هاتين الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق ، والثانية بعد خلقهم .

الرابع : أنه ذكر احدى هاتين الشهادتين عن نفسه ، والأخرى عن خلقه .

* * *

الفصل السابع

في

الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا إله إلا الله

اعلم أن الايمان لا بد له من أمرين : أحدهما هو : أن الأصل حصول المعرفة بالقلب . وإليه الاشارة بقوله : ﴿ فاعْلَمْ أنّهُ لا إلَـهَ إلاّ الله ﴾ [1] . وثانيهما : الاقرار باللسان وبالتوحيد ، وإليه الاشارة بقوله : ﴿ قُلْ هوَ اللهُ أحَدٌ ﴾ [2] . وذلك لأن قوله « قل » أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ، ثم أكد هذه الدلالة بالسنّة الغراء ، وهي قوله عليه الصلاة والسلام : « أُمرت أن أُقاتلَ النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

والسبب في أنه لا بد من هذا القول هو أن للايمان أحكاماً بعضها يتعلق بالباطن ، وبعضها بالظاهر ، فما يتعلق بالباطن هو أحكام الآخرة ، وذلك متفرع عن العلم الذي هو باطن عن الخلق ، وما يتعلق بالظاهر هو أحكام الدنيا ، ولا يمكن اقامتها إلا بعد معرفتنا إنه مسلم ، ولا معرفة إلا بالقول باللسان ، فصارت المعرفة ركناً أصلياً في حق الله تعالى ، والقول ركناً شرعياً في حق الخلق ، وإليه الاشارة بقوله تعالى : ﴿ ولاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكات حتّى يُؤْمِنَّ ﴾ [3] . وقال عليه الصلاة والسلام : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنّة » . وقال تعالى : ﴿ ولِمَنْ خافَ مَقَامَ ربِّه جَنّتان ﴾ [4] . جنة في الوقت وهي جنة المعرفة ، وجنة في العقبى وهي جنة الآخرة .

---

(١) سورة محمد ، الآية : ١٩ .
(٢) سورة الاخلاص ، الآية : ١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٢١ .
(٤) سورة الرحمن ، الآية : ٤٦ .

واختلف المحققون ، فقال الأكثرون : الأولى أن يكون الذكر في الابتداء قول : لا إله إلا الله . وفي الانتهاء الاختصار على ذكر كلمة : الله ، ومنهم من واظب في الابتداء والانتهاء على ذكر لا إله إلا الله . وحجة هؤلاء : أن عالم القلب مشحون بغير الله ، فلا بد من النفي لنفي الأغيار [1] . فإذا صار خالياً فحينئذ يوضع منبر التوحيد ، ويجلس على سلطان المعرفة .

وأما الذين اكتفوا في الانتهاء بكلمة (الله) فلهم في ذلك وجوه :

الحجة الأولى : أن نفي الغيب عدم .

الحجة الثانية : من قال : لا إله إلا الله ، فلعله حين ذكر كلمة النفي لا يجد من المهلة ما يصل إلى الاثبات ، فحينئذ يبقى في النفي غير منتقل إلى الاثبات ، وفي الجحود غير منتقل إلى الاقرار .

الحجة الثالثة : أن المواظبة على هذه الكلمة مشعرة بتعظيم الحق ، بنفي الأغيار ، إلا أن نفي الأغيار من باب الاشتغال ، والاشتغال في الأغيار يرجع في الحقيقة إلى شغل القلب بالأغيار ، وذلك يمنع من الاستغراق في نور التوحيد ، فمن قال : « لا إله إلا الله » فهو مشتغل بغير الحق (وبالحق) . ومن قال : الله ، فهو مشتغل بالحق (وحده). فأين أحد المقامين من الآخر ؟

الحجة الرابعة : أن نفي الشيء إنما يحتاج اليه عند خطور ذلك الشيء بالبال ، وخطور ذلك الشيء بالبال لا يكون إلا عند نقصان الحال ، فأما الكاملون الذين لا يخطر ببالهم وجود الشريك فقد امتنع أن يكلفوا بنفي الشريك ، بل لا يخطر ببالهم ولا يجري في خيالهم إلا ذكر الله ، فلا جرم يكفيهم أن يقولوا : الله .

الحجة الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُونَ ﴾ [2] . فأمره بذكر الله ، ومنعه من الخوض معهم

---

(١) كل ما هو غير الله تعالى .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ .

في أباطيلهم ولعبهم ، والقول بالشريك من الأباطيل واللعب ، ونفيه خوض في ذلك الكلام ، فكان الأولى الاقتصار على قولنا (الله) .

فهذا ما في هذا المقام .

وههنا أنواع من التضرعات :

أحدها : أن نقول : إلهنا ، إن موسى عليه السلام سأل أجل الأشياء فقال : ﴿ ربِّ ارني أنْظُر اليْكَ ﴾[1] . وسأل أقل الأشياء فقال : ﴿ ربِّ إنّي لما أنْزلتَ إليَّ منْ خيرٍ فقيرٌ ﴾[2] . فنحن أيضاً نسألك أجل الأشياء وهي خيرات الآخرة ، وأقلها وهو خيرات الدنيا . فنقول : ﴿ ربّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخرة حَسَنَةً ﴾[3] .

وثانيها : يحكى أن رجلاً باع جارية ، ثم ندم ، واستحيا من المشتري أن يظهر هذه الحالة ، فكتب في كفه حاجته ورفعها إلى السماء ، فرأى المشتري في المنام : أن فلاناً من أحباء الله ، وقلبه معلق بهذه الجارية ، فردها عليه ، وأجرك على الله . فلما أصبح الرجل حمل الجارية اليه ، وردها عليه . فأراد البائع أن يرد الذهب ، فقال المشتّري : إن لهذا الثمن ضامناً ، وهو خير منك ... إلهنا ، إن كل ذلك البائع ندم على بيع تلك الجارية ، فنحن ندمنا على بيع الآخرة بالدنيا ، وإذا كان ذلك البائع قد استحى من العود ، فنحن من كثرة ذنوبنا نستحي منك ، وإذا كان ذلك البائع قد كتب على كفه شيئاً من حاجته ورفعها إلى السماء ، فجميع اعضائنا مكتوب عليها احتياجنا إلى رحمتك ، وذلنا بين يديك .. إلهنا ، كما ضمنت دين الغرماء فاقبل ديننا ، وأسقط عنا تبعات أعمالنا ، وافعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، يا من لا يشغله شأن عن شأن .

ثالثها : يروى أن الصديق رضي الله عنه كان يخافت في صلاته بالليل ، ولا يرفع صوته بالقراءة ، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٣ .
(٢) سورة القصص ، الآية : ٢٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٠١ .

فسأل رسول الله ﷺ أبا بكر عن فعله فقال : من أناجيه يسمع كلامي . وسأل عمر فقال : أوقظ الوسنان ، وأطرد الشيطان ، وأرضي الرحمن ، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر برفع صوته قليلاً ، وأمر عمر بخفضه قليلا ... إلهنا ، الايمان فينا كالرسول والقلب مثل أبي بكر ، واللسان مثل عمر ، فالقلب يخافت بالذكر كأبي بكر ، واللسان يظهر الذكر كعمر ، والايمان يأمر القلب بالزيادة في الذكر ، ويأمر اللسان باخفاء الذكر ، فوفقنا لما تحب وترضى بفضلك يا أكرم الأكرمين .

* * *

فصل

روى الامام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نفسٍ تموتُ فتشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، يرجع ذلك إلى قلب موقن ، إلا غفر الله له » [(١)] . قال الشيخ : فهذه شهادة شهد بها عند الموت ، وقد ماتت نفسه من الشهوات ، ولانت نفسه المتمردة من هول الموت وذهب حرصه ، وألقى نفسه بين يدي رب العزة ، وقدرة رب العالمين ، فاستوى منه الظاهر والباطن ، فلقي الله مخلصاً بتلك الشهادة ، فغفر الله له بتلك الشهادة التي وافق ظاهرها باطنها .

وأما الذي يقوله أيام الصحة فقوله مع التخليط ، لأنه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات ، ونفسه أشرة بطرة ، فلا يستحق بذلك القول المغفرة . فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة في حالة الصحة ، وذكرها في آخر زمان الحياة .

وتمام القول فيه : أن الانسان الذي يكون قلبه مفتوناً بدنياه ، ومأسوراً في الشهوات ، يكون سكران عن الآخرة ، حيران عن الله ، لم يحصل فيه اليقين البتة ، لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله ، فلا يحصل فيه الميل إلى الله . أما إذا حصل في القلب اليقين بالله ، كان الأمر بخلاف ذلك ، وذلك لأن اليقين سمي يقيناً لاستقراره في القلب ، وهو النور . يقال : يقن الماء في الحفرة ، إذا استقر فيها . وإذا استقر النور دام ، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة ، فاطمأن القلب بجلال الله ، ثم انقطع عن

---

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي . ص ٢١٣ .

غير الله ، فوقف هناك عاجزاً ، فاستغاث بالله صارخاً مضطراً ، فأجابه الحق ، فإنه يجيب دعوة المضطرين ، فتفرق ذلك النور المتلألىء في القلب ، فانمحقت به ظلمات الاشتغال بغير الله ، فيصير الملكوت مشاهداً له ، وهو قول حارثة لرسول الله ﷺ : « كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً » . فقال له رسول الله ﷺ : « عبد نور الايمان قلبه » (١) .

ومما يحقق ما قلناه قوله عليه الصلاة والسلام : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، مخلصاً بها روحه ، مصدقاً بها قلبه ولسانه ، فتقت له السموات فتقاً ، حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا » .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قيل : يارسول الله ، وما اخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن المحارم » (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اخلص يكفك القليل » (٣) .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عهد إليّ ألاّ يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاً إلا وجبت له الجنة » . قالوا : يارسول الله ، وما الذي يخلط بها ؟ قال : « حرصاً على الدنيا ، وجمعاً لها ، ومنعاً لها ، يقول بقول الأنبياء ، ويعمل عمل الجبابرة » (٤) .

فالحاصل : أنه لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة ، حتى تكون نافعة ، ولا يحصل اليقين إلا بموت الشهوات ، ولا يحصل موت الشهوات إلا بأحد طريقين : أحدهما : أن يروض نفسه حتى تموت شهواته حال حياته ، والثاني : إن ماتت شهواته عند وفاته ، وعظم رجاؤه وخوفه من ربه ، وانقطع نظره عن غير الله بالكلية اضطراراً ، فإذا تكلم ونطق بهذه الكلمة في تلك الحالة استوجب المغفرة .

---

(١) أخرجه مسلم ، عن أنس.
(٢) أخرجه الطبراني عن زيد .
(٣) أخرجه أحمد ، عن معاذ بن جبل .
(٤) أخرجه الطبراني من زيد .

فلهذا السبب استحب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة . قال عليه الصلاة والسلام : « لقنوا موتاكم » فإن الانسان عند القرب من الموت تموت شهواته ، ويحصل له نور اليقين ، فصارت هذه الكلمة مقبولة منه . وأما الأول وهو الذي يروض نفسه ، فقد فتح الله له روزنة إلى الغيب ، فركبته أهوال سلطان الجلال ، فينطلق بها عن القلب الصافي ، فهو بالمغفرة أولى .

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « لقِّنوا موتاكم : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . قالوا : يارسول الله ، فكيف هي للحي ؟ قال : « هي أجْود وأجود » [1] . وكان أهل البيت يسمون هذه الكلمات : كلمات الفرج . فيتكلمون بها في النوائب والشدائد فيجيئهم الفرج . وفيه زيادة : « لا إله إلا الله العلي العظيم » .

وعن مكحول : أن كلمات الفرج : « لا إله إلا الله العلي العظيم . لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتها غفرت لك ذنوبك ، وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا : لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » .

* * *

(١) أخرجه الترمذي ، عن ابن عمر .

فصل

قال جعفر بن محمد الصادق : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف يغفل عن أربع : عجبت لمن أعجب بأمر كيف لا يقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . وإنه تعالى يقول : ﴿ ولَوْلا إذْ دخَلْتَ جنّتَكَ قُلْتَ ما شاء اللهُ لا قُوّةَ إلاّ بالله ﴾ [1] . وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، والله تعالى يقول : ﴿ الّذينَ قالَ لهُمْ النّاسُ إنّ النّاسَ قدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُم فزادَهُم إيماناً وقالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ * فانْقلبُوا بنعمَةٍ من الله وفَضْلٍ لمْ يَمْسَسْهُم سُوء ﴾ [2] . وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول : وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، والله تعالى يقول : ﴿ فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئات ما مَكَرُوا ، وحاقَ بآلِ فِرْعونَ سُوء العذاب ﴾ [3] . وعجبت لمن أصابه هم أو كرب لا يقول : ﴿ لا إله إلاّ أنْتَ سُبْحانك إنِّي كُنْتُ منَ الظّالمين ﴾ [4] ، فيقول الله : ﴿ فاستْجبنا له ونجّيْناهُ منَ الغمِّ ، وكذلك نُنَجّي المؤمنين ﴾ [5] .

وقال سفيان بن عيينة : إن الله لما قال : (وكذلك ننجي المؤمنين) فقد وعد كل مؤمن يقول : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) . أن ينجيه من الغم . ومعلوم بالضرورة أن الله لا يخلف الميعاد .

* * *

(١) سورة الكهف ، الآية : ٣٩ .
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٣) سورة غافر ، الآية : ٤٥ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٧ .
(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٨ .

فصل

في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى

لما كان كل ما تتصور النفس فالله بخلافه ، فلم يتمكن العقل والنفس من الاشارة إلى حقيقة معلومة بأن حقيقة الاله هي هذه الحقيقة .

ويروى عن سهل بن عبد الله أنه سئل عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالاحاطة ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، والقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار من غير احاطة ، ولا إدراك نهاية .

وروي عنه أيضاً أنه قال : غاية المعرفة الدهشة والحيرة .

وقال الشبلي : من أشار إليه فهو ثنوى ، ومن كيفه فهو وثني ، ومن نطق فيه فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن وهم أنه واجد فهو فاقد ، وكل ما ميزتموه بأفهامكم ، وأدركتموه بعقولكم فهو مصروف مردود اليكم ، محدث مصنوع مثلكم .

واعلم أن من الناس من احتج في هذه المسألة بآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ ومَا قَدَرُوا الله حقّ قَدْره ﴾ (١) . قال أهل التفسير : وما عرفوه حق معرفته . من قدر الثوب إذا حزره وأراد معرفة مقداره.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، لأن هذه الآية وردت في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع :

أولها : في سورة الأنعام : ﴿ وما قَدَروا الله حقّ قدْره إذْ قالوا ما أنْزل الله على بَشَرٍ منْ شيء ﴾ (١) . فهؤلاء الذين قالوا : ﴿ ما أنزل

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ . وسورة الحج ، الآية : ٧٤ . والزمر ، الآية : ٦٧ .

الله على بشر من شيء ﴾ . كانوا منكرين كل النبوة ، ومن كان كذلك كان كافراً ، فقوله : (وما قدروا الله حق قدره) عائد إلى هؤلاء .

وثانيها : قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ يا أيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمعُوا له ، إنَّ الّذينَ تَدْعُونَ من دون الله لَنْ يَخْلقوا ذُباباً ولَوْ اجْتَمعُوا لَهُ ، وإنْ يَسْلبْهم الذُّبابُ شيئاً لا يستنقذوه منْه ، ضَعفَ الطّالبُ والمطْلوب * ومَا قَدَرُوا الله حقّ قدْره ﴾ [1] . فلما كان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام عائداً اليهم .

ثالثها : قال الله تعالى في سورة الزمر : ﴿ قُلْ أفَغَيْرَ اللهِ تأمُروني أعبُدُ أيُها الجاهلُون * ولَقَدْ أُوحيَ إليْك وإلى الّذينَ منْ قبْلكَ لئنْ أشْركتَ ليَحْبطنّ عَمَلكَ ولتَكونَنّ منَ الخاسرين * بلِ الله فاعْبُدْ وكن منَ الشّاكرين ﴾ [2] . ثم قال بعد هذا : (وما قدروا الله حق قدره) . فيكون هذا الكلام عائداً إلى الذين أشار اليهم قبل هذه الكلمة بقوله : (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) .

وإذا ثبت هذا فقوله : (وما قدروا الله حق قدره) عائد في الأولى إلى منكري النبوات ، وفي الثانية والثالثة إلى عبدة الأوثان . فلا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف كون المؤمنين كذلك موصوفين به .

ومما اشتهر التمسك به في هذه المسألة قوله تعالى في سورة طه : ﴿ يعْلَمُ ما بيْنَ أيديهم وما خَلْفهُم ولا يحيطُونَ به علْماً ﴾ [3] . وأجيب عنه بأن قيل : لمَ لا يجوز أن يكون المراد من الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم . فالضمير في قوله تعالى « به » لا يكون عائداً إلى الله ، بل عائداً إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى .

---

(١) سورة الحج ، الآيتان : ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) سورة الزمر ، الآيات : ٦٤ — ٦٦ .
(٣) سورة طه ، الآية : ١١٠ .

واعلم أن العمدة في هذه المسألة أن الله سبحانه غير متناه في الذات والصفات . والعقل متناه في الذات والصفات ، والمتناهي لا سبيل له إلى ادراك غير المتناهي ، وهذه هي النكتة المستحسنة . ونحن نشرحها لتظهر قوتها إن شاء الله فنقول :

الحجة الأولى :

العقل عاجز عن معرفة كونه تعالى قديماً أزلياً ، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل استحضاراً على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة فذلك متناه ، مثلا نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة ، ونفرض بحسب كل لمحة من هذه المدة ألف ألف سنة . وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره .

ثم إذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك متناه ، والحق سبحانه إنما كان قديماً أزلياً لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التي أحاط العقل والخيال بها ، فثبت أن كل مقدار يصل العقل والخيال اليه فالحق سبحانه ليس قديماً باعتبار أنه كان موجوداً في ذلك الوقت ، بل باعتبار أنه كان موجوداً فيما وراء ذلك ، فإذن لا سبيل للعقل البتة إلى معرفة القدم والأزل . وإذا عرفت هذا في كونه أزلياً قديماً فاعرف مثله في كونه دائماً أبدياً .

فإذن العقل لا سبيل له البتة إلى معرفة كونه دائماً أبداً على سبيل التفصيل ، فإن كل ما يشير العقل اليه فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك المقصود .

وأيضاً إذا قلنا : أنه موجود ليس بجوهر ولا عرض ، ولا حال ولا محل ، فهذا ليس يقتضي معرفة ذات الحق سبحانه وتعالى ، لأنا أردنا بقولنا : موجود . ما يناقض العدم ، فهذا المفهوم .

* * *

طلب الآخرة
وترك التزيد من الدنيا

وتعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة ، وعرضه لذلك ، وصنه من أسباب الدنيا ، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة . ولا تأذن لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبه ، وينطفىء نور القلب من أجله ، وكن في تأليف ما بينه وبين محمود العواقب حريصاً ، وخوف نفسك عقوبة ما في يديك من الدنيا ، وقلة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر ، واستكثر ما في يديك ، لما تعلم من ضعف شكوك ، فتشتغل النفس بما في يديها عن الفكر في أمر الدنيا ، والمحبة للزيادة منها .

فإذا أجممتها [1] من ذكر الزيادة من الدنيا ، وحملتها على درجة الخوف مما في يديها ، قنعت ورضيت ، وعفت عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة [2] ، ورجعت إلى الآخرة بالحرص عليها ، والرغبة فيها ، فإن النفس مبنية على أساس الطمع .

ومخرج الحرص والرغبة من الطمع ، وبناء الأنفس على قواعد الطمع . أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من الدنيا . وأما الطمع في الآخرة فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة ، بالحرص عليها ، والرغبة فيها .

---

(١) أجممتها : أرحتها .

(٢) ليس طلب الدنيا في حد ذاته محظوراً ، وإنما المحظور الحرص عليها ، وعقد القلب على حبها ، أما عمران الحياة ، وتنمية الأموال فمن مقاصد الإسلام ، لإعداد القوة ، وعون الضعفاء من المؤمنين وغير المؤمنين .
انظر : (أعمال القلوب والجوارح . ص ٩٠) .

قيل لحكيم : فما آلة الطمع ، وجماع آفاته ؟

قال : الشره والحرص ، وهيجان الرغبة . فعلى أيها أوقعت طمعها أحضرت أداتها ، وجمعت آلتها ، وجدت في طلبها .

فإذا قهرت صاحبها [1] على موافقة هواها استعبدته . فأذهلته وأذلته وأدهشته وأتعبته ، وطيشت عقله ، ودنست عرضه ، وأخلقت [2] مروءته ، وفتنته عن دينه ، وإن كان عالماً لبيباً عاقلا كيساً فطناً فصيحاً حكيماً فقيهاً لوثته وأسقطته ، وفضحته ، فاحتمل لها ذلك كله وهو الأريب العالم الأديب ، فصيرته بعد العلم جاهلاً سفيهاً ، أحمق خفيفاً .

وذلك أنها سقته من موافقة هواها كأساً سماً صرفاً ، فاستمالته ، فمال بعلمه وعقله وفهمه ، ونفاذ حكمته وبصره ، فأجراه مجرى هوى نفسه ، فجعلت له الفضيحة في عاجل الدنيا عند حكمائها وعقلائها ، وأسقطته من عين الله ، وأعين عباده من أهل البصائر ، وأخرت له أجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا ، وفي عرصات القيامة .

فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا ، وغلب بعقله هواها ، رجعت بطمعها إلى منازل الآخرة ، وأحضرت أداتها ، واستعملت آلتها ، فاشتغلت بطلب أسباب الآخرة لا محالة ، لأنها بنيت على الطمع [3] .

فإذا تجردت من طلب أسباب الدنيا ، وأقبلت على نفسها بالاياس

---

(١) في الأصول (قهرت صاحبها العبد) . وقد حذفنا كلمة (العبد) لعدم الحاجة اليها .

(٢) أخلقت مروءته : أبلتها وضيعتها .

(٣) ليس المراد بكلمة الطمع القضاء على الطبائع الجبلية في الانسان ، لأنه مستحيل ، ولكن المراد تعديل سلوك الانسان فيها ، وتحويلها من طريق الخطأ إلى طريق الصواب. ومن هنا تعقب أبو المواهب الشعراني أبا حامد الغزالي وخطأه في القول بجواز القضاء على الأخلاق الرديئة الجبلية في الأنسان ، وقال : إنها لا تزول ، ولكنها تخمد وتضعف بحلول أضدادها مكانها ، فإذا ضعفت رقابة الانسان على نفسه عادت أخلاقه السيئة مرة أخرى . انظر : (أسرار أركان الإسلام ص ٧٥ ، وكذلك انظر : العرائس القدسية ورقة ٤٧ أ) .

من المخلوقين [1] ، رجعت برغبتها وطمعها إلى أسباب الآخرة ، فجدت في طلبها واجتهدت ، وعزفت عن الدنيا [2] ، وباينت الهوى ، وخالفت العدو ، وتبعت العلم ، وكانت مطية للعقل ، صابرة على مُرِّ ما يدل عليه الحق [3] . فنجت وأنجت [4] .

* * *

(١) الإياس من المخلوقين : يعني عدم الركون إليهم ، وعدم تعليق الهمة بهم .
(٢) عزفت عن الدنيا : زهدت فيها مع وجودها ومع دوام العمل فيها .
(٣) مر ما يدل عليه الحق : يعني : شدة العمل الذي أرشد اليه الله تبارك وتعالى .
(٤) نجت وأنجت : يعني : نجت النفس بهداها إلى الحق ، وأنجت غيرها بالقدوة والبيان الموافق للحق .

الخوف والحزن

وتعاهد يا أخي قلبك عند همه ، والزمه الفكرة في أمر المعاد فلا تفارق قلبك ، وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا ، وترك ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم ، وتدنيس أعراضهم ، وأخلاق مروءاتهم ، وانتقاص أديانهم ، ثم تركوا ذلك كله ، وقدموا على الله فرادى آحاد ، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وأهوال القيامة ، والوقوف بين يدي الله ، والمساءلة عن جميع ما كان منهم من قول أو فعل ، من مثل مثاقيل الذر ، وموازين الخردل .

وسؤاله عن الشباب فيمَ أبلى شبابه ، وعن العمر فيمَ أفنى عمره ، وعن المال من أين اكتسب ، وعمن منع ، وفيم أنفق ، وعن العلم ماذا عمل فيه ، وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها ، والتي كذبوا فيها .

فإنك يا أخي إن شغلت قلبك بذلك ، وأسكنته إياه ، وكان فيك شيء من صحة تركيب العقل ، فإنه سيكل منك لسانك ، ولا يعدمك الخوف اللازم ، مع الحزن الدائم ، والشغل المحيط بقلبك ، فإن إبليس إنما يتسور عليك في الآثام من وسوسة نفسك ، وخراب قلبك .

وخرابه إنما يكون فارغاً من الخوف اللازم ، والحزن الدائم ، فحينئذ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا ، والجمع لها ، ومخافة فقرها ، مع لزوم طول الأمل لقلبك ، واعراضه عن الله تعالى ، وانقطاع مواد عظمة الله منه ، وفراغه من الهيبة والحياء منه . فإذا وجد القلب عامراً

خنس ، ونفر منه ، ولم يجد فيه مساغاً ، ولا من جوانبه مدخلا ، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر ، فهو منير مضيء .

يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس ، فيرميه بالانكار لما يدعو اليه، ويعتصم بما أيده الله به من نور قلبه ، فيدحره [1] عنه ، فولى الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف ، فخرب وأظلم ، فلا نور فيه .

فلا شيء أثقل على الخبيث من النور ، فإذا وجده خنس ، ونفر منه ، فلا يقدر عليه إلا من قبل الغفلة من العبد .

ونور القلب إنما هو من تيقظه وحياته ، فإذا غفل مات وأظلم ، وطفيء نوره فيلبس على العبد ما يدخل عليه العدو ، أو يكدر عليه . فاختلس ابليس من العبد ، واستدام القلب بالغفلة ، فتسور عليه بالآثام، فإذا أصرّ على الاقامة عليها ، ورضي بها ، علاه الرين [2] ، فأظلمه ، واستقر إبليس فيه ، ثم سلك به سبيل الآثام ، إلى أن يوصله ويوقعه في الكبائر .

ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمه القلب وسواده ، وانطفاء نوره ، وتراكب الرين عليه ، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء ، وإنما مأواه الظلمة ، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض .

ولقد بلغني أن النبي ﷺ كان يكره أن يدخل البيت المظلم ، حتى يضاء له فيه بمصباح [3] .

* * *

---

(١) يدحره : يهزمه ، ويذله .

(٢) الرين : الظلمة المتراكمة على القلب من أثر المعصية .

(٣) لم نعثر على هذا الخبر فيما بين أيدينا من مصادر .

مراقبة القلب

يروى عن بعض الحكماء أنه قال: أن من أشرف المقامات وأفضلها: المراقبة لله ، ومن أحسن المراقبة : أن يكون العبد مراقباً بالشكر للنعم: والاعتراف بالاساءة ، والتعرض للعفو عن اساءته ، فيكون قلبه لازماً لهذا المقام في كل أعماله ، فمتى ما غفل رده إلى هذا بإذن الله .

ومما يعين على هذا ترك الذنوب ، والتفرغ من الأشغال ، والعناية بالمراجعة .

ومن أعمال القلب التي يزكو بها ، ولا يستغنى عنها : الاخلاص ، والثقة ، والشكر ، والتواضع ، والاستسلام ، والنصيحة ، والحب في الله تعالى ، والبغض فيه [1] .

وقال : أقل النصح الذي يحرجك تركه ، ولا يسعك إلا العمل به ، فمتى قصرت عنه كنت مصراً على معصية الله تعالى في ترك النصيحة لعباده ، فأقل ذلك : ألا تحب لأحد من الناس شيئاً مما يكره الله عز وجل ، ولا تكره لهم ما أحب الله عز وجل .

فهذه الحال التي وصفنا واجبة على الخلق ، لا يسع تركها طرفة عين بضمير ، ولا بفعل جوارح .

وحال أخرى فوق هذه ، وهي فضيلة للعبد : أن يكره لهم ما كره الله ، وأن يحب لهم ما أحب الله تعالى .

---

(١) معنى الحب في الله والبغض فيه : أن يكون سبب الحب والبغض هو الله ، فتحب أحباء الله ، وتبغض أعداءه .
وقد أخرج الإمام أحمد أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : « الحب في الله ، والبغض في الله » .

قال : وجاء رجل لابن المبارك فقال : أوصني . فقال : « راقب الله » . فقال الرجل : وما مراقبة الله ؟ فقال : « أن تستحي من الله » .

قال : فالمناجاة والمراقبة من حيث تضع قلبك ، وهو : أن تضعه دون العرش ، فتناجي من هناك .

وفي رد القلب إلى المراقبة مراجعتان : أولاهما : مراقبة النظر مع تذكر العلم . قال تعالى : ﴿ إنّه عَليمٌ بذات الصُّدور ﴾ (1) . وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ ما في أنفُسِكُم فاحْذروه ﴾ (2) .. ثم تذكر العظمة لوجود الحلاوة .

ومقام آخر ، يروى أن الله سبحانه أوحى ابراهيم عليه السلام : « يا إبراهيم ، تدري لِمَ اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يارب . قال : لطول قيامك بين يدي » (3) . قال : فقيل : إنما كان قيامه بالقلب ، وليس بالصلاة . وهذا يوافق القرآن ، قال تعالى : ﴿ إنّا أخْلَصْناهم بخالصة ذكْرى الدّار ﴾ (4) . وقول حارثة : « كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً » (5) .

وقال : أعلى الأعمال في الدرجات أن تعبد الله على السرور بمولاك ، ثم على التعظيم له ، ثم على الشكر ، ثم على الخوف . وآخر الأعمال التي تكون بالصبر .

والصبر على وجوه : تصبر ، وصبر جميل (6) . ثم تخرج إلى الخوف ، والشكر ، ثم إلى التعظيم ، ثم السرور .

---

(1) سورة هود ، الآية : ٥ .
(2) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٥ .
(3) انظر تفسير الطبري ، ٤/١٣٥ .
(4) سورة ص ، الآية : ٤٦ .
(5) من حديث ذكره في مجمع الزوائد ١/٥٧ ، وعزاه الهيثمي للطبراني والبزار . ورواية الطبراني فيها ابن لهيعة . ورواية البزار فيها يوسف ابن عطية لا يحتج به .
(6) التصبر : محاولة الصبر مع جزع النفس وقلقها . والصبر الجميل : هو السكوت تحت مجاري القدر دون حرج في الصدر ولا جزع من النفس .
انظر : (أعمال القلوب والجوارح ص ٢٣٠) .

ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في أيدي الناس عنده قليلا ، وليكن القليل عنده من دنياه كثيراً ، وليكن العظيم منهم اليه من الأذى صغيراً ، وليكن الصغير منه اليهم عنده عظيماً .

وقال : إذا دعتك نفسك إلى ما تنقطع به عن حظك ، فاجعل بينك وبينها حكماً من الحياء من الله تعالى .

وقال : إن الأكياس إذا دعتهم النفوس إلى تقطعهم بخدائعها عن سبيل نجاتهم ، حاكموها إلى الحياء من الله تعالى ، فأذلها حكم الحياء .

وقال : مخرج الاغترار من حسن ظن القلب ، ومخرج حسن ظن القلب مع القيام لله على ما يكره ، ثم من كذب النفس .

وقال : من النصح أن تحب أن يكون الناس كلهم خيراً منك .

وقال : ذكر عند ابن المبارك عابد تعبد بلا فقه ، فقال : « ليت بيني وبينه بحراً » [1] .

وقال : من انقطع إلى الله يصبر على الناس ، ومن انقطع إلى غير الله لم يصبر عن الناس .

وقال كرز [2] : « من قرأ القرآن ما له ولكلام الناس » .

وقال : إنما هي أيام قلائل ، فما على الانسان لو وهب نفسه لله .

وقال : التواضع لله : ذل القلب .

---

(١) ابن المبارك : هو إمام خراسان غير منازع ، وله قدم راسخ في العلم والورع ، روى عن حميد الطويل ، وابراهيم التيمي ، وشعبة ، ومالك ، والثوري ، وابن عيينة ، وغيرهم . وروى عنه معمر ، وابن مهدي ، وابن معين . وغيرهم .
قال ابن معين : ثقة مستثبت صحيح الحديث . مات عام ١٨١ هـ . وإنما تبرأ من العابد بلا فقه ، لان عمله غير قائم ، والبدعة اليه سريعة .

(٢) عالم ، فقيه ، مجاب الدعوة . توفي سنة ٢٠٣ هـ . انظر : (طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٩٨) .

وقال : أول النعم معرفة العلم الذي به تؤدي فرائض الله ، ثم الصحة والغنى ، ثم العقل .

وقال : ليس للعبد أن يرد على مولاه شيئاً من أحكامه ، وعليه أن يرضى بما ورد عليه من حكم مولاه ، فإن لم يرض صبر . فللعبد حالان : حال يوافق منه رضى على ما يحب ، وحال يوافق منه صبراً على ما يكره .

* * *

العدل والفضل

بسم الله الرحمن الرحيم

يروى عن بعض الحكماء أنه قال : طريق الآخرة واحد ، والناس فيه صنفان : فصنف أهل العدل ، وصنف أهل الفضل .

والعدل عدلان : عدل ظاهر فيما بينك وبين الناس ، وعدل باطن فيما بينك وبين الله .

وطريق العدل طريق الاستقامة ، طريق الفضل طريق طلب الزيادة. الذي على الناس لزوم العمل به طريق الاستقامة ، وليس عليهم لزوم طريق الفضل .

والصبر والورع مع العدل ، وهما واجبان ، والزهد والرضا مع الفضل ، وليسا بواجبين . والانصاف مع العدل، والاحسان مع الفضل . ومن شغله العدل عن الفضل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن العدل فهو مخدوع متبع لهوى نفسه . وعلى الانسان معرفة العدل ، وليس عليه معرفة الفضل إلا تبرعاً ، وهكذا كل عمل لا يجب على العبد فعله، لا يجب عليه علمه .

ولا يكون العبد من أهل العدل إلا بثلاث خصال . بالعلم حتى يعلم ما له مما عليه ، وبالفعل ، وبالصبر .

فمفتاح العدل ، وأولاه بالعبد ، وأوجبه عليه : أن يعرف قدر نفسه ، فلا يكون لها عنده قدر فوق منزلتها ، وأن تشبه سريرته علانيته ،

فأحزم الناس فيه ، وأقربهم منه مأخذاً : المراجع نفسه في كل خطرة تهواها نفسه أو تكرهها ، فينظر في ذلك : أن لو اطلع الناس على حالته هذه فاستحيا أو كرهها تحول من تلك الحالة إلى حالة لا يستحيا منها . فإن الذي لا يستحيا منه ضد الذي يستحيا منه ، فإذا تحول واستمر فلينظر ، فإن اشتهت نفسه أن يطلع الناس عليه ، تحول منه إلى ما لا تشتهيه نفسه . فإن الذي تشتهيه ضده ، فيكون أبداً في ضد ما تشتهيه نفسه .

وأبعد الناس من العدل : أشدهم غفلة عن هذا ، وأقلهم محاسبة لنفسه . وأبعد الناس من العدل ، وأطولهم غفلة عن هذا : أشدهم تهاوناً به .

ولو عقلت من الذي تراقب ، ثم تقطعت أعضاؤك قطعاً ، وانشق قلبك ، أو سحت في الأرض ، لكنت بذلك محقوقاً ، فلما لم تعقل لم تجد مس الحياء والخوف في مراقبة الله تعالى ، ومطالعته على ضميرك ، وعلمه بما تجتلبه حواسك على قلبك . وقدرته المحيطة بك ، ثم أعرضت بعد ذلك كالمتهاون به إلى مراقبة من لا يطلع على سرك ، ولا علم له بما في ضميرك ، فقلت : لو أطلع الناس على ما في قلبي لقلوني ومقتوني ، فمسك الحياء والخوف منهم حذراً من نقصان جاهك ، وسقوط منزلتك عندهم ، فكنت مراقباً ، ومنهم خائفاً ، ومن مقتهم مشفقاً ، إذ لم تخف مقت الله لك ، وسقوط منزلتك وجاهك عنده ، ومقت الله أكبر .

ثم إذا عملت شيئاً من الطاعات التي تقرب إلى الله زلفى ، فإن هم اطلعوا عليها عقدت بقلبك حب حمدهم على ذلك ، وأحببت اتخاذ المنزلة عندهم بذلك . وإن كان شيئاً يتقرب به إلى الله من طاعته بعقد ضمير ، أو اكتساب جوارح ، فكان ذلك سراً ، أحببت أن يطلعوا عليه ليحمدوك ، ويقوم به جاهك ، فلم تقنع باطلاع الله عز وجل ، ولا بثوابه في عمل السر ولا عمل العلانية ، واستوجب من الله المقت على ذلك ، وسقوط الجاه عنده ، ثم مضت أيامك على هذا ، وأنت قانع بذلك ، راض به ، غافل متماد مغتر مخدوع ، وكانت هذه الحالة عندك أحسن أحوالك ، وأحزم أمورك .

ولو استغنيت بالله وحده ، وباطلاعه عليك ، وبجزيل ثوابه لأهل طاعته ، ومحبته لهم ، وتوفيقه لهم ، وتسديده إياهم ، وراقبته ، لأغناك ذلك عمن لا يملك لك ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً . وقد رضي منك بذلك ، وليتك تضبطه .

فأولى الفضائل بك ، وأنفعها لك : أن تكون نفسك عندك دون قدرها ، وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتك ، وأن تبذل للناس حقوقهم ، ولا تأخذ منهم حقك ، وتتجاوز عما يكون منهم ، وتنصفهم من نفسك ، ولا تطلب الانصاف منهم ، وإنما هو التطهير ثم العمل ، والتطهير أولى بنا من العمل .

* * *

التطهير والعمل

والتطهير هو : الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يبني عليه الخير. وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس ، ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء .

ومن لم يتطهر قبل العمل فإن الشر يمنع العبد من منفعته الخير ، فترك الشر أولى بالعبد ، ثم يطلب الخير بعد . والنفس تجزع من التطهير ، وتفر إلى أعمال الطاعات ، لثقل التطهير عليها ، وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة .

فإذا كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات بعد خفته عليها لمكان الطهارة ، فالحاجة إلى معرفة الأسباب التي يطلب منها الخير وتوصل إلى الله شديدة . فمن كانت له عناية بنفسه ، وخاف عليها التالف ، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفطن ، وغائص الفهم ، حتى يصل اليها .

فإذا وصل اليها تمسك بها ، وعمل عليها ، لأن المعرفة لآفات العمل تكون قبل العمل ، ومعرفة الطريق قبل سلوكه ، وحاجة العبد إلى معرفة نفسه وهواها ، وعدوه ، ومعرفة ترك الشر أشد إن كان كيساً ، وهو إلى ذلك أفقر إن كان فطناً معنياً بنفسه .

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد ، والشر كله لازم للعبد تركه ، ومن ترك الشر وقع في الخير ، وليس كل من عمل بالخير كان من أهله .

ومعرفة العبد للشر فيها علم الخير والشر ، وليس في معرفة الخير العلمان جميعاً ، لأن كل من ميز الخير من الشر فعزله ، واعتزله ، فكل ما بقي بعد ذلك فهو خير كله . وقد يمكن أن يعلم الخير ولا يحسن أن يميز ما فيه من الشر من الآفات التي تفسده وتبطله ، لأن الخير مشوب ممازج بالشر ، والشر شر كله .

وقد أضل العدو الخبيث عن الله كثيراً من الناس بالخير ، وأضل كثيراً منهم بالشر ، وإنما أضل من أضل بالخير لقلة معرفتهم بما يمازج الخير من الشر ، فجهلوا معرفة ذلك وأوهمتهم أنفسهم أنهم على خير وهدى ، وطريق محبة ، وسبيل واستقامة ، وهم ضالون عن الله ، عادلون عن طريق محبته ، وسبيل الاستقامة اليه .

وإنما ذلك من كثرة الآفات التي تخلق الأعمال ، وقلة علم العمال بها ، فإنا لله وإنّا إليه راجعون .

ما أغفل الناس عن أنفسهم ، وعن أهوائهم ، وعن عدوهم ، فنعوذ بالله من الغفلة والسهو والنسيان الذي يردى ، ويفسد الأعمال .

والحري أن تارك الشر يكون تركه له على قدر ما يعرف ويخاف من ضرره ، وهو قائم بفرض تقرب اقامته من الله زلفى . وطالب الخير يكون طلبه له على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته ويعرف ، أن العلم شيء ، والعمل شيء ، والمنفعة شيء ، وربما كان علم ولم يكن به صاحبه عاملا ، وربما كان علم وعمل ولم تكن منفعة ، وربما كان علم وعمل ومنفعة ، ثم يكون بعد ذلك إبطال واحباط . وربما علم العبد وعمل وانتفع وسلم وتم .

الخصال التي يطلب منها الخير :

فطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال سوى ما يحتاج فيه إلى علم حدود الأعمال وأحكامها ، وأدائها إلى الله خالصة مخلصة ، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض وسن ، في الأوقات التي أمر وفرض .

فصاحب الخير العامل به لا يستغني عن : الصدق ، والصواب ، والشكر ، والرجاء ، والخوف .

أما الصواب :

فالسنة . والسنة ليس بكثرة الصلاة تدرك ، ولا بكثرة الصيام والصدقة ، ولا بالغفل والفهم ، ولا بغرائب الحكمة ، ولا بالبلاغ والموعظة . ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والأئمة الراشدين من بعده .

وليس شيء أشد تهمة . ولا أكثر ضرراً على السنة من العقل . فمتى أراد العبد أن يسلك سبيل السنّة بالعقل والفهم خالفها ، وأخذ في غير طريقها ؟ .

وأما الصدق :

ففي أربعة أشياء : تعمل العمل ، ثم لا تريد على ذلك جزاء ولا شكوراً إلا من الله تعالى ، ولا تبطله بالمن والأذى . ومنه صدق اللسان في الحديث ، وقد يصدق في حالة بلسانه وهو عاص لله تعالى في صدقه ، وهو : المغتاب والنمام .

وأما الشكر :

فمعرفة البلوى . فإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله لا من غيره ، وإنما هي بلوى يختبر بها عبده . شكر أو كفر ، وكل سوء صرف عن العبد فالله تعالى صرفه ، ليشكره عبده أو يكفره ، فهذا من الشكر .

فإذا عرف العبد هذا ، أنه من الله ، وعده من نعمه عليه ، ولم يدخل فيه أحداً : نفسه ولا غيرها ، فقد شكره . فالشكر متفاوت ، والناس فيه متباينون متصاعدون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد ، وليس له حد .

ومنه أيضاً ، وهو يشبه ما وصفناه ، إلا أنه أصل الشكر : أن يعرف

العبد : أن ما به من نعمة فمن الله ، بقلبه ، علم يقين ، لا تخالطه الشكوك. فإذا عرف بقلبه ذلك ، ذكره بلسانه ، فحمده عليه ، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم .

وأعلا من ذلك من الشكر : أن تعد كل بلاء نزل بك نعمة ، لأن لله من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزله بك . والناس يحتاجون عند ذلك إلى الصبر ، وهو قائم بالشكر .

وأما الرجاء فهو :

أن ترجو قبول الأعمال ، وجزيل الثواب عليها ، وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك ، أو يكون قد دخلته آفة أفسدته عليك .

والراجون ثلاثة :

رجل عمل حسنة ، وهو صادق في عملها ، مخلص فيها ، يريد الله بها ، ويطلب ثوابه ، فهو يرجو قبولها وثوابها ، ومعه الاشفاق فيها .

ورجل عمل سيئة ثم تاب إلى الله منها ، فهو يرجو قبول توبته وثوابها ، ويرجو العفو عنها ، والمغفرة لها ، ومعه الاشفاق ألا يعاقبه الله عليها .

فهذان رجاؤهما رجاء صادق .

وأما الثالث فهو : الرجل يتمادى في الذنوب، وفيما لا يحبه لنفسه ، ولا يحب أن يلقي الله به ، ويرجو المغفرة من غير توبة، وهو مع ذلك غير تائب منها ، ولا يقلع عنها ، وهو مع ذلك يرجو .

فهذا يقال له : مغتر ، متعلق بالرجاء الكاذب ، والأماني الكاذبة ، والطمع الكاذب . والقيام على هذا يقطع مواد عظمه الله من قلب العبد ، فيدوم اعراضه عنه ، ويأنس بجانب مكر الله ، ويأمن تعجيل العقوبة . وهذا هو : المغتر المخدوع المستدرج .

وأما أمثالنا من الناس فينبغي أن يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء ، لأن الرجاء الصادق إنما يكون على قدر العمل بالطاعات .

والخوف :

على قدر الذنوب ، فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل لكان المحسن والمسيء في الرجاء سواء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ [1] . وقال : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . [2]

ومعنى الحديث الذي جاء «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا» [3] لا ينبغي أن يكون خاصاً بين أهله . وهو مثل الحديث الآخر : « المؤمن كذي قلبين : قلب يرجو به ، وقلب يخاف به » [4] . فإنما هو إذا أحسن رجاء ، وإذا أساء خاف مع التوبة والندم والاقلاع .

فأما من عرف نفسه بكثرة الاساءة فينبغي له أن يكون خوفه على قدر ذلك ، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الاحسان ، لأنه الرجاء على قدر الطلب ، والخوف على قدر الهرب .

* * *

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٨ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٥٦ .
(٣) لم نعثر على هذا الحديث فيما لدينا من مصادر .
(٤) رواه الطبراني والبزار ، عن أبي هريرة وفي سنده مقال .

البلوى والاختبار

واعلم وأيقن أن الدنيا كلها : كثيرها وقليلها ، حلوها ومرها ، أولها وآخرها ، وكل شيء من أمرها — بلوى من الله تعالى للعبد واختبار .

وبلواها وإن كثرت وتشعبت واختلفت ، فهو كله مجموع في خلتين : في الشكر والصبر . فأما أن يشكر على نعمه ، أو يصبر على مصيبته .

قال الله تعالى : ﴿إنّا جَعَلْنا ما عَلى الأرضِ زينَةً لها لنَبْلوهُم أيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً﴾ [1] .

وقال : ﴿ولَوْ يشَاء اللهُ لانْتَصَرَ منْهُمْ ولكِنْ ليَبْلُوا بعْضكُم ببَعْضٍ﴾ [2] .

وقال : ﴿ورَفَعَ بَعْضكُم فوْقَ بعْضٍ درَجاتٍ ليَبْلوكُم في ما آتاكُم﴾ [3] .

وقال : ﴿خلَقَ السّموات والأرضَ في ستّةِ أيّامٍ وكانَ عَرشُه على الماء ليبْلوكُم أيُّكُم أحْسَنُ عَملاً﴾ [4] .

وقال : ﴿وجَعَلنَا بعْضكُم لبَعْضٍ فِتْنَةً أتَصْبرونَ﴾ [5] .

وقال : ﴿ولنَبْلُونّكُمْ حتّى نَعْلمَ المُجاهدينَ منْكُمْ والصّابرينَ ونَبْلوا أخْبَاركُم﴾ [6] .

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٧ .
(٢) سورة محمد ، الآية : ٤ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٦٥ .
(٤) سورة هود ، الآية : ٧ .
(٥) سورة الفرقان ، الآية : ٢٠ .
(٦) سورة محمد ، الآية : ٣١ .

وأكثر من ذلك في كتاب الله تعالى . وإنما كانت بلوى آدم عليه السلام أقل من آية في كتاب الله تعالى : ﴿ ولاَ تقْربا هذه الشّجرة ﴾ (١) وهو كله لك بلوى . وان أكثر ما بلي به العبد من أهل الدنيا : الناس . وأفتن الناس لك ، وأكثرهم لشغلك . إنما هو بمعارفك منهم . . وأشغل معارفك لك ، وأكثرهم عليك فتنة : من أنت بين ظهرانيهم ، ينظرون اليك ، وتنظر اليهم ، ويكلمونك ، وتكلمهم . فإنك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه ، ولم تسمع به ، كأنك لم تبتل بهم ، وكأنهم لم يبتلوا بك ، وكأنهم لم يكونوا في هذه الدنيا التي أنت فيها .

فارجع في صبرك إلى الله ، واستعن به ، وانقطع اليه ، واستأنس بذكره ، واقلل من الخلطاء ما استطعت ، بل اترك القليل أيضاً تسلم ، لقول الله تعالى : ﴿ وجَعَلنا بعْضكُم لبِعْضٍ فِتْنةً اتَصْبرونَ ، وكانَ ربُّك بصيراً ﴾ (٢) . فاهرب من الفتنة .

فرجع صبرك إلى معارفك ، ومن أنت بين ظهرانيهم ، فنظرك اليهم فتنة ، ونظرهم اليك فتنة ، وكلامك معهم فتنة ، وكلامهم معك فتنة ، وجفاؤك لهم فتنة ، وجفاؤهم لك فتنة ، وكرامتهم لك وكرامتك لهم فتنة لك .

واعتبر ذلك بموضع تمر فيه ، فيه معارفك ، وموضع تمر فيه ليس فيه أحد يعرفك .

وهكذا شهوات المطعم والملبس ، وشهوات العين : ما يحل النظر اليه وما لا يحل النظر اليه ، مما كان من ذلك في غير البلدة التي أنت فيها ، فأنت منها سليم ، وفتنتها مصرفة عنك إن شاء الله ، لان مؤنتها ساقطة .

وهكذا أنت في جميع أعمالك .

وعملك الذي تعمل إنما هو فتنة ، أنت فيه تريد أن توقى أعين

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٥ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٠ .

الناس ، وأكثرهم من يعرفك بالخير ، فأعمالك لك فتنة . أن حججت فكنت خالياً ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان أسلم لك ، وإلا فهي فتنة ، فانظر كيف تسلم منها . وإن خرجت من بلدة أنت فيها معروف بالخير ،فخرجت منها وهم لا يعلمون أين تريد ، فهو أسلم لك ، وإن علموا فهي فتنة ، فانظر كيف تسلم منها .

وكذلك الغزو ، وبلوى أهل الغزو ، وما ينوبهم في مغازيهم من الفتنة والبلية أعظم من بلية غيرهم ، وأعظم من الذين يعملون بأعمال البر ، وهم قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية ، فإذا دخلوا فيها جاءت الفتنة من التحاسد بعضهم لبعض ، وطمعهم فيما يرجون من السهام ، وطمعهم في الحملان [1] . وما يجعل الناس في سبيل الغزو [2] .

ولقد سمعت رجلا من المذكورين من أهل الغزو ، وممن له غناء عند لقاء العدو ، واسم عظيم في المطوعة يقول : الخيل قد خرجت ، ولم يقض لي الخروج معها ، أما السلامة فأحب أن يسلموا ، ولكني أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم .

ولقد رأيت من يغار على ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يعط هو وأعطي غيره كما يغار الرجل على بعض حرمه . ولقد رأيت من غزا ولم يغنم ود أنه لم يكن غزا .

ولا يؤمن يا أخي على كل من دخل في عمل من أعمال الدنيا والآخرة جميعاً إذا لحقتهم في عملهم الآفات التي تفسد الأعمال ، وأن يدخل عليهم الشيطان فيها من العيوب والفتن مثل هذا وأكثر من هذا ،

فليحذر الرجل على كل عمل يعمله من أعمال الدنيا والآخرة ، وليراقب الله فيه ، ويعامله بضمير خالص ، ويحذر اطلاع الله على فساد في ضميره ، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله ، فإن كناس

---

(١) الحملان : ما يحمل عليه الغازي من الخيل والابل .

(٢) يعني : ما يتبرع به الناس للغزاة من العون .

الحشوش [1] . أكرم من هذا الصائم ، وهذا المصلي ، وهذا القائم ، وهذا الغازي يكره أن ينال المسلمون من غنائم الروم ، والجالس في بيته ببغداد يحب أن يغنموا منهم .

فاحذر رحمك الله من قرب منك وقربت منه ، فإن الذين بعدوا منك وبعدت منهم سلموا منك وسلمت منهم ، يود أقوام غداً أنهم لم يكونوا سمعوا بآذانهم كثيراً من أعمالهم التي هي في رأي العين يرجى لصاحبها عليها الثواب الجزيل ، والدرجات الرفيعة ، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيراً من حسناتهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

يقال : أنها أعمال عملوها من أعمال البر كانوا يرون أنها منجيتهم ، فكانت هي مهلكتهم ، لما مازجها من الرياء ، وحب المحمدة من المخلوقين ، واتخاذ المنازل بالطاعات ، وإقامة الجاه ، وحب القدر ، والميل إلى ثواب المخلوقين .

فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون ، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا ، فافتضحوا ، وفضيحة ما هناك باقية ، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد .

فليس اسم الاعمال يراد ، ولا تزيين ظاهرها ، ولكن تقوى الله ، وما يقرب اليه زلفى . فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بعد المشرقين .

قال العدو الخبيث : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ [2] . فلو لم يكن في الكتاب من صفات ابليس إلا هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه .

---

(١) كناس الحشوش : هو الذي يحمل فضلات الناس بعيداً عن العمران .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٧ .

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يؤتى من قبل البر ، وقلة العناية بتصفية الأعمال ، وما قد استحلت النفس من حب المحمدة من المخلوقين . وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام ، إلا أن علامة الفتنة في الناس جميعاً مختلفة . وأكثر الناس إنما يعرفون من قد فتن بالآثام ، ولا يعرفون من قد فتن بالبر ، إلا القليل من الناس من أهل النور والفطن والفراسة والتوسم والكياسة .

وذلك أن الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها . والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها .

ومن الناس من يعلم فتن الاعمال ومبطلاتها ، ثم يغلبه الهوى ، ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل .

واعلم أن الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال ، ومعه العناية بنفسه وعمله ، ومعه التيقظ وازالة الغفلة ، وهو مع ذلك مشفق خائف من الآفات ما يكاد يسلم إلا من عصم الله تعالى ، فكيف الذي يجهل ويغفل ، ويغلبه الهوى ، ويحب دخول الآفة ؟.

وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة : بالبر والاثم جميعاً افتتاناً . فاحذر فتنة البر والاثم جميعاً ، لا ينزل بك ما نزل بغيرك في الترك والطلب . فلتكن همتك في النظر في مرآة الفكر كالهمة بالعمل ، وأكثر من ذلك ، فإنه ليس شهوات الذنوب والسيئات ، وشهوات المطاعم والمشارب والملابس والبناء والمراكب والمناكح والذهب والفضة بأغلب على أصحابها من شهوات الجاه وحب الرياسة ، وإقامة القدر ، واتخاذ المنزلة ، وقبول الأمر والنهي وقضاء الحوائج ، وحب العدالة عند الجيران والأصحاب والأخوان ، والمدحة على أصحاب البر في حسناتهم .

وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنوب ، فيترك الذنب ، ويصير إلى أعمال البر ، فيضعف عند تصفيتها ، وتغلبه شهوة ما فيها ، فيعمل

حسنات كثيرة بقوة واقتدار عليها ، وظمأ شديد وسهر ، ولا يقدر على أن يغلب شهوته على تصفيتها ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون مما قد نزل بنا ، وما أعظم خطرنا ، وما أغفلنا عن عظيم الخطر .

ثم اعلم أني لست أزهدك في طلب أعمال البر ، لأن كل عمل لا تعمله اليوم لا تجد ثوابه غداً ، ولكني أحذرك خدع الشيطان ، وهوى نفسك الأمارة بالسوء .

وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقد قال الله تعالى : ﴿فإذا قَرأتَ القُرْآن فاسْتعِذْ بالله منَ الشّيْطان الرجيم﴾ [1]

وقال : ﴿ إنَّ الشّيْطانَ لَكُم عدُوٌّ فاتّخذوه عدُوّاً ، إنّما يدْعوا حزْبه ليكُونوا منْ أصْحاب السّعير ﴾ [2] .

وقال : ﴿ إنَّ النّفْسَ لأمّارةٌ بالسُّوء إلاَّ ما رحِمَ ربّي ، إنَّ ربّي غفُورٌ رحيمٌ ﴾ [3] .

وقال : ﴿ وكذَلكَ سَوّلت لي نفْسي ﴾ [4] .

وقال : ﴿ فَطَوّعت لهُ نَفْسُه قَتْلَ أخيه فقَتله فاصْبحَ منَ الخاسرينَ ﴾ [5] .

وقال : ﴿ بلْ سَوّلتْ لكُمْ أنفُسُكُم أمْراً ، فصبرٌ جميلٌ ﴾ [6]

وقال : ﴿ ولَقَدْ خلَقْنا الإنْسانَ ونَعْلمُ ما تُوسْوسُ به نَفْسُهُ ﴾ [7] .

وقال : ﴿ ولاَ تتّبع الهَوى فيُضلّكَ عنْ سبيل الله ﴾ [8] .

---

(1) سورة النحل ، الآية : ٩٨ .
(2) سورة فاطر ، الآية : ٦ .
(3) سورة يوسف ، الآية : ٥٣ .
(4) سورة طه ، الآية : ٩٦ .
(5) سورة المائدة ، الآية : ٣٠ .
(6) سورة يوسف ، الآية : ٨٣ .
(7) سورة ق ، الآية : ١٦ .
(8) سورة ص ، الآية : ٢٦ .

وقال : ﴿ ومَنْ أضلُّ ممّن اتّبَعَ هَواهُ بغيرِ هُدىً منَ اللهِ ، إنّ اللهَ لا يهْدي القَوْمَ الظّالمينَ ﴾ [1] .

وقال : ﴿ واتّبعَ هَواهُ وكانَ أمرُهُ فُرطاً ﴾ [2] .

وقال : ﴿ وكذّبوا واتّبعُوا أهْواءهُم ﴾ [3] . مع أشياء كثيرة في ذكر عداوة إبليس ، وذم النفس والهوى .

قلت : أرى من الناس أشياء يعاب مثلها ، واحب أن أسلم من التعيير والازدراء والعيب فلا أدري أسلمت منه نفسي أم لا .

فقال : إن الانسان عند معرفة عيب نفسه أبله ، وعند معرفة عيب غيره جهبيذ ، فيحتقر عيب أهل كل صناعة ، وأهل كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة ، ويحتقر عيب من هو في مثل مرتبته . ويستعظم ذلك من كل من رآه منه ، فإذا أتى على عيب نفسه جازه [4] ، إلى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره .

وهو يطلب العذر لنفسه ، ولا يطلبه لغيره ، فهو في طلب عذرها جهبيذ ، وفي طلب عذر غيرها أبله ، وهو يضمر عند ذلك لصاحبه ما يكره أن يضمر له غيره لو رأى منه مثل ذلك العيب .

فإذا رأيت عيباً أو زلة أو عثرة من غيرك ، فاجعل نفسك مكانه ، ثم انظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه ، وأضمر ذلك له في نفسك ، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحبه منه.

وهكذا إذا رأيت ما يستحسن ، فأردت أن تعرف علم السلامة من الحسد له .

وبالحري أن يكون أخف الناس عليك عند الزلة : من يطلب لزلتك عذراً ومخرجاً ، فإذا لم يجد للعذر موضعاً ساءه ذلك ، وأخفى مكانه .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٥٠ .
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٨ .
(٣) سورة القمر ، الآية : ٣ .
(٤) جازه : تركه .

وعند حسنتك يسر ، فإن لم يسر لم تسوءه . فهكذا فكن لهم عند الزلة وعند الحسنة . فإذا كنت كذلك فلا تحب ازالة نعمة أنعمها الله على أحد في دين ولا في دنيا ، ولا تحب أن يقيم أحد على معصية الله تعالى، ولا تحب أن يهتك ستره عند زلته ، فإنك إذا فعلت ذلك بقلبك ، زال عن قلبك الحسد عن الدين والدنيا جميعاً .

ومتى غلبت عليك المسابقة إلى ضميرك بسوء المحضر ، فلا تغلبن على مشاهدته بحسن المراجعة في جميع أمورك .

واعلم أنك مسبوق إلى ضميرك بالحسد ، وسوء الظن ، والحقد ، فاجعل المراجعة شغلا لازماً ، وكن وفاقاً ، كما قال الأول : « المؤمن وقاف » . وليس كحاطب ليل [1] .

فقف وطالع ضميرك بعين حديدة النظر ، نافذة البصر ، فإذا رأيت أمراً محموداً فاحمد الله ، وامض ، وإذا رأيت مكروهاً داركته بحسن المراجعة ، واستقصيت فيه ، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك سوف يختبىء فيه ، وإن كان مظلماً فأنت لا تشعر ، إلا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح ، ويكون معك من العناية بأخذه والانكار لما دخل فيه : ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به .

ولو قد جربت لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول : يدخل داخل منزلك بغير إذنك ، وهو داخل لا يؤمن أن يخرب المدخول عليه . فإن رأى الداخل منك توانياً وتهاوناً كان هو المقيم بالمنزل ، المدبر له فاستولى على حر بيتك وعلى حرمتك . وإن رأى منك انكاراً فيه ضعف اختفى لك يلتمس سهوتك وغفلتك ، فإذا وجد فرصته خرب عليك ما كنت أصلحت ، وهدم ما بنيت ، فافهم أن كنت تفهم ، واقبل من الناصحين إن كنت تقبل .

فلو رحلت فيما أخذت المطايا ، فبلغت حيث تبلغ من البعد ،

(١) حاطب الليل : الذي يجمع الحطب بالليل ، فيجمع الحطب والهوام . يعني : لا يميز بين رديء وجيد .

وأنفقت في سبيل ذلك حر بيتك ، كان الذي أخذت أكثر من الذي أنفقت وتعبت . فإنك تجد الخير الكثير في ميزانك يوم القيامة بصدق المراجعة ومبادرتها قبل أن تبرد عنك حلاوتها ، فإنها موهبة عظيمة من مواهب الله تعالى أكرم بها أهل خاصته ، وعظم النعمة عليهم فيها ، فإن عظم النعمة على قدر الحاجة .

فانظر هل راجعت نفسك وأمرك إلا وقد وجدت فيه موضع مرمة ومصلحة ، أو وجدته مفسوداً بعينه ، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهباً إلى يوم القيامة .

واعلم أني إنما أكثر عليك وعلى نفسي من ذكرها لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة إلى المراجعة . فلو قد تعلقت بشيء من الخير فيها يكون ونسبتها ، وإلا فلا ، وما تركك لها إلا كالمستأنس لعدوه ، والمسلم نفسه اليه ، فهلكت وأنت لا تشعر . وإن كنت متهاوناً بما أقول لك فإن أكثر حاجتك اليه في صلاة الفريضة ، ثم بعدها ، وهلم جرا في جميع أمورك .

ولو كنت ممن ينتقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة ، حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة ، فلم تدر ماذا قرأ أمامك ، ولم تدر أفي فرض كنت أم في نافلة ، في صلاة كنت أو في غيرها ، وأنت في رأس العين ممن يناجي ربه ، قد أصغيت بأذنيك إلى امامك ، وتخشعت بوقوفك ، وفرغت قلبك لاستماع ما يقرأ عليك امامك من كلام ربك في صلاة فريضتك ، التي ليس شيء أوجب عليك منها ، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا ، وأنت كمن لم يشهدها لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها .

ولعل الذي حضرت منها بقلبك أو عقلته فلم تسه عنه ، لو قيل لك : أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهياً ولك مائة ألف دينار لقلت : لا .

فاعتن الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك اليها ، فإنما لك من عمرك تيقظك ، وتيقظك : مراجعة ما فيه منفعتك وقربتك ، والمصير اليه بالعقل ، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان إلى شهوة فيها غليان قلبك ، وفي ذلك موافقة نفسك الأمّارة بالسوء ، والهوى المضل عن سبيل الله ، العادل بأهله عن طريق محبته ، وفي ذلك توثب العدو الخبيث الذي لا يألوك خبالا ، الذي يجري منك مجرى الدم ، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراهم .

قال مالك بن دينار [1] : « قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر ، وقلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور » . فتعاهد أمرك بالمراجعة ، فإن رأيت مكروهاً أصلحته وتحولت عنه ، وإن رأيت غير ذلك حمدت الله ، وكانت عنايتك بذلك زيادة لك ، وقربة . وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة فاعلم أنها نعمة وقربة من أعظم نعم الله ، وأحق من أحسنت مصاحبته نعم الله التي مفتاح خزائنها رحمة الله ، فالتمس الزيادة منها بالشكر عليها ، وأحق من أسأت صحبته نفسك الأمارة بالسوء ، والاساءة اليها : مخالفتها ، فإن في مخالفتها موافقة مرضاة الله .

قلت : فمن أهل الارادة ؟

قال : من لم يتخط عيباً ولا عورة إلى نافلة [2] .

قلت : فما حفظ اللسان ؟

قال : الصمت .

قلت : فما الاحتياط في التحفظ عند الكلام ؟

---

(١) مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى ، من رواة الحديث ، كان ورعاً ، يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحف بالأجرة ، توفي بالبصرة .
انظر : (وفيات الأعيان ١/٤٤٠ ، وحلية الأولياء ٢/٣٥٧ ، وتهذيب التهذيب ١٠ / ١٤ ، ١٥) .

(٢) المقصود من هذا القول : أن اصلاح العيوب والعورات فرض ، وعمل البر نوافل ، وأصحاب الارادة لا يتخطون الفرض ويهملونه إلى عمل من النوافل . أي أن التطهير من العيوب وأداء الفرائض أولى من النوافل .

قال : ترك ذكر عيب من غيرك ترجو على ذكره إذا ذكر به الثواب ، لكيلا يخرجك ذلك إلى ذكر عيب من غيرك تخاف على ذكره العقاب . وخذ نفسك بهذا الباب أشد الأخذ ، واحمل عليه من الناس من استرشدك ، وأراد مثل الذي تريد ، فإن العبد أكثر ما يؤتى من قبل التهاون باليسير ، وهو الذي يوقع في الأثم الكبير ، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير ، فيكون أوله كان تحفظاً ، ثم صار انبساطاً ، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير ، ثم صار من اليسير إلى ما هو أكثر منه ، فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره أن ترى فيه غيرك ، ففي ترك اليسير ترك اليسير والكثير .

وأقوى الناس على ذلك وأصدقهم عزماً هو الذي إذا عزم أمضى عزمه ، ولو يلو ، وأضعف الناس في ذلك أضعفهم عزماً ، وهو الذي يعزم ثم يحل عزمه ، ولا يكاد يمضي عزماً . فهذا الذي يتلاعب به العدو والهوى والنفس ، ليس له عندهم قدر ، لكثرة معرفتهم بتناقص عزمه ، وقلة استعماله له ، وأولوا العزم من الناس أفاضل الخلق من كل طبقة .

* * *

التوبة وحسن الظن بالنفس

قلت : فمن أرجى الناس لقبول التوبة منهم ؟

قال : أشدهم خوفاً ،وأصدقهم ندامة على ما كان منه ، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله وخطله [1] ، وطول غفلته ، ودوام اعراضه، وأحسنهم تحفظاً فيما يستقبل ، وإن استورا في ذلك فأشدهم اجتهاداً في العمل .

لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب : شدة التحفظ فيما بقي من العمر ، ومواثبة الطاعة بالجد والاجتهاد ، واستقلال كثير الطاعة ، واستكثار قليل النعمة ، مع رقة القلب ، وصفاته وطهارته ، ودوام الحزن فيه ، وكثرة البكاء ، والتفويض إلى الله تعالى في جميع الأمور ، والتبري إليه من الحول والقوة ، ثم الصبر بعد ذلك على أحكام الله عز وجل ، والرضا عنه في جميعها ، والتسليم لأموره كلها .

وقال لي : قد علمت من أين غلطت ، أحسنت الظن بنفسك ، فتاقت إلى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم من غير انكار منك عليها لمساوىء أعمالها ، ولا دفع لما ادعته من أعمال الصادقين . وأسأت الظن بغيرك ، فأنزلتهم في درجة المسيئين اغفالا منك لشأنك ، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك .

فلما كان ذلك منك كذلك ، عوقبت بأن غارت عيون الرحمة والرأفة من قلبك ، وانفجرت اليه أنهار الغلظة والقسوة ، فأحببت أن

---

(١) الخطل : هو الخطأ في الرأي .

تنظر إلى الناس بالازراء عليهم ، والاحتقار لهم ، وقلة الرحمة ، وأردت أن ينظروا اليك بالتعظيم والمهابة والرحمة ،فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قرباً ومحبة ، ونلت أنت من الله تعالى بعداً وسخطاً ، ومن خالفك فيه ازداد منك بعداً وبغضاً ، وازددت أنت من الله بعداً وسخطاً .

وأطلت في ذلك كله أملك ، فطاب لك المسير في طريق التسويف ، ومدارج الحيرات ، فاشتدت رغبة نفسك ، واستمكن الحرص من قلبك ، فعظمت لذلك في الدنيا رغبتك ، وشحت فجمحت إلى شهواتها ، واحتوشت قلبك لذاتها ، فحال ذلك بينك وبين أن تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة ، فقلبك حيران على سبيل حيرة ، قد اشتبهت عليك سبل النجاة ، وشقق حجاب الذنوب ، فأنست لقربها ، وطاب لك شم ريحها ، فوصلت بذلك إلى محض المعصية ، فادعيت ما ليس لك ، وتناولت ما يبعد مرامه من مثلك .

ثم أخرجك ذلك إلى أن تكلمت لغير الله ، ونظرت إلى ما ليس لك ، وعملت لغير الله ، فكنت مخدوعاً مسبوعاً [1] عند حسن ظنك بنفسك وأنت لا تشعر ، ومستدرجاً من حيث لا تعلم ، فكان ميراث عملك الخبء [2] ، والجريرة [3] ، والغش ، والخديعة ، والخيانة ، والمداهنة [4] ، والمكروه ، وترك النصيحة ، وأنت في ذلك كله مظهر لمباينة ذلك .

فمن كانت هذه سيرته ، فلا ينكر أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب . فلو كان لك يا مسكين أدنى تخوف لبكيت على نفسك بكاء الثكلى المحبة لمن أثكلت ، ونحت عليها نياحة الموتى حين غشيك شؤم الذنوب ، ولو بكى عليك أهل السموات وأهل الأرض لكنت مستوجباً لذلك ، لعظم مصيبتك ، ولو عزاك عليها جميع الخلق تعزية المحروب

---

(١) مسبوعاً : متعرضاً للخطر ، كما تتعرض للسباع .
(٢) الخب : اللؤم والخداع .
(٣) الجريرة : الكذب والنفاق .
(٤) المداهنة : الملاينة بغير ما في القلب .

المسلوب [1] ، لكنت مستحقاً لذلك ، لأنك قد حربت دينك ، وسلبت معرفتك بشؤم الذنوب . فركبك ذل المعصية ، وأثبت اسمك في ديوان العاصين ، واستوحش منك أهل التقوى إلا من كان في مثالك .

فأخذ الذين أرادوا الله وحده في طريق المحبة له ، وسلكوا سبيل النجاة اليه ، وأخذت في غير طريقهم ، فملت حين خالفت طريقهم إلى غيره . فبقيت متحيراً ، وعن وجع الاصابة متبلداً ، وبمثل هذه الأسباب التي اشتملت عليها طريقتك يستدل على خسران القيامة ، وبالله نعوذ . وإياه نسأل عفواً وتقريباً منه مع المحسنين إنه لطيف خبير .

قلت : أما تخاف أن تكون هذه المعرفة حجة عليك ، والاشتغال بوصفها خدعة من الشيطان ، ومشغلة وصداً عن نفعها ؟ .

فقال : واسرأتاه من غفلة واصفها عن محاسنها ، ومن رام رمى فلم يخطىء حيث أراد . فأما الأمن فمحرم ، وأما الخوف ففرض على من يؤمن بالله واليوم الآخر ، بالوعد والوعيد ، وقد علمت أن القصد إلى نفس المحبة ، والعناية بها ، أبلغ لصاحبها ، وأكثر له في المنفعة منه بوصف المحبة ، لأن طلب نفس المنفعة غير طلب وصف المنفعة ، وإنما اشتغلت بالوصف اضطراراً حيث رأيت نفسي خارجاً منهما جميعاً ، فاعتنيت بمعرفة وصفها ، والهداية اليها ، رجاء أن يوصلني ذلك إلى نفس المنفعة ، والهداية اليها ، والله المستعان على ما نقول وما نضمر .

وأن العبد بين تسع مخاوف :

فأولاها : أن أخاف ويدعو الله ، ويتضرع اليه : ألا يكله إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً.

---

(١) المحروب : هو الذي فقد عزيزاً له عنوة . والمسلوب : هو الذي سلبه قطاع الطرق أو اللصوص .

والثانية : أن يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البطر بها [1] ، فأشغله عن الشكر عليها .

والثالثة : خوف الاستدراج [2] بالنعم وتواترها .

والرابعة : خوف أن يبدو له غداً من الله ما لم يكن يحتسب في طاعاته التي يرجو ثوابها ، ولم يعدها من ذنوبه.

والخامسة : الذنوب التي عملها ، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى . .

والسادسة : تبعات الناس قبله .

والسابعة : أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره .

والثامنة : أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا ، والنكال فيها قبل الفوت .

والتاسعة : الخوف من علم الله تعالى فيه ، وفي أي الدارين أثبت اسمه في أم الكتاب فاحذر الذنوب ، فإن شؤمها قريب ، وظلمتها شديدة ، واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين ، فما أقرب القارىء المتعبد بغير معرفة : أن يتكبر على عباد الله عز وجل ، ويمتن على الله سبحانه بالحسنات التي لو وكله اليها كان فيها هلاكه ، وما أقربه من أن يطلب الناس بما أراده الله منهم من الطاعة له ، والاجلال والاعظام ، والقدر العظيم .

ولا يؤمن على القارىء غير الفقيه أن يسىء اليهم ، ويطلب منهم

---

(١) البطر : احتقار الحق ودفعه تجبراً .

(٢) الاستدراج : هو أن يعطي الله تعالى للعبد على عمل الشر من خير الدنيا ما يظن معه أنه مرضي عنه من الله تعالى . والله تعالى يقول في محكم كتابه : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم ، إن كيدي متين » . (الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣) .

الاقرار بالاحسان ، ويعطيهم من نفسه ما أراد الله منه . إن الله تعالى أراد منه : أن يتزين له ، ويتعبد له ، ويخلص له العمل وحده ، فأعطى هو للمخلوقين ذلك من نفسه [1] .

* * *

(١) أسوأ الناس هم القراء المتعبدون بغير فقه . وقد ذكر لعبدالله بن المبارك عابد تعبد بغير فقه فقال : « ليت بيني وبينه بحراً » .

المدح والذم

قلت : الرجل يقول : أنه ممن لا يريد بعمله جزاء ولا شكورا ، وهو معروف بأعمال البر : بالصلاة والصدقة والصيام وغير ذلك ، وقد مدحه قوم فسره ذلك جداً ، وفرح به وذمه آخرون فساءه ذلك جداً وكرهه ، حتى عرف من نفسه التغير لكلا الفريقين جميعاً ، كيف يعرف هذا نيته ، وحب المحمدة وكراهية المذمة ثابت في قلبه ، والمرائي يحب الثناء ، ويكره المذمة ؟ .

قال : إنه لا يجب على الناس أن يكرهوا الثناء الحسن والمحمدة ، ولا يجب عليهم أن يحبوا المذمة ، عملوا الحسنات أو لم يعملوا ، إذا لم يكن ذلك منهم من معنى فاسد ، لأن المرائي وإن كان يريد على أن يحب المحمدة ويكره المذمة ، فإن الصادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة .

وإن أكثر الصادقين قد مدحوا ، وأثني عليهم ، ولم يضرهم ذلك شيئاً ، وإنما الفرق بينهما : أن المرائي : ارادته وأمله في عمله جاه الدنيا ، والمنزلة عند أهلها ، فأفسد عمله بنيته وارادته ، نال الذي أراد من ذلك أو لم ينله ، حمدوه على عمله أو لم يحمدوه ، ذموه أو لم يذموه. وغير المرائي إنما كره المذمة لحال ما فيها من الكراهية ، مثل السقوط من أعين الناس ، والبغضة والمقت من المؤمنين ، وأشباه ذلك والثناء الحسن والقول الجميل أحبه لموضع ستر الله ، وما جاء من الرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل ، والمحبة من الناس ، ومودتهم له ، وكان اعتقاد نيته وعزمه في أول أمره وآخره : ألا يريد بذلك إلا وجه الله وحده والدار الآخرة ، حمدوه أو ذموه ، أحبوه أو أبغضوه .

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله : ارادة ا خرة ، ثم ينتقل قليلاً قليلا إلى ارادة الدنيا . وذلك أنه شيء خفي ، والعامة تقل معرفتهم به ، وعنايتهم بذلك ، وتكثر غفلتهم وسهوتهم عنه ، وقد كان ينبغي أن تكون عناية المؤمن بذلك أكثر من عنايته بما يعمل من الأعمال الظاهرة ، لأن أعمال الجوارح لا يمكنه أن يقبلها ولا يغيرها عن حالاتها ، والنية لا يأمن عليها الفساد وإن كانت صادقة صحيحة : أن تتحول من أحسن ما كانت عليه إلى أقبح ما تكون عليه ، وأفسدها لعمل صاحبها .

وقد قال النبي ﷺ : « الأعمال بالنية ، وإنما لامرىء ما نوى »[1] فالأعمال بالنية تكون ، وعن النية تكون ، فالعبد أحوج إلى معرفة النية ، ومعرفة فسادها ، إذا كانت الأعمال إنما تصح بتصحيحها ، وتفسد بفسادها ، وإن جميع ما نذكره إنما هو وصف للعمل ، وللحقيقة والصحة علامان ودلالات غير هذا .

وإن الاعمال كلها عملان : عمل تمكن فيه النية ، وعمل لا تمكن فيه النية . والعمل لغير طاعة الله ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ لا تمكن فيه النية ، والذي تمكن فيه النية : عمل في طاعة الله على السبيل والسنة . والناس فيه صنفان : صنف يعرفون النية ، وصنف لا يعرفون النية . والذين يعرفونها صنفا ن : صنف يقنعهم النظر فيها بالجزاف ، والأماني ، وصنف لا يأتمنون أنفسهم عليها ، ولا يعنون إلا بما يصح لهم من ذلك عند الميزان ، وهو المحنة ، محنة نفسك .

ومن الناس من يرى أنه يكره المحمدة والثناء اشفاقاً على عمله ، وخوفاً من فتنته ، ويجب على هذا ألا يعبأ بما يخيل اليه من ذلك ويظن ، لأن كثرة ما يظن الناس من ذلك ليس كما يظنون ، حتى ينظروا إلى تحقيق صدقه عند البيان ، فليراجع العبد نفسه إذا أثني عليه أو مدح ، أو ذموه ونسبوه إلى ما يكره ، فإن كان ما أعجبه من الثناء والمدحة

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن عمر رضي الله عنه .

إنما أعجبه لمعنى ما قلنا من الستر ، والرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل ، لمثل قوله تعالى : ﴿ وألقيتُ عليكَ محبةً مني ﴾ [1] . ﴿ وآتيناهُ أجرهُ في الدنيا ﴾ [2] . قال : الثناء . وقال : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنةً ﴾ [3] . قال : الثناء الحسن . وقوله : ﴿ واجعل لي لسانَ صدقٍ في الآخرينَ ﴾ [4] . قال : الثناء الحسن .

وقال النبي ﷺ في الرجل يعمل العمل يريد به الله ، فيحمده عليه الناس ، ويثنون عليه به فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » [5] . وقوله ﷺ في العبد إلا أحبه الله : « لم يخرجه من الدنيا حتى يملأ مسامعه مما يحب » [6] . وقوله : « أنتم شهداء الله في الأرض » [7] . وأشباه ذلك في الكتاب والسنّة .

فإن كان سروره بما ذكر به من الخير شكراً لستر الله عليه ، وحمداً منه لله إذ جعله الله عز وجل ممن يذكر بعلامة الخير ، فليس ذلك بسرور فاسد ، ولكنه شكر وطلب مزيد . وعلامة سلامة نيته في ذلك : أن يزداد لله تواضعاً ، ولآلائه شكراً ، وفي طاعته اجتهاداً ، ومع ذلك ينبغي أن يرد نفسه إلى طريق المخافة من الاستدراج ، ويكون ما خفي من عمله أحب اليه مما ظهر ، مخافة ما يلحق أهل الصلاح من الفتنة فيما يستمعون من المدحة والثناء . ولما جاء من النهي والكراهة للتزكية والمدحة أن يسمع الرجل صاحبه ... وذلك مثل قوله ﷺ : « مَنْ مَدحَ أخاهُ في وجهه فكأنما أمرّ على حلقه موسى رميضاً » [8] . ومثل

---

(١) سورة طه ، الآية : ٣٩ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٧ .
(٣) سورة النحل ، الآية : ١٢٢ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٨٤ .
(٥) أخرجه أحمد ، والطيالسي ، وأبو داود ، عن أبي هريرة .
(٦) أخرجه الطبراني والبزار عن سعد بن أبي وقاص .
(٧) أخرجه الترمذي فيالتفسير عن ابن عباس .
(٨) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ، عن الزبير بن العوام .

قوله عليه السلام : « لو سمعك ما أفلح » [1] . ومثل قوله ﷺ : « عقَرتَ الرجل عقرك الله » [2] . وهذا ونحوه كثير .

فإذا كان مذهبه ونيته : شكر الله على ستره ، وحمد الله على نعمته، ويكون ما سبق من السرور إلى قلبه في ثناء إذا سمعه رجاء القدوة به إذا كان ممن يصلح أن يقتدى به ، لقول الله عز وجل : ﴿ واجْعلْنا للمتقينَ إمَاماً ﴾ [3] . يقال : أئمة في الخير يقتدى بنا .

فإن كان كذلك رجوت ألا يضره ذلك ، ولا يفسد عليه عمله .

وقد ذكر عن مطرف [4] . أنه قال : « ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي » . وقال زياد بن أبي مسلم : « ليس أحد يسمع ثناء أو مدحة إلا تراءى له شيطان ، ولكن المؤمن يراجع » .فقال ابن المبارك [5] : صدق كلاهما . أما ما ذكر زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكر مطرف فذلك قلب الخواص .

وإن كان مذهبه ونيته إذا سمع ذلك وسر به : طلب الرفعة والمنزلة عند الناس ، فما أسوأ حاله في احباط عمله .

وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره . طلب الثناء والمحمدة والرفعة والتكرمة عند الناس ، واحراز المنافع به ، فذلك الذي جاءه الويل والثبور في الدنيا والآخرة .

فإن كان يعرف معرفة حق : أن ما أعجبه لهذا المعنى ، ولم يعجبه

---

(١) أخرجه الشيخان ، عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الشيخان ، عن عبد الله بن عمر .

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٧٤ .

(٤) مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري البصري . الفقيه ، العابد ، كان مجاب الدعوة، توفي عام ٩٥ هـ . انظر : (تهذيب التهذيب ١/١٧٣) .

(٥) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك ، الحنظلي ، المروذي ، الفقيه الحافظ الزاهد، كان رأساً في الذكاء والسخاء ، وكانت له تجارة واسعة ، ينفق منها على أخوانه ، وكان كثير الأسفار ، كان ثقة حافظاً . توفي عام ١٨١ هـ . انظر : (تذكرة الحفاظ ١/٢٧٤، العبر ١/٢٨٠ ، وتهذيب التهذيب ٥/٣٨٢ – ٣٨٧) .

ذلك لما نال من الجاه عندهم ، فلا جناح عليه ، وعلامته : أن يزداد تواضعاً ، ويحدث خوفاً من الاستدراج ، وما يخفى من عمله فهو أحب اليه مما يظهره ، لأنه طمع في طريقة الصالحين ، فعلى قدر ذلك ينبغي أن يرغب في أعمالهم ، وما نالوا به اسم الصلاح ، وصاروا من أهله ، مع ما يلزمه من الخوف والفتنة مما يلزم أهل الثناء والمحمدة إذا أثنى عليهم أو مدحوا ، مثل قوله عليه السلام : « عقرت الرجل » . ومثل قوله : « لو سمعك ما أفلح » . وقوله : « قطعت عنق أخيك » [1] . وقوله : « إياكم والمدح فإنه الذبح » . وقوله : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب » [2] . وقوله : « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه » [3] . ومثل هذا كثير .

وصاحب المدحة الخوف عليه أكثر من الرجاء ، لأن الخوف لا يضره ، والرجاء لا تؤمن فتنته .

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا ، وأصحاب الرياء المحبين لذلك : أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمده أحبوا ذلك ، وازدادوا غرة وإعجاباً بأنفسهم ، وغفلة عن الاستدراج ، وتمادوا وتمنوا وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب اليهم مما خفي ، ولم يخافوا من فتنته ولا من آفته .

وكذلك إذا كره المذمة إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء ، لينال بذلك الجاه والقدر والمنزلة والرفعة عند الناس ، فهي كراهية سقيمة مذمومة ، وصاحبها مغرور مخدوع .

---

(١) أخرجه الشيخان ، وأبو داود ، وابن ماجه ، عن أبي بكرة أن رجلا أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « قطعت عنق صاحبك » ثلاث مرات . ثم قال : « إذا أثنى أحدكم على صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ، ولا أزكى على الله أحداً » .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن همام أن رجلا أثنى على عثمان فأخذ المقداد تراباً وحثا في وجهه ، وساق الحديث .

(٣) رواه أبو داود والترمذي ، عن سمرة بن جندب .

وإن كان إنما هي حب منه لستر الله عليه ، وكراهيته هتك الستر عنه ، لأنه لم يمقته الناس حتى جاءه المقت من عند الله قبل مقت الناس فإن كانت الكراهية إنما هي من هذه الجهة ، فإن هذا يكرهه الصادق وغير الصادق ، فلا يلام عليه .

وعلامته : التضرع والاستكانة والمراجعة والنظر في التخلص إلى طريق محبة الله تعالى ، وسبيل الاستقامة ، ومحجة الايمان ، والجد فيه .

وأبين من ذلك : أنه كل من زعم أنه يريد بعمله وجه الله ، لا يريد من أحد على عمل يعمله من أعمال الصالحات جزاء ولا شكوراً ، ثم عرفه الناس بعمله ، وذكر وصار معروفاً عندهم ، ونال منهم الرفعة فإن كان يعرف من نفسه أنه إذا عرض عليها أن يتحول اسمه وما نال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة إلى غيره ، ويبقى هو عند الناس كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، ذكر ولا غيره ، فكان هذا أحب اليه ، فأمره مرجو .

وإن كره أن يتحول ذكره الذي كان عليه إلى غيره ، ويبقى هو كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، فدعواه حينئذ باطلة ، لأن الذي يقول : أنه يريده بعمله ولا يريد غيره ، فإذا تحول ذكره إلى غيره لم يحول الذي عمل له العمل ثوابه إلى غيره ، ولم ينقصه من ثوابه شيئاً ، ولعله أن يكون أكثر له عنده ، وأقرب مثوى . والذي كان يزعم أنه لا يريدهم به كره أن يزول عنه الاسم الذي ثبتت له عندهم به المنزلة ، وكره أن يبقى عند من زعم أنه لا يريدهم بلا ذكر عمل يعرفونه به .

ومثل هذا ينظر ، إن كانت له خصلة عند الناس من خصال البر ، فنسبوه اليها ، ويظنون أنه صاحبها ، غلطاً منهم بها وجهالة ، فكره أن يعرفوا ذلك أو يطلعوا عليه ، وأنه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة ، أو له عمل من البر ، وعند الناس أن ما يعمل هو من البر أكثر ، فيكره أن يطلع الناس عليه ، فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من أعمال البر ، فإنه ممن يحب أن يحمد بما لم يفعل ، ولا يمكن أن يكون واحد

يحب أن يحمد بما لم يفعل ، ولا يحب أن يحمد بما قد فعل حتى يحبهما جميعاً .

كذلك إن صحب رجلا معروفاً بالصلاح والعبادة عند الناس ، أو له سبب قد نال به ذكراً من غيره ، فكره أن يسقط ذلك عند الناس ولم يعبأ بمحبة نفسه عندما يعمل من أعمال البر ، فإنه ممن يحب أن يحمد بانتسابه إلى غيره ، فإنه لا يمكن أن يحب الذكر بعمل غيره ؛ ولا يحب أن يذكر بعمل نفسه الذي يعمل هو حتى يحبهما جميعاً .

فإن وجد نفسه في هذه المواضع صادقة على ما يجب عليها فيه الصدق ، فأرجو أن يكون من أهل الصدق إن شاء الله تعالى .

* * *

اليقين والعز

وأما اليقين فعند العمل ، والصدق فيه : مشاهدة الثواب والعقاب ، فليس يكون بكثرة النفقة ، ولا بكثرة الكلام ، ولا يحتاج فيه إلى تحريك الشفتين ، ولكن بالايمان وبالعقل ، وبالمعرفة ، وحسن التدبير في ظاهر أمر العبد وباطنه ، فتعرف الصدق ، وتعرف ضده من الكذب ، وتعرف الخير ، وتعرف ضده من الشر ، فتعمل في اثبات الصدق ونفي ضده ، وتعلم الأصل من الفرع ، فيكون الشغل في إثبات الصدق من وجه الأصل ، وانتفاء ضده من وجه الأصل ، فإن الأصل يأتي على الفروع .

وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل ، فليس لشغله فناء ما دام الأصل ثابتاً ، وكلما ذهب فرع أخلف بدله آخر .

وحب العز أصل ، ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس ، ومنه الكبر والفخر ، ومنه الغضب والحسد ، ومنه الحقد والحمية ، والعصبية . والنفس عاشقة له ، وهو قرة عينها ، وهو أحب اليها من أم واحد لواحدها ، وبلغني أنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة ، وذلك لصعوبة تمكنه من النفس .

فالعمل الصالح من غير المريد المستحكم من أهل القراءة ، سلاحه الذي يقوي به سلطانه هو العز في النفس ، والفخر بالعمل ، والازراء على الناس . وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وعزة في نفسه زائد . نعم ، وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز ، ولا أعلم أني رأيت أحداً من أهل النسك خالياً منه ، يعني من العز ، فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه معه ، فلا

يفلح معه عابد ولا زاهد ، وكيف يكون زاهداً والزهد لا يأوي معه في مأوى واحد .

فمن عالج نفي العز من نفسه ، ووفقه الله لذلك ، فنال نفيه ، سهل عليه المسير في طريق محبة الله عز وجل ، ومحجة الايمان ، وسبيل الاستقامة ، ومدارج الصالحين ، وهان عليه معالجة الصدق في عمله ، واطمأنت نفسه إلى التذلل والتواضع ، وطاب له طريق العدل ، لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز ، ولا يقدر على كظمه الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز ، ولا يقدر على التواضع الذي هو شرف التقوى وحليتها وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز ، ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العز ، ولا يقدر على النصح وفيه العز ، ولا يسلم من الازراء على الناس وفيه العز .

فما أكثر ضرره ، وأعظم فساده ، وأظهر أمره ، وأقل رشده ، وأبين غيه عند الخاص والعام وما أغفل الناس عنه ، وأقل معرفتهم به ، وأشد متابعتهم له .

فالهوى حكمه ، والكبر أخوه وعضده ، والجور سيرته ، والغضب سلطانه ، والرياء عون من أعوانه ، له يكسب ، واليه يؤدي ، والعجب أضعف عون له ، والحسد أمير جنوده ، والغل صاحب مشورته . وقال رسول الله ﷺ : « الكبر والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال بعضهم : « الغل والحسد » [1] .

والعز في الخلق عام ، في العبيد والاماء ، والفقراء والأغنياء ، والضعفاء والأقوياء ، والقراء والعلماء ، وكل واحد منهم يظهر منه على قدر ما يمكنه اظهاره ، ومن لم يمكنه الاظهار عامل الناس به سراً

---

(١) لفظ ابن ماجه ، عن أنس . وأخرجه أبو داود ، عن أبي هريرة بلفظ : « إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

في نفسه ، لأنه ما دام في الانسان لا يترك حظه منه سراً ولا علانية ..
أما تراه كيف يتغيظ في نفسه على غيره ، وكيف يحسد ، ويدور حوله يطلب عوراته ، وكيف يحكم فيه بحكم الهوى ، ولو ملك من ذلك في الظاهر ما ملك في الباطن لأظهر مثل الذي أضمر من ذلك في الباطن .

وأقبح أمره ، وأفسده له ، وأشده فضيحة ، إذا كان في القارىء ، لأنه لا يكان يتعزز على غيره بسبب من الأسباب إلا بأسباب الدين ، والارأيت فيه أثر ذلك .

فسبحان الله ، ماذا يلقى القراء خاصة من العز ومن أعوانه ، يدلك على ذلك سرعة حقدهم ، وكثرة غضبهم لأنفسهم من طريق الاعزاز لها ، وما يجدون [1] . على الناس فيه مما لا خطر له ، وذلك كله من داء العز وحركته أمر لم يجز لأهل الجنة ولا للملائكة ، ولا للنبيين ، يريد القارىء أن يجوزه لنفسه ، وأن يجعله فوق رأسه .

وإنما كان ينبغي للصادق في قراءته العمل في اطفاء العز من قلبه من أول أمره ، وأن يجعله تحت قدميه ، ولو أن رجلا صلى الغداة ، ثم أقبل على نفسه ، وأصلح خصلة من خصال العز ، ليس العز كله ، وآخر تصدق بوزن نفسه ذهباً على أكباد جائعة ، من وجه طيب ، لكان الأول أغبط ، وكانت النعمة عليه أكبر ، والشكر عليه أكثر عند أهل المعرفة والعلم .

فكيف إذا أصبح وهو لم يكن له همة إلا العناية بالعز لنفسه ، لتجربته له ، ومعرفته به .

وآخر أصبح ولم تكن همته ولا محبته إلا العناية بنفي العز من قلبه ، ولزوم التواضع ، وذل النفس ، لتجربته لنور التواضع ، ومعرفته بفوائده ، فهنيئاً لمن شغله مثل شغله ، ما أنفعه من شغل ، وأرضاه عند مليكه ، وأروحه للقلب .

---

(١) يجدون : أي ما يحقدون ويضمرون من الغضب .

فاعتبر برجلين أمرا بالعبودية ، واحدهما أحب أن يجعل نفسه عبداً كما أمر ، وأحب الآخر أن يجعل نفسه ملكاً ، أي هذين أولى بالجائزة من المولى ، وأيهما يستأهل العقوبة الموجعة ؟

قلت : وقد وصفت من فساد العز وضرره وشره ما قد وصفت ، فصف لي طريق التحرز والامتناع منه ، فإن المريض إذا عرف داءه أحب أن يعرف دواءه ، وهكذا من أحب أن يعرف عيب نفسه ، يحب أن يعرف الذي يصلح به عيبه .

فقال : إن ابن آدم تكلف نزول الطير من جو السماء فأنزله ، وتكلف خروج الحوت من قعر البحر [1] فأخرجه ، وتكلف اخراج الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجها ، وتكلف أخذ الدواب والأنعام والوحوش والسباع من البراري والغياض [2] فأخذها وذللها وسخرها ، وتكلف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها ، وتكلف معالجة الشياطين فعالجها ، وتكلف معرفة النجوم في السماء وأسماءها ومجاريها ومطالعها ومغاربها ، وتكلف منازل الشمس والقمر ومجاريهما ومطالعهما ومغاربهما ، وتكلف معرفة الولد إذا لم يكن من أبيه ، فعرف ذلك كله لما تكلفه . وتكلف مرض المريض وأسباب علله بالنظر إلى بوله من غير أن ينظر اليه ، فعرف داءه وعرف دواءه ، فعرف كل ذلك . وتكلف تعلم سير الملوك الماضية من القرون الأولى ، فكتبها ودرسها .

وكل ما تكلف من ذلك فإنما حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة من الدنيا ، وليس في هذا من أمر دينه الذي كلفه شيء ، وكلف تقويم نفس واحدة فلم يقم بتقويمها ، وليس عليه من فساد غيرها شيء ، لم يكلف إلا اصلاح فساد نفسه وحدها ، فلم يقم باصلاح فسادها ، فجهل بعض الصلاح وعلم بعضاً ، فما جهل فهو جاهل به ، لا يتكلف علمه ، وما علمه من فسادها فهو مضيع لاصلاحه ، ولم يكلف أحد أن يصوم

---

(١) في الأصل : البحار .
(٢) الغياض : جمع غيضة ، وهي الأجمة ، أي الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف .

ولا يصلي ولا يزكي ولا يحج ولا يتوضأ ولا يغتسل عن أحد ، إنما كلف نفسه ، ليس لأحد من صلاح أحد شيئاً ، وإنما صلاح كل امرىء وتقواه لنفسه ، وفي ميزانه ، ليس في ميزان غيره من شيء .

وهكذا النية في الأعمال ، لا تنفع نيتي عملك ، ولا تنفع نيتك عملي إذا كانت صحيحة ، ولا تضره إذا كانت سقيمة ، وإنما المنفعة والمضرة على صاحب النية ، وصاحب العمل ، وإنما هي نفس واحدة ، فإذا صار إلى أمر نفسه لم يعرف خيرها من شرها ، ولا اقبالها من إدبارها ، يعمل الخير فلا يدري مقبل هو فيه أم مدبر إلا بظاهر العمل والدعوى ، ولا يدري أي شيء يعمله للدنيا أو للآخرة ، ليس يميز بين الأمرين ، ولا يفاتش الهمة فيه ، والمحبة له ، ولا الخشية فيه ، ولا يتوقف ، ولا يحسن أن يطالع ضميره ، فهو يفسد الخير بالشر ولا يشعر ، هو في ظاهره مقبل ، وهو في باطنه مدبر ، هو في ظاهره آبق إلى الله ، وهو في باطنه آبق من الله .

فسبحان الله ، ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلف ، فشغل عنايته فيه ، وشغل فهمه به ، وأما الذي جهل فضيع من معرفته فهو ما قد كلف ، وأخذ عليه فيه المواثيق .

يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين دخل ، وأنّى أتاه ، وكيف هو ، وما السبيل إلى التخلص منه، فبقي عند ذلك تائهاً حيران، وقد عالج ما في الهواء ، وما في البحار ، فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكفل الله له منها بما قدر له ، وضمن له الوفاء بها ، أقبل عليها أو أدبر عنها ، فغلب هو المسكين الخلق ، وغلبته نفسه ، ولو عني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها ، وخيرها وشرها ، وخاف التلف عليها ، كما عني بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له ، لعرف من فسادها وصلاحها ما عرف من ذلك ، وقدر منه على ما قدر من ذلك ، ولكنه رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة ، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلا بعلم وبصيرة .

ومتى شئت رأيته في طريق الدنيا ، وهو يحسب أنه في طريق الآخرة، ومع ذلك فإن بعض المدبرين عن الله تعالى ، المعرضين عنه ، قد تسموا علماء ، ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله ، وهم حيارى متصنعة ، مدخولون متشبهة ، يحسبهم الجاهل أدلاء ، وهم عمي حيارى ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

واعلم أن العز والتعزز بغائب قادم عليك ، فتريد التحرز منه ، والامتناع عليه ، ولكنه شيء قد حل ونزل وتمكن من المنزل ، واستوى وجلس في صدر المجلس ، وأخذ منك أخيرك ، وغلب أخير موضع فيك ، واتكأ على متكئه ، واستخدم أعوانه بما يوافق هواه في إقبالهم وإدبارهم .

وإن لم تكن تراه فيه غذيت ، وبه تربيت ، وعليه نشأت ، وإياه تعودت ، وإنما تريد مفارقة غذائك وعادتك ، فكما أنه داء له أصل وفروع ، فكذلك دواؤه له أصل وفروع .

ولا أكثر عليك من صفات فروع دوائه فتمل وتعرض ، ولكن أدلك على الأصل الذي إذا عالجته أتى على الأغصان كلها ، وهو : الاياس من جميع المخلوقين أن يكونوا يضروا أو ينفعوا ، أو يعطوا أو يمنعوا ، أو يحيوا أو يميتوا ، فالزمه قلبك ، فإنه أصل الأصول ، ورأس الأمر وسنامه .

فإن كنت مريداً صادقاً تحب النظر في عواقب الأمور ، فاغلق عن نفسك باب الطمع ، وافتح لها باب الاياس ، وانفرد لذلك بارادتك كلها ، وتجرد في طلبه ، كالذي ليس له من حوائج الدنيا كلها إلا حاجة واحدة ، وتعزم عزماً صحيحاً على أن تهب نفسك لله في بقية عمرك ، إن كنت تراه لذلك أهلا ، سبحانه وتعالى ، ما أغناه عن أهل السموات وأهل الأرضين ، وما أشد اضطرارهم اليه .

فاجعل يا أخي نفسك كهيئة الأسير في أيدي أهل زمانك أيام حياتك، في اتباع مرضاة الله عز وجل ، والتخلص من بلية العز ، فإن الأسير

مملوك لا يملك ، ولا يطمع أن يظلم أحداً ، ولا ينصر من ظالم ، ثم تجد حلاوة طعم ذكر الله ، ولذاذة المناجاة في عبادة الله .. وإنما قلت لك : استخراج العز وقطعه عن قلبك باليأس من الناس ، لأنه يردك إلى الله ، ورجوعك إلى الله سكون قلبك عليه ، وفي سكون قلبك عليه الازدياد من طاعته . والوصول إلى خاصية عبادته ، وفي الوصول إلى خاصية عبادته النزول عند درجة العبيد ، وفي النزول عند درجة العبيد اصابة شرف العبودية ، وفي اصابة شرف العبودية اكتساب القلب المذلة ، المناقض للعدم أمر يصدق على جميع الموجودات ، وحقيقة الحق سبحانه وتعالى لا توجد في شيء سواه ، فالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقة المخصوصية . وأما علمنا بكونه ليس جوهراً ولا عرضاً ولا جسماً فهذا علم بعدم هذه الأشياء ، وليس علماً بحقيقته ، لأن حقيقته ثابتة متحققة ، والسلب لا يكون نفس الثبوت ، فثبت بمجموع ما ذكرنا أنه لا سبيل للعقول إلى معرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى .

ومما يحقق ما ذكرنا أن العقلاء اتفقوا على أن كل صفة شاهدها الحس ، وأدركها العقل في المكونات ، فلو وصف أحد بها الحق صار جاهلا ، فأذن لا طريق له إلى معرفة الحق إلا بنفي كل ما عرفه ، ولهذا اتفقوا على أن أحسن كلمة قيلت في التوحيد ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي : أن تعرف أن كل ما يتصور في ذهنك فالله سبحانه بخلافه .

ثم قال المحققون : لما كان كل ما تتصور في ذهنك فالله بخلافه ، فلو تصور في ذهنك من ذلك الخلاف شيء فالله تعالى بخلافه ، ثم لو تصور في هذه المرتبة الثانية أمر آخر لزم نفيه ، فلم يبق للعقل في طريق معرفة الله سبيل إلا أن ينفي كل ما يقع في خاطره ، ثم إذا وقع من هذا النفي شيء اشتغل بنفيه أيضاً ، وهكذا في النفي الثالث ، والنفي الرابع إلى ما لا نهاية . فلو نفى أبد الآبدين ودهر الداهرين لكان مشغولا بهذا النفي ، وإذا كان الأمر كذلك بقي الحق منزهاً لواحق الفكر ، واشارات العقل ، وعلائق الضمير .

الحجة الثانية :

وهي أن الانسان عاجز عن معرفة نفسه . فإن قيل : ان نفسه هي هذا الهيكل المشاهد فهو باطل من وجهين : الأول : أن الانسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلا عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة ، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ، والثاني : أن ذاته من أول عمره إلى آخره شيء واحد ، وأجزاء بدنه من أول عمره إلى آخر عمره غير باقي ، والباقي مغاير لغير الباقي . فثبت أن الانسان ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس .

ثم بعد هذا يحتمل أن يقال : إنه جسم في داخل الهيكل ، أما في القلب فقط ، واما في الدماغ فقط ، أو يكون مساوياً في كل البدن ، ثم ذلك الجسم أهو من جنس الأجسام التي تولد البدن عنها ، أو هو جسم مخالف لهذه الأجسام في الماهية والحقيقة . ويحتمل أيضاً أن يقال : أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز ، بل هو مدبر لهذا البدن على ما يقوله الفلاسفة .

واعلم أن هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم إلى الآن ، وبعد ما زالت الشكوك والشبهات ، ولا شك أن أعرف المعارف في المشار اليه بقولي : أنا . فإذا كان هذا حالي في معرفة أظهر الأشياء ، فكيف يكون حالي في معرفة أبعد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات .

وتحقيق الكلام فيه : أن العقل كالشمع ، ولا شك أن كل ما كان أقرب إلى الشمع كان ضره أكثر مما بعُد عنه ، وأقرب الأشياء إلى الشخص نفسه . فإذا كان نور العقل أضعف من أن يبصر ذاته فكيف يدرك حضرة الجلال مع بعده عنها بغير نهاية .

واعلم أنه كما وقعت الشبهات المذكورة في معرفة النفس فقد وقعت أيضاً في معرفة حقيقة الزمان وحقيقة المكان ، وتحير الخلق أن القوة الباصرة كيف تبصر بحصول الشبح أو بخروج الشعاع ، وكذلك

البحث عن القوة السامعة والقوة الذائقة . وتحيروا أيضاً في البحث عن كيفية التخيلات ، فإن هذه الصور المتخيلة إن لم يكن لها وجود أصلا فكيف يكون حصول التمييز والتعيين فيها . وإن كان لها وجود فهي قائمة بأنفسها ، أو كلها شيء مجرد ، أو محلها جسم ، والكل محال ممتنع .

ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجليلة بلغت حداً من الصعوبة إلى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدس عن مناسبات العقول والأفكار ، وتنزه عن مشابهات الخيالات والأنظار .

الحجة الثالثة :

العقل لا يتصرف إلا فيما يكون في زمان أو مكان ، لأن كل ما أدركه فإنه يدركه في الماضي أو في المستقبل أو في الحال ، وكل ذلك تحت الزمان ، وكل ما يتصوره فإنه إنما يتصوره إما ههنا أو هناك ، وكل ذلك بحسب المكان . وإذا قلت أن الله سبحانه بخلاف هذه الأشياء فمعرفته هذه المعرفة ليس إلا نفي ما عرفته وتصورته .

فالحاصل فيه نفي غير الحق ، ونفي غير الحق لا يكون هو عين وجدان الحق .

(تم الكتاب بحمد الله وعونه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً

قال الشيخُ الفقيهُ، الإمامُ العالمُ، العامِلُ، المحدِّثُ، أبو عبد الله محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أبي بكر بنِ فَرْح، الأنصاريُّ، الخزرجيُّ، الأندلسيُّ، ثم القُرْطُبيُّ، تغمَّده اللهُ برحمته، وأسكنه فَسِيحَ جنَّته:

الحمدُ لله المبتدىءِ بحمد نفسِه قبل أن يَحمَده حامد، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، الرَّبُّ الصَّمَدُ الواحد، الحيُّ القيُّومُ الذي لايموت، ذو الجلالِ والإكرام، والمواهبِ العِظام، والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ للإنسان، والمُنعِمُ عليه بالإيمان، والمُرسِلُ رسولَه بالبيان، محمداً ﷺ، ما اختلفَ المَلَوان، وتعاقبَ الجديدان[1]، أرسلَه بكتابه المبين، الفارقِ بين الشكِّ واليقين، الذي أعجزَتِ الفُصحاءَ مُعارَضَتُه، وأعيَتِ الألبَّاءَ[2] مُناقَضَتُه، وأخرسَتِ البلغاءَ مُشاكَلَتُه[3]، فلا يأتون بمثله، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً. جعلَ أمثالَه عِبراً لمن تَدَبَّرَها، وأوامرَه هُدًى لِمَنِ استَبصَرَها، وشرحَ فيه واجباتِ الأحكام، وفَرَقَ فيه بين الحلالِ والحرام[4]، وكرَّرَ فيه المواعظَ والقَصَصَ للأفهام، وضربَ فيه الأمثالَ، وقَصَّ[5] فيه غيبَ الأخبار، فقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. خاطبَ به أولياءَه، ففهموا، وبَيَّنَ لهم فيه مُرادَه، فعلموا. فَقَرَأَةُ[6] القرآن حَمَلَةُ سِرِّ الله

---

(١) الجديدان: الليل والنهار، وكذلك المَلَوان.

(٢) في (ظ): الألباب.

(٣) في (د) و(ز): وأعيت الألبَّاء مشاكلته، وأخرست البلغاء مناقضته.

(٤) في (ز): وقرر فيه رموز الحلال والحرام.

(٥) في النسخ الخطية: ونصَّ، والمثبت من (م).

(٦) في (ظ): فقرّاء.

المَكْنُون، وحَفَظَةُ عِلمِهِ المخزُون، وخلفاءُ أنبيائه وأُمناؤه، وهم أهلُه وخاصَّتُه، وخِيرتُه وأصفياؤه، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ للهِ أهلِينَ مِنَّا». قالوا: يارسولَ الله، مَن هُم؟ قال: «هُم أهلُ القُرآن، أهلُ الله وخَاصَّتُه». أخرجه ابن ماجه في «سننه»، وأبو بكر البَزَّار في «مسنده»[١].

فما أَحَقَّ مَن عَلِمَ كتابَ الله أن يَزدَجِرَ[٢] بنواهِيه، ويَتَذَكَّرَ[٣] ما شُرِحَ له فيه، ويخشى اللهَ ويتَّقيه، ويراقبَه ويَستحييه. فإنه قد حُمِّلَ أعباءَ الرُّسل، وصار شهيداً في القيامة على مَنْ خالفَ من أهلِ المِلل، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ألا وإنَّ الحُجَّةَ على مَنْ عَلِمَه فأغفلَه، أوكَدُ منها على مَنْ قَصَّرَ عنه وجَهِلَه. ومَن أوتيَ عِلمَ القرآن فلم ينتفع، وزَجَرَته نواهيه فلم يَرتَدع، وارتكبَ من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فُضُوحاً، كان القرآنُ حُجَّةً عليه، وخَصماً لَدَيه، قال رسول الله ﷺ: «القرآنُ حُجَّةٌ لكَ، أو عليك». خرَّجه مسلم[٤].

فالواجبُ على مَن خَصَّه الله بحفظ كتابه أن يتلوَه حقَّ تلاوتِه، ويَتَدَبَّرَ حقائقَ عبارته، ويَتفهَّمَ عجائبَه، ويتبيَّنَ غرائبَه، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]. وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. جعلَنا الله ممَّن يرعاه حَقَّ رعايتِه، ويَتَدَبَّرُه حقَّ تدبُّرِه، ويقومُ بقِسطِه، ويُوفي بشرطِه، ولا يلتمسُ الهُدَى في غيره، وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامِه

(١) سنن ابن ماجه (٢١٥)، وهو من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه: «أهلين من الناس»، وهو حديث حسن. وليس الحديث في القسم المطبوع من مسند البزار، وهو في مسند أحمد (١٢٢٧٩).
وأبو بكر البزار: هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري، ومسنده المذكور (والمسمى بالبحر الزخار) طبع منه أجزاء. توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٥٤.

(٢) في (ظ): ينزجر.

(٣) في (ز) و(ظ): يذكر.

(٤) صحيح مسلم (٢٢٣)، وهو قطعة من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٠٢).

القاطعةِ الباهرة، وجمعَ لنا به خَيْرَي[١] الدنيا والآخرة، فإنه أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة.

ثم جَعل إلى رسوله ﷺ بيانَ ما كان فيه[٢] مُجمَلاً، وتفسيرَ ما كان منه مُشكِلاً، وتحقيقَ ما كان له[٣] مُحتَمِلاً، ليكونَ له مع تبليغ الرسالة ظهورُ الاختصاص به، ومنزلةُ التفويض إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ثم جَعَلَ إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباطَ ما نبَّه على معانيه، وأشارَ إلى أصوله، ليتوصَّلوا بالاجتهاد فيه إلى عِلم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصُّوا بثوابِ اجتهادهم. قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فصار الكتابُ أصلاً، والسنةُ له بياناً، واستنباطُ العلماء[٤] إيضاحاً وتبْياناً. فالحمد لله الذي جعل صدورَنا أوعِيةَ كتابِه، وآذانَنا مواردَ سُننِ نبيِّه، وهِمَمَنا مصروفةً إلى تعلُّمِهما، والبحثِ عن معانيهما وغرائبِهما، طالبين بذلك رِضا ربِّ العالمين، ومندرجين[٥] به إلى علم المِلَّة والدِّين.

وبعد: فلما كان كتابُ الله هو الكفيلَ بجميع علومِ الشرع، الذي استقلَّ بالسُّنَّة والفَرْض، ونزلَ به أمينُ السماء إلى أمين الأرض، رأيتُ أن أشتغلَ به مَدَى عُمْري، وأستفرغَ فيه مُنَّتِي[٦]، بأن أكتبَ فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمَّن نُكَتاً من التفسير واللغات، والإعرابِ والقراءات، والردَّ على أهل الزَّيغ والضلالات، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لما نذكرُه من الأحكام ونزولِ الآيات، جامعاً بين معانيها، ومُبَيِّناً ما أشكلَ منها[٧]، بأقاويل السلف، ومَن تَبِعَهم من الخَلَف.

(١) في (د) و(ز) و(م): خير، والمثبت من (ظ).
(٢) في (م): منه، وفي (د) و(ز): ما كان صفة منه.
(٣) في (ظ): فيه، وفي (م): منه.
(٤) في (م): واستنباط العلماء له.
(٥) في (م): ومتدرجين.
(٦) المُنَّة، بالضم: القوة. القاموس (منن).
(٧) في (ظ) و(م): معانيهما... منهما.

وعملتُه تذكرةً لنفسي، وذخيرةً ليوم رَمْسِي[١]، وعملاً صالحاً بعد موتي. قال الله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]. وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا ماتَ الإنسانُ انقَطَعَ عنه[٢] عملُه إلا مِن ثلاث: صدقةٍ جارية، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يَدعُولَهُ»[٣].

وشرطي في هذا الكتاب: إضافةُ الأقوال إلى قائليها، والأحاديثِ إلى مُصنِّفيها، فإنه يقال: من بركة العِلم أن يُضافَ القولُ إلى قائله[٤]. وكثيراً ما يجيء الحديثُ في كتبِ الفقه والتفسير مُبهماً، لا يَعرِفُ مَن أخرجَه إلا مَن اطَّلعَ على كتبِ الحديث، فيَبقَى مَن لا خِبرةَ له بذلك حائراً، لا يَعرِف الصحيحَ من السقيم، ومعرفةُ ذلك علمٌ جسيم، فلا يُقبَلُ منه الاحتجاجُ به، ولا الاستدلالُ، حتى يُضيفَه إلى مَن خرَّجه من الأئمة الأعلام، والثقاتِ المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نُشيرُ إلى جُمَلٍ من ذلك في هذا الكتاب، واللهُ الموفقُ للصواب.

وأُضرِبُ عن كثير من قصص المفسِّرين، وأخبارِ المؤرخين، إلّا مالا بُدَّ منه، ولا غِنًى عنه للتبيين، واعتَضتُ من ذلك تبيينَ آيِ الأحكام، بمسائلَ تُسفر عن معناها، وتُرشد الطالبَ إلى مقتضاها، فَضَمَّنتُ كلَّ آية تتضمَّن حُكماً ـ أو حُكمين فما زاد ـ مسائلَ يتبيَّنُ[٥] فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسيرِ الغريب، والحُكمِ، فإن لم تتضمن حُكماً، ذكرتُ ما فيها منَ التفسير والتأويل. هكذا إلى آخر الكتاب.

وسمَّيتُه بـ «**الجامع لأحكام القرآن، والمبيِّن لما تضمَّنه من السُّنةِ وآيِ الفُرقان**».

جعلَه اللهُ خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به ووالديَّ، ومَن أراده، بمنِّه، إنه سميعُ الدعاء، قريبٌ مجيبٌ، آمين.

---

(١) في القاموس: الرَّمس: الدَّفن، والقبر.

(٢) قوله: عنه، ليس في المطبوع.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٤٤)، ومسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) لكن المصنف رحمه الله لم يلتزم بشرطه هذا، فقد يترك ذلك في بعض الحالات، كما سنشير إليه، على حسب ما يمكننا الوقوف عليه.

(٥) في (م): نبيِّن.

باب ذِكر جُمَلٍ من فضائل القرآن، والترغيبِ فيه، وفضلِ طالبِه وقارئهِ، ومستمعِه، والعاملِ به

اِعلم أنَّ هذا البابَ واسعٌ كبير، أَلَّفَ فيه العلماءُ كُتباً كثيرةً، نذكُر من ذلك نُكَتاً تدلُّ على فضله، وما أعدَّ اللهُ لأهله، إذا أخلصوا الطلبَ لوجهه، وعَمِلوا به.

فأوَّلُ ذلك أن يَستشعرَ المؤمنُ من فضلِ القرآن أنه كلامُ ربِّ العالَمين، غيرُ مخلوق، كلامُ مَن ليس كَمِثلِه شَيءٌ، وصِفةُ مَن ليس له شبيهٌ ولا نِدٌّ، فهو مِن نُور ذاتِهِ جلَّ وعَزَّ، وأنَّ القراءةَ أصواتُ القُرَّاء ونَغَماتُهم، وهي أكسابُهم[1] التي يُؤمَرون بها في حال إيجاباً في بعضِ العبادات، ونَدباً في كثير منَ الأوقات، ويُزجَرُون عنها إذا جَنُبُوا[2]، ويُثابون عليها، ويُعاقَبون على تركها. وهذا مما أَجمع عليه المسلمون أهلُ الحقِّ، ونَطَقَت به الآثارُ، ودلَّ عليها المستفيضُ منَ الأخبار، ولا يتعلَّق الثوابُ والعقابُ إلا بما هو من أكسابِ العباد، على ما يأتي بيانُه.

ولولا أنه سبحانه جَعَلَ في قلوب عبادِه منَ القُوَّة على حَملِه ما جعلَه، ليتدبَّروه وليعتبروا به، وليتذكَّروا مافيه من طاعته وعبادته، وأداءِ حقوقه وفرائضه، لَضَعُفَت ولَاندَكَّت بِثِقَله، أو لَتَضَعضَعَت له. وأَنَّى تُطِيقُه! وهو يقول ـ تعالى جَدُّه وقولُه الحقُّ ـ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]؟! فأين قُوَّةُ القُلوبِ من قوَّة الجبال؟! ولكنَّ الله تعالى رَزَقَ عبادَه منَ القوَّة على حمله ما شاء أن يرزقَهم، فضلاً منه ورحمة.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب:

فأوَّلُ ذلك ما خرَّجه الترمذيُّ، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقول الربُّ تبارك وتعالى: مَنْ شَغَلَه قراءةُ القُرآن عن مَسألتي[3]، أعطيتُه أفضَلَ ما أُعطِي

---

(١) في (د) و(ز): اكتسابهم، وفي (ظ): اكتابهم، والمثبت من (م).

(٢) في (م): أجنبوا، وهما بمعنى، واضطربت العبارة في (د) و(ز).

(٣) في (م): من شغله القرآن وذكري عن مسألتي.

السَّائلين». قال: وفَضلُ كلامِ الله على سائرِ الكلام، كفَضلِ اللهِ على خَلْقِه. قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[١].

وروى أبو محمد الدَّارِميُّ السَّمَرْقَنْديُّ[٢] في «مسنده» عن عبد الله قال: السَّبعُ الطُّوَل مِثلُ التوراة، والمِئونَ مِثلُ الإنجيل، والمَثاني مِثلُ الزَّبور، وسائرُ القرآنِ بعدُ فَضْلٌ[٣].

وأسند عن الحارث[٤]، عن عليٍّ رضي الله عنه ـ وخرَّجه الترمذيُّ[٥] ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستكونُ فِتَنٌ كقِطَعِ الليلِ المُظلِم». قلت: يارسولَ الله، وما المَخرجُ منها؟ قال: «كتابُ الله تبارك وتعالى، فيه نَبأُ مَن قبلَكُم، وخبرُ ما بَعدَكُم، وحُكْمُ ما بينَكم، هو الفَصْلُ، ليس بالهَزْل، مَن تَرَكَهُ مِن جَبَّارٍ، قَصَمَه اللهُ، ومَنِ ابتَغَى الهُدَى في غيره، أضلَّه اللهُ، هو حَبْلُ اللهِ المتينُ، ونورُه المبينُ، والذِّكْرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تَزيغُ به[٦] الأهواءُ، ولا تَلتَبِسُ به الألسنةُ، ولا تَتَشعَّبُ معه[٧] الآراءُ، ولا يَشبَعُ منه العلماءُ، ولا يَمَلُّه الأتقياءُ، ولا

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٢٦) بنحوه، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف. وفيه أيضاً محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، وهو ضعيف جداً. وذكر الذهبي هذا الحديث في الميزان ٣/ ٥١٥ وقال: حسَّنَه الترمذي، فلم يُحسِن. وقوله: فضلُ كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه، ذكره البخاري في خلق أفعال العباد ص١٩ ومحمد بن نصر المروزي (كما في مختصر قيام الليل ص٧٥) من قول أبي عبد الرحمن السُّلمي، وزاد ابنُ نصر نسبته إلى شهر بن حوشب. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٦٦: بيَّن العسكري أنها من قول أبي عبد الرحمن السُّلمي.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، التميمي، صاحب التصانيف، توفي سنة (٢٥٥هـ). السير ١٢/ ٢٢٤.

(٣) سنن الدارمي (٣٤٠٠)، وأخرج الإمام أحمد نحوه في المسند (١٦٩٨٢) من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً، وإسناده حسن.
وسيتكلم المصنف على السبع الطول، والمثاني، آخر الباب الأول من سورة الفاتحة، وفي تفسير الآية (٨٧) من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

(٤) سنن الدارمي (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). الحارث: هو ابنُ عبد الله الأعور، الهمداني.

(٥) سنن الترمذي (٢٩٠٦)، وهو في مسند أحمد (٧٠٤).

(٦) في (ظ): فيه.

(٧) في (د) و(ز): به.

يَخلُقُ[١] عن[٢] كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبُه، وهو الذي لم تَنتَهِ الجنُّ إذ سَمِعَتْه أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، من عَلِمَ عِلمَه سَبَق، ومَن قال به صَدَق، ومَن حَكَمَ به عَدَل، ومَن عَمِلَ به أُجِر، ومَن دَعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم» خُذها إليك يا أعوَر[٣].

الحارث: رماه الشعبيُّ[٤] بالكذب، وليس بشيء، ولم يَبِنْ مِن الحارث كذِب، وإنما نُقِمَ عليه إفراطُه في حبِّ عليٍّ وتفضيلُه له على غيره. ومن هاهنا ـ واللهُ أعلم ـ كذَّبه الشعبيُّ[٥]، لأن الشعبيَّ يذهَبُ إلى تفضيل أبي بكر، وإلى أنه أوَّلُ مَن أسلم. قال أبو عمر بنُ عبد البَرِّ[٦]: وأظنُّ الشعبيَّ عُوقب لقوله في الحارث الهَمدانيِّ: حدَّثني الحارثُ، وكان أحدَ الكذَّابين.

وأسند أبو بكر محمدُ بنُ القاسم بنِ بشار بن محمد الأنباريُّ[٧] النحويُّ اللغويُّ في كتاب «الردِّ[٨] على مَن خالف مصحفَ عثمان»، عن عبد الله بن مسعود قال: قال

---

(١) قال النووي في التبيان في الفصل العاشر منه: يَخلُق، بضم اللام، ويجوز فتحها، والياء فيهما مفتوحة، ويجوز ضم الياء مع كسر اللام، يقال: خَلُقَ الشيءُ، وخَلَقَ، وخَلِقَ، وأَخلَقَ: إذا بَلِيَ.

(٢) في (م): على.

(٣) حديث ضعيف، فقد أعلَّه الترمذي بقوله: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وانظر علل الدارقطني ٣/ ١٣٧.

(٤) هو عامر بنُ شراحيل بن عبد، أبو عمرو الهمداني، رأى عليًّا رضي الله عنه وصلى خلفه، وروى عن عدد من الصحابة. توفي سنة (١٠٤هـ). السير ٤/ ٢٩٤.

(٥) وكذَّبه أيضا أبو إسحاق، وعلي ابنُ المديني، وضعَّفه أبو زرعة، وأبو حاتم، وابنُ عدي، والدارقطني. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال في موضع آخر: ليس به بأس. ووثَّقه ابنُ مَعِين، وأحمد بن صالح المصري. كذا في التهذيب ٢/ ٢٦٤.

(٦) في جامع بيان العلم ص٤٤٥ وتمام القصة فيه. وابنُ عبد البَرِّ: هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البَرِّ، أبو عمر، النَّمَريُّ، الأندلسيُّ، القُرطبيُّ، المالكيُّ، صاحب التمهيد و الاستذكار وغيرهما. توفي سنة (٤٦٣هـ). السير ١٨/ ١٥٣.

(٧) كذا نسبه القرطبي، والذي في أغلب المصادر: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن، وهو من أئمة القراءة والأدب، توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ١٥/ ٢٧٤. وكتابُ الردّ الذي ذكره المصنف له لم يصلنا، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست ص٨٢، وياقوت في معجم الأدباء ١٨/ ٣١٣، والداودي في طبقات المفسرين ٢/ ٢٢٩، وغيرهم.

(٨) في النسخ الخطية: الرد له، والمثبت من (م).

رسولُ الله ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ مأدُبَةُ الله، فتعلَّموا من مَأدُبَتِهِ ما استطعتُم، إنَّ هذا القرآنَ حَبْلُ الله، النورُ المبينُ[١]، والشفاءُ النافعُ، عِصمةٌ لمن[٢] تمسَّك به، ونجاةٌ لمن[٢] اتَّبعه، لا يَعْوَجُّ فيُقوَّم، ولا يزيغُ فيُستَعتب، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يَخلُق عن كثرة الرَّدِّ، فاتلوه، فإنَّ الله يأجُركم على تلاوته بكل حرف عشرَ حسنات، أما إني[٣] لا أقول: «الم» حَرفٌ، ولا أُلْفِيَنَّ أحدَكم واضعاً إحدى رِجلَيه يَدَعُ أن يقرَأ سورةَ البقرة، فإنَّ الشيطانَ يَفِرُّ من البيتِ الذي تُقرَأُ فيه سورةُ البقرة، وإنَّ أصفَرَ البيوتِ لَجوفُ أصفرُ من[٤] كتاب الله»[٥].

وقال أبو عبيد في «غريبه»[٦] عن عبد الله قال: إن هذا القرآنَ مَأدُبَةُ الله، فمن دخَلَ فيه فهو آمِن. قال: وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ، شَبَّه القرآنَ بصنيعٍ صنعَه اللهُ عزَّ وجلَّ للناس، لهم فيه خيرٌ ومنافع، ثم دعاهم إليه. يقال: مَأدُبة ومَأدَبة، فمن قال: مَأدُبة، أرادَ الصنيعَ يصنعُه الإنسانُ، فيدعو إليه الناسَ. ومَن قال: مَأدَبَة، فإنه يذهَبُ

---

(١) في (م): وهو النور المبين.

(٢) في (د) و(ز) و(م): من، والمثبت من (ظ).

(٣) في (ظ): ألا إني، وفي (د): أما أنا.

(٤) في (م): وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من. . .

(٥) اختلف في رفعه ووقفه، والصواب أنه موقوف من قول ابن مسعود رضي الله عنه فيما ذكر الدارقطني وغيره. وقوله: «اتلوه، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: الم حرف» له حكم المرفوع، لأنه مما لايقال بالرأي، وسيكرره المصنف بنحوه قريباً (ص١٤). وقوله: «إن الشيطان يفرُّ من البيت الذي تقرأ فيه سورةُ البقرة» له شاهد صحيح من حديث أبي هريرة رفعه: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» أخرجه مسلم (٧٨٠)، وهو عند أحمد (٧٨٢١). وسنورد بعض أهم مصادر الحديث إجمالاً (دون تفصيل فيمن أخرجه بتمامه، أو مقطَّعاً، أو مرفوعاً، أو موقوفاً، بغية الاختصار)، فهو عند عبد الرزاق في مصنفه (٥٩٩٣) و (٥٩٩٨) و (٦٠١٧)، وأبي عبيد في فضائل القرآن ص٢١ و ٢٥و ٢٦ و ٣٢، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٨٢ ـ ٤٨٣ و ٤٨٤ و ٤٨٦، والدارمي (٣٣٠٧) و (٣٣٠٨) و (٣٣١٥) و (٣٣٢٢) و (٣٣٧٥) و (٣٣٧٧) و (٣٣٧٩)، والترمذي (٢٩١٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٣٣ ـ ١٠٧٣٥)، والدارقطني في العلل ٥/ ٣٢٦، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٤٥).

(٦) غريب الحديث ٤/ ١٠٧ ـ ١٠٨. وأبو عبيد: هو القاسم بن سلَّام، وله من الكتب أيضاً: الأموال، وفضائل القرآن، والطَّهور، وغيرها. توفي بمكة سنة (٢٢٤هـ). السير ١٠/ ٤٩٠.

به إلى الأدب، يجعلُه «مَفْعَلَة» من الأدَب، ويحتجُّ بحديثه الآخر: «إن هذا القرآنَ مَأدَبةُ الله عزَّ وجلَّ، فتعلَّموا من مَأدَبته». وكان الأحمر[١] يجعلُهما[٢] لغتين بمعنًى واحد، ولم أسمع أحداً يقول هذا غيرَه. والتفسيرُ الأولُ أعجبُ إليَّ.

وروى البخاريُّ عن عثمانَ بنِ عفَّان، عن النبيِّ ﷺ قال: «خَيرُكم مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ»[٣].

وروى مسلمٌ، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ الذي يَقرَأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُترُجَّة، رِيحُها طيِّب، وطَعْمُها طَيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يقرَأُ القرآنَ مَثَلُ التمرة، لا ريحَ لها، وطَعْمُها حُلْوٌ[٤]، ومَثَلُ المنافقِ الذي يقرَأ القرآنَ مَثَلُ الرَّيْحانة، ريحُها طيِّبٌ، وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي لا يقرَأُ القرآنَ، كَمَثَل الحَنظَلة، لا ريحَ لها، وطَعْمُها مُرٌّ». وفي رواية: «مَثَلُ الفاجِر» بدل «المنافق»[٥].

وقال البخاريُّ: «مَثَلُ المؤمنِ الذي يقرَأُ القرآنَ، ويعملُ به كالأُتْرُجَّة[٦]، طَعْمُها طَيِّبٌ، ورِيحُها طيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يقرَأُ القرآنَ كمَثَل التمرة» وذكر الحديث[٧].

وذكر أبو بكر الأنباريُّ: وقد أخبرنا أحمدُ بنُ يحيى الحلوانيُّ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا هشيم (ح) وأنبأنا إدريسُ، حدثنا خَلَفٌ، حدثنا هُشَيم، عن العوَّام بن حَوْشَب، أن أبا عبد الرحمن السُّلَميَّ، كان إذا ختَم عليه الخاتِمُ القرآنَ،

(١) هو عليُّ بن المبارك، وقيل: عليُّ بن الحسن، شيخ العربية، تلميذ الكسائي. توفي سنة (١٩٤هـ). سير أعلام النبلاء ٩/ ٩٢.

(٢) في (ظ): يجعلها.

(٣) صحيح البخاري (٥٠٢٧)، وهو في مسند أحمد (٤١٢).

(٤) في (ظ): طيب.

(٥) صحيح مسلم (٧٩٧)، وهو في مسند أحمد (١٩٥٤٩). قوله: الأترجّة، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٦٦: هو بضم الهمزة والراء، بينهما مثناة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة، وقد تخفف، ويزاد قبلها نون ساكنة، ويقال بحذف الألف مع الوجهين.

(٦) في (م): يقرأ القرآن كمثل الأترجة.

(٧) صحيح البخاري (٥٠٥٩).

أجلَسه بين يديه، ووضَع يده على رأسه، وقال له: ياهذا، اتقِ الله، فما أعرِفُ أحداً خيراً منك إنْ عَمِلْتَ بالذي عَلِمْتَ.

وروى الدارميُّ، عن وَهْب الذِّماريّ[١] قال: مَنْ آتاهُ اللهُ القرآنَ، فقام به آناءَ الليل، وآناءَ النهار، وعَمِلَ بما فيه، وماتَ على الطاعة، بعثَه اللهُ يومَ القيامة مع السَّفَرَةِ والأحكام. قال سعيدٌ[٢]: السَّفَرة: الملائكة، والأحكامُ: الأنبياء[٣].

وروى مسلم عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهِرُ بالقرآنِ مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرَة، والذي يقرَأُ القرآنَ ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجران»[٤]. التَّتَعْتُعُ: التردُّدُ في الكلامِ عِيًّا وصعوبة، وإنما كان له أجرانِ من حيثُ التلاوةُ، ومن حيثُ المشقَّةُ. ودرجاتُ الماهر فوق ذلك كلِّه، لأنه قد كان القرآنُ مُتَعْتَعاً عليه، ثم تَرَقَّى عن ذلك إلى أن شُبِّه بالملائكة. والله أعلم[٥].

وروى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرَأَ حَرْفاً مِن كتابِ الله، فله به حَسَنةٌ، والحَسَنةُ بعَشر أمثالها، لا أقول «الم» حَرْفٌ، ولكن أَلِفٌ حَرْفٌ، ولامٌ حَرْفٌ، ومِيمٌ حَرْفٌ». قال: حديثٌ حَسنٌ صحيح، غريب من هذا الوجه، وقد رُوِيَ موقوفاً[٦].

وروى مسلم عن عُقبةَ بن عامر قال: خرَج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيُّكم يُحِبُّ أن يَغدُوَ كلَّ يوم إلى بُطْحانَ، أو إلى العَقيق، فيأتيَ منه بناقتين كَوْمَاوَيْن في غير إثم، ولا قطيعةِ[٧] رَحِم؟». فقلنا: يارسول الله، كلُّنا نحبُّ ذلك، قال: «أفلا يغدُو أحدُكم إلى المسجد، فيَعلَمَ، أو يَقرَأَ آيتَينِ من كتابِ الله عزَّ وجلَّ،

---

(١) هو وهب بن منبّه، أبو عبد الله، الصنعاني، يروي الكثير من الإسرائيليات، مات سنة (١١٠هـ). وقيل: سنة (١١٤). السير ٤/ ٥٤٤.

(٢) في النسخ الخطية: سعد، وهو خطأ، وهو سعيد بن عبد العزيز التنوخي، أحد رجال السند.

(٣) هو في سنن الدارمي (٣٣٦٩) بأتم منه، وهو مقطوع.

(٤) صحيح مسلم (٧٩٨)، وهو أيضاً عند البخاري (٤٩٣٧)، وفي مسند الإمام أحمد (٢٤٢١١).

(٥) المفهم ٢/ ٤٢٥.

(٦) سنن الترمذي (٢٩١٠)، وقد ذكره المصنف مطولاً ص١١ ـ ١٢.

(٧) في (م): قطع.

خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له من أربع، ومِن أعدادِهنَّ من الإبل»[١].

وعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عن مُسلم كُربَةً من كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ الله عنه كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومَن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومَن سَتَرَ مسلماً، سَتَرَه اللهُ في الدنيا والآخرة، واللهُ في عَونِ العبد ما كانَ العبدُ في عَونِ أخيه، ومَن سلَكَ طريقاً يَلتَمِسُ فيه عِلماً، سَهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتَمَعَ قومٌ في بيت من بيوتِ الله، يتلُون كتابَ الله، ويَتَدارَسُونه بينهم، إلا نَزَلَت عليهمُ السكينةُ، وغَشِيَتهُم الرحمةُ، وحفَّتهمُ الملائكةُ، وذَكَرَهمُ اللهُ فيمَن عنده، ومَن بَطَّأَ[٢] به عَمَلُه، لم يُسرِعْ به نَسَبُه»[٣].

وروى أبو داودَ، والنسائيُّ، والدارميُّ، والترمذيُّ، عن عقبةَ بن عامر قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «الجاهِرُ بالقُرآن كالجاهِرِ بالصَّدَقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرِّ بالصَّدَقة». قال الترمذيُّ: حديث حسن غريب[٤].

وروى الترمذيُّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «يَجِيءُ صاحبُ القرآن[٥] يومَ القيامة، فيقول: ياربِّ حَلِّهِ، فيُلبَسُ تاجَ الكرامة، ثم يقول: ياربِّ زِده، فيُلبَسُ حُلَّةَ الكرامة، ثم يقول: ياربِّ ارْضَ عنه، فيَرضى عنه، فيقال له: اقرَأ، وارقَ، ويُزاد بكلِّ آية حَسَنة». قال: حديث صحيح[٦].

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُقال لصاحبِ

---

(١) صحيح مسلم (٨٠٣)، وهو في مسند أحمد (١٧٤٠٨). قوله: بُطحان والعقيق: هما واديان بظاهر المدينة. وقوله: «كوماوَيْن»: هو مثنى كوماء، يعني الناقة العظيمة السَّنام.

(٢) في (م): أبطأ.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٩٩)، وهو في مسند أحمد (٧٤٢٧).

(٤) سنن أبي داود (١٣٣٣)، والسنن الصغرى للنسائي ٣/ ٢٢٥ و ٥/ ٨٠ والكبرى (١٣٧٨) و (٢٣٥٣) وسنن الترمذي (٢٩١٩)، ولم نجده عند الدارمي، وهو في مسند أحمد (١٧٣٦٨).

(٥) كذا في النسخ الخطية، وتحفة الأحوذي ٨/ ٢٢٧. ووقع في مطبوع الترمذي وعارضة الأحوذي ١١/ ٣٧ وتحفة الأشراف ٩/ ٤٢٨: يجيء القرآن.

(٦) سنن الترمذي (٢٩١٥).

القرآن: اقْرَأ، وارْتَقِ، ورتِّل كما كنتَ تُرتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلَتَك عند آخرِ آية تقرؤها»(١).

وأخرجه ابنُ ماجه في «سننه» عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُقال لصاحبِ القرآنِ إذا دخَلَ الجنةَ: اقرَأ، واصْعَد، فيَقرَأُ، ويَصعَدُ بكلِّ آية درجة، حتى يقرَأَ آخِرَ شيء معه»(٢).

وأسند أبو بكر الأنباريُّ عن أبي أمامةَ الحمصيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن أُعطِيَ ثُلُثَ القرآن، فقد أُعطيَ ثُلثَ النبوَّة، ومَن أُعطيَ ثُلُثي القرآن، فقد أُعطيَ ثُلُثي النبوَّة، ومَن قَرَأَ القرآنَ كلَّه، فقد أعطيَ النبوَّةَ كلَّها، غيرَ أنه لا يُوحَى إليه، ويُقال له يوم القيامة: اقْرَأ، وارْقَ، فيَقرَأُ آية، ويصعدُ درجة، حتى يُنجِزَ ما معه من القرآن، ثم يقال له: اقبِض، فيَقبِضُ، ثم يقال له: اقبض، فيقبض(٣)، ثم يقال له: أتدري ما في يديك؟ فإذا في يده اليمنى الخُلْدُ، وفي اليُسرىٰ النعيمُ»(٤).

حدثنا إدريسُ، عن خَلَف(٥)، حدثنا إسماعيلُ بنُ عيَّاش، عن تمَّام، عن

---

(١) سنن أبي داود (١٤٦٤)، وهو في مسند أحمد (٦٧٩٩).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٧٨٠)، وهو في مسند أحمد (١١٣٦٠).

(٣) قوله: «ثم يقال له: اقبض، فيقبض» لم يكرر في (م) و(د)، وهو ثابت في (ظ) و(ز) والمصادر، وجاء عند الأنباري وغيره: فيقبض بيده، بزيادة لفظ: «بيده» في الموضعين.

(٤) هو عند أبي بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١١، وعنده: «من قرأ» بدل: «من أُعطيَ» في كل المواضع. وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/ ١٨٧ - ١٨٨، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠ - ٤٤١، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٥٠)، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢٥٨٩)، وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٨٣، من طريق بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبي أمامة، به. وبشرُ بن نُمير، قال فيه ابن حبان: منكر الحديث جداً. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي: هذا الحديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ.
وأخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن (١٤)، والرازي (٤٩)، من طريق مسلمة بن عُلَيٍّ الخُشني، عن زيد بن واقد، عن مكحول، عن أبي أمامة. ومسلمة بن عُلَي متروك، ومكحول لم يثبت له سماع من أبي أمامة.

(٥) تحرف في النسخ و(م) إلى: حدثنا إدريس بن خلف، والصواب ما أثبتناه. إدريس: هو ابن عبد الكريم الحدَّاد، شيخ ابن الأنباري، وخَلَف: هو ابن هشام بن ثعلب البغدادي، أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سُليم، عن حمزة. طبقات القراء ١/ ١٥٤ و٢٧٢ - ٢٧٣.

الحسن قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن أخَذَ ثُلُثَ القرآنِ وعَمِلَ به، فقد أخَذَ أمرَ ثُلُثِ[١] النبوَّة، ومَن أخَذَ نِصفَ القرآن، وعَمِلَ به، فقد أخَذَ أمرَ نِصفِ[٢] النُّبوَّة، ومَن أخَذَ القرآنَ كُلَّه، فقد أخذَ النبوَّةَ كلَّها»[٣].

قال: وحدثنا محمدُ بنُ يحيى المَروَزيُّ، أخبرنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ حدثنا الحُسين[٤] بنُ محمد، عن حفص، عن كثير بن زاذان، عن عاصم بن ضَمرة، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن قَرَأَ القرآنَ وتلاه وحَفِظَهُ، أدخلَه اللهُ الجنةَ، وشَفَّعَهُ في عَشَرَة من أهلِ بيتِهِ، كُلٌّ قد وَجَبت له النار»[٥].

وقالت أمُّ الدَّرداء[٦]: دخلتُ على عائشةَ رضي الله عنها، فقلت لها: ما فَضلُ مَن قَرَأَ القرآنَ على مَن لم يقرأه ممَّن دخلَ الجنة؟ فقالت عائشةُ رضي الله عنها: إنَّ عددَ آيِ القرآنِ على عَدَدِ دَرَج الجنة، فليس أحدٌ دخَلَ الجنةَ أفضلَ ممن قَرَأَ القرآن. ذكره أبو محمد مكيٌّ[٧].

وقال ابنُ عباس: مَن قَرأَ القرآنَ واتَّبعَ ما فيه، هداه الله من الضَّلالة، ووقاه يومَ القيامة سوءَ الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ

---

(١) في (ظ): ثلث أمر.

(٢) في (د) و(ز): أخذ نصف.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٩٢)، وهو مرسل. تمَّام: هو ابن نَجيح الأسَدي. والحَسَن: هو البصري.

(٤) في (د) و(ز): الحسن.

(٥) إسناده ضعيف. حفص ـ وهو ابنُ سليمان الأسدي، القارىء، صاحب عاصم ـ ضعيف الحديث، وكثير بن زاذان: مجهول. وأخرجه أحمد (١٢٦٨)، والترمذي (٢٩٠٥)، وابن ماجه (٢١٦). قال الترمذي: ليس إسناده بصحيح. اهـ. وقد رُوي من وجه آخر عن عائشة، وهو منكر. تاريخ بغداد ٤/ ٨١ و٤٣٠ و١١/ ٣٩٥.

(٦) هُجيمة بنت حيي الأوصابية الحميرية، الدمشقية، وهي أم الدرداء الصغرى، اشتهرت بالعلم والعمل والزُّهد، وليس لها صحبة، ماتت بعد سنة (٨١هـ). السير ٤/ ٢٧٧.

(٧) في الرعاية ص٦٤، ومكي: هو ابن أبي طالب، أبو محمد القيسي، القيرواني، ثم القرطبي، المقرىء، صاحب التصانيف، توفي سنة (٤٣٧هـ). السير ١٧/ ٥٩١.
وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٦، وابن نصر المروزي كما في مختصر قيام الليل ص٧٤، والآجري في أخلاق حملة القرآن (١١)، من طريق أم الدرداء، به.

﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾[١] [طه: ١٢٣]. قال ابن عباس: فضَمِنَ الله لمن اتَّبعَ القرآنَ ألَّا يَضِلَّ في الدُّنيا، ولا يَشقَى في الآخرة. ذكره مكيٌّ أيضاً[٢].

وقال الليث[٣]: يُقال: ما الرحمةُ إلى أحد بأسرعَ منها إلى مستمع القُرآن، لقول الله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. و «لَعَلَّ» من الله واجبةٌ[٤].

وفي «مُسنَد» أبي داودَ الطَّيالسيِّ[٥] ـ وهو أولُ مُسنَد أُلِّفَ في الإسلام[٦] ـ عن عبدِ الله بنِ عمرو، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَن قامَ بِعَشرِ آيات، لم يُكتَب من الغافلين، ومَن قامَ بمئة آية، كُتِبَ من القانتين، ومن قامَ بألفِ آية، كُتِبَ من المُقَنطِرِين»[٧]. والآثار في معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية.

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يُكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك

روى البخاريُّ عن قتادةَ[٨] قال: سألتُ أنساً عن قراءةِ رسولِ الله ﷺ، فقال: كان

---

(١) الرعاية ص٦٤، وأخرجه عبد الرزاق (٦٠٣٣)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٧، وابن نصر المروزي كما في مختصر قيام الليل ص٧٦، والحاكم ٢/ ٣٨١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) في الرعاية ص٦٤ و٦٥، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧١، وابن نصر المروزي ص٧٦، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٨٤).

(٣) ابنُ سعد بنِ عبد الرحمن، أبو الحارث الفهمي، عالم الديار المصرية، مات سنة (١٧٥هـ). السير ٨/ ١٣٦.

(٤) الرعاية ص٦٦.

(٥) سليمان بن داود بن الجارود، الفارسي، ثم الأسدي، الحافظ، مات سنة (٢٠٤هـ). السير ٩/ ٣٧٨.

(٦) في هذا الكلام نظر؛ قال السيوطي في تدريب الراوي ١/ ١٩٠: قيل: الذي حمل قائلَ هذا القولِ عليه تقدُّمُ عصر أبي داود في أعصار مَنْ صَنَّفَ المسانيد، فظنَّ أنه هو الذي صنَّفه، وليس كذلك، فإنما هو من جمع بعض الحفاظ الخُراسانيِّين، جمعَ فيه ما رواه يونس بن حبيب خاصة عنه، ويشبه هذا مسند الشافعي، فإنه ليس تصنيفَه، وإنما لقطه بعض الحفاظ النيسابوريِّين من مسموع الأصمِّ من الأمّ، وسمعه عليه.

(٧) لم نجده في مسند الطيالسي، وأخرجه أبو داود السجستاني (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان (٢٥٧٢)، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢١٩٤)، وهو حديث حسن.

(٨) هو ابنُ دِعامة، أبو الخطاب السدوسي، البصري، الضرير، قدوة المفسرين والمحدثين. مات سنة (١١٧هـ). السير ٥/ ٢٦٩.

يَمُدُّ مَدًّا. [ثم] قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمدُّ بسم الله، ويمدُّ بالرحمن، ويمدُّ بالرحيم(١).

وروى الترمذيُّ عن أمِّ سَلَمَةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُقَطِّعُ قراءتَه(٢)، يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، وكان يقرأ(٣): ﴿مَلِكِ يومِ الدِّين﴾. قال: حديث غريب(٤). وأخرجه أبو داودَ بنحوه(٥).

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أحسنُ الناسِ صَوتاً مَن إذا قرأ(٦)، رأيتَه يخشى الله تعالى»(٧).

ورُوي عن زياد النُّمَيرِيِّ أنه جاء مع القرَّاء إلى أنس بن مالك، فقيل له: اقرأ، فرفعَ صوتَه وطرَّب، وكان رفيعَ الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه ـ وكان على وجهه

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٤٥) و (٥٠٤٦) وفيه: «يمدُّ ببسم الله» واستدركنا لفظة «ثم» منه. وهو في مسند أحمد (١٢١٩٨). وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٩١ أن المرادَ بمد القراءة المدُّ الأصلي (يعني الطبيعي).

(٢) في (ظ): القراءة.

(٣) في (م): يقرؤها.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٢٧)، وهو في مسند أحمد (٢٦٤٥١) و(٢٦٥٨٣).

(٥) سنن أبي داود (٤٠٠١).

(٦) في (ظ): قرأ القرآن.

(٧) حديث ضعيف. أخرجه عَبد بنُ حُميد في المنتخب (٨٠٢)، والبزار (٢٣٣٦) (زوائد)، وابن نَصر المَروَزي ـ كما في مختصر قيام الليل ص٥٩ ـ والطبراني في الأوسط (٢٠٩٥)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٦٩٣، وتمَّام الرازي في فوائده (١٣١٩) (الرَّوض البسام)، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٢٤)، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٨ من حديث ابن عمر. وأخرجه ابنُ ماجه (١٣٣٩)، والآجُرِّي في أخلاق حَمَلَة القرآن (٨٩) من حديث جابر. وأخرجه ابن عدي ٢/ ٦٩٣، وأبو نُعَيم في الحِلية ٤/ ١٩، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢١٤٥) من حديث ابن عباس. وأخرجه أبو نُعيم أيضاً في أخبار أصبهان ٢/ ٥٨ من حديث عائشة، وأخرجه ابنُ المبارك في الزهد (١١٣)، وعبد الرزاق (٤١٨٥)، وابن سلاَّم في فضائل القرآن ص٨٠، وسعيد بن منصور في تفسيره (٤٧)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٤، والدارمي (٣٤٨٩)، وابن عدي ٢/ ٦٩٣، والبيهقي (٢١٤٦) من حديث طاووس مرسلاً. وأخرجه ابن المبارك (١١٤)، والآجري (٩٠) من حديث الزهري مرسلاً. قال ابن عدي: والصحيح مرسل عن طاووس.

خِرقةٌ سوداء ـ فقال: ياهذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئاً يُنكره، كشفَ الخِرقة عن وجهه[١].

ورُوي عن قيس بن عُبَاد[٢] أنه قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يكرهون رفعَ الصوتِ عندَ الذِّكرِ[٣].

وممن رُوي عنه كراهةُ رفعِ الصوت عند قراءةِ القرآن: سعيدُ بنُ المُسيِّب[٤]، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ[٥]، والقاسمُ بنُ محمدٍ[٦]، والحسنُ[٧]، وابنُ سِيرِين[٨]، والنَّخَعيُّ[٩]، وغيرُهم[١٠].

وكَرِهه مالكُ بنُ أنس، وأحمدُ بنُ حنبل، كلُّهم كرِهَ رَفعَ الصوتِ بالقرآن، والتَّطريبَ فيه.

ورُويَ عن سعيد بن المسيّب أنه سمع عمرَ بنَ عبد العزيز يَؤُمُّ الناس، فَطرَّبَ في قراءته، فأرسلَ إليه سعيدٌ يقول: أصلحكَ اللهُ، إنَّ الأئمةَ لا تقرأُ هكذا. فترك عمرُ التطريبَ بعدُ[١١].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٦، وزياد النُّميري ـ وهو ابن عبد الله ـ ضعيف.

(٢) القيسي، البصري، قدم المدينة في خلافة عمر. وهو من رجال التهذيب.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٤٧)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٠.

(٤) أبو محمد القرشي، المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، مات سنة (٩٤هـ). السير ٤/ ٢١٧.

(٥) أبو محمد الأسدي، الوالبي، مولاهم، الكوفي، الحافظ، المفسر، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ). السير ٤/ ٣٢١.

(٦) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، القرشي، التيمي، المدني، الحافظ، أحد فقهاء المدينة. مات سنة (١٠٦هـ). السير ٥/ ٥٣.

(٧) ابن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، مات سنة (١١٠هـ). السير ٤/ ٥٦٣.

(٨) محمد، أبو بكر الأنصاري، البصري، مولى أنس بن مالك، مات سنة (١١٠هـ). السير ٤/ ٦٠٦.

(٩) إبراهيم بن يزيد بن قيس، أبو عمران النخعي، اليماني، ثم الكوفي، فقيه العراق. مات سنة (٩٦هـ). السير ٤/ ٥٢٠.

(١٠) فضائل القرآن لابن سلّام ص٨٢ ـ ٨٤، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٠.

(١١) مصنف عبد الرزاق ٢/ ٤٨٤.

ورُوي عن القاسم بنِ محمد أن رجلاً قرأ في مسجد النبيِّ ﷺ، فَطَرَّب، فأنكرَ ذلك القاسمُ، وقال: يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢] الآية[١].

ورُويَ عن مالك أنه سُئل عن النَّبْر في قراءة القرآن[٢] في الصلاة، فأنكر ذلك، وكَرِهه كراهةً شديدة، وأنكر رَفعَ الصوت به.

ورَوى ابنُ القاسم[٣] عنه، أنه سُئِلَ عن الألحان في الصلاة، فقال: لا يُعجبُني، وقال: إنَّما هو غِناءٌ يَتَغَنَّوْنَ به ليأخذوا عليه الدَّراهم.

وأجازت طائِفةٌ رفعَ الصوت بالقرآن، والتطريبَ به؛ وذلك لأنه إذا حَسَّنَ الصوتَ به، كان أوقعَ في النفوس، وأسمعَ في القلوب.

واحتجُّوا بقوله عليه السلام: «زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكم» رواه البَرَاء بن عازب. أخرجه أبو داود والنَّسائي[٤]. وبقوله عليه السلام: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن». أخرجه مسلم[٥]. وبقول أبي موسى للنبي ﷺ: لو أعلمُ[٦] أنك تستمِعُ لقراءتي لَحَبَّرْتُهُ لك تَحْبِيراً[٧]. وبما رواه عبدُ الله بن مُغَفَّل قال: قرأ رسولُ الله ﷺ عامَ الفَتح في مسير له سورةَ الفتح على راحلته، فَرَجَّعَ في قراءته[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٦.

(٢) يعني رفع الصوت به.

(٣) هو عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد الله العُتَقي مولاهم، المصري، صاحب مالك، عالم الديار المصرية ومفتيها، توفي سنة (١٩١هـ). سير أعلام النبلاء ٩/ ١٢٠.

(٤) سنن أبي داود (١٤٦٨)، والسنن الصغرى للنسائي ٢/ ١٧٩، وهو في مسند أحمد (١٨٤٩٤)، وهو حديث صحيح.

(٥) ليس في صحيح مسلم، وأخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١٤٧٦)، وأبو داود (١٤٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٦) في (ظ): علمتُ.

(٧) قطعة من حديث أخرجه ابن حبان (٧١٩٧). وأصل الحديث في صحيح البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، وأخرجه أحمد (٨٦٤٦) من حديث أبي هريرة.

(٨) أخرجه أحمد (١٦٧٨٩)، والبخاري (٥٠٤٧)، ومسلم (٧٩٤)، وسيذكر المصنف معنى الترجيع في القراءة ص٣٠.

وممن ذهبَ إلى هذا أبو حنيفة وأصحابُه، والشافعيُّ، وابنُ المبارك[١]، والنَّضْرُ بنُ شُمَيل[٢]، وهو اختيارُ أبي جعفر الطبري[٣]، وأبي الحسن بن بَطّال[٤]، والقاضي أبي بكر بن العربي[٥]، وغيرِهم.

قلت: القولُ الأوَّل أصحُّ لما ذكرناه، ويأتي.

وأما ما احتجّوا به من الحديث الأول، فليس على ظاهره، وإنما هو من باب المقلوب، أي: زَيِّنوا أصواتكم بالقرآن.

قال الخَطابي[٦]: وكذا فسَّره غيرُ واحد من أئمة الحديث: زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن، وقالوا: هو من باب المقلوب، كما قالوا: عَرَضتُ الناقةَ على الحَوض، وإنما هو: عرضتُ الحَوضَ على النَّاقة[٧]. قال: ورواه مَعمَر، عن منصور، عن طلحة، فقدَّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح.

قال الخطَّابي: ورواه طلحة، عَن عبد الرحمن بن عَوْسَجة، عن البَرَاء أنَّ رسول الله ﷺ قال: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم»[٨]. أي: الهَجُوا بقراءته، واشغَلُوا به

---

(١) هو عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن الحنظلي، المروزي، الحافظ، عالم زمانه، توفي سنة (١٨١هـ). السير ٨/ ٣٧٨.

(٢) أبو الحسن المازني، البصري، الحافظ، نزيل مرو وعالمُها، توفي سنة (٢٠٤هـ) السير ٩/ ٣٢٨.

(٣) محمد بن جرير، صاحب التفسير، والتاريخ، وتهذيب الآثار. توفي سنة (٣١٠هـ). السير ١٤/ ٢٦٧.

(٤) هو علي بن خلف بن بطّال القرطبي، يعرف بابن اللَّجّام، شارح صحيح البخاري، توفي سنة (٤٤٩هـ). السير ١٨/ ٤٧.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي، الأندلسي، الإشبيلي، المالكي، له: عارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، وأحكام القرآن. توفي سنة (٥٤٣هـ). السير ٢٠/ ١٩٧.

(٦) في معالم السنن ١/ ٢٩٠. والخطَّابي: هو أبو سليمان، حَمْدُ بنُ محمد بن إبراهيم، البُستي، الحافظ، اللغوي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٣٨٨هـ). السير ١٧/ ٢٣.

(٧) اضطربت العبارة في (ز)، ووقعت مقلوبة في (م) والتذكار للمصنف ص١٤٨. والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الموافق لمعالم السنن ١/ ٢٩٠، وانظر الصحاح واللسان (عرض).

(٨) كذا قال القرطبي، وهو وهم منه رحمه الله، فإن الخطابي بعد أن أشار إلى رواية طلحة، وذكر أن فيها تقديم الأصوات على القرآن، أخرج روايته، فقال: أخبرناه محمد بن هاشم، حدثنا الدَّبَري، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء أن رسول الله ﷺ قال: «زيِّنوا أصواتكم بالقرآن». فجعلهما القرطبي روايتين، وقال أيضاً: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم»، وصوابُه في هذا الموضع لفظ: «زيِّنوا أصواتكم بالقرآن».

أصواتَكُم، واتَّخِذوه شعاراً وزينة.

وقيل: معناه الحَضُّ على قراءة القرآن والدُّؤوب عليه. وقد رُويَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «زَيِّنُوا أصواتَكم بالقرآن»[١].

ورُويَ عن عمر أنه قال: حَسِّنُوا أصواتَكم بالقرآن[٢].

قلتُ: وإلى هذا المعنى يرجعُ قولُه عليه السلام: «ليس منَّا مَن لم يَتَغَنَّ بالقرآن». أي: ليس منَّا من لم يُحَسِّن صَوتَه بالقرآن، كذلك تأوَّلَه عبدُ الله بنُ أبي مُلَيكَةَ[٣]. قال عبد الجبار بنُ الوَرد: سمعتُ ابنَ أبي مُلَيكَة يقول: قال عُبيد الله[٤] بن أبي يزيد: مرَّ بنا أبو لُبَابة[٥]، فاتَّبَعناه حتى دخلَ بيتَه، فإذا رجلٌ رَثُّ الهيئة، فسمعتُه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس منَّا مَن لم يَتَغَنَّ بالقرآن». قال: فقلتُ لابنِ أبي مُلَيكة: يا أبا محمد، أرأيتَ إذا لم يكن حَسَنَ الصوت؟ قال: يُحَسِّنُهُ ما استطاع. ذكره أبو داود[٦].

وإليه يرجع أيضاً قولُ أبي موسى للنبيِّ ﷺ: إنِّي لو علمتُ أنَّك تستمعُ لقراءتي، لَحَسَّنتُ صوتي بالقرآن، وزيَّنتُه به[٧]، ورتَّلتُه. وهذا يدلُّ أنه كان يَهُذُّ في قراءته[٨] مع حُسنِ الصوت الذي جُبِل عليه. والتَّحبيرُ: التزيين والتَّحسين. فلو علم

(١) لم نجده بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة، إنما أخرجَ ابنُ حبان (٧٥٠) حديثَ أبي هريرة بلفظ حديث البراء المذكور أعلاه: «زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتكم». وأخرجَ عبد الرزاق عن معمر (٤١٧٦) لفظَ: «زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن» من حديث البراء أيضاً، وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرك ١/ ٥٧١ و٥٧٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٦٤.

(٣) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُليكة، أبو بكر وأبو محمد، القرشي، التميمي، المكي، القاضي، توفي سنة (١١٧هـ). السير ٥/ ٨٨.

(٤) وقع في (م): عبد الله، وفي (ز): عبد الحق، والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الصواب.

(٥) هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، صحابي مختلف في اسمه، فقيل: اسمه بَشِير، وقيل: رفاعة، مات في خلافة علي رضي الله عنه، وقيل غير ذلك. الإصابة ١١/ ٣٢٢.

(٦) سنن أبي داود (١٤٧١).

(٧) لفظة: به، من (د) و(ز).

(٨) أي: يسرع فيها. القاموس (هذَّ).

أنَّ النبيَّ ﷺ كان يسمعُه، لَمَدَّ في قراءته، ورتَّلَها، كما كان يقرأُ على النبيِّ ﷺ، فيكون ذلك زيادة في حُسن صوتِه بالقراءة. ومعاذ الله أن يتأوَّل على رسول الله ﷺ أن يقول: إن القرآن يُزَيَّن بالأصوات، أو بغيرها، فَمن تأوَّلَ هذا، فقد واقع أمراً عظيماً أن يُحوِجَ القرآنَ إلى من يُزَيِّنُهُ، وهو النُّور والضِّياء، والزَّيْنُ[1] الأعلى لمن أُلبِسَ بهجتَه، واستَنارَ بضيائه.

وقد قيل: إن الأمرَ بالتَّزيين اكتسابُ القراءات وتزيينُها بأصواتنا، وتقدير ذلك أي: زيِّنوا القراءةَ بأصواتكم؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: قراءةَ الفجر، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] أي: قراءته. وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمرو قال: إنَّ في البحر شياطينَ مَسْجُونةً، أوثقَها سليمانُ عليه السلام، يُوشِكُ أن تَخرُجَ، فتقرأَ على النَّاسِ قُرآناً[2]. أي: قراءةً.

وقال الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بأشمَطَ عُنوانُ السجودِ به ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسبيحاً وقُرآنا[3]

أي: قراءة، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحاً، إلاَّ أن يُخرِجَ القراءةَ ـ التي هي التلاوةُ ـ عن حدِّها ـ على ما نبيِّنُه ـ فيمتنِع.

وقد قيل: إنَّ معنى «يتغنَّى به»: يستغني به، من الاستغناء الذي هو ضِدُّ الافتقار، لا من الغِناء؛ يقال: تغنَّيتُ وتغانيت، بمعنى: استغنيتُ. وفي «الصحاح»: تَغَنَّى الرجلُ، بمعنى استَغنَى، وأغنَاهُ الله. وتَغَانَوا، أي: استَغنَى بعضُهم عن بعض. قال

---

(١) في النسخ الخطية: الدين، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١٢. وهو موقوف على ابن عمرو رضي الله عنهما، وكان قد رَوَى عن أهل الكتاب، كما ذكر الذهبي في السير ٣/ ٨١، وقال أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ١٢٠: هذا ونحوه لا يُتوصَّل إليه بالرأي والاجتهاد، بل بالسمع، والظاهر أن الصحابة إنما تستند في هذا للنبي ﷺ، مع أنه يحتمل أن يُحدِّثَ به عن بعض أهل الكتاب.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص٤٦٩. قوله: الأشمط، يعني المختلط سوادُ شعرِه ببياض.

المغيرة بن حَبناء التمِيمي[١] وأجاد[٢]:

كـلانـا غَـنِـيٌّ عـن أخـيـهِ حَـيـاتَـه ونـحـن إذا مِـتـنَـا أشـدُّ تَـغـانِـيـا[٣]

وإلى هذا التأويل ذهبَ سفيان بن عُيَينَةَ، ووَكيع بنُ الجرَّاح[٤]، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وَقاص[٥].

وقد رُوي عن سفيان أيضاً وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهَوَيه[٦]، أي: يستغني به عماسواه من الأحاديث.

وإلى هذا التأويل ذهب البخاري محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٧] [العنكبوت: ٥١]. والمرادُ الاستغناءُ بالقرآن عن علم أخبار الأمم. قاله أهل التأويل.

وقيل: إن معنى يتغنى به: يتحزَّن به، أي: يَظهرُ على قارئه الحُزنُ ـ الذي هو ضدُّ السُّرور ـ عند قراءته وتلاوته، وليس من الغُنية؛ لأنه لو كان من الغُنية لقال: يَتَغانى

---

(١) من شعراء الدولة الأموية، له مدائح في المهلَّب بن أبي صُفرة وطلحة الطلحات. الشعر والشعراء ١/ ٤٠٦ و الأغاني ١٣/ ٨٤.

(٢) قوله: وأجاد، من (ظ).

(٣) نسبه صاحب اللسان إلى المغيرة بن حَبناء، ونسبه المبرِّد في الكامل ١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧ إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ونقله عنه البغدادي في شرح أبيات المغني ٤/ ٢٦٦، وذكر في ٤/ ٢٧٠ أن هذا البيت وقع في عدة أشعار لشعراء. وأوردهم.

(٤) أخرجه عنهما أبو داود (١٤٧٢). وسفيان بن عيينة: هو أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، انتهى إليه علو الإسناد، توفي سنة (١٩٨هـ). السير ٨/ ٤٥٤.
ووكيع بن الجراح: هو أبو سفيان الرؤاسي، محدث العراق، له كتاب الزهد. توفي سنة (١٩٧هـ). السير ٩/ ١٤٠.

(٥) رواية سفيان لحديث سعد بن أبي وقاص عند أبي داود (١٤٧٠)، ورواية وكيع لحديث سعد عند أحمد (١٤٧٦)، وجاء أيضاً تفسير سفيان للتغني بالاستغناء في صحيح البخاري إثر روايته لحديث أبي هريرة (٥٠٢٨): «ما أذن الله لشيء....».

(٦) هو إسحاق بن إبراهيم، أبو يعقوب، سيد الحفاظ، صاحب المسند، وراهويه لقبٌ لُقِّب به أبوه، لأنه ولد في طريق مكة، توفي سنة (٢٣٨هـ). السير ١١/ ٣٥٨.

(٧) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، ولفظ الترجمة: باب من لم يتغن بالقرآن. وينظر الفتح ٩/ ٦٨.

به، ولم يقل: يتغنَّى به. ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، منهم الإمام أبو [حاتم] محمد بنُ حِبَّان البُستِي[١].

واحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يُصلِّي، ولصدرِه أزِيزٌ كأزيز المِرجَل من البكاء[٢]. الأزيز، بزايين: صَوتُ الرعد وغَلَيانُ القِدر. قالوا: ففي هذا الخبر بيانٌ واضحٌ على أن المراد بالحديث التحزُّن. وعَضَدُوا هذا أيضاً بما رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال لي[٣] النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ». فقرأتُ عليه سورةَ النساء، حتَّى إذا بلغتُ[٤]: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٤١] فنظرتُ إليه، فإذا عيناه تَدْمَعان[٥].

فهذه أربعُ تأويلات، ليس فيها ما يدلُّ على القراءة بالألحان والترجيع فيها.

وقال أبو سعيد بنُ الأعرابي[٦] في قوله ﷺ: «ليس منَّا مَن لَم يَتَغَنَّ بالقرآن» قال: كانت العرب تُولَعُ بالغِناء والنَّشيد في أكثر أقوالها، فلمَّا نزلَ القرآنُ، أحبُّوا أن يكون القرآنُ هِجِّيراهم[٧] مكان الغِناء، فقال: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[٨].

التَّأويل الخامس: ما تأوَّلَه مَنِ استَدَلَّ به على التَّرجيع والتَّطريب، فذكر عمرُ بن شَبَّة[٩] قال: ذكرتُ لأبي عاصم النَّبِيل[١٠] تأويلَ ابنِ عُيَينَة في قوله: «يتغنَّى»:

---

(١) في صحيحه بإثر الحديث (٧٥١) (الإحسان). وابنُ حِبَّان: هو الإمام الحافظ شيخ خراسان، توفي بسجستان سنة (٣٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٢١)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي ٣/ ١٣، وهو حديث صحيح.

(٣) لفظة: لي، من (ز) و(ظ).

(٤) في (د): حتى بلغت.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٠٦)، والبخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

(٦) أحمد بن زياد، أبو سعيد، المحدِّث، نزيل مكة وشيخ الحرم، صنف المعجم في الحديث، وطبقات النساك وغيرهما، توفي سنة (٣٤٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٧.

(٧) يعني دأبهم وشأنهم.

(٨) نقل الخطابي كلام ابن الأعرابي هذا في معالم السنن ١/ ٢٩١.

(٩) أبو زيد النميري البصري النحوي، الحافظ، نزيل بغداد، له تاريخ المدينة وأخبار الكوفة وغيرهما، توفي سنة (٢٦٢هـ). السير ١٢/ ٣٦٩.

(١٠) هو الضَّحَّاك بن مَخْلَد البصري، أجلُّ شيوخ البخاري وأكبرهم، توفي سنة (٢١٢هـ). السير ٩/ ٤٨٠.

يستغني، فقال: لم يصنَع ابنُ عُيَينَة شيئاً.

وسُئلَ الشافعيُّ عن تأويلِ ابنِ عُيَينَةَ، فقال: نحن أعلمُ بهذا، لو أراد النبيُّ ﷺ الاستغناء، لقال: مَن لم يَسْتَغْنِ، ولكن لمَّا قال: «يتغنَّى[١]»، علمنا أنَّه أراد التغنِّي.

قال الطبري: المعروفُ عندنا في كلام العرب أن التغني إنما هو الغِناء الذي هو حُسنُ الصوت بالتَّرجيع. وقال الشاعر:

تَغَنَّ بالشِّعرِ مهما كُنتَ قائلَه إنَّ الغِناء لهذا[٢] الشِّعر مِضمارُ[٣]

قال: وأمَّا ادِّعاءُ الزَّاعمِ أنَّ «تغنَّيتُ» بمعنى «استَغنَيتُ» فليس في كلام العرب وأشعارِها، ولا نعلمُ أحداً من أهل العلم قاله. وأمَّا احتجاجُه بقولِ الأعشى[٤]:

وكنتُ امرأً زَمَناً بالعِراق عفيفَ المُناخِ طَويلَ التَّغَنّ[٥]

وزعم أنه أراد الاستغناء، فإنَّهُ غلَطٌ مِنه، وإنَّما عَنَى الأعشى في هذا الموضع الإقامةَ، من قولِ العَرب: غَنِيَ فلانٌ بمكان كذا، أي: أقام، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]. وأما استشهاده بقوله:

ونحنُ إذا مِتْنَا أشدُّ تَغانيا

فإنَّه إغفالٌ منه، وذلك أنَّ التَّغانيَ تفاعلٌ من نَفْسَين، إذا استغنى كلٌّ واحد منهُما عن صاحبه، كما يقال: تضاربَ الرَّجُلان: إذا ضربَ كلٌّ واحد منهما صاحبَه. ومن قال هذا في فعل الاثنين، لم يجز أن يقول مثله في الواحد، فغير جائز أن يقال: تغانى زيد، وتضاربَ عمرو. وكذلك غيرُ جائز أن يُقال: تغنى، بمعنى: استغنى.

قلت: ما ادَّعاهُ الطبري من أنَّه لم يَرد في كلام العرب تغنَّى بمعنى: استغنى، فقد

---

(١) في (م): يتغن، وفي (ظ): يتغنى به.

(٢) في (م): بهذا.

(٣) قائله حسان، كما في شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ١٠، وهو في اللسان وتاج العروس (غنى).

(٤) هو ميمون بن قيس، أبو بصير، شاعر جاهلي قديم، أدرك الإسلام في آخر عمره، ولم يسلم، ويُسمَّى صنَّاجة العرب. الشعر والشعراء ١/ ٢٥٧.

(٥) ديوانه ص٧٥، قوله: المُناخ، يعني محل الإقامة.

ذكره الجوهريُّ[(١)] كما ذكرنا، وذكره الهَرَوي[(٢)] أيضاً.

وأمَّا قوله: إنَّ صيغة فاعل إنما تكون من اثنين، فقد جاءت من واحد في مواضعَ كثيرة، منها قولُ ابن عمر: وأنا يومَئذ قد ناهزتُ الاحتلام[(٣)]. وتقول العرب: طارقتُ النعلَ، وعاقبتُ اللِّصَّ، ودَاوَيتُ العليل. وهو كثير، فيكون «تَغَانَى» منها. وإذا احتَمَلَ قولُه عليه الصلاة والسلام: «يتغنَّ» الغِناءَ والاستغناءَ، فليس حملُه على أحدِهما بأولى من الآخر، بل حملُه على الاستغناء أولَى، لو لم يكن لنا تأويلٌ غيره، لأنَّه مرويٌّ عن صحابي كبير، كما ذكر سفيان. وقد قال ابنُ وَهْب[(٤)] في حقِّ سفيان: ما رأيتُ أحداً[(٥)] أعلمَ بتأويل الأحاديث من سفيانَ بن عُيَينَة. ومَعلومٌ أنَّه رأى الشافعيَّ وعاصَرَه.

وتأويلٌ سادس: وهو ماجاء من الزِّيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أذِنَ اللهُ لِشَيء ما أذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ يتغنَّى بالقرآن يَجهَرُ به»[(٦)].

قال الطبريُّ: ولو كان كما قال ابنُ عُيَينة، لم يكن لذِكرِ حُسنِ الصَّوتِ والجهرِ به معنى.

---

(١) إسماعيل بن حماد، أبو نصر الفارابي، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، قيل: إنه اختلط في آخر عمره، ومات متردياً من سطح داره بنيسابور في حدود سنة أربع مئة. السير ١٧/ ٨٠.

(٢) في غريب الحديث ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٢.

(٣) كذا وقع في النسخ: ابن عمر، ولم نجد هذا القول له فيما بين أيدينا من مصادر، وسيكرره المصنف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]. وهذا القولُ مرويٌّ عن ابن عباس فيما أخرجه أحمد (٣١٨٥)، والبخاري (٧٦)، ومسلم (٥٠٤) من حديثه قال: أقبلتُ راكباً على أتان، وأنا يومئذ قد ناهزتُ الاحتلام، ورسولُ الله ﷺ يصلي بالناس بمنى، فمررتُ بين يدي الصف، فنزلتُ، فأرسلتُ الأتان ترتع، ودخلتُ في الصف، فلم ينكر ذلك عليَّ أحد.

(٤) هو عبد الله بن وَهْب بن مسلم، أبو محمد الفِهري مولاهم، المصري الحافظ، لقي بعض صغار التابعين، له: الجامع، وتفسير غريب الموطأ، توفي سنة (١٩٧هـ). السير ٩/ ٢٢٣.

(٥) قوله: أحداً، من (ز) و(ظ).

(٦) صحيح مسلم (٧٩٢) (٢٣٣)، وعنى المصنف بالزيادة قولَه: يجهر به. والحديث في صحيح البخاري (٥٠٢٣) بلفظ: «لم يأذنِ اللهُ لشيء ما أذنَ لنبيٍّ أن يتغنَى بالقرآن». وقال صاحبٌ له: يريد: يجهرُ به. وهو في مسند أحمد (٧٨٣٢).

قلنا: قوله: «يَجهَرُ به» لا يخلو[١] أن يكون من قول النبيِّ ﷺ، أو من قول أبي هريرة، أو غيرِه، فإن كان الأوَّل ـ وفيه بُعدٌ ـ فهو دليلٌ على عَدمِ التَّطريب والتَّرجيع، لأنَّه لم يقُل: يُطَرِّبُ به، وإنما قال: يَجهَرُ به، أي: يُسمِعُ نفسَه ومَن يليه، بدليل قوله عليه السلام للَّذي سمعَهُ وقد رفع صوتَه بالتَّهليل: «أيُّها الناس، اربَعُوا على أنفسِكم، فإنَّكُم لستُم تدعُونَ أصمَّ ولا غائباً» الحديث، وسيأتي[٢]. وكذلك إن كان من صحابيٍّ أو غيره، فلا حُجَّةَ فيه[٣] على ما رَامُوه. وقد اختار هذا التأويلَ بعضُ علمائنا[٤]، فقال: وهذا أشبَهُ، لأن العرب تُسمِّي كلَّ مَن رفع صوته ووالَى به غانياً، وفِعلَه ذلك غِناءً، وإن لم يُلحِّنْهُ بتلحين الغِناء. قال: وعلى هذا فسَّرهُ الصَّحابي، وهو أعلم بالمقال، وأقعَدُ بالحال.

وقد احتَجَّ أبو الحسن بن بَطَّال لمذهب الشافعي، فقال: وقد رفعَ الإشكالَ في هذه المسألة ما رواه ابنُ أبي شيبة قال: حدثنا زيدُ بنُ الحُبَاب، قال: حدثنا موسى بن عُلَي بن رَباح، عن أبيه، عن عُقبةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعلَّمُوا القرآنَ، وغَنُّوا به، واكتُبوه، فوالذي نفسي بيدِه لَهُوَ أشدُّ تَفَصِّياً من المخَاض من العُقُل»[٥].

قال علماؤنا[٦]: وهذا الحديث، وإن صَحَّ سنَدُه، فيردُّه ما يُعلَمُ[٧] على[٨] القَطع والبتاتِ[٩] من أنَّ قراءةَ القرآن بَلَغَتْنا متواتِرةً عن كافة المشايخ، جِيلاً فجيلاً إلى العصر الكريم، إلى رسولِ الله ﷺ، وليس فيها تلحينٌ، ولا تَطريبٌ، مع كثرة

---

(١) في (ظ): لا يخلو إما.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥٢٠)، والبخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري، وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

(٣) في (ظ): لهم.

(٤) المفهم ٢/ ٤٢٣.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥٠٠، وفيه: «واتلوه»، بدل: «وغنُّوا»، وهو في مسند أحمد (١٧٣١٧)، وفيه: وتَغَنَّوا. وهو حديث صحيح. قوله: تفصِّياً أي: خروجاً. النهاية (فصى).

(٦) المفهم ٢/ ٤٢٢.

(٧) في (ظ): نعلم.

(٨) في (د) و(ز): من.

(٩) في (ظ): البيان، وفي (ز) و(د): الثبات، والمثبت من (م).

المتعمِّقين في مخارج الحروف، وفي المدِّ والإدغام والإظهار، وغير ذلك من كيفيَّةِ القراءات.

ثم إنَّ في التَّرجيع والتَّطريب هَمْزَ ما ليس بمهموز، ومدَّ ما ليس بممدود، فترجعُ الألِفُ الواحدة ألفات، والواو الواحدة واوات، والشُّبهةُ الواحِدةُ شُبُهات[١]، فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن، وذلك ممنُوع، وإن وافقَ ذلك موضعَ نَبْر وهَمْز، صيَّروهما[٢] نَبَرات وهَمَزَات. والنَّبرةُ حيثُما وقعت من الحروف، فإنما هي همزةٌ واحدة لا غير، إمَّا ممدودةٌ وإمَّا مقصورة.

فإن قيل: فقد روى عبدُ الله بنُ مُغَفَّل قال: قرأ رسولُ الله ﷺ في مسير له سورةَ الفتح على راحلتِه، فرجَّعَ في قراءته، وذكره البخاري، وقال في صفة التَّرجيع: آ،آ،آ، ثلاث مرات[٣]. قلنا: ذلك محمولٌ على إشباع المَدِّ في موضعِه. ويحتمل أن يكون حِكَايةَ صَوتِهِ عند هَزِّ الرَّاحِلَة. كما يعتري رافعَ صوتِه إذا كان راكباً من انضغاطِ صوتِه وتقطيعِه لأجل هَزِّ المركوبِ. وإذا احتمل هذا، فلا حُجَّةَ فيه.

وقد خَرَّج أبو محمد عبدُ الغني بنُ سعيد الحافظُ[٤] من حديث قتادة، عن عبد الرَّحمن بن أبي بَكْرة[٥]، عن أبيه قال: كانت قراءةُ رسولِ الله ﷺ المدَّ، ليس فيها ترجِيع[٦].

---

(١) يريد: الحروف، كما صرح به ص١٠٨، باب ذكر معنى السورة والآية.

(٢) في (ز) و(ظ) و(م): صيروها، والمثبت من (د).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٤٧) و(٧٥٤٠)، وسلف ص٢١ ـ ٢٢.

(٤) محدِّثُ الديار المصرية، له كتاب المؤتلف والمختلف، توفي سنة (٤٠٩هـ). السير ١٧/ ٢٦٨.

(٥) تحرف في (ظ) و(د) و(م) إلى: أبي بكر، والمثبت من (ز)، وهو الصواب.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٤٤)، وابنُ عدي في الكامل ٧/ ٢٥٤٤ (في ترجمة الوليد بن القاسم الهمداني)، وفي إسناده عمر بن موسى، المعروف بابن وجيه. قال ابن عدي: يضع الحديث. وأورده الذهبي في ميزانه ٤/ ٣٤٤ (في ترجمة الوليد المذكور) وقال: تفرَّد به عمر، وهو متهم. وحسَّنه السيوطي في الجامع الصغير! فتعقبه المناوي في «الفيض» ٥/ ١٧٣ بقوله: وليس كما ظنَّ، فقد قال الهيثمي [في المجمع ٢/ ٢٦٦]: فيه عمر بن وجيه، وهو ضعيف. اهـ وقد وجَّه ابن الأثير هذه الرواية في النهاية ٢/ ٢٠٢، فقال: وجهُه أنه لم يكن حينئذ راكباً، فلم يحدث في قراءته الترجيع. قلنا: وقد صحَّ من حديث أنس رضي الله عنه أن قراءة النبي ﷺ كانت مدًّا، فيما أخرجه أحمد (١٢٢٨٣)، والبخاري (٥٠٤٦) وغيرهما، وسلف ص ١٨ ـ ١٩.

وروى ابنُ جُرَيج[١]، عن عطاء[٢]، عن ابن عبَّاس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذِّنٌ يُطرِّبُ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأذانَ سَهْلٌ سَمْحٌ، فإذا كان أذانُكَ سمحاً سَهلاً، وإلَّا، فلا تُؤذِّن». أخرجه الدارقُطني[٣] في «سُننه»[٤]. فإذا كان النبيُّ ﷺ قد منعَ ذلك في الأذان، فأحرى ألا يُجوِّزَه في القرآن الذي حفظَهُ الرَّحمن، فقال ـ وقولُه الحقُّ ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قُلتُ: وهذا الخِلافُ إنَّما هو ما لم يُفهم معنى القُرآن، بترديد الأصواتِ، وكثرةِ الترجيعات، فإن زادَ الأمر على ذلك حتى لا يُفهم معناهُ، فذلك حرامٌ باتفاق، كما يفعل القرَّاء بالدِّيار المصريَّة الذين يقرؤون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضلَّ سَعيُهُم، وخابَ عملُهم، فيستحلُّون بذلك تغييرَ كتابِ الله، ويُهوِّنُونَ على أنفسهم الاجتِراءَ على الله، بأن يَزيدُوا في تنزيله ما ليس فيه، جهلاً بدينهم، ومُرُوقاً عن سُنَّة نَبيِّهم، ورفضاً لسيرِ الصَّالحين فيه من سَلَفِهم، ونُزوعاً إلى ما يُزيِّنُ لهم الشيطانُ من أعمالهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، فهم في غَيِّهم يَتَردَّدُون، وبكتاب الله يتَلاعَبُون، فإنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعون، لكن قد أخبَرَ الصَّادقُ أنَّ ذلك يكون، فكان كما أخبر ﷺ: ذكر الإمامُ الحافظُ أبو الحسن[٥] رَزِين[٦]، وأبو عبد الله التِّرمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[٧]، من حَديث حُذيفة أنَّ

---

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج، أبو الوليد القرشي، الإمام، وهو أول من دوَّن العلم بمكة. توفي سنة (١٥٠هـ). السير ٦/ ٣٢٥.

(٢) هو عطاء بن أبي رباح، أبو محمد القرشي، مفتي الحرم، مات سنة (١١٥هـ). السير ٥/ ٧٨.

(٣) علي بن عمر بن أحمد، أبو الحسن البغدادي، الحافظ، صاحب التصانيف، منها: السنن، والعلل، مات سنة (٣٨٥هـ). السير ١٦/ ٤٤٩.

(٤) ٢/ ٨٦، وفي إسناده إسحاق بن أبي يحيى الكَعبي الراوي عن ابن جُرَيج، قال الذهبي في الميزان ١/ ٢٠٥: هالكٌ يأتي بالمناكير عن الأثبات، وذكر له هذا الحديث.

(٥) في (م): أبو الحسين، وهو خطأ.

(٦) هو رَزِينُ بنُ معاوية بن عمَّار، العَبدريُّ، الأندلسيُّ، السَّرَقُسطي، المحدِّثُ، له كتاب تجريد الصحاح. توفي سنة (٥٣٥هـ). السِّيَر ٢٠/ ٢٠٤.

(٧) ص٣٣٤، والحكيم الترمذي: هو محمد بن علي بن الحسن، له مصنفات وحكم ومواعظ، قدم نيسابور وحدث بها سنة (٢٨٥هـ)، توفي نحو سنة (٣٢٠)هـ. السير ١٣/ ٤٣٩.

رسولَ الله ﷺ قال: «اقرؤوا القرآنَ بلُحُون العرب وأصواتِها، وإيَّاكم ولُحُونَ أهلِ العِشْق[١]، ولُحونَ[٢] أهلِ الكتابَين، وسَيَجيءُ بعدي قَومٌ يُرَجِّعُون بالقُرآنِ ترجيعَ الغِناء والنَّوح، لا يُجاوِزُ حَناجِرَهم، مَفتُونَةٌ قلوبُهُم، وقُلوبُ الذين يُعجِبُهم شأنُهم». اللُّحونُ: جَمعُ لَحْن، وهو التَّطرِيبُ، وتَرجِيعُ الصَّوتِ، وتحسينُه، بالقراءة والشِّعر والغِناء[٣].

قال علماؤنا: ويُشبِهُ أن يكونَ هذا الذي يفعلُه قراءُ زمانِنا بين يَدَيِ الوُعَّاظِ، وفي المجالس، من اللُّحونِ الأعجمية التي يقرؤون بها ما نَهى عنه رسولُ الله ﷺ.

والترجيعُ في القراءَةِ: ترديدُ الحروف، كقراءة النصارى. والترتيلُ في القراءة: هو التَّأنِّي فيها، والتَّمهُّلُ، وتَبيينُ الحروف والحركاتِ، تشبيهاً بالثَّغر المُرَتَّل، وهو المُشبَّه بنَوْر الأُقحُوان، وهو المطلوب في قراءة القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وسُئلت أمُّ سَلَمةَ عن قراءة رسول الله ﷺ وصَلاتِه، فقالت: مالكم وصَلاتَه؟ ثم نَعَتَت قراءتَه، فإذا هي تَنْعَتُ قراءَةً مُفَسَّرةً حَرفاً حَرفاً. أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب[٤].

بابُ تحذيرِ أهلِ القرآنِ والعلم من الرِّياء وغيرِه

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

روى مُسلمٌ عن أبي هُريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضَى عليه يَومَ القِيامَةِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها. قال: فما عَمِلتَ

---

(١) في فضائل أبي عبيد، وشُعب الإيمان، والعلل المتناهية: الفِسق.

(٢) في (ظ): وترجيع.

(٣) حديث ضعيف، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٨٠، والطبراني في الأوسط (٧٢١٩)، وابنُ عدي في الكامل ٢/ ٥١٠ ـ ٥١١، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢٦٤٩) و(٢٦٥٠)، وابنُ الجوزيِّ في العلل المتناهية (١٦٠). وقال: هذا حديثٌ لا يصحُّ.

(٤) سنن النسائي ٢/ ١٨١ و٣/ ٢١٤، وسنن أبي داود (١٤٦٦)، وسنن الترمذي (٢٩٢٣)، وهو في المسند (٢٦٥٢٦).

فيها ؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى استُشهِدتُ. قال: كَذَبتَ، ولَكِنَّك قَاتَلت ليقال[١]: جَرِيءٌ، فقد قِيل. ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ في النَّار.

ورجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَهُ، وَقَرأَ القُرآنَ، فأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها. قال: فما عَمِلتَ فيها ؟ قال: تَعلَّمتُ العِلمَ وَعَلَّمتُه، وَقَرأتُ فيك القُرآنَ. قال: كَذَبتَ، ولَكنَّك تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقرأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هُو[٢] قارِىءٌ، فقد قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ في النَّار.

ورجلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه، وأعطاهُ مِن أصنافِ المالِ كُلِّه، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها ؟ قال: ماتَرَكتُ مِن سَبِيل تُحبُّ أن يُنفَقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كَذَبتَ، وَلَكنَّك فَعَلتَ لِيُقال: هو جَوادٌ، فقد قِيل. ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجهِهِ، ثُمَّ[٣] أُلقِيَ في النَّار»[٤].

وقال التِّرمِذي في هذا الحديث: ثُمَّ ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ على رُكبتي، فقال: «يا أبا هُريرة، أُولئك الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلقِ الله، تُسَعَّرُ بهم النَّارُ يَومَ القِيامة»[٥]. أبو هريرة: اسمُه عبدُ الله، وقيل: عبدُ الرَّحمن، وقال: كُنِّيتُ أبا هُرَيرةَ لأنِّي حَمَلتُ هِرَّة في كُمِّي، فرآني رسولُ الله ﷺ فقال: «ما هذه» ؟ قلتُ: هِرَّة، فقال: «يا أبا هُرَيرَة»[٦].

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: وهذا الحديثُ فيمَن لَم يُرِد بِعمَلِه وعِلمِه وَجهَ الله تعالى[٧].

ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن طَلَبَ العِلمَ لِغَيرِ الله، أو أرادَ به غَيرَ الله، فَليَتَبَوَّأ مَقعَدَهُ مِنَ النَّار»[٨].

---

(١) في (م): لأن يقال.

(٢) كلمة هو، ليس في (د).

(٣) في (ظ): حتى.

(٤) صحيح مسلم (١٩٠٥)، وهو في المسند برقم (٨٢٧٧).

(٥) سنن الترمذي (٢٣٨٢).

(٦) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي هريرة ١٢/ ١٧١ (بهامش الإصابة).

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص ٢٤٠.

(٨) أخرجه الترمذي (٢٦٥٥)، والنسائي في الكبرى(٥٨٧٩)، وابن ماجه (٢٥٨)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٢٧ من طريق خالد بن دُرَيك عن ابن عمر. قال الترمذي: حديث حسن غريب. اهـ وإسناده منقطع، فقد ذكر المِزِّي في تهذيب الكمال أن خالد بن دُرَيك روى عن عبد الله بن عمر ولم يدركه.

وخرَّجَ ابنُ المُبارك في «رقائقه»[١] عن العَبَّاس بنِ عبدِ المُطَّلب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَظهَرُ هذا الدِّينُ حتَّى يُجاوِزَ البِحار، وحَتَّى تُخاضَ البِحارُ بالخَيل في سبيل الله تبارَكَ وتعالى، ثُمَّ يَأتي أقوامٌ يقرؤون القُرآنَ، فإذا قَرؤوه قالُوا: مَن أقرَأُ مِنَّا؟ مَن أعلَمُ مِنَّا؟» ثُمَّ التفَتَ إلى أصحابه، فقال: «هل تَرَونَ في أولئكم مِن خَير؟» قالوا: لا. قال: «أُولئكَ مِنكم، وأولئِكَ مِن هَذه الأُمَّة، وأولئك هُم وَقُودُ النَّار».

وروى أبو داود والتِّرمذيُّ عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن تَعَلَّمَ عِلماً مِمَّا يُبتَغَى به وَجهُ الله، لا يَتَعَلَّمُهُ إلَّا لِيُصِيبَ به عَرَضاً من الدُّنيا، لم يَجِد عَرْفَ الجَنَّةِ يَومَ القيامة». يعني ريحَها. قال التِّرمذي: حديثٌ حسن[٢].

ورَوَى عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا باللهِ من جُبِّ الحَزَن» قالوا: يارسولَ الله، وما جُبُّ الحَزَن؟ قال: «وَادٍ في جَهَنَّم، تتعوَّذُ منه جَهَنَّمُ في كُلِّ يَوم مئةَ مَرَّة». قيل: يارسولَ الله، ومَن يَدخُلُهُ؟ قال: «القُرَّاءُ المراؤون بأعمالهم». قال: هذا حديث غريب[٣].

وفي كتاب أَسَدِ بن مُوسى[٤] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في جَهَنَّمَ لَوادِيا، إنَّ جَهَنَّمَ لَتَتَعَوَّذُ من شَرِّ ذلك الوادي كُلَّ[٥] يَومٍ سَبعَ مَرَّات، وإنَّ في ذلك الوادي لَجُبًّا، إنَّ جهنم وذلك الوادي، لَيَتعوَّذُون بالله مِن شَرِّ ذلك الجُبِّ[٦]، وإنَّ في ذلك[٧] الجُبِّ

(١) الزهد والرقائق (٤٥٠)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦ وقال: فيه موسى بن عُبيدة الرَّبَذي، وهو ضعيف.

(٢) سنن أبي داود (٣٦٦٤)، وليس في سنن الترمذي كما ذكر المصنف، انظر تحفة الأشراف ١٠/ ٧٧ ـ ٧٨. وهو في المسند برقم (٨٤٥٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٣٨٣)، وفي إسناده أبو معان (ويقال: أبو معاذ) وهو مجهول، وعمار بن سيف وهو ضعيف. تنزيه الشريعة ٢/ ٣٨٥.

(٤) هو أبو سعيد القرشي الأموي، ذو التصانيف، ويقال: هو أول من صنف المسند. توفي سنة (٢١٢هـ). السير ١٠/ ١٦٢.

(٥) في (م): في كل.

(٦) في (ظ) زيادة: سبع مرات.

(٧) في (م): وإن في الجبّ.

لَحَيَّةً، وإن جهنم والواديَ والجُبَّ لَيتعوَّذُون بالله من شَرِّ تلك الحَيَّةِ سبعَ مرَّات، أَعَدَّها الله للأشقياء مِن حَمَلَةِ القرآن، الذين يَعصُونَ الله»[١].

فَيَجبُ على حامل القرآن وطالبِ العِلم أن يَتَّقِيَ الله في نفسه، ويُخلِصَ العملَ لله. فإن كانَ تَقَدَّمَ له شيءٌ ممَّا يَكرهُ، فَليُبَادِرِ التوبةَ والإنابةَ، وليَبتَدِىء الإخلاصَ في الطلب[٢] وعمله. فالذي يلزمُ حاملَ القرآن من التَّحفُّظِ أكثَرُ ممَّا يلزمُ غيرَه، كما أنَّ له من الأجرِ ما ليس لغيره، روى التِّرمذي عن أبي الدَّرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلَ اللهُ في بَعضِ الكُتُبِ ـ أو أوحَى إلى بعض الأنبياء ـ: قُل للَّذين يَتَفقَّهُون لِغَير الدِّين، ويتَعَلَّمون لِغَيرِ العَمَل، ويطلُبون الدُّنيا بعمل الآخرة، يَلبَسُون للناس مُسُوكَ الكِباش، وقُلُوبُهم كقلوب الذِّئاب، أَلسِنَتُهم أحلَى من العَسَل، وقلوبُهم أَمَرُّ من الصَّبر، إيَّايَ يُخادِعون وبي يَستَهزِؤون؟! لأُتيحَنَّ لهم فِتنَةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حَيرَان»[٣].

وخرَّج الطَّبري في كتاب «آداب النُّفوس»[٤]: حدَّثنا أبو كُرَيب محمَّد بنُ العَلاء، حدَّثنا المُحاربي، عن عَمرو بن عامر البَجَليِّ، عن ابن صَدَقة، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ، أو مَن حدَّثه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تُخادِعِ الله، فإنَّه مَن يُخَادِعِ الله، يَخدَعْهُ الله، ونَفسَه يَخدَعُ لو يَشعُر». قالوا: يارسولَ الله، وكيف يُخادَعُ الله؟ قال: «تَعمَلُ بما أمَرك اللهُ به، وتطلُبُ به غيرَه، واتَّقُوا الرِّياءَ فإنَّه الشِّركُ، وإنَّ المُرائي يُدعَى

---

(١) وذكره مكي في الرعاية ص ٧٤، وقد نقل الحافظ ابن حجر في تهذيبه عن ابن يونس قوله في أسد بن موسى: حدَّث بأحاديث منكرة، وأحسبُ الآفة من غيره.

(٢) في (د): التوبة.

(٣) لم يخرجه الترمذي، إنما أخرج نحوه (٢٤٠٤) من حديث أبي هريرة، وفي إسناده يحيى بن عبيد الله، وهو متروك الحديث، وبرقم (٢٤٠٥) من حديث ابن عمر، وفي إسناده حمزة بن أبي محمد، وهو ضعيف. وأما حديث أبي الدرداء (الذي أورده المصنف) فقد أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٢٩، وفي إسناده عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو متروك الحديث أيضاً. ومثل هذه الطرق لا تتقوَّى ببعضها، فالحديث ضعيف.

(٤) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٤ أن للطبري كتاب ترتيب العلماء، ابتدأه بآداب النفوس، ولم يتمَّه، وذكر له صاحب هدية العارفين ٦/ ٢٧ كتاب الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة، ولعله هو.

يومَ القيامة على رؤوس الأشهاد بأربَعَةِ أسماء يُنسَبُ إليها: يا كافر، ياخاسر، ياغادر، يافاجر، ضَلَّ عَمَلُك، وبَطَلَ أجرُكَ، فلا خَلاقَ لك اليَوم، فالتَمِس أجرَكَ ممَّن كُنتَ تَعمَلُ له يامُخادِع»[١].

وروى عَلقَمَةُ[٢]، عن عبد الله بن مَسعُود قال: كيفَ أنتُم إذا لَبِسَتْكُم[٣] فِتنةٌ يَربُو فيهاالصَّغِير، ويَهرَمُ الكَبِير، وتُتَّخَذُ سُنَّةٌ مُبتَدَعَةٌ، يجري عليها النَّاسُ، فإذا غُيِّرَ منها شَيءٌ قيل: قد غُيِّرتِ السُّنَّة. قيل: متَى ذلك يا أبا عبد الرَّحمن؟ قال: إذا كَثُر قُرَّاؤكم، وقَلَّ فُقَهاؤكم، وكَثُرَ أُمَراؤكم، وقَلَّ أُمَناؤكم، والتُمِسَتِ[٤] الدُّنيا بعَمَلِ الآخِرة، وتُفُقِّه لِغَيرِ الدِّين[٥].

وقال سُفيانُ بنُ عُيَينَة: بلَغَنا عن ابن عَبَّاس أنَّه قال: لو أنَّ حَمَلَةَ القُرآن أخَذُوه بحَقِّه وما يَنْبَغِي، لأَحَبَّهُمُ الله، ولَكِنْ طَلَبُوا به الدُّنيا، فأَبغَضَهُمُ الله، وهانُوا على النَّاس[٦].

ورُوِي عن أبي جعفر محمَّد بن عليٍّ[٧] في قول الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ

---

(١) المحاربي ـ وهو عبد الرحمن بن محمد ـ وثقه ابن معين والنسائي، وقال أبو حاتم: يروي عن المجهولين أحاديث منكرة. (كذا في التهذيب). وعمرو بن عامر البجلي؛ قال الحافظ في التقريب: مقبول. اهـ يعني حيث يُتابَع، وإلا فليِّن الحديث. وابنُ صدقة ـ وهو صخر ـ لم يُذكر له روايةٌ عن الصحابة، وذكره ابن حبان في الثقات ٨/ ٣٢٢ وقال: يروي المقاطيع. وقد أورد السيوطي هذاالخبر في الدر المنثور ١/ ٣٠، وضعَّفه.

(٢) هو علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي، أبو شبل، فقيه الكوفة ومقرئها، روى عن كثير من الصحابة، توفي سنة (٦٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/ ٥٣.

(٣) في (د) و(ز): لبستم.

(٤) في (د): والتمستم.

(٥) أخرجه الدارمي (١٨٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٢٣)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٢٢٨ من طريق علقمة، عن ابن مسعود. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٤، والدارمي (١٨٥)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥١٤ ـ ٥١٥ من طريق شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود، وهو صحيح إليه.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٢٨.

(٧) هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، مات سنة بضع عشرة ومئة. السير ٤/ ٤٠١.

﴿وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤] قال: قَومٌ وَصَفُوا الحقَّ والعَدلَ بألسنتهم، وخالفوه[١] إلى غيره[٢].

وسيأتي لهذا الباب مَزيدُ بيان في أثناء الكتاب، إن شاء الله تعالى.

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذَ نفسَه به، ولا يغفلَ عنه

فأولُ ذلك أن يُخلِصَ في طَلَبِه لله جَلَّ وعَزَّ، كما ذكرنا، وأن يأخُذَ نفسَه بقراءةِ القرآن في ليله ونهارِه، في الصلاة، أو في غير الصلاة، لئلا ينساه. روى مسلمٌ عن ابنِ عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنما مَثَلُ صاحِبِ القرآنِ كَمَثَلِ صاحِبِ الإبلِ المُعَقَّلَةِ، إن عاهَدَ عَلَيها، أمسَكَها، وإن أطلَقَها ذَهَبَت، وإذا قامَ صاحبُ القرآن، فقرأه بالليل والنهار، ذَكَره، وإذا لم يقم به، نَسِيَه»[٣].

وينبغي له أن يكونَ لله حامداً، وَلنِعَمِه شاكراً، وله ذاكراً، وعليه مُتوكِّلاً، وبه مُستعيناً[٤]، وإليه راغباً، وبه مُعتَصِماً، وللموتِ ذَاكراً، وله مُستعدًّا.

وينبغي له أن يكونَ خائفاً من ذنبه، راجياً عَفوَ ربِّه، ويكونَ الخوفُ في صحته أغلَبَ عليه، إذ لا يَعلمُ بما يُختَمُ له، ويكونَ الرجاءُ عند حضورِ أجَلِه أقوى في نفسه، لِحُسنِ الظَّنِّ بالله، قال رسول الله ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُم إلا وهو يُحسِنُ بالله الظَّنَّ»[٥]. أي أنه يرحمُه ويغفرُ له.

وينبغي له أن يكون عالماً بأهل زمانِه، مُتَحَفِّظاً من سلطانه، ساعياً في خلاصِ نفسِه، ونجاةِ مُهجَتِه، مقدِّماً بين يديه ما يَقدِرُ عليه من عَرَض دنياه، مُجاهِداً لنفسه في ذلك ما استطاع.

وينبغي له أن يكونَ أهمَّ أمورِه عندَه الوَرَعُ في دينه، واستعمالُ تقوى الله ومراقبتُه فيما أمره به، ونهاه عنه.

---

(١) في (د): وخالفوا.

(٢) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٣٨.

(٣) صحيح مسلم (٧٨٩)، وهو في مسند أحمد (٤٦٦٥).

(٤) في (د): مستغيثاً.

(٥) أخرجه أحمد (١٤٤٨١)، ومسلم (٢٨٧٧) وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

وقال ابنُ مسعود: ينبغي لقارىء القُرآنِ أن يُعرَفَ بِلَيلِهِ إذا الناسُ نائمون، وبِنهارِه إذا الناسُ مُفطِرُون[١]، وببكائِه إذا الناسُ يَضحَكون، وَبِصَمتِه إذا الناسُ يَخُوضُون، وبخشوعه[٢] إذا الناسُ يَختالُون، وبِحُزنِه إذا الناسُ يَفرَحُون[٣].

وقال عبد الله بنُ عمرو[٤]: لا ينبغي لحاملِ القرآنِ أن يَخُوضَ معَ مَن يخُوضُ، ولا يجهلَ مع مَن يَجهَلُ، ولكن يعفُو ويصفحُ، لِحقِّ القرآن، لأنَّ في جوفه كلامَ الله تعالى[٥].

وينبغي له أن يأخذَ نفَسه بالتَّصاون عن طُرُق الشُّبُهات، ويُقِلَّ الضحك والكلامَ في مجالس القرآنِ وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذَ نفسَه بالحِلم والوَقار.

وينبغي له أن يتواضعَ للفقراء، ويَتَجنَّبَ التَّكبُّر والإعجابَ، ويَتَجافَى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويتركَ الجِدال والمِراء، ويأخذَ نفسَه بالرِّفق والأدب.

وينبغي له أن يكونَ ممَّن يُؤمَنُ شَرُّه، ويُرجَى خَيرُه، ويُسلَمُ مِن ضَرِّه، وألا يَسمَع ممَّن نَمَّ عندَه، ويُصاحِبَ مَن يُعاونُه على الخير، ويَدُلُّه على الصِّدقِ ومكارم الأخلاق، ويَزِينُه ولايَشِينُه.

وينبغي له أن يتعلمَ أحكامَ القرآن، فيفهمَ عن الله مُرادَه، وما فَرَضَ عليه، فينتفعَ بما يقرأُ، ويعملَ بما يتلُو، فما أقبحَ لحاملِ القُرآن أن يَتلُوَ فرائضَه وأحكامَه عن ظَهرِ قلب، وهو لا يَفهَمُ ما يتلُو، فكيف يعملُ بما لا يَفهَمُ معناه ؟! وما أقبحَ أن يُسألَ عن فِقهِ ما يتلوه ولا يَدرِيه! فما مَثَلُ مَن[٦] هذه حالتُه إلَّا كَمَثَلِ الحمار يَحمِلُ أسفَاراً.

وينبغي له أن يعرفَ المَكِّيَّ منَ المَدَنِيِّ، لِيُفرِّقَ بذلك بين ما خاطب الله به عبادَه

(١) في (م): مستيقظون، وهو خطأ.

(٢) في (م): وبخضوعه.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٥٢، وأحمد في الزهد ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ والآجري في أخلاق حملة القرآن (٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٠٧).

(٤) في (د): عمر.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٥٣ بنحوه أطول منه.

(٦) في النسخ الخطية: فما من، والمثبت من (م).

في أوَّلِ الإسلام، وما نَدَبَهم إليه في آخِرِ الإسلام، وما افترضَ اللهُ في أولِ الإسلام، وما زادَ عليه منَ الفرائض في آخِره. فالمَدَنيُّ هو الناسخُ للمكّيِّ في أكثرِ القرآن، ولا يمكنُ أن يَنسَخَ المَكّيُّ المَدَنيَّ؛ لأن المنسوخَ هو المتقدِّمُ في النزول قبل الناسخ له.

ومِن كمالهِ أن يَعرِفَ الإعرابَ والغَرِيبَ، فذلك مما يُسَهِّلُ عليه معرفةَ ما يقرأُ، ويُزِيلُ عنه الشكَّ فيما يتلُو. وقد قال أبو جعفر الطبريُّ[١]: سمعتُ الجَرمِيَّ[٢] يقول: أنا منذ ثلاثينَ سنةً أُفتي الناسَ في الفقه من كتاب سِيبويه، قال محمد بنُ يزيد[٣]: وذلك أن أبا عمر الجَرمِيَّ كان صاحبَ حديث، فلما عَلِمَ كتابَ سيبويه، تَفَقَّه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يُتعلَّمُ منه النظرُ والتفسير.

ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فبها يصلُ الطالبُ إلى مراد الله عزَّ وجلَّ في كتابه، وهي تفتحُ له أحكام القرآن فتحاً، وقد قال الضَّحَّاك[٤] في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال: حَقٌّ على كلِّ مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ أن يكونَ فَقِيهاً.

وذكر ابنُ أبي الحواريّ[٥] قال: أتينا فُضَيلَ بنَ عِياض[٦] سنة خمس وثمانين ومئة ونحن جماعة، فَوقَفنا على الباب، فلم يَأذَن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خارجاً لشيء، فسيخرجُ لتلاوة القرآن، فأمَرْنا قارئاً فقرأ، فاطَّلعَ علينا من كُوَّة، فقلنا: السلامُ عليك ورحمةُ الله، فقال: وعليكم السلام، فقلنا: كيف أنت يا أبا عليٍّ؟

---

(١) أحمد بن محمد بن رستم الطبري النحوي، كان متصدرا لإقراء النحو. له: غريب القرآن والمقصور والممدود وغيرهما. إنباه الرواة ١/ ١٢٨، وذكر أنه سُمع منه ببغداد سنة (٣٠٤هـ).

(٢) هو صالح بن إسحاق البصري، أبو عمر الجَرمي، إمام العربية، صاحب التصانيف، له: الأبنية، والعروض، وغريب سيبويه وغير ذلك، توفي سنة (٢٢٥هـ). السير ١٠/ ٥٦٠، وقد ذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص٧٤ ـ ٧٥ وذكر له هذه القصة.

(٣) أبو العباس المبرد، البصري، إمام النحو، صاحب الكامل. مات سنة (٢٨٦هـ). السير ١٣/ ٥٧٦، طبقات النحويين واللغويين ص١٠١.

(٤) ابنُ مُزاحم الهلالي، أبو محمد، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وليس بالمجوّد لحديثه، وهو صدوق في نفسه، توفي سنة (١٠٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/ ٥٩٨.

(٥) أحمد بن عبد الله بن ميمون، شيخ أهل الشام، أصله من الكوفة، توفي سنة (٢٤٦هـ). السير ١٢/ ٨٥.

(٦) هو أبو علي التميمي، اليربوعي، الخراساني، توفي سنة (١٨٧هـ). السير ٨/ ٤٢١.

وكيف حالُك ؟ فقال: أنا مِنَ الله في عافية، ومنكم في أذًى، وإنَّ ما أنتم فيه حَدَثٌ في الإسلام، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ما هكذا كنَّا نطلبُ العِلمَ، ولكنَّا كنَّا نأتي المَشيخَةَ، فلا نَرَى أنفسَنا أهلاً للجلوس معهم، فنجلسُ دونَهم، ونَستَرِقُ السَّمعَ، فإذا مَرَّ الحديثُ سألناهم إعادتَه، وقَيَّدناه، وأنتم تطلبون العِلمَ بالجهل، وقد ضَيَّعتُم كتابَ الله، ولو طلبتُم كتابَ الله، لوجدتُم فيه شِفاءً لما تريدون. قال: قلنا[١]: قد تَعَلَّمنا القرآن، قال: إنَّ في تعلُّمكم القرآنَ شُغلاً لأعماركم، وأعمارِ أولادِكم. قلنا: كيف يا أبا عليٍّ ؟ قال: لَن تَعَلَّموا القرآنَ حتى تعرفوا إعرابَه، ومُحْكَمَه من مُتَشابِهِه، وناسِخَهُ مِن مَنسُوخِه، إذا عرفتُم ذلك، استَغنَيتُم عن كلام فُضَيل وابنِ عُيَينَة. ثم قال: أعوذُ بالله السميعِ العليمِ من الشيطان الرجيم[٢]، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

قلت: فإذا حَصلَت هذه المراتبُ لقارىء القرآن، كان ماهراً بالقرآن، وعالِماً بالفُرقان، وهو قريبٌ على مَن قَرَّبَه الله عليه[٣]، ولا ينتفعُ بشيء مما ذكرنا[٤] حتى يُخلِصَ النيةَ فيه للهِ ـ جلَّ ذِكرُه ـ عند طلبه، أو بعدَ طلبه، كما تقدَّم. فقد يبتدئُ الطالبُ للعلم يريدُ به المباهاةَ والشرفَ في الدنيا، فلا يزالُ به فَهمُ العلم حتى يتبيَّنَ أنه على خطأ في اعتقاده، فيتوبَ من ذلك، ويخلصَ النيةَ لله تعالى، فينتفعَ بذلك، ويَحسنَ حالُه. قال الحسن: كنا نطلبُ العلمَ للدنيا، فَجَرَّنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثَّوري[٥]. وقال حبيب بنُ أبي ثابت[٦]: طَلَبنا هذا الأمرَ وليس لنا فيه نِيَّة، ثم جاءتِ النيةُ بعدُ[٧].

---

(١) في (د): قالوا كنا، وفي (ظ): قالوا فعلنا.

(٢) في (د) و(ظ): أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(٣) في (م): قرّبه عليه.

(٤) في (ظ): علم.

(٥) هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله، الكوفي، إمام الحفاظ، توفي سنة (١٢٦هـ). السير ٢٢٩/٧.

(٦) أبو يحيى القرشي، الأسدي مولاهم، فقيه الكوفة، توفي سنة (١١٩هـ). السير ٥/ ٢٩٠.

(٧) المحدث الفاصل للرامهرمزي ص١٨٣، والجامع لأخلاق الراوي (٦٩٨) و(٧٧٧)...(٧٨٢)، وجامع بيان العلم ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

باب ماجاء في إعراب القرآن وتعليمه والحثّ عليه وثوابِ مَن قَرأَ القرآنَ مُعرَباً

قال أبو بكر بنُ الأنباري[١]: جاء عن النبيّ ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم ـ رضوانُ الله عليهم ـ من تفضيلِ إعرابِ القرآن، والحضّ على تعليمِه، وذمِّ اللَّحنِ وكراهيتِهِ، ما وجبَ به على قُرَّاء[٢] القرآن أن يأخذُوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلُّمه[٣].

من ذلك ما حدثنا سليمان بن يحيى[٤] الضَّبِّيُّ قال: حدثنا محمد ـ يعني ابنَ سعدان[٥] ـ قال: حدثنا أبو معاوية، عن عبد الله بن سعيد المَقبُري، عن أبيه، عن جدِّه، عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «أَعرِبُوا القُرآنَ، والتَمِسُوا غَرائِبَه»[٦].

حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بنُ الهيثم قال: حدثنا آدمُ ـ يعنى ابنَ أبي إياس ـ قال: حدثنا أبو الطَّيِّب المَرْوَزيُّ قال: حدثنا عبد العزيز بنُ أبي رَوَّاد، عن نافع، عن ابن عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرأَ القُرآنَ، فلم يُعرِبْهُ، وُكِّلَ به مَلَكٌ، يَكتُبُ له كما أُنزلَ بكلِّ حَرف عَشرَ حَسَنات، فإنْ أَعرَبَ بَعضَه، [ولم يُعربْ بعضَه][٧]، وُكِّلَ به مَلَكانِ، يكتُبانِ له بكلِّ حرف عشرينَ حسنة، فإن أَعرَبَه، وُكِّلَ به أربعةُ أملاك، يكتُبُون له بكلِّ حَرف سَبعينَ حَسَنة»[٨].

---

(١) في كتابه إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٤، وقد نقل عنه المصنف ما أورده في هذا الباب.

(٢) في (ظ): أهل.

(٣) في (ز) و(ظ): تعليمه.

(٤) في النسخ الخطية و (م): يحيى بن سليمان، والتصويب من الإيضاح ١/ ١٥، وترجمته في تاريخ بغداد ٩/ ٦٠، وطبقات القراء ١/ ٣١٧.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ابن سعيد، وهو خطأ. والمثبت من (ظ). وترجمته في تاريخ بغداد ٥/ ٣٢٤، وطبقات القراء ٢/ ١٤٣.

(٦) إسناده ضعيف جداً. عبد الله بن سعيد المقبري متروك الحديث. وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٠٨، وابنُ أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٥٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٩، وقال: صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي بقوله: بل أجمع على ضعفه.

(٧) ما بين حاصرتين من مصادر الحديث.

(٨) إسناده تالف. أبو الطيب المروزي (وهو الحربي) قال ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٦٠: يروي عن عبد العزيز بن أبي روَّاد الأعاجيب، لا يجوز الاحتجاج به بحال. ثم أخرج له هذا الحديث، ونقل=

ورَوَى جُوَيبِر، عن الضَّحَّاك قال: قال عبد الله بنُ مسعود: جَوِّدُوا القرآنَ، وزَيِّنُوه بأحسنِ الأصواتِ، وأعرِبُوه، فإنه عَرَبيٌّ، واللهُ يحبُّ أن يُعرَبَ به.

وعن مجاهد[١]، عن ابن عمر قال: أعرِبُوا القرآنَ.

وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد[٢] قال: قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: لَبَعضُ إعرابِ القرآنِ، أَحَبُّ إلينا مِن حِفظِ حروفِه.

وعن الشعبي قال: قال عمر رحمه الله: مَن قَرَأَ القُرآنَ، فأَعرَبَه، كانَ له عند الله أجرُ شَهِيد.

وقال مكحول[٣]: بلغني أنَّ مَن قَرَأَ بإعراب، كان له مِنَ الأجرِ ضِعفانِ ممَّن قرأ بغير إعراب.

وروى ابنُ جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا[٤] العَرَبَ لثلاث: لأنّي عربيٌّ، والقرآنَ عَربيٌّ، وكلامَ أهلِ الجنة عَرَبيٌّ»[٥].

وروى سفيان، عن أبي حمزة قال: قيل للحسن في قوم يَتَعَلَّمونَ العربيَّة، قال: أحسَنُوا، يتعلَّمون لغةَ نبيِّهم ﷺ[٦].

وقيل للحسن: إن لنا إماماً يَلحَنُ، قال: أَخِّروه.

= الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٤١ قول ابن معين فيه: كان في الحديث كذَّاباً. وأخرجه أيضاً أبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (١١٠).

(١) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، شيخ القراء والمفسرين، أخذ القرآن والتفسير والفقه عن ابن عباس، توفي سنة (١٠٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/ ٤٤٩.

(٢) في إيضاح الوقف والابتدا ص٢٠: عن زيد.

(٣) أبو عبد الله بن أبي مسلم، الدمشقيُّ، عالم أهل الشام، من أقران الزهري، توفي سنة (١١٣هـ) وقيل غير ذلك. السير ٥/ ١٥٥.

(٤) في (د) و(ظ): أحبُّ.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٤٨، والحاكم في المستدرك ٤/ ٨٧، وفي معرفة علوم الحديث ص ١٦١ - ١٦٢، وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٤٨. قال العقيلي: منكر لا أصل له، وقال الحاكم: حديث صحيح، فتعقبه الذهبي بقوله: هو من رواية العلاء بن عمرو الحنفي وليس بعمدة.. وأظن الحديث موضوعاً، وأورد الحديث أيضاً في ميزان الاعتدال ٣/ ١٠٣ وقال: هذا موضوع، قال أبو حاتم: هذا كذب.

(٦) سفيان: هو الثوري، وأبو حمزة: لعله الأعور، واسمه ميمون، والحسن: هو البصري.

وعن ابنِ أبي مُلَيكَةَ قال: قَدِمَ أعرابيٌّ في زمان عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه، فقال: مَن يُقرِئُني مما أُنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأَهُ رجلٌ «براءة»، فقال: «أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله» بالجرِّ، فقال الأعرابيُّ: أوَقَد بَرِئَ الله مِن رسوله؟! فإن يكنِ الله بَرِئَ من رسولِهِ، فأنا أبرأُ منه، فبلغَ عُمرَ مقالةُ الأعرابيِّ، فدعاه، فقال: يا أعرابيُّ، أتبرأُ من رسول الله ﷺ؟! فقال: يا أمير المؤمنين، إني قَدِمتُ المدينةَ، ولا عِلمَ لي بالقرآن، فسألتُ: مَن يُقرِئُني؟ فأقرأني هذا سورةَ براءة فقال: «أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله»، فقلت: أوَقَد بَرِئَ اللهُ مِن رَسولِهِ؟! إن يكنِ اللهُ بَرِئَ من رسولِهِ، فأنا أبرأُ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيُّ، قال: فكيف هي يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، فقال الأعرابيُّ: وأنا واللهِ أبرأُ مما بَرِئَ اللهُ ورسولُه منه. فأمر عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه ألا يُقرِئَ الناسَ إلا عالِمٌ باللغةِ، وأمرَ أبا الأسودِ، فوضَع النَّحو.

وعن عليِّ بنِ الجَعد[١] قال: سمعتُ شُعبةَ[٢] يقول: مَثَلُ صاحِبِ الحديثِ الذي لا يعرفُ العربية، مَثَلُ الحمار، عليه مِخلاةٌ، لا عَلَفَ فيها.

وقال حمَّاد بنُ سَلَمة[٣]: مَن طَلَبَ الحديثَ، ولم يتعلَّمِ النَّحو - أو قال: العربية - فهو كَمَثَلِ الحمارِ، تُعلَّقُ عليه مِخلاةٌ، ليس فيها شعير[٤].

قال ابنُ عَطِيَّة: إعرابُ القرآنِ أَصلٌ في الشَّريعة، لأنَّ بذلك تَقومُ[٥] معانيه التي هي الشَّرع[٦].

---

(١) هو أبو الحسن البغدادي، الجوهري، مُسند بغداد، توفي سنة (٢٣٠هـ). السير ١٠/ ٤٥٩.

(٢) هو شعبة بن الحجاج، أبو بسطام الأزدي العتكي مولاهم، الواسطي، عالم أهل البصرة. توفي سنة (١٦٠هـ). السير ٧/ ٢٠٢.

(٣) أبو سلمة البصري، الإمام، النحوي، ابن أخت حُميد الطويل، توفي سنة (١٦٧هـ). السير ٧/ ٤٤٤.

(٤) أخرج الأخبار السالفة ابنُ الأنباري في الوقف والابتداء ١/ ١٥ - ٦١ ونقلها المصنف عنه كما صرح به أول الباب.

(٥) في (ظ): ذلك يقوم.

(٦) المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) ١/ ٤٠، ومؤلفه: هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية. توفي سنة (٥٤١هـ) وقيل: (٥٤٢). السير ١٩/ ٥٨٧.

قال ابنُ الأنباريِّ[١]: وجاء عن أصحابِ النبيِّ ﷺ وتابعيهم رضوانُ الله عليهم من الاحتجاجِ على غريب القرآن ومُشكِلِه باللغةِ والشِّعر، ما بَيَّنَ صحةَ مذهبِ النَّحوِيين في ذلك، وأوضحَ فسادَ مَذهبِ مَن أنكرَ ذلك عليهم.

من ذلك ما حدَّثنا عُبَيدُ بنُ عبد الواحد بنِ شَريك البزاز قال: حدَّثنا ابنُ أبي مريم قال: أنبأنا ابنُ فَرُّوخ قال: أخبرني أسامة قال: أخبرني عكرمة أنَّ ابنَ عباس قال: إذا سألتموني عن غَريبِ القرآنِ، فالتَمِسُوه في الشِّعر، فإن الشِّعر ديوانُ العرب.

وحدثنا إدريس بنُ عبد الكريم قال: حدثنا خَلَفٌ قال: حدثنا حمَّاد بنُ زيد، عن عليِّ بن زيد بن جُدعان قال: سمعتُ سعيدَ بنَ جُبَير ويوسفَ بنَ مِهرانَ يقولان: سمعنا ابنَ عباس يُسألُ عن الشيء من القرآن، فيقول فيه كذا وكذا، أما سمعتم الشاعر يقول فيه كذا وكذا[٢].

وعن عكرمة، عن ابن عباس، وسأله رجلٌ عن قوله الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] قال: لا تَلبَس ثيابَك على غَدر، وتَمثَّلَ بقول غَيلانَ الثَّقفيِّ[٣]:

فإنِّي بحَمدِ الله لا ثوبَ غادِرٍ لَبِستُ ولا مِن سَوأة أَتقَنَّعُ[٤]

وسأل رجل عِكرِمَةَ عن الزَّنِيم، فقال[٥]: هو ولدُ الزِّنَى، وتمثَّلَ ببيت شعر:

زَنِيمٌ ليس يُعرفُ مَن أبوه بَغِيُّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لئيم[٦]

وعنه[٧] أيضاً: الزَّنيم: الدَّعِيُّ الفاحش اللئيم، ثم قال:

---

(١) في الوقف والابتداء ١/ ٦١. وما بعدها، مما نقله عنه المصنف حتى آخر الباب.

(٢) في (م): يُسألُ عن الشيء بالقرآن، فيقول فيه هكذا وهكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا. والمثبت من النسخ، غير قوله: فيقول فيه كذا وكذا، فمن إيضاح الوقف والابتداء ص٦٢.

(٣) هو غَيلانُ بنُ سَلَمة بن معتب بن مالك الثقفي، أسلم بعد فتح الطائف، ولم يهاجر، وهو شاعر مقلّ، وقد روى عنه ابنُ عباس شيئاً من شعره. الأغاني ١٣/ ٢٠٠، والإصابة ٨/ ٦٣.

(٤) ذكره ابنُ قتيبة في تفسير غريب القرآن ص٤٩٥ عند الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، وكذا الطبري ٢٣/ ٤٠٦، والماوردي ٦/ ١٣٦، وابن منظور في اللسان (طهر).

(٥) في (ظ) و(م): قال.

(٦) ذكره الطبري عند تفسير قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ ٢٣/ ١٦٤.

(٧) أي: عن عكرمة، والخبر في الإيضاح ص٦٥: عن عكرمة عن ابن عباس.

زَنِيمٌ تداعاهُ الرِّجالُ زيادةً كما زِيد في عَرضِ الأدِيم أكارعُه[١]

وعنه في قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] قال: ذواتا ظلٍّ وأغصان، ألم تسمع إلى قول الشاعر:

ما هاجَ شوقَكَ من هَدِيلِ حمامةٍ تَدعُو على فَنَنِ الغُصونِ حَماما

تَدعُو أبا فَرْخَيْنِ صادَفَ طائراً ذا مِخْلَبَيْنِ من الصُّقور قَطاما[٢]

وعن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] قال: الأرض. قال[٣] ابن عباس: وقالَ أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلت[٤]:

عِندَهُم لحمُ بحرٍ ولحمُ ساهِرة

قال ابنُ الأنباريِّ: والرواة يروون هذا البيت:

وفيها لحمُ ساهِرة وبَحرٍ وما فاهُوا به لهُمُ مُقِيمُ[٥]

وقال نافع بن الأزرق[٦] لابن عباس: أخبرني عن قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ

---

(١) كذا في النسخ الخطية، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ٦٥ (والكلام منه)، ووقع في حاشيته وفي المصادر الآتية: الأكارع. وقد ذكره المبرد في «الكامل» ٣/ ١١٤٦، وابن عطية في تفسيره ٥/ ٣٤٨ ونسباه إلى حسان بن ثابت، وذكره ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣٦١)، وابن بري (كما في اللسان) (زنم) ونسباه إلى الخطيم التميمي.

(٢) ذكرهما الطبري في التفسير ٢٢/ ٢٤٠، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٣٨، ونسبهما الأصفهاني في الأغاني ١٤/ ٢٦٢ لثابت قطنة. وعندهما: صادف ضارياً، وأورد الأول منهما ابن منظور في اللسان (هدل) عن ابن بري.

(٣) في (م): قاله، وهو خطأ.

(٤) شاعر جاهليٌّ أدرك الإسلام ولم يُسلِم. قال ابنُ قُتيبة في الشعر والشعراء ص٤٥٩: قد كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عز وجل، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبياً يُبعث قد أظلَّ زمانه، ويؤمِّل أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ وقصتُه، كفرَ حَسَداً له. وذكر البغدادي في خزانته ١/ ٢٥٢ أنه مات في السنة التاسعة، وقال: لم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً. اهـ. وقد أنشد الشَّريدُ بنُ سُوَيد رسولَ الله ﷺ مئة بيت من شعر أمية. كما في صحيح مسلم (٢٢٥٥). فقال رسول الله ﷺ: «إن كادَ لَيُسلِمُ».

(٥) البيت في ديوانه ص ١٢١. وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٧٤، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٦، وسيكرر المصنف هذا البيت وما سلف من الأبيات قبله في المواضع من الآيات المذكورة.

(٦) من رؤوس الخوارج، وإليه تنسب طائفة الأزارقة، وكان قد خرج في أواخر دولة يزيد بن معاوية. له أسئلة عن ابن عباس، أخرج الطبراني بعضها في الكبير. لسان الميزان ٦/ ١٤٤.

سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ما السِّنة ؟ قال: النُّعاس، قال زُهير بنُ أبي سُلمَى[١]:

لاسِنَةٌ في طَوالِ اللَّيلِ[٢] تأخُذُهُ ولا ينامُ ولا في أمرِه فَنَدُ

باب ماجاء في فضل تفسير القرآنِ وأهلهِ

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين:

فمن ذلك أن عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابرَ بنَ عبد الله، ووصفَه بالعلم، فقال له رجل: جُعلتُ فداءك، تصف جابراً بالعلم، وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

وقال مجاهد: أَحَبُّ الخلق إلى الله تعالى أعلمُهم بما أُنزل.

وقال الحسن: والله ما أَنزلَ الله آيةً إلا أَحَبَّ أن يُعلم فيما[٣] أُنزلت، وما يَعني بها.

وقال الشعبيُّ: رَحَلَ مسروق[٤] إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: إن الذي يُفسِّرُها رَحَلَ إلى الشام[٥]، فَتَجَهَّزَ، ورَحَلَ إلى الشام حتى عَلِمَ تفسيرَها[٦].

وقال عكرمة[٧] في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠]: طلبتُ اسمَ هذا الرجلِ أربعَ عَشرةَ سنة حتى وجدتُه[٨].

---

(١) شاعر جاهلي، لم يدرك الإسلام، وكان من المقدَّمين على سائر الشعراء. الشعر والشعراء ١/ ١٤١.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٨: في طوال الدهر.

(٣) في (د) و(ز): أعلم فيمن.

(٤) ابن الأجدع، أبو عائشة الوادعي، الهمداني، الكوفي، عداده في كبار التابعين وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ، توفي سنة (٦٢هـ) وقيل: سنة (٦٣هـ). السير ٤/ ٦٣.

(٥) في (د): رجل بالشام.

(٦) أورد ابن عطية هذه الأخبار في تفسيره ١/ ٤٠.

(٧) أبو عبد الله القرشي مولاهم، المدني، البربري الأصل، الحافظ المفسر، لازم ابن عباس وأخذ عنه العلم، توفي سنة (١٠٥هـ). السير ٥/ ١٢.

(٨) أورده ابنُ عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ضمرة بن العيص بن ضمرة (بهامش الإصابة ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

وقال ابنُ عبد البَرّ: هو ضَمرَةُ[١] بنُ حَبِيب، وسيأتي[٢].

وقال ابن عباس: مَكَثتُ سَنَتَين[٣] أُريد أن أسألَ عُمرَ عن المرأتين اللتَينِ تَظاهَرَتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابتُه، فسألتُه، فقال: هي حفصة وعائشة.

وقال إياس بن معاوية[٤]: مَثَلُ الذين يقرؤون القرآنَ وهم لا يعلمون تفسيرَه، كمَثَل قوم جاءهم كتابٌ من مَلِكِهم ليلاً، وليس عندَهم مصباح، فتدَاخلَتهُم رَوْعَة، ولا يَدْرُون ما في الكتاب، ومَثَلُ الذي يعرفُ التفسيرَ كَمَثلِ رجل جاءهم بمصباح، فقرؤوا ما في الكتاب.

باب ما جاء في حامل القرآن، ومَن هو، وفيمن عاداه

قال أبو عمر[٥]: رُوِيَ من وجوه فيها لِينٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مِن تَعظيم جَلالِ الله إكرامُ ثلاثة: الإمام المُقسِطِ، وذي الشَّيبةِ المُسلمِ، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه، ولا الجافي عنه»[٦].

وقال أبو عمر: وحَمَلَةُ القرآنِ هم العالِمونَ بأحكامِه، وحَلالِهِ وحَرامِه، والعامِلُون بما فيه. ورَوَى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «القُرآنُ أفضلُ من كلِّ شيء، فَمَن

---

(١) في (ز) و(ظ): ضميرة.

(٢) سيذكر المصنف الاختلاف في اسمه عند تفسير الآية المذكورة من سورة النساء، وينظر الإصابة ٥/ ١٩٧ ترجمة ضمرة بن ابي العيص.

(٣) في (ظ): سنين، وفي صحيح البخاري (٤٩١٣) وصحيح مسلم (١٤٧٩): مكثت سنة.

(٤) أبو واثلة قاضي البصرة، كان يُضرب به المَثَلُ في الدهاء والعقل، توفي سنة (١٢١هـ). السير ٥/ ١٥٥. وقد أورد ابن عطية قوله في المحرر الوجيز ١/ ٤٠.

(٥) هو ابنُ عبد البر، ولعل قوله هذا في كتابه البيان عن تلاوة القرآن، الذي ذكره هو في الاستذكار ٨/ ٢٤ و٢٦، والذهبي في السير ١٨/ ١٥٩.

(٦) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري: البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٥٧)، وأبو داود (٤٨٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٨٥) و(١٠٩٨٦)، وحسَّنه الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٦٥، والنووي في التبيان ص٣٤. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٦٧٣٢)، وابنُ عدي في الكامل ٤/ ١٥٩٦، والبيهقي في الشعب (٢٦٨٧) من حديث جابر. وأخرجه البيهقي في الشعب أيضاً من حديث ابن عمر موقوفاً. وأخرجه الفريابي في فضائل القرآن (٩١) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز مرسلاً.

وَقَّرَ القرآنَ، فقد وَقَّرَ الله، ومَنِ استَخَفَّ بالقرآن، استَخَفَّ بحقِّ الله تعالى، حَمَلَةُ القُرآنِ هم المحفُوفُون[١] برحمةِ الله، المُعظِّمون كلامَ الله، المُلبَسون نورَ الله، فَمن وَالَاهم فقد وَالَى الله، ومن عاداهم فقدِ استخفَّ بحقِّ الله تعالى»[٢].

باب ما يلزمُ قارىءَ القرآنِ وحاملَه من تعظيم القرآنِ وحُرمَتِه

قال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[٣]: فَمِن حُرمَةِ القرآن ألَّا يَمَسَّه إلا طاهراً.

ومِن حُرْمَتِه أن يقرأه وهو على طهارة.

ومِن حُرْمَتِه أن يَستاكَ ويتخلَّلَ، فيُطَيِّبَ فاهُ، إذ هو طريقُه. قال يزيد بن أبي مالك[٤]: إن أفواهَكم طُرُقٌ من طرقِ القرآن، فَطَهِّرُوها ونَظِّفُوها ما استطعتُم.

ومن حُرْمَتِه أن يستويَ له قاعداً إن كان في غير صلاة، ولا يكون متكئاً[٥].

ومِن حُرْمَتِه أن يَتَلَبَّسَ له[٦]، كما يَتَلَبَّسُ للدخول على الأمير، لأنه مُناجٍ.

ومِن حُرْمَتِه أن يستقبلَ القِبلَةَ لقراءته. وكان أبو العالية[٧] إذا قرأ اعتَمَّ، ولبسَ وارتَدَى، واستقبلَ القِبلَةَ.

---

(١) في مصادر الحديث: المخصوصون.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٤٢ (في ترجمة داود بن محمد المعيوفي الحجوري) وفي إسناده أكثرُ من علة، وأورده ابن عراق الكناني في تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٤، وقال: فيه علي بن الحسن السامي. اهـ. وعليٌّ هذا؛ قال ابن حبان في المجروحين: لا يحل كتابة حديثه إلا على سبيل التعجب، وقال ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٥٤: ضعيف جداً. وانظر كشف الخفا ١/ ٢٠.

(٣) في الأصل (٢٥٣) منه، ص ٣٣٣.

(٤) يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك الهمداني، قاضي دمشق في عهد هشام بن عبد الملك، توفي سنة (١٣٠هـ). السير ٥/ ٤٣٧، وقوله هذا الذي أورده له المصنف ليس في المطبوع من نوادر الأصول، وهو في الرعاية لمكي ص٨٢.

(٥) قوله: ومن حرمته أن يستوي له قاعداً... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٦) لفظة: له، ليست في (م).

(٧) هو رُفَيعُ بنُ مِهران، أبو العالية الرِّياحي البصري، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي ﷺ بسنتين، مات سنة تسعين. تهذيب الكمال ٩/ ٢١٤.

ومن حُرْمَتِه أن يتمضمضَ كلَّما تنخَّع. روى شعبةُ، عن أبي حمزة[١]، عن ابن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْر[٢]، إذا تَنَخَّع مَضمَضَ، ثم أخَذَ في الذِّكر، وكان كلَّما تنخَّعَ مَضمَضَ.

ومِن حُرْمَتِهِ إذا تثاءَبَ أن يُمسِكَ عن القراءة، لأنه إذا قرأ، فهو مُخاطِبٌ ربَّه ومُناجٍ، والتثاؤبُ من الشيطان.

قال مجاهد: إذا تَثاءَبتَ وأنتَ تقرأُ القرآن، فأمسِك عن القرآن[٣] تعظيماً حتى يذهبَ تثاؤبُك. وقاله عكرمة. يريدُ أنَّ في ذلك الفعل إجلالاً للقرآن.

ومن حُرْمَتِهِ أن يستعيذَ بالله عند ابتدائهِ للقراءةِ من الشيطانِ الرجيم، ويقرأ «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» إن كانَ ابتدأَ قراءَته من أولِ السورةِ، أو من حيثُ بلَغَ.

ومن حُرْمَتِه إذا أخذَ بسورة، لم يشتغل بشيء حتى يَفرَغَ منها إلا من ضرورة[٤].

ومِن حُرْمَتِه إذا أخذَ في القراءة، لم يَقطَعها ساعة فساعة بكلامِ الآدميين من غير ضرورة.

ومِن حُرْمَتِه أن يَخلُوَ بقراءتهِ حتى لا يقطعَ عليه أحدٌ بكلام، فيخلِطَه بجوابه، لأنه إذا فعل ذلك، زالَ عنه سلطانُ الاستعاذةِ الذي استعاذ في البَدء.

ومِن حُرْمَتِه أن يقرأه على تُؤَدَة وتَرسِيل[٥] وترتيل.

ومن حُرْمَتِه أن يستعملَ فيه ذِهنَه وفَهمَه حتى يَعقِلَ ما يُخاطَبُ به.

ومن حُرْمَتِه أن يقفَ على آيةِ الوَعدِ، فيرغَبَ إلى الله تعالى، ويسألَه من فضلِه، وأن يقفَ على آيةِ الوَعيد، فيستجيرَ بالله منه.

ومن حُرْمَتِه أن يقفَ على أمثاله، فَيمتَثِلَها.

ومن حُرْمَتِه أن يلتمسَ غَرائبَه.

---

(١) هو عمران بن أبي عطاء الأسدي، أبو حمزة القصاب، الواسطي، قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: صدوق له أوهام.

(٢) التَّور إناء يُشرب فيه.

(٣) في (ز) و(د): القراءة.

(٤) قوله: ومن حرمته إذا أخذ بسورة... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٥) التَّرسِيلُ في القراءة: الترتيل. القاموس (رسل).

ومن حُرْمَتِه أن يُؤدِّيَ لكلِّ حرف حقَّه من الأداءِ، حتى يبرزَ الكلامُ باللفظ تماماً، فإنَّ له بكلِّ حرف عَشرَ حسنات.

ومن حُرْمَتِه إذا انتَهت قراءتُه، أن يُصَدِّقَ ربَّه، ويَشهَدَ بالبلاغِ لرسولهِ ﷺ، ويَشهدَ على ذلك أنه حقٌّ، فيقولَ: صَدَقتَ ربَّنا، وبَلَّغَتْ رُسُلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين، اللهمَّ اجعَلنا من شهداءِ الحقِّ، القائمين بالقِسط. ثم يدعوَ بدعوات.

ومِن حُرْمَتِه إذا قرأه ألا يَلتَقِطَ الآيَ من كلِّ سورة، فيقرأَها، فإنه رُوِيَ لنا عن رسول الله ﷺ أنه مَرَّ ببلال وهو يقرأُ من كلِّ سورة شيئاً، فأَمَرَه أن يقرأَ السورةَ كلَّها[1]. أو كما قال عليه السلام.

ومِن حُرْمَتِه إذا وَضَعَ المصحفَ[2] ألا يتركَه منشوراً، وألا يضعَ فوقَه شيئاً من الكُتبِ، حتى يكونَ أبداً عالياً لسائرِ الكتبِ، عِلماً كان أو غيرَه.

ومن حُرْمَتِه أن يضعَه في حِجرِه إذا قرأه، أو على شيء بين يديه، ولا يضعَه بالأرض.

ومن حُرْمَتِه ألا يمحوَه من اللَّوح بالبُصاق، ولكن يغسِلُه بالماء.

ومِن حُرْمَتِه إذا غَسَلَه بالماء، أن يَتَوَقَّى النجاساتِ من المواضعِ والمواقع التي تُوطَأُ، فإنَّ لتلك الغُسالة حُرمةً، وكان مَن قَبلَنا مِنَ السلفِ، منهم مَن يستشفي بغُسالَتِه.

ومِن حُرْمَتِه ألا يتخذَ الصحيفةَ إذا بَلِيَت ودَرَسَت وقايةً للكتب، فإنَّ ذلك جفاءٌ عظيم، ولكن يمحوها بالماء.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُخلِيَ يوما من أيامه من النظرِ في المصحف مَرَّة، وكان أبو موسى [الأشعريُّ] يقول: إني لأستحيي ألا أنظرَ كلَّ يومٍ في عهدِ ربي مَرَّة.

ومِن حُرْمَتِه أن يُعطِيَ عينَيه حظَّهما منه، فإنَّ العينَ تؤدي إلى النفس، وبين النفس

(١) في النسخ الخطية: أن يقرأ على السور، والمثبت من (م)، وفي نوادر الأصول ص٣٣٣ (والكلام منه): يقرأ السور كلها، وأخرج الخبر ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٥٣٢ و١٠/ ٥٥١. ٥٥٢. عن سعيد بن المسيب وزيد بن يُثيع مرسلاً وفيه: السورة على نحوها.

(٢) في النسخ الخطية: الصحيفة، والمثبت من (م).

والصَّدر حجابٌ، والقرآنُ في الصدر، فإذا قرأه عن ظهرِ قلب، فإنما يُسمِعُ أذنَه، فتؤدِّي إلى النفس، فإذا نَظَرَ في الخطِّ، كانت العينُ والأذنُ قد اشترَكتا في الأداءِ، وذلك أوفرُ للأداء، وكانت العين قد أخذت حظَّها[١] كالأذن. رَوَى زيدُ بنُ أسلمَ[٢]، عن عطاء بن يَسار[٣]، عن أبي سعيد الخُدرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطُوا أعيُنَكم حَظَّها من العبادةِ». قالوا: يارسول الله، وما حظُّها من العبادة؟ قال: «النَّظَرُ في المصحفِ، والتفكُّرُ فيه، والاعتبارُ عند عجائبِهِ»[٤]. ورَوَى مكحولٌ، عن عُبَادةَ بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضَلُ عبادةِ أُمتي قراءةُ القرآن نظراً»[٥].

ومِن حُرْمَتِهِ ألا يتأوَّلَه عندما يَعرِضُ له شيءٌ من أمر الدنيا. حدثنا عمرو بنُ زياد الحنظليُّ قال: حدثنا هُشَيمُ بنُ بَشِير، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: كان يكره أن يُتأوَّلَ شيءٌ من القرآن عندما يَعرِضُ له شيءٌ من أمر الدنيا[٦]. والتأويلُ: مثلُ قولك للرجل إذا جاءك: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] هذا عند حضور الطعام، وأشباهِ هذا.

ومِن حُرْمَتِهِ ألا يقال: سورة كذا، كقولك: سورةُ النحل، وسورة البقرة، وسورة النساء، ولكن يقال: السورة التي يُذكر فيها كذا.

قلت: هذا يعارضُه قولُه ﷺ: «الآيتانِ مِن آخِرِ سورةِ البقرةِ، مَن قَرَأَ بهما في ليلة

---

(١) في (د) و(ز) و(م): وكان قد أخذت العين حظها، والمثبت من (ظ).

(٢) أبو عبد الله العدوي، العمري، المدني، الفقيه، حدث عن جمع من الصحابة، وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن، توفي سنة (١٣٦هـ). السير ٥/ ٣١٦.

(٣) المدني، مولى ميمونة، كان فقيهاً واعظاً ثبتاً، وهو أخو سليمان بن يسار، توفي سنة (١٠٣هـ)، ويقال: قبل المئة. السير ٤/ ٤٤٨.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٢) وقال: إسناده ضعيف. وضعفه أيضا الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ٤٢٤.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٢) (دون قوله: نظراً) من حديث النعمان بن بشير، ونسبه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ٢٧٣ إلى أبي نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن أنس، وضعفه.

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٥٨ عن هشيم، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٥١٥ عن جرير، عن مغيرة بنحوه. هُشَيم: هو ابنُ بشير، ومُغيرة: هو ابنُ مِقسَم الضَّبِّي.

كَفَتَاه». خرَّجه البخاريُّ ومُسلم، من حديث عبد الله بن مسعود[١].

ومِن حُرْمَتِهِ ألا يُتلَى منكوساً، كفعل مُعلِّمي الصِّبيان، يلتمسُ أحدُهم بذلك أن يُرِيَ الحِذقَ من نفسه والمَهارَة، فإن تلك مَجانَة[٢].

ومِن حُرْمَتِهِ ألا يُقَعِّرَ في قراءته، كفعلِ هؤلاء الهمزيِّين المبتدعين، المتنطِّعين في إبرازِ الكلام من تلك الأفواه المنتِنة تكلُّفاً، فإن ذلك مُحدَثٌ، ألقاه إليهمُ الشيطانُ فقَبِلُوه عنه[٣].

ومِن حُرْمَتِه ألا يقرأه بألحانِ الغِناءِ، كلحونِ أهلِ الفِسق[٤]، ولا بترجيعِ النَّصارى، ولا نَوحِ الرَّهبانيَّة، فإنَّ ذلك كلَّه زَيغٌ. وقد تقدَّم[٥].

ومن حُرْمَتِه أن يجلل تخطيطَه إذا خطَّه. وعن أبي حُكَيمَة أنه كان يكتبُ المصاحف بالكوفة، فمر عليٌّ رضي الله عنه، فنظرَ إلى كتابتهِ، فقال له: أُجْلُ[٦] قَلمَكَ، فأخذتُ القلمَ فقَطَطتُه[٧] من طَرَفِهِ قَطًّا، ثم كتبتُ وعليٌّ رضي الله عنه قائمٌ ينظرُ إلى كتابتي، فقال: هكذا، نَوِّرْه كما نوَّرَه الله عزَّ وجلَّ[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٠٨)، وصحيح مسلم (٨٠٧).

(٢) من المُجون، وهو قلة الحياء وخلط الجدّ بالهزل، ووقع في (م): مخالفة.

(٣) في (د) و(ظ): فتلقوه عنه، والمثبت من (م)، ومن قوله: ومن حرمته ألا يقعر في قراءته... إلى هذا الموضع، لم يرد في المطبوع من نوادر الأصول. والمقصود بالهمزيين مَن يَغلُون في تلاوتهم لحمزة، وقد نقل الذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ ١٧٥ عن الإمام حمزة قوله: إن لهذا التحقيق حدًّا ينتهي إليه، ثم يكون قبيحاً، وعنه قال: إنما الهمز رياضة، فإذا حسَّنَها الرجل سَهَّلَها. اهـ ثم ذكر الذهبي أن الإجماع انعقد على ثبوت قراءة حمزة وصحتها، وقال: وبالجملة إذا رأيتَ الإمامَ في المحراب لَهِجا بالقراءات، وتَتَبُّع غريبها، فاعلم أنه فارغٌ من الخشوع، مُحِبٌّ للشهرة والظهور، نسأل الله السلامة في الدين. وانظر جمال القراء لعلم الدين السخاوي ٢/ ٥٦٥ ـ ٥٧٤.

(٤) في (ظ): العشق.

(٥) ص٣١ ـ ٣٢.

(٦) في نوادر الأصول ص٣٣٤ (والكلام منه): اجلل.

(٧) في (ظ) ونوادر الأصول ص٣٣٤: فقططت.

(٨) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٤٣، وابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤، والدولابي في الكنى ١/ ١٥٥، والبيهقي في الشعب (٢٦٦٣). أبو حُكَيمة ـ بالتصغير كما في تبصير المنتبه ١/ ٤٥٠ ـ هو عِصمة البصري. وجاء عند الدولابي: فقططتُ من قلمي ثم كتبت أجلى من ذلك... وترجم له أبو عبيد بقوله: باب كتابة المصاحف، وما يستحب من عظمها، ويكره من صغرها. اهـ وقوله: فقططتهُ، يعني قَطَعَهُ عرضاً.

ومن حُرْمَتِه ألا يَجهَرَ بعضٌ على بعض في القراءة، فيفْسدَ عليه، حتى يُبغِّضَ إليه ما يسمع، ويكونَ كهيئةِ المُغالبةِ.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُمارِيَ، ولا يجادلَ فيه في القراءات، ولا يقولَ لصاحبه: ليس هكذا هو، ولعله أن تكونَ تلك القراءةُ صحيحةً جائزةً من القرآن، فيكونَ قد جحدَ كتابَ[1] الله.

ومِن حُرْمَتِه ألا يقرأ في الأسواقِ، ولا في مواطن اللَّغَط واللَّغو، ومَجمَعِ السفهاء، ألا تَرَى أنَّ الله تعالى ذَكَرَ عبادَ الرَّحمن، وأثنى عليهم، بأنَّهم إذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِراماً ؟! هذا لمرورِه بنفسهِ، فكيف إذا مَرَّ بالقرآن الكريمِ تلاوةً بين ظَهرانَي أهلِ اللَّغو ومجمعِ السفهاء ؟!

ومِن حُرْمَتِه ألا يَتوسَّدَ المصحفَ، ولا يَعتمِدَ عليه، ولا يَرمِيَ به إلى صاحبه إذا أرادَ أن يُناوِلَه.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُصَغِّرَ المصحفَ. روى الأعمش، عن إبراهيم، عن علي رضي الله عنه قال: لا يُصغَّرُ المصحف[2].

قلت: ورُوي عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفاً صغيراً في يد رجل، فقال: مَن كتبَه ؟ قال: أنا، فضرَبَه بالدِّرَّة، وقال: عَظِّمُوا القرآن[3]. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يقال: مُسَيْجِد، أو مُصَيْحِف[4].

ومِن حُرْمَتِه: ألا يخلطَ فيه ما ليس منه.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُحَلَّى بالذَّهبِ، ولا يُكتبَ بالذَّهب، فتُخلَطَ به زينةُ الدنيا. وروى مغيرةُ، عن إبراهيم[5]، أنه كان يكرهُ أن يُحَلَّى المصحفُ، أو يُكتَبَ بالذهبِ، أو

---

(١) في (ظ): كلام.

(٢) أخرج نحوه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٤٤.

(٣) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص٢٤٣.

(٤) لم يصح مرفوعاً، فيما ذكر ابن عدي في الكامل ١/ ٣٢٥، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٥٤٤، وابن أبي داود في المصاحف ١٥٢ ـ ١٥٣، والبيهقي في الشعب من قول مجاهد، وأخرجه ابن أبي داود أيضاً في المصاحف ص١٥٣ من قول إبراهيم النخعي. وينظر ميزان الاعتدال ١/ ٢٠٠، و٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ترجمة إسحاق بن نجيح الملطي، وعيسى بن إبراهيم بن طهمان.

(٥) مغيرة: هو ابنُ مِقسَم الضَّبِّي، وإبراهيم: هو ابن يزيد النخعي.

يعلَّم عند رؤوس الآي، أو يُصَغَّرَ. وعن أبي الدرداء قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا زَخْرَفتُم مَساجِدَكم وحَلَّيتُم مَصاحِفَكم، فالدَّبارُ عليكم»[١]. وقال ابن عباس وقد رأى مصحفاً زُيِّنَ بفضَّة: تُغْرُونَ به السارقَ، وزينتُه في جوفه.

ومن حُرْمَتِه ألا يُكتبَ على الأرض، ولا على حائط، كما يُفعل بهذه[٢] المساجد المُحْدَثَة. حدثنا محمد بنُ علي الشَّقيقيُّ، عن أبيه، عن عبد الله بن المبارك، عن سفيانَ، عن محمد بن الزبير قال: سمعتُ عمرَ بن عبد العزيز يحدثُ قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ بكتاب في أرض، فقال لشابٍّ من هُذَيل: «ما هذا؟» قال: من كتاب الله، كتبه يهوديٌّ، فقال: «لعنَ اللهُ مَن فعلَ هذا، لا تضعوا كتابَ اللهِ إلا مَوضِعَه»[٣]. قال محمدُ بن الزبير: رأى عمرُ بنُ عبد العزيز ابناً له يكتبُ القرآنَ على حائط، فضربَه.

ومن حُرْمَتِه أنه إذا اغتَسَلَ بكتابته مُستشفياً من سَقَم، ألا يَصُبَّه على كُناسَة، ولا في موضع نجاسة، ولا على موضع يُوطَأ، ولكن ناحية من الأرض في بُقعة، لا يطؤه الناس، أو يَحفِرَ حَفِيرة في موضع طاهر حتى ينصبَّ من جسده في تلك الحَفيرة، ثم يَكبِسُها، أو في نهرٍ كبير يختلطُ بمائه، فيجري.

ومِن حُرْمَتِه أن يَفتَتِحَه كلَّما ختمَه، حتى لا يكونَ كهيئة المهجور، وكذلك كان رسولُ الله ﷺ إذا ختمَ، يقرأُ من أوَّل القرآنِ قَدرَ خَمسِ آيات، لئلا يكونَ في هيئة المهجور[٤]. وروى ابنُ عباس قال: جاء رجلٌ، فقال: يارسولَ الله، أيُّ العمل أفضلُ؟ قال: «عليك بالحالِّ المُرتَحِل». قال: وما الحالُّ المُرتَحِلُ؟ قال: «صاحِبُ القرآن، يَضرِبُ من أوَّلِه حتى يَبلُغَ آخِرَه، ثم يَضرِبُ في أوَّله، كلَّما حَلَّ ارتَحَلَ»[٥].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٩٧)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٤٢، وابن أبي داود في المصاحف ص١٥٠ عن أبي الدرداء موقوفاً. قال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص٢٥: لا يصح رفعه. اهـ قوله: الدَّبار، بالفتح: الهلاك. النهاية (دبر).

(٢) في (م): به في.

(٣) إسناده ضعيف جداً. محمد بن الزبير ـ وهو الحنظلي ـ متروك، ثم إن الخبر مرسل، فعمر بن عبد العزيز ـ أمير المؤمنين ـ من التابعين.

(٤) ذكر نحوه مكي في الرعاية ص٥٦.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٩٤٨)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٦٠، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٠١). قال الترمذي: حديث حسن غريب... وإسناده ليس بالقوي. =

قلتُ: ويستحبُّ له إذا ختم القرآنَ أن يَجمَعَ أهلَه:

ذكر أبو بكر الأنباري: أنبأنا إدريسُ، حدثنا خَلَف، حدثنا وكيعٌ، عن مِسعَر، عن قتادةَ، أن أنسَ بن مالك كان إذا ختم القرآنَ، جمع أهلَه، ودعا[١]. وأخبرنا إدريسُ، حدثنا خَلَفٌ، حدثنا جريرٌ، عن منصور، عن الحَكَم قال: كان مجاهدٌ وعَبْدَةُ بنُ أبي لُبابَةَ[٢] وقومٌ يَعرِضُون المصاحفَ، فإذا أرادُوا أن يَختِمُوا، وجَّهُوا إلينا: أحضُرُونا، فإنَّ الرحمةَ تَنزِلُ عند خَتم القرآن[٣]. وأخبرنا إدريسُ، حدثنا خَلَفٌ، حدثنا هُشَيم، عن العوَّام، عن إبراهيم التَّيميِّ قال: مَن خَتَمَ القرآنَ أوَّلَ النهار، صَلَّت عليه الملائكةُ حتى يُمسِيَ، ومَن خَتَمَ أوَّلَ الليل، صَلَّت عليه الملائكةُ حتى يُصبِحَ. قال: فكانوا يَستحبُّون[٤] أن يَختِمُوا أوَّلَ الليل، وأوَّلَ النهار[٥].

ومِن حُرْمَتِه ألا تَكتُبَ التعاويذَ منه، ثم تَدخُلَ به في الخلاء، إلا أن يكونَ في غلاف من أَدَم، أو فِضَّة، أو غيره، فيكونَ كأنَّه في صدرك.

ومِن حُرْمَتِهِ إذا كتبَه وشَرِبَه، سَمَّى اللهَ على كل نَفَس، وعَظَّمَ النيةَ فيه، فإنَّ اللهَ يُؤتيهِ على قَدْرِ نيَّته. روى ليث، عن مجاهد قال: لا بأس أن يكتبَ القرآنَ، ثم يسقيَه[٦] المريضَ. وعن أبي جعفر قال: مَن وَجَدَ في قلبه قساوة، فَلْيَكتُب «يس» في جامٍ بزعفران، ثم يشربه[٧].

= وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن ابن عباس مرسلاً، وقال: وهذا عندي أصح.

(١) أخرجه في فضائل القرآن أبو عبيد ص٤٨، والفريابي (٨٥) (٨٦)، وابن الضُّريس (٨٤). وإسناده صحيح.

(٢) أبو القاسم الأسدي، ثم الغاضري مولاهم، الكوفي التاجر، أحد الأئمة، نزل دمشق، توفي في حدود سنة (١٢٧هـ). السير ٥/ ٢٢٩.

(٣) أخرجه في فضائل القرآن أيضاً أبو عُبيد ص ٤٧ ـ ٤٨، والفريابي في (٨٧) و(٨٨) و(٨٩)، وابنُ الضُّريس (٨١)، وهو أثر صحيح.

(٤) في (د): يستحسنون.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٤٩، والدارمي في السنن (٣٤٧٧)، وابن الضُّريس في فضائل القرآن (٥٠).

(٦) في (م): تكتب... تسقيه.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٦٨) وقال بإثره: وكان إبراهيم يكره ذلك، ولو صحَّ الحديثُ لم يكن للكراهة معنى، إلا أن في صحته نظراً، والله أعلم. اهـ. أبو جعفر: هو الباقر. وقوله: جام: هو إناء من فضة.

قلتُ: ومن حُرْمَتِه ألا يقال: سورة صغيرة. وكره أبو العالية أن يقال: سورةٌ صغيرة، أو كبيرة، وقال لمن سمعه قالها: أنت أصغرُ منها، وأما القرآنُ، فكلُّه عظيم. ذكره مكيٌّ رحمه الله[١].

قلتُ: وقد روى أبو داود ما يُعارضُ هذا من حديث عَمرِو بنِ شُعَيب[٢]، عن أبيه، عن جدِّه، أنه قال: مامِنَ المُفَصَّلِ سُورةٌ، صغيرةٌ ولا كبيرةٌ، إلا قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَؤُمُّ بها الناسَ في الصلاة[٣].

باب ماجاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي والجُرأة على ذلك، ومراتب المفسرين

رُوِيَ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما كان رسولُ الله ﷺ يُفسِّرُ من كتاب الله إلا آياً بعدد، عَلَّمَهُ إيَّاهنَّ جبريلُ[٤].

قال ابنُ عطية: ومعنى هذا الحديثِ في مُغيَّبات القرآن، وتفسيرِ مُجمَلِهِ، ونحو هذا مما لا سبيلَ إليه إلا بتوقيف[٥] من الله تعالى، ومن جملةِ مُغَيَّباته ما لم يُعلِمِ اللهُ به، كوقت قيامِ الساعة، ونحوِها مما يُستَقرَأُ من ألفاظه، كعدد النَّفَخات في الصور، وكرتبةِ خَلقِ السماوات والأرض[٦].

رَوى الترمذيُّ، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «اتَّقُوا الحديثَ عليَّ إلا ما

---

(١) الرعاية ص٨٣.

(٢) هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، أبو إبراهيم، ويقال: أبو عبد الله. ورواية أبيه عن جده إنما يعني بها جدَّه الأعلى عبد الله بن عمرو لا محمد بن عبد الله. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٧٩.

(٣) سنن أبي داود (٨١٤). قوله: المفصَّل؛ ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٢٥٩ أنها من سورة ق إلى آخر القرآن على الصحيح، وذكر الإمام النووي في شرح مسلم ٦/ ١٠٦ أنه سمي مفصلاً لقصر سوره، وقرب انفصال بعضهن من بعض.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٤٥٢٨)، والبزار (٢١٨٥) (زوائد). وإسناده ضعيف، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٠٣ وقال: فيه راو لم يتحرر اسمه عند واحد منهما، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) في (م): بتوفيق، وهو خطأ.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤١.

علمتُم، فَمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمِّداً، فَلْيَتبوَّأ مَقْعَدَه منَ النَّار، ومَن قالَ في القرآن برأيه، فَليتبوَّأ مَقعَدَه مِنَ النَّار»[1]. ورَوَى أيضاً عن جُنْدُب[2] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن قالَ في القرآن[3] برأيه، فأصابَ، فقد أخطأ». قال: هذا حديثٌ غريبٌ، وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّمَ في أحد رواته[4]. وزاد رَزِين: ومَن قال برأيه، فأخطأ، فقد كفرَ.

قال أبو بكر محمدُ بن القاسم بنِ بشار بنِ محمد الأنباريُّ النَّحويُّ اللغويُّ في كتاب «الردّ»: فُسِّرَ حديثُ ابنِ عباس تفسيرَين: أحدهما: مَن قالَ في مُشكِلِ القرآنِ بما لايَعرِفُ مِن مَذهبِ الأوائلِ من الصحابة والتابعين، فهو مُتعرِّضٌ لِسَخَطِ الله. والجوابُ الآخر - وهو أثبتُ القولَين وأصحُّهُما معنى -: مَن قالَ في القرآن قولاً يعلَمُ أنَّ الحقَّ غيرُه، فَليتبوَّأ مَقعَدَهُ من النار. ومعنى يَتَبَوَّأ: يَنزِلُ ويَحُلُّ. قال الشاعر[5]:

وبُـوِّئَـتْ فـي صَـمـيـمِ مَـعْـشَـرِهـا ... فـتَـمَّ فـي قَـومِـهـا مُـبَـوَّؤُهـا

وقال في حديث جُنْدُب: فحملَ بعضُ أهلِ العلمِ هذا الحديثَ على أنَّ الرأيَ معنيٌّ به الهَوَى، مَن قالَ في القرآن قولاً يُوافِقُ هواه، لم يأخُذْه عن أَئمَّةِ السَّلَف، فأصابَ، فقد أخطأ، لِحُكمه على القرآن بما لا يعرفُ أصلَه، ولا يقفُ على مذاهب أهلِ الأثر والنَّقل فيه.

وقال ابنُ عطية: ومعنى هذا أن يُسأَل الرجلُ عن معنًى من[6] كتاب الله عزَّ وجلَّ،

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٥١) وقال: حديث حسن. وفيه: «اتقوا الحديث عني...». وهو في المسند برقم (٢٩٧٤). وسيذكره المصنف مختصراً ص ١٢٦. وقوله: «مَن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً، فليتبوأ مقعدَه من النار» من الأحاديث المتواترة. فتح الباري ١/ ٢٠٣، والأزهار المتناثرة (٢).

(٢) هو جندب بن عبد الله بن سفيان، أبو عبد الله البجلي العلقي، الصحابي، نزل الكوفة والبصرة، وعاش إلى حدود سنة (٧٠هـ). السير ٣/ ١٧٤.

(٣) في (د): بالقرآن.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٥٢)، وسنن أبي داود (٣٦٥٢)، وفي إسناده سهيل بن أبي حزم (مِهران أبو عبد الله) القُطَعي، ضعَّفه البخاري وأبو حاتم الرازي والنسائي.

(٥) هو إبراهيم بن هَرْمة القُرشي، من شعراء الدولتين. الأموية والعباسية. السير ٦/ ٢٠٧، والبيت في ديوانه ص٥٧. وأورده الخليل في العين ٨/ ٤١١، وابن فارس في معجم مقاييس اللغة ١/ ٣١٢ باب الباء والواو (بوأ)، وابن منظور في اللسان (بوأ).

(٦) في (م): في.

فَيَتَسوَّرَ[١] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماءُ، واقتَضَته قوانينُ العلم، كالنحو والأصول. وليس يدخلُ في هذا الحديث أن يُفسِّرَ اللغويون لغتَه، والنَّحويون نحوَه، والفقهاءُ معانيَه، ويقولَ كلُّ واحد باجتهاده المبنيِّ على قوانينِ علم ونَظَر، فإنَّ القائلَ على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرَّدِ رأيِه[٢].

قلتُ: هذا صحيحٌ. وهو الذي اختاره غيرُ واحد من العلماء، فإنَّ مَن قال فيه بما سَنَحَ في وَهمه، وخَطَر على باله، من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطىءٌ، وإنَّ مَنِ استَنبَطَ معناه بحَملِهِ على الأصول المُحكَمَةِ المتَّفَقِ على معناها، فهو ممدوحٌ.

وقال بعضُ العلماء: إنَّ التفسيرَ موقوفٌ على السماع، لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وهذا فاسدٌ، لأن النهيَ عن تفسير القرآن لا يَخلُو: إمَّا أن يكونَ المرادُ به الاقتصارَ على النقل والمسموع، وتَركَ الاستنباط، أو المرادُ به أمراً آخرَ. وباطلٌ أن يكونَ المرادُ به ألا يَتَكلَّمَ أحدٌ في القرآن إلا بما سَمِعَه، فإنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم قد فسَّروا[٣] القرآنَ، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كلُّ ماقالوه سمعوه من النبيِّ ﷺ، فإنَّ النبيَّ ﷺ دعا لابن عباس، وقال: «اللَّهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعَلِّمْهُ التأويلَ»[٤]. فإن كان التأويلُ مسموعا كالتنزيل، فما فائدةُ تخصيصه بذلك؟! وهذا بيِّنٌ لا إشكالَ فيه، وسيأتي لهذا مزيدُ بيان في سورة النساء إن شاء الله تعالى[٥].

وإنما النَّهيُ يُحمَلُ على أحدِ وجهين:

أحدهما: أن يكونَ له في الشيء رأيٌ، وإليه مَيلٌ من طبعه وهواه، فيتأوَّلَ القرآنَ على وَفقِ رأيِه وهواه، ليحتجَّ على تصحيح غرضه، ولو لم يكُن له ذلك الرأيُ والهوى، لكان لا يلوحُ له من القرآن ذلك المعنى.

---

(١) في (ظ): فيتبور.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١.

(٣) في (م): قرؤوا.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣) دون قوله: «وعلمه التأويل»، من حديث ابن عباس، وأخرجه مسلم من حديثه (٢٤٧٧) بلفظ: «اللهم فَقِّهْهُ»، وأخرجه بتمامه أحمد (٢٣٩٧).

(٥) في تفسير الآية المذكورة منها.

وهذا النوعُ يكون تارةً مع العلم، كالذي يحتجُّ ببعض آياتِ القرآنِ على تصحيح بِدعَتِه، وهو يعلمُ أن ليس المرادُ بالآية ذلك، ولكنَّ مقصودَه أن يَلبِسَ على خَصمِه. وتارة يكونُ مع الجهل، وذلك إذا كانت الآيةُ مُحتمِلة، فيميلُ فهمُه إلى الوجه الذي يوافقُ غَرَضَه، ويُرجِّحُ ذلك الجانبَ برأيه وهواه، فيكون قد فسَّر برأيه، أي رأيُه حملَه على ذلك التفسير، ولولا رأيُه لما كان يترجَّح عنده ذلك الوجهُ. وتارة يكون له غرضٌ صحيح، فيطلبُ له دليلاً من القرآن، ويستدلُّ عليه بما يَعلم أنه ما أُريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقول: قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] ويشير إلى قلبه، ويوميءُ إلى أنه المرادُ بفرعون.

وهذا الجنسُ قد يستعملُه بعضُ الوعَّاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام، وترغيباً للمستمع، وهو ممنوعٌ، لأنه قياسٌ في اللغة، وذلك غيرُ جائز. وقد تستعملُه الباطنيَّةُ في المقاصد الفاسدة، لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزِّلون القرآنَ على وَفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غيرُ مُرادَة. فهذه الفنونُ أحدُ وَجهَي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارعَ إلى تفسير القرآنِ بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلقُ بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المُبهَمَةِ والمُبدَلة، وما فيه من الاختصار، والحذفِ والإضمار، والتقديم والتأخير، فمن لم يُحكِم ظاهرَ التفسير، وبادرَ إلى استنباط المعاني بمجرَّد فَهمِ العربية، كَثُرَ غَلَطُه، ودخلَ في زُمرةِ مَن فَسَّر القرآنَ بالرأي.

والنقلُ والسماع لابُدَّ له منه في ظاهر التفسير أوَّلاً ليتَّقيَ به مواضعَ الغَلَط، ثم بعد ذلك يتَّسعُ الفهمُ والاستنباط.

والغرائبُ التي لا تُفهم إلا بالسماع كثيرةٌ، ولا مَطمَعَ في الوصول إلى الباطن قبلَ إحكام الظاهر، ألا ترى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] معناه: آية مُبصِرَة، فظلموا أنفسَهم بقتلها. فالناظرُ إلى ظاهر العربية يظنُّ أنَّ المرادَ به أنَّ الناقةَ كانت مُبصِرة، ولا يدري بماذا ظلمُوا، وأنهم ظلموا غيرَهم وأنفسَهم، فهذا من الحذف والإضمار. وأمثالُ هذا في القرآن كثيرٌ، وما عدا هذين الوجهين، فلا يتطرَّقُ النهيُ إليه. والله أعلم.

قال ابن عطية[١]: وكان جِلَّةٌ من السلف الصالح، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبيِّ، وغيرِهما، يُعظِّمُون تفسيرَ القرآن، ويتوقَّفُون عنه تورُّعاً، واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدُّمهم.

قال أبو بكر الأنباريُّ: وقد كان الأئمةُ من السلف الماضي يتورَّعون عن تفسير المُشكِلِ من القرآن، فبعضٌ يُقَدِّرُ أنَّ الذي يُفسِّرُه لا يوافقُ مُرادَ الله عزَّ وجلَّ، فَيُحجِمُ عن القول. وبعضٌ يُشفِقُ من أن يُجعَلَ في التفسير إماماً يُبنَى على مذهبه، ويُقتفَى طريقُه، فلعلَّ متأخِّراً أن يُفسِّرَ حرفاً برأيه، ويُخطىءَ فيه، ويقولَ: إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلانٌ الإمامُ من السَّلَف.

وعن ابن أبي مُلَيكَةَ قال: سُئِل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن، فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرض تُقِلُّني، وأين أذهَبُ، وكيف أصنعُ، إذا قلتُ في حرف من كتاب الله بغير ما أرادَ تبارك وتعالى[٢].

قال ابنُ عطية: وكان جِلَّةٌ منَ السَّلَف كثيرٌ عددُهم يُفَسِّرون القرآنَ، وهم أَبْقَوْا على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم. فأما صَدرُ المفسِّرين والمؤيَّد فيهم، فعليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، ويتلُوه عبدُ الله بنُ عباس، وهو تَجرَّدَ للأمر وكمَّله، وتَبِعَهُ[٣] العلماءُ عليه، كمجاهد، وسعيد بنِ جُبير، وغيرِهما. والمحفوظُ عنه في ذلك أكثرُ من المحفوظ عن عليٍّ. وقال ابنُ عباس: ما أخذتُ من تفسير القرآن، فعن عليٍّ بن أبي طالب. وكان عليٌّ رضي الله عنه يُثنِي على تفسير ابنِ عباس، ويَحُضُّ على الأخذِ منه[٤]، وكان ابنُ مسعود[٥] يقول: نِعم تَرجُمانُ القرآنِ عبدُ الله بنُ عباس[٦]. وقال عنه عليٌّ رضي الله عنه: ابنُ عباس؛ كأنما ينظرُ إلى الغَيب من سِتر رقيق.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١.

(٢) أورده البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٧٩)، وهو منقطع. ابن أبي مُليكة ـ وهو عبد الله بن عبيد الله ـ ليس له رواية عن أبي بكر.

(٣) في (د): وتفقه.

(٤) في (م): عنه.

(٥) في (م): ابن عباس، وهو خطأ.

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٦، والطبري في تهذيب الآثار (٢٦٨) (مسند ابن عباس).

ويتلوه عبدُ الله بنُ مسعود، وأُبَيُّ بنُ كَعب، وزيدُ بنُ ثابت، وعبدُ الله بنُ عَمرو بنِ العاص. وكلُّ ما أُخِذَ عن الصحابة، فَحَسَنٌ مقدَّمٌ[١]، لشهودهم التنزيلَ، ونزولِهِ بلغتهم.

وعن عامر بن واثلة[٢] قال: شَهِدتُ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه يخطُبُ، فسمعتُه يقولُ في خُطبته: سلوني، فوالله، لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتُكم به، سلُوني عن كتاب الله، فوالله، ما من آية إلا أنا أعلمُ أبِلَيلٍ نزلَت أم بنهار، أم في سَهلٍ نزلَت أم في جَبَل، فقامَ إليه ابنُ الكَوَّاء، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما الذَّاريات ذَرْواً؟ وذكر الحديث[٣].

وعن المِنهال بن عمرو قال: قال عبدُ الله بنُ مسعود: لو أعلمُ أحداً أعلمَ بكتاب الله مني تَبلُغُه المَطِيُّ، لأتيتُه، فقال له رجلٌ: أما لَقِيتَ عليَّ بنَ أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لَقِيتُه[٤].

وعن مسروق قال: وجدتُ أصحابَ محمد ﷺ مِثلَ الإخاذ: يُروِي الواحدَ، والإخاذُ يُروِي الاثنين، والإخاذُ لو وردَ عليه الناسُ أجمعون لأصْدَرَهُم، وإنَّ عبدَ الله بنَ مسعود من تلك الإخاذ[٥]. ذكر هذه المناقبَ أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الرَّدّ»، وقال: الإخاذُ عند العرب: الموضع الذي يَحبِسُ الماءَ، كالغدير.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١.

(٢) هو أبو الطفيل الليثي، الكناني، الحجازي، آخر من رأى النبي ﷺ في حجة الوداع، توفي بمكة سنة (١١٠هـ). السير ٣/ ٤٦٧.

(٣) أخرجه بتمامه ومختصراً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤١، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٣٨، والطبري في التفسير ٢١/ ٤٨١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧، والضياء المقدسي في المختارة ٢/ ١٧٦. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. ابن الكوَّاء: هو عبد الله؛ قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان ٣/ ٣٢٩: له أخبار كثيرة مع علي، وكان يلزمه ويُعيِيه في الأسئلة، وقد رجع عن مذهب الخوارج، وعاود صحبة علي.

(٤) قوله: عن المنهال بن عمرو قال: قال عبد الله، فيه نظر، فقد ذكر ابن سعد الخبر في الطبقات ٦/ ٢٠٢ وقال: المنهال، وليس بابن عمرو، سمع عبد الله يقول: لو أن أحداً أعلم... فذكره. والمنهال بن عمرو، من رجال البخاري وأصحاب السنن، وروايته عن كبار التابعين. وقد أخرج الخبر بأتم منه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣) من طريق مسروق، عن عبد الله، دون ذكر الرجل.

(٥) قال ابن الأثير في النهاية: جمعُ أُخُذ، مثل كتاب وكتب، وقيل: هو جمع الإخاذة. قال: يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

قال أبو بكر: حدثنا أحمدُ بنُ الهيثم بن خالد، حدثنا أحمدُ بنُ عبد الله بن يونس، حدثنا سلَّام، عن زيدٍ العَمِّي، عن أبي الصدِّيق الناجي، عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أرحمُ أمتي بها أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمرُ، وأصدقُهم حياءً عثمانُ، وأقضاهم عليٌّ، وأفرضُهم زيدٌ، وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَيُّ بن كعب، وأعلمُهم بالحلال والحرام معاذُ بن جَبَل، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح، وأبو هريرةَ وِعاءٌ من العلم، وسلمانُ بحرٌ من علم لا يُدرَك، وما أظلَّتِ الخَضْراءُ، ولا أقلَّتِ الغَبْراءُ ـ أو قال: البطحاء ـ من ذي لَهجَة أصدَقَ من أبي ذرٍّ»[(١)].

قال ابن عطية: ومن المبرِّزين في التابعين: الحسنُ البصريُّ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبير، وعَلقَمَةُ. قرأ مجاهدٌ على ابنِ عباس قراءةَ تَفَهُّمٍ، ووقوفٍ عند كلِّ آية. ويتلوهم عِكرمةُ، والضَّحَّاكُ، وإن كان لم يلقَ ابنَ عباس، وإنما أخَذَ عن ابنِ جُبير. وأما السُّدِّي[(٢)]، فكان عامرٌ الشَّعبِيُّ يَطعُنُ عليه، وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مُقصِّرَيْنِ في النَّظر[(٣)].

---

(١) في هذا الحديث تفصيل، فإن إسناده ضعيف جدا. سلَّام ـ وهو ابنُ سَلْم الطويل ـ متروك الحديث، وزيد العَمِّي ضعيف. وقد أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» ٢/ ١٥٩ من طريق سلام بالإسناد الذي أورده المصنف. وقوله منه: «أرحم أمتي بها أبو بكر...» إلى قوله: «وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»: أخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩١) (دون قوله: وأقضاهم علي)، وابن ماجه (١٥٤) (١٥٥) من حديث أنس بن مالك. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقوله منه: «وما أظلَّت الخضراء...»: أخرجه أحمد (٦٥١٩)، والترمذي (٣٨٠١) وحسَّنه، وابن ماجه (١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٧٢٦) و(٢٧٤٩٣) من حديث أبي الدرداء. وأما قوله: «وأبو هريرة وعاء من العلم، وسلمانُ بحر من علم لا يُدرك» فضعيف.
وقد أخرج البخاري (٢٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩) من حديث أنس مرفوعاً: «إنَّ لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وانظر ما ذكره البيهقي في السنن ٦/ ٢١٠، والحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٩٣ حول وصل الحديث وإرساله. وقد أخرج البخاري (٤٤٨١) عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أبيّ، وأقضانا علي.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، أبو محمد الحجازي، وهو السُّدِّي الكبير، المفسِّر، مات سنة (١٢٧هـ) السير ٥/ ٢٦٤.

(٣) المحرَّر الوجيز ١/ ٢٤. أبو صالح: هو باذام ـ ويقال: باذان ـ مولى أم هانئ بنت أبي طالب.

قلتُ: وقال يحيى بن مَعِين[١]: الكَلبيُّ[٢] ليس بشيء. وعن يحيى بن سعيد القَطّان[٣]، عن سفيانَ قال: قال الكلبيُّ: قال أبو صالح: كلُّ ما حدَّثتُك كَذِبٌ. وقال حَبِيبُ بنُ أبي ثابت: كنا نسميه الدرُوغزَن[٤]. يعني أبا صالح مولى أمِّ هانىء. والدرُوغزَن: هو الكذابُ بلغة الفُرس.

ثم حمل تفسيرَ كتاب الله تعالى عدولُ كلِّ خَلَف، كما قال ﷺ: «يَحمِلُ هذا العِلمَ مِن كُلِّ خَلَف عُدُولُه، يَنفُونَ عنه تَحرِيفَ الغالِين، وانْتِحالَ المُبْطِلِين، وتأويلَ الجاهلين». خرَّجه أبو عمر وغيره[٥].

قال الخطيبُ أبو بكر أحمدُ بن علي البغدادي[٦]: وهذه شهادةٌ من رسول الله ﷺ بأنهم أعلامُ الدِّين، وأئمةُ المسلمين، لحفظهم الشريعةَ من التحريفِ، والانتحالِ للباطل، وردِّ تأويل الأبلَهِ الجاهلِ، وأنه يجبُ الرجوعُ إليهم، والمعوَّلَ في أمر الدِّين عليهم، رضي الله عنهم.

قال ابن عطية: وألَّفَ الناسُ فيه، كعبدِ الرزاق[٧]، والمُفَضَّل[٨]، وعليِّ بن أبي طلحة[٩]،

---

(١) أبو زكريا، البغدادي، الحافظ، المجتهد، مات في طريق الحج سنة (٢٣٣هـ). السير ١١/ ٧١.

(٢) محمد بن السائب بن بشر، أبو النضر الكوفي، النسَّابة المفسر. قال ابن عدي في الكامل: رضُوه في التفسير، وأما في الحديث ففيه مناكير.

(٣) التميمي البصري، أمير المؤمنين في الحديث، مات سنة (١٩٨هـ). السير ٩/ ١٧٥.

(٤) في (ظ): الدروغي. وهي نسبة إلى دروغ، بالفارسية، وتعني الكذب، ولم تجود اللفظة في (د) و(ز)، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أبو عمر بن عبد البر في التمهيد ١/ ٥٩، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص١١ و٢٩ من حديث أبي هريرة وغيره، ونقل الخطيب البغدادي تصحيحه عن الإمام أحمد.

(٦) صاحبُ تاريخ بغداد وغيره من التصانيف، التي بلغَ عددُها ستة وخمسين مصنفاً. توفي سنة (٤٦٣هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٧٠.

(٧) هو ابنُ همَّام، أبو بكر الصنعاني، صاحب المصنف، توفي سنة (٢١١هـ). ذكره الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٢٩٦، وترجمته في سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٦٣.

(٨) هو ابنُ سَلَمة، أبو طالب، توفي بعد التسعين ومئتين، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٢/ ٣٢٨، وله ترجمة في السير ١٤/ ٣٦٢.

(٩) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في تهذيب التهذيب: روى عن ابن عباس، ولم يسمع منه، وقال: نقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح، عنه، عن ابن عباس شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها، ولكنه لا يسميه. مات سنة (١٤٣هـ).

والبخاري، وغيرهم. ثم إنَّ محمد بنَ جَرِير رحمه الله، جَمَعَ على الناس أشتاتَ التفسير، وقَرَّبَ البعيدَ منها، وشَفَى في الإسناد. ومن المُبَرِّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزَّجَّاج[١]، وأبو عليٍّ الفارسيُّ[٢]. وأما أبو بكر النقَّاشُ[٣]، وأبو جعفر النحاسُ[٤]، فكثيراً ما استدركَ الناسُ عليهما. وعلى سَنَنِهما مكيُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه. وأبو العباس المَهدَوِيّ[٥] متقنُ التأليف، وكلُّهم مجتهدٌ مأجورٌ، رحمهم الله، ونَضَّرَ وجوهَهم[٦].

باب تبيين الكتاب بالسنة، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وفَرَضَ طاعتَه في غير آية من كتابه، وقَرَنَها بطاعته عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ذكر ابنُ عبد البَرِّ في كتاب «العلم» له، عن عبد الرحمن بن يزيد[٧]: أنه رأى مُحْرِماً عليه ثيابُه، فنهى المُحرِمَ، فقال: ايتني بآية من كتاب الله تَنزِعُ ثيابي، قال:

---

(١) إبراهيم بن محمد بن السري البغدادي، النحوي، صاحب التصانيف، منها معاني القرآن. مات سنة (٣١١هـ)، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٧، وترجمته في السير ١٤/ ٣٦٠.

(٢) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، صاحب الحجة وغيره من التصانيف، مات سنة (٣٧٧هـ). السير ١٦/ ٣٧٩.

(٣) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي، له شفاء الصدور في التفسير، مات سنة (٣٥١هـ)، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٢/ ١٣١.

(٤) أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري النحوي، صاحب إعراب القرآن وغيره من التصانيف، مات سنة (٣٣٨هـ)، أورده الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٦٨، وله ترجمة في السير ١٥/ ٤٠١.

(٥) أحمد بن عمار المهدوي، نسبة إلى المهدية بالمغرب، توفي بعد (٤٣٠هـ). ذكره الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٥٢.

(٦) المحرر الوجيز١/ ٤٢.

(٧) النخعي، الفقيه، حدث عن عمر وعثمان، وثقه ابن معين، مات بعدالثمانين وقد شاخ. السير ٤/ ٧٨.

فقرأ عليه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. وعن هشام بنِ حُجَير[1] قال: كان طاوسٌ[2] يُصَلِّي ركعتين بعدَ العصر، فقال ابنُ عباس: اترُكهُما، فقال: إنما نهى عنهما أنْ تُتَّخَذا سنة، فقال ابن عباس: قد نهى رسولُ الله ﷺ عن صلاة بعدَ العصر، فلا أدري، أتُعَذَّبُ عليهما[3] أم تُؤجَرُ؟ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦][4].

وروى أبو داودَ، عن المِقدام بن مَعدِي كَرِب[5]، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني قد أُوتِيتُ الكتابَ ومثلَه مَعَه، ألا يُوشِكُ رجلٌ شَبعانُ على أرِيكَتِهِ يقول: عليكُم بهذا القرآن، فما وَجَدتُم فيه من حلالٍ، فأحِلُّوه، وما وَجَدتُم فيه من حرام، فحَرِّمُوه، ألا لا يَحِلُّ لكم[6] الحمارُ الأهليُّ، ولا كُلُّ ذي ناب من السِّباع، ولا لُقَطَةُ معاهَد إلا أن يَستغنيَ عنها صاحبُها، ومَن نَزَلَ بقوم فعليهم أن يَقرُوه، فإن لم يَقرُوه، فله أن يُعقِبَهم بمثلِ قِراهُ»[7].

قال الخطابي[8]: قوله: «أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه»: يَحتَمِلُ وجهَين من التأويل:

أحدُهما: أن معناه: أنه أُوتِيَ من الوَحي الباطنِ غيرِ المتلوِّ مثلَ ما أُعطيَ من الظاهر المتلوِّ.

والثاني: أنه أُوتِيَ الكتابَ وَحياً يُتلَى، وأُوتيَ من البيانِ مثلَه، أي: أُذِنَ له أن يُبَيِّنَ ما في الكتاب، فيَعُمَّ ويَخُصَّ، ويزيدَ عليه، ويُشَرِّعَ ما [ليس له] في الكتاب [ذكرٌ]، فيكونَ [ذلك] في وجوب العمل به، ولزوم قبوله، كالظاهر المتلوِّ من القرآن.

---

(١) المكي، ضعّفه جماعة، وقوّاه آخرون، وروى له البخاري ومسلم. تهذيب التهذيب ٤/٢٦٧.
(٢) ابن كيسان، أبو عبد الرحمن الفارسي، ثم اليمني، الحافظ، الفقيه، مات سنة (١٠٦هـ). السير ٥/٣٨.
(٣) في (ظ): عليها.
(٤) جامع بيان العلم ص٤٩٢.
(٥) الصحابي، يكنى أبا كريمة، وقيل غير ذلك، نزيل حمص، توفي سنة (٨٧هـ). السير ٣/٤٢٨.
(٦) في (د): لكم أكل.
(٧) سنن أبي داود (٤٦٠٤)، وأخرجه أيضاً أحمد في المسند(١٧١٧٤).
(٨) في معالم السنن ٤/٢٩٨، وما بين حاصرتين منه.

وقوله: «يُوشِكُ رجلٌ شبعانُ» الحديث. يُحَذِّرُ بهذا القول من مخالفة السُّنن التي سَنَّها[1] مما ليس له في القرآن ذِكر، على ما ذهبت إليه الخوارجُ والروافضُ، فإنهم تعلَّقوا بظاهرِ القرآن، وتركوا السننَ التي قد ضَمَّنَت بيانَ الكتاب. قال: فتحيَّروا وضلُّوا. قال: والأريكةُ: السرير، ويقال: إنه لا يُسَمَّى أريكةً حتى يكون في حَجَلة[2]. قال: وإنما أرادَ بالأريكة[3] أصحابَ التَّرفُّهِ والدَّعَةِ، الذين لزموا البيوت، ولم يطلبوا العِلْمَ من مظانِّه.

وقوله: «إلا أن يستغنيَ عنها صاحبُها» معناه: أن يتركَها صاحبُها لمن أخَذَها؛ استغناءً عنها، كقوله: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]. معناه: تركَهم اللهُ استغناءً عنهم.

وقوله: «فله أن يُعْقِبَهُم بمثل قِراهُ». هذا في حال المضطرِّ الذي لا يجد طعاماً، ويخافُ التَّلَفَ على نفسه، فله أن يأخذَ من مالهم بِقَدرِ قِراه عِوَضَ ما حَرَمُوه من قِراه. و«يُعقِبُهم» يُروى مُشدَّداً ومُخفَّفاً، من المعاقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦] أي: فكانت الغلبةُ لكم، فغنمتُم منهم، وكذلك لهذا أن يغنمَ من أموالهم بقَدرِ قِراه[4].

قال: وفي الحديث دَلالةٌ على أنه لا حاجةَ بالحديث إلى أن يُعرَضَ على الكتاب، فإنه مهما ثبتَ عن رسول الله ﷺ كان حجةً بنفسه. قال: فأما ما رواه بعضُهم أنه قال: «إذا جاءكم الحديثُ، فاعْرِضُوه على كتاب الله، فإن وافقَه، فخذُوه، وإن لم يُوافقه، فرُدُّوه»، فإنه حديثٌ باطلٌ، لا أصلَ له[5].

---

(١) في (د): بيّنها.

(٢) في مختار الصحاح: الحَجَلة ـ بفتحتين ـ واحدة حِجال العروس، وهي بيت يُزيَّنُ بالثياب والأسرَّة والستور.

(٣) في معالم السنن ٤/٢٩٨: وإنما أراد بهذه الصفة. وهو الأشبه.

(٤) من قوله: ويعقبهم يروى مشددا ومخففا، إلى هذا الموضع، ليس في المعالم.

(٥) إلى هذا الموضع من كلام الخطابي في المعالم، ونقل بعده عن ابن معين قوله: هذا حديث وضعته الزنادقة. اهـ. وقال الشافعي في الرسالة (٦١٨): ما روى هذا أحدٌ يثبت حديثُه في شيء صغر ولا كبر، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٤٩٥: هذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه، ونقل عن عبد الرحمن بن مهدي قوله: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث.

ثم البيانُ منه ﷺ على ضربين: بيانٌ لمُجمَل في الكتاب، كبيانه للصَّلوات الخمس، في مواقيتها، وسجودِها وركوعِها، وسائرِ أحكامِها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتِها، وما الَّذي تُؤخَذُ منه من الأموال، وبيانِه لمناسِك الحجِّ؛ قال ﷺ إذ حَجَّ بالناس: «خُذُوا عَنِّي مَناسِكَكُم»[١]. وقال: «صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي». أخرجه البخاريُّ[٢].

وروى ابنُ المبارك، عن عِمرانَ بن حُصَين أنه قال لرجل: إنكَ امرؤٌ[٣] أحمقُ، أتجد الظُّهر في كتاب الله أربعاً، لا يُجهر فيها بالقراءة ؟! ثم عدَّدَ عليه الصلاةَ والزكاةَ، ونحوَ هذا، ثم قال: أتجدُ هذا في كتاب الله مفسَّراً ؟! إنَّ كتابَ الله تعالى أبهَمَ هذا، وإن السُّنةَ تفسِّر هذا.

وروى الأوزاعيُّ[٤]، عن حسانَ بن عطيَّةَ[٥] قال: كان الوحيُ ينزلُ على رسول الله ﷺ، ويحضرُه جبريلُ بالسُّنَّة التي تفسِّرُ ذلك.

وروى سعيدُ بنُ منصور[٦]: حدثنا عيسى بنُ يونُسَ، عن الأوزاعيِّ، عن مكحول قال: القرآنُ أحوجُ إلى السُّنَّة من السُّنَّة إلى القرآن.

وبه عن الأوزاعيِّ، قال: قال يحيى بنُ أبي كثير[٧]: السُّنةُ قاضيةٌ على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السُّنَّة. قال الفضلُ بنُ زياد[٨]: سمعتُ أبا عبد الله - يعني أحمدَ بن حَنبل - وسُئلَ عن هذا الحديث الذي رُوي أن السُّنَّةَ قاضيةٌ على الكتاب،

---

(١) من قوله: ثم البيان منه ﷺ على ضربين... إلى هذا الموضع، من كلام ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٤٩٤ - ٤٩٥. والحديث أخرجه أحمد في المسند (١٤٤١٩)، ومسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بلفظ: «لتأخذوا مناسككم»، وأخرجه باللفظ الذي أورده المصنف البيهقيُّ في السنن ٥/ ١٢٥، وابن عبد البر في التمهيد ٧/ ٢٧٢.

(٢) صحيح البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث، وهو في المسند (٢٠٥٣٠).

(٣) في (م): رجل.

(٤) عبد الرحمن بن عمرو، أبو عمرو، عالم أهل الشام، مات سنة (١٥٧هـ). السير ٧/ ١٠٧.

(٥) المحاربي، مولاهم، الدمشقي، الفقيه العابد، مات بعد سنة (١٢٠هـ). السير ٥/ ٤٦٦.

(٦) أبو عثمان الخراساني، أحد أئمة الحديث، له كتاب السنن، توفي سنة (٢٢٧هـ). السير ١٠/ ٥٨٦.

(٧) أبو نصر الطائي، مولاهم، اليمامي، الحافظ، توفي سنة (١٢٩هـ). السير ٦/ ٢٧.

(٨) أبو العباس القطان، البغدادي، من أصحاب الإمام أحمد، وله عنه مسائل جياد. طبقات الحنابلة للنابلسي ص١٨٥.

فقال: ما أجسُرُ على هذا أن أقولَه، ولكنّي أقول: إن السُّنَّةَ تُفسِّرُ الكتاب وتُبيِّنُه[١].

وبيانٌ آخرُ: وهو زيادةٌ على حكم الكتاب، كتحريم نكاحِ المرأةِ على عَمَّتها وخالتها، وتحريمِ الحُمُرِ الأهليَّة، وكلِّ ذي ناب من السِّباع، والقضاءِ باليمين مع الشاهِد، وغير ذلك، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

باب كيفية التعلُّم والفِقهِ بكتاب اللهِ تعالى، وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، وما جاء أنَّه سَهُلَ على مَن تَقدَّمَ العملُ به دونَ حفظِه

ذكر أبو عَمرو الدَّاني[٢] في كتاب «البيان» له بإسناده، عن عثمانَ وابنِ مسعود وأُبَيٍّ، أنَّ رسول الله ﷺ كان يُقرِئُهم العَشر، فلا يُجاوِزُونها إلى عَشر أخرى حتى يَتَعَلَّموا ما فيها من العمل، فيعلِّمُنا[٣] القرآنَ والعَمَلَ جميعاً[٤].

وذكر عبدُ الرزَّاق، عن مَعمَر، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ قال: كنا إذا تَعَلَّمنا عَشْرَ آياتٍ مِنَ القُرآن، لم نتعلَّم العَشْرَ التي بعدَها حتى نعرفَ حلالَهاوحرامَها، وأمْرَها ونَهْيَها[٥].

وفي «موطأ» مالك: أنه بلغَه أنَّ عبدَ الله بنَ عمر مكثَ على سورة البقرة ثماني سنينَ يتعلَّمُها[٦].

وذكر أبو بكر أحمدُ بنُ عليِّ بن ثابت الحافظُ[٧] في كتابه المسمى[٨]: «أسماء مَن

---

(١) من قوله: وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين... إلى هذا الموضع، من كلام ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٢) هو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي مولاهم، الأندلسي، ثم القرطبي ثم الداني، إليه المنتهى في تحرير علم القراءات، مصنف التيسير وجامع البيان وغير ذلك. توفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٨/ ٧٧.

(٣) في (ز) و(ظ): فتعلمنا.

(٤) أخرج الحاكم في المستدرك ١/ ٥٥٧، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٣) عن ابن مسعود قال: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي أنزلت بعدها حتى نتعلم مافيه. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٥) مصنف عبد الرزاق (٦٠٢٧).

(٦) الموطأ١/ ٢٠٥.

(٧) هو الخطيب البغدادي، وكتابه المذكور «الرواة عن مالك» ذكره الذهبي في السير ١٨/ ٢٩٠.

(٨) في النسخ الخطية: المسمى في ذكر، والمثبت من (م).

رَوى عن مالك»: عن مِرْدَاس بنِ محمد أبي بلال الأشعريّ[١] قال: حدثنا مالكٌ، عن نافع، عن ابن عمرَ قال: تَعَلَّمَ عُمرُ البقرةَ في اثنتي عشرةَ سنة، فلما ختمَها، نَحَر جَزُوراً[٢].

وذكر أبو بكر الأنباريُّ: حدثني محمدُ بنُ شَهْرَيار، حدثنا حسينُ بنُ الأسود[٣]، حدثنا عُبيد الله بنُ موسى، عن زياد بن أبي مسلم أبي عمر[٤]، عن زياد بن مِخراق قال: قال عبدُ الله بنُ مسعود: إنَّا صَعُبَ علينا حفظُ القرآن[٥]، وسَهُلَ علينا العملُ به، وإنَّ مَن بَعدَنا يَسهُلُ عليهم حِفْظُ القرآن، ويَصعُبُ عليهم العملُ به.

حدثنا إبراهيمُ بنُ موسى، حدثنا يوسفُ بنُ موسى، حدثنا الفَضْلُ بنُ دُكَيْن، حدثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ بن المهاجر، عن أبيه، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كان الفاضلُ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظُ من القرآن إلا السورةَ، أو نحوَها، ورُزِقُوا العملَ بالقرآن، وإنَّ آخِرَ هذه الأمةِ يقرؤونَ القرآنَ، منهم الصبيُّ والأعجمي[٦]، ولا يُرزَقونَ العملَ به[٧].

حدثني حسنُ بنُ عبد الوهَّاب أبو محمد بن أبي العنبر، حدثنا أبو بكر بنُ حماد المقرىءُ، قال: سمعتُ خَلَفَ بنَ هشام البزَّار يقول: ما أظنُّ القرآنَ إلا عاريَّةً في أيدينا، وذلك أنا روينا أن عمرَ بنَ الخطاب حفظَ البقرةَ في بضعَ عَشْرةَ سنة، فلما حَفِظَها، نَحَرَ جَزُوراً شكراً لله، وإن الغلامَ في دهرنا هذا يجلسُ بين يديَّ، فيقرأُ ثُلُثَ القرآن، لا يُسقِطُ منه حرفاً، فما أحسبُ القرآنَ إلا عاريَّةً في أيدينا.

---

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/٥٠٧ وقال: ضعفه الدارقطني.
(٢) وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٧).
(٣) هو الحسين بن علي بن الأسود، نسبه إلى جدّه. قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطىء كثيراً.
(٤) في النسخ و(م): أبي عمرو، والتصويب من تهذيب الكمال، وهو زياد بن مسلم أو ابن أبي مسلم أبو عُمر الفراء البصري، صدوق فيه لين.
(٥) في (م): ألفاظ القرآن.
(٦) في (م): والأعمى.
(٧) وأخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن (٣٥). إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر وأبوه ضعيفان.

وقال أهلُ العلم بالحديث: لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصرَ على سماع الحديث وكَتبِهِ، دونَ معرفتِه وفَهمِه، فيكون قد أتعبَ نفسَه من غير أن يظفَرَ بطائل، وليكُن تَحفُّظُه للحديث على التدريج، قليلاً قليلاً مع الليالي والأيام.

وممن وردَ عنه ذلك من حفَّاظ الحديث: شعبةُ، وابنُ عُلَيَّةَ[1]، ومَعمَرٌ[2]. قال مَعمَرٌ: سمعتُ الزُّهريَّ[3] يقولُ: مَن طَلَبَ العِلمَ جُملةً، فاتَهُ جُملةً، وإنما يُدرَكُ العلمُ حديثاً وحديثين[4]، والله أعلم.

وقال معاذُ بنُ جَبَل: اعلموا ماشئتُم أن تعلموا، فلن يأجُرَكم الله بعلمه حتَّى تعمَلوا[5].

وقال ابنُ عبد البَرِّ: ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ مثلُ قولِ معاذ من رواية عبَّاد بن عبد الصمد [عن أنس]. وفيه زيادة: إن العلماءَ هِمَّتُهم الدِّرايةُ[6]، وإن السفهاءَ هِمَّتُهم الرِّوايةُ. ورُوِي موقوفاً، وهو أولى من رواية من رواه مرفوعاً، وعبَّادُ بنُ عبد الصمد ليس ممن يُحتجُّ به[7].

ولقد أحسنَ القائلُ في نظمه في فضل العلم، وشرفِ الكتابِ العزيز والسُّنة الغرَّاء فقال[8]:

إنَّ العلومَ وإن جَلَّتْ مَحاسنُها ... فتاجُها ما به الإيمانُ قد وَجَبا
هو الكتابُ العزيزُ اللهُ يَحفَظُهُ ... وبعدَ ذلك عِلمٌ فَرَّجَ الكُرَبا

---

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم، أبو بشر الكوفي، الحافظ، وعُلَيَّة أمه. مات سنة (١٩٣هـ). السير ٩/ ١٠٧.

(٢) ابن راشد، أبو عروة، الأزدي، نزيل اليمن، الحافظ، توفي سنة (١٥٣هـ) السير ٧/ ٥.

(٣) هو محمد بن مسلم بن شهاب، أبو بكر القرشي، حافظ زمانه، توفي سنة (١٢٤هـ) السير ٥/ ٣٢٦.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي (٤٤٩).. (٤٥٣)، وجامع بيان العلم ص ١٣٨.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٢)، والدارمي (٢٦٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٢٤٤.

(٦) في جامع بيان العلم ص٢٤٥: الوعاية.

(٧) جامع بيان العلم ص ٢٤٥، وما بين حاصرتين زيادة منه. عباد بن عبد الصمد؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٣٦٩: واه، ونقل عن الشافعي قوله فيه: منكر الحديث، وذكر عن ابن حبان أن له عن أنس نسخة أكثرُها موضوعة.

(٨) قوله: فقال، من (ظ).

فذاك فاعلَم حديثَ المصطفى فَبِهِ نـورُ الـنـبـوَّةِ سَنَّ الشَّـرعَ والأدَبـا
وبـعـدَ هـذا عـلـومٌ لا انـتـهـاءَ لـهـا فـاختَـر لـنـفـسـك يـامَـن آثَـرَ الطَّـلَـبـا
فـالـعـلـمُ كَـنـزٌ تَـجِـده فـي مَـعـادِنِـه ياأيـها الطالـبُ ابحَث وانظُرِ الكُتُبا
واتـلُ بـفـهـمٍ كـتـابَ الله فـيـه أتَـت كـلُّ الـعـلـومِ تَـدَبَّـرْه تَـرَ الـعَـجَـبـا
واقرأ هُدِيتَ حديثَ المصطفى وَسَلَنْ[1] مـولاكَ مـاتَـشـتَـهـي يـقـضـي لـك الأَرَبا
مَـن ذَاقَ طَـعـمـاً لِـعِـلـمِ الـدِّيـنِ سُـرَّ بـه إذا تَـزَيَّـدَ مـنـه قـالَ واطَـرَبـا

باب معنى قولِ النبيِّ ﷺ:
«إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سَبعَةِ أحرُف، فاقرَؤوا ماتَيَسَّرَ منه»

رَوَى مسلمٌ عن أُبيِّ بنِ كَعب، أن النبيَّ ﷺ كان عند أَضاةِ بني غِفار، فأتاهُ جبريلُ عليه السلام، فقال: إنَّ اللهَ يَأمُرُكَ أن تَقرَأَ أَمَّتُكَ القرآنَ على حَرف، فقال: «أسأَلُ اللهَ مُعَافَاتَه ومَغفِرَتَهُ، وإنَّ أمَّتي لا تُطِيقُ ذلك». ثم أتاه الثانيةَ، فقال: إنَّ اللهَ يأمُرُكَ أن تَقرَأَ أَمَّتُكَ القُرآنَ على حَرفَينِ، فقال: «أسألُ اللهَ مُعافاتَه ومَغفِرَتَهُ، وإنَّ أمَّتي لا تُطِيقُ ذلك». ثم جاءَه الثالثةَ، فقال: إن الله يأمُرُكَ أن تَقرَأَ أَمَّتُك القُرآنَ على ثلاثة أحرف، فقال: «أسألُ الله معافاتَه ومَغفِرَتَهُ، وإنَّ أمَّتي لا تُطيقُ ذلك». ثم جاءَه الرابعة، فقال: إن الله يأمرُكَ أن تَقرَأَ أمَّتُكَ القُرآنَ على سَبعَةِ أحرُف، فأيُّما حَرف قرؤوا عليه، فقد أصابوا[2].

وروى الترمذيُّ عنه، قال: لَقِيَ رسولُ الله ﷺ جبريلَ، فقال: «ياجِبرِيلُ، إني بُعِثتُ إلى أمَّة أُمِّيَّة، منهم العجوزُ، والشيخُ الكبيرُ، والغُلامُ، والجاريةُ، والرجلُ الذي لا يقرأُ كتاباً قطُّ، فقال لي: يامحمدُ، إنَّ القرآنَ أُنزلَ على سبعة أحرف». قال: هذا حديثٌ حسن صحيحٌ[3].

وثبتَ في الأمهات: البخاريِّ، ومسلم، والموطأ، وأبي داود، والنسائي،

---

(١) في (ز): ثم سل.

(٢) صحيح مسلم (٨٢١)، وهو في مسند أحمد (٢١١٧٢). قوله: أضاة بني غِفار؛ قال ابن الأثير في النهاية (آض): الأضاة بوزن الحصاة: الغدير، وجمعها أضًى وإضاء، كأَكَم وإكام.

(٣) سنن الترمذي (٢٩٤٤). ولفظة «حسن» ليست في (م).

وغيرها من المصنَّفات والمسنَدات، قصةُ عمرَ مع هشام بنِ حَكِيم[١]، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبيَّناً إن شاء الله تعالى[٢].

وقد اختلف العلماءُ في المراد بالأحرف السَّبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمدُ بنُ حِبَّانَ البُستيُّ[٣]، نذكر منها في هذا الكتاب خمسةَ أقوال:

الأول: وهو الذي عليه أكثرُ أهل العلم، كسفيانَ بنِ عُيَينَة، وعبدِ الله بنِ وَهْب، والطَّبَريِّ، والطَّحاويِّ[٤]، وغيرِهم، أن المرادَ سبعةُ أوجُه مِنَ المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو: أقبِل، وتَعالَ، وهَلُمَّ[٥].

قال الطحاويُّ: وأَبيَنُ ماذُكِرَ في ذلك حديثُ أبي بَكرَةَ[٦] قال: جاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: اِقرَأ على حَرف، فقال ميكائيل: اِستَزِدهُ، فقال: اِقرأ على حَرفَين، فقال ميكائيل: اِستَزِدهُ. حتى بلغَ إلى سبعة أحرف، فقال: اِقرأ، فكُلٌّ شافٍ كافٍ، إلا أن تَخلِطَ آيَةَ رحمة بآيةِ عذاب، أو آيَةَ عذاب بآية رحمة، على نحو: هَلُمَّ، وتَعالَ، وأقبِلْ، واذهَبْ، وأسرِعْ، وعَجِّلْ[٧].

وروى وَرقاءُ، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب أنه كان يقرأ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ [الحديد: ١٣]: للذينَ آمنوا أمهِلُونا، للذينَ آمنوا أَخِّرُونا، للذين آمنوا ارقُبُونا. وبهذا الإسناد عن أُبي، أنه كان يقرأ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: مَرُّوا فيه، سَعَوا فيه[٨].

---

(١) الصحابي ابن الصحابي حكيمِ بنِ حِزام، توفي أول خلافة معاوية. السير ٣/ ٥١.

(٢) ص ٨١، فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام، ونذكر تخريجه ثمة.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ٩/ ٢٣ ما أورده المصنف عن ابن حبان في عدد الأقوال في الأحرف السبعة، وقال: لم أقف على كلام ابن حبان في هذا بعد تتبعي مظانه من صحيحه.

(٤) هو أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر، الأزدي، الحافظ، له شرح مشكل الآثار ومعاني الآثار، وغير ذلك، مات سنة (٣٢١هـ) السير ١٥/ ٢٧.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٤٥.

(٦) نُفيع بن الحارث، الثقفي، الطائفي، مولى النبيِّ ﷺ، وكان من فقهاء الصحابة. مات سنة (٥١هـ). السير ٣/ ٥.

(٧) شرح مشكل الآثار (٣١١٨). وفيه: اقرأه، بدل: اقرأ. وقد نقل المصنف كلام الطحاوي بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٨/ ٢٩٠.

(٨) التمهيد ٨/ ٢٩١.

وفي البخاري ومسلم: قال الزُّهريُّ: إنما هذه الأحرفُ في الأمر الواحد، ليس يختلفُ في حلال ولا حرام[١].

قال الطحاوي: إنَّما كانت السَّبعةُ[٢] للنَّاس في الحروفِ لعجزهم عن أخذِ القرآن على غير لُغاتِهم[٣]، لأنَّهم كانوا أمّيِّين، لايكتبُ إلا القليلُ منهم، فلما كان[٤] يَشُقُّ على كل ذي لغة أن يتحوَّل إلى غيرها من اللغات، ولو رامَ ذلك، لم يتهيَّأ له إلا بمشَقَّة عظيمة، فوُسِّعَ لهم في اختلافِ الألفاظ إذ كان المعنى متَّفِقاً، فكانوا كذلك حتَّى كثُر منهم مَن يكتبُ، وعادَت لغاتُهم إلى لسانِ رسول الله ﷺ، فقرؤوا[٥] بذلك على تحفُّظ ألفاظِه، فلم يَسَعهُم حينئذ أن يقرؤوا بخلافِها[٦].

قال ابنُ عبد البَر: فبانَ بهذا أنَّ تلك السَّبعَةَ الأحرفِ إنَّما كان في وقت خاصٍّ لضرورة دَعَت إلى ذلك، ثمَّ ارتفعت تلك الضَّرورةُ، فارتفعَ حُكمُ هذه السَّبعةِ الأحرفِ، وعاد مايُقرأ به القرآنُ إلى[٧] حرف واحد[٨].

وروى أبو داود عن أُبَيٍّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أُبَيُّ، إنِّي أُقرِئتُ القرآنَ، فقيلَ لي: على حرف، أو حرفين؟ فقال المَلَك الذي معي: قُل: على حرفين. [قلت: على حرفين]، فقيل لي: على حرفَين أو ثلاثة؟ فقال المَلَك الذي معي: قُل: على ثلاثة. [قلت: على ثلاثة] حتَّى بلغ سبعةَ أحرُف، ثمَّ قال: ليس

---

(١) ليس هو في صحيح البخاري، وذكره مسلم بإثر الحديث (٨١٩)، وذكره أيضاً الطبري ١/ ٢٧، والطحاوي بإثر الحديث (٣١١٦).

(٢) في (ظ) و(م): السعة، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لشرح مشكل الآثار والتمهيد. (تنظر التعليقات الثلاثة التالية).

(٣) في (ظ): لغتهم.

(٤) في التمهيد ٨/ ٢٩٤: «فكان»، بدل: «فلما كان»، وهو الأشبه.

(٥) في (م): فقدروا.

(٦) كلام الطحاوي هذا قاله في شرح مشكل الآثار ٨/ ١٢٥ و ١١٧ ـ ١١٨، وقد نقله عنه ابن عبد البَر في التمهيد ٨/ ٢٩٤، ونقله المصنف هنا عن ابن عبد البر.

(٧) في (م): على.

(٨) التمهيد ٨/ ٢٩٤.

منها[١] إلا شافٍ كافٍ، إن قُلتَ: سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تَخلِطْ آيةَ عذابٍ برحمَة، أو آيةَ رحمةٍ بعذاب»[٢].

وأسند ثابتُ بن قاسم[٣] نحوَ هذا الحديث، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ، وذكر من كلامِ ابن مسعود نحوه[٤].

قال القاضي ابنُ الطَّيِّب[٥]: وإذا ثَبَتَت هذه الرِّوايةُ ـ يريدُ حديثَ أُبَيّ ـ حُمِل على أنَّ هذا كان مُطلَقاً، ثم نُسِخ، فلا يجوز للنَّاس أن يُبدِّلوا اسماً لله تعالى في موضع بغيره ممَّا يوافقُ معناه أو يُخالِفُ[٦].

القولُ الثاني: قال قومٌ: هي سبعُ لغات في القرآن على لغاتِ العرب[٧]، يَمَنِها ونِزارِها، لأنَّ رسول الله ﷺ لم يَجهَلْ شيئاً منها، وكان قد أُوتِيَ جَوامِعَ الكَلِم، وليس معناه أن يكونَ في الحرفِ الواحدِ سبعةُ أوجُه، ولكنَّ هذه اللُّغاتِ السَّبعَ مُتفرِّقةٌ في القرآن، فبعضُه بلغةِ قريش، وبعضُه بلغةِ هُذَيْل، وبعضُه بلغةِ هَوَازِن، وبعضُه بلغةِ اليمَن.

قال الخطَّابي: على أنَّ في القرآنِ ما قَد قُرِىء بسبعَةِ أوجُه، وهو قولُه: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقولُه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]. وذكر

---

(١) في (ظ): فيها.

(٢) سنن أبي داود (١٤٧٧) وما بين حاصرتين منه، وفيه: مالم تختم آية عذاب برحمة...

(٣) ثابت بن قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن العوفي، من أهل سَرَقُسطة، حدّث بكتاب أبيه المسمى الدلائل (وهو في شرح الحديث). توفي سنة (٣٥٢هـ). كذا في تاريخ علماء الأندلس ١/ ١٠٠. وجاء في ترجمة أبيه قاسم بن ثابت ١/ ٣٦١ صاحب الدلائل: بلغ فيه الغاية من الإتقان، ومات قبل إكماله (سنة ٣٠٢هـ)، فأكمله أبوه ثابت بعده. وانظر جذوة المقتبس ص٣٣١.

(٤) حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٣٩٠)، وكلام ابن مسعود أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٠٧، والطبري ١/ ٤٦.

(٥) في النسخ الخطية: أبو الطيب، والمثبت من (م)، وهو الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، البصري، ثم البغدادي، المعروف بابن الباقلاني، صاحب الانتصار للقرآن وغيره من التصانيف، كان يضرب المثل بفهمه وذكائه. مات سنة (٤٠٣هـ). السير ١٧/ ١٩٠.

(٦) من قوله: وأسند ثابت بن قاسم، إلى هذا الموضع، من كلام ابن عطية في تفسيره ١/ ٤٤.

(٧) في (م): لغات العرب كلها.

وجوهاً، كأنَّه يذهبُ إلى أنَّ بعضَه أُنزلَ على سبعةِ أحرف، لا كُلَّه[١].

وإلى هذا القول ـ بأنَّ القرآن أُنزل على سبعةِ أحرُف، على سبعِ لُغات ـ ذهبَ أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلَّام، واختاره ابنُ عطيَّة[٢]. قال أبو عُبيد: وبعضُ الأحياءِ أسعدُ بها وأكثرُ حظًّا فيها من بعض، وذكر حديثَ ابنِ شهاب عن أنَس، أنَّ عُثمان قالَ لهم حين أمَرَهُم أن يكتبوا المصاحِفَ: ما اختلفتُم أنتم وزيد، فاكتبوه بلُغةِ قُريش، فإنه نزل بلُغَتِهم[٣]. ذكره البخاري[٤]. وذكرَ حديثَ ابنِ عبَّاس قال: نزلَ القُرآن بِلُغَة الكَعبَين: كعبِ قُريش، وكعبِ خُزاعة، قيلَ: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ الدَّارَ واحدةٌ. قال أبو عُبيد: يعني أنَّ خُزاعة جيرانُ قريش، فأخذوا بِلُغَتِهم[٥].

قال القاضي ابنُ الطَّيِّب[٦] رضي الله عنه: معنى قولِ عثمانَ: فإنَّه نزلَ بلسان قُريش، يريد مُعظَمَهُ وأكثرَه، ولم تَقُم دِلالَةٌ قاطِعةٌ على أنَّ القرآن بأسرِهِ مُنزلٌ بلُغة قُريش فقط، إذ فيه كلماتٌ وحروفٌ هي خِلافُ لُغةِ قُريش، وقد قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ولم يقُل: قُرَشِياً، وهذا يدلُّ على أنَّه مُنزلٌ بجميع لسانِ العرَب، وليس لأحد أن يقولَ: إنه أرادَ قُريشاً من العَرب دون غيرها، كما أنَّه ليس له أن يقولَ: أرادَ لُغةَ عَدنانَ دون قَحطانَ، أو ربيعةَ دون مُضَرَ، لأنَّ اسمَ العرب يتناول جميعَ هذه القبائلِ تناولاً واحداً.

وقال ابنُ عبد البَرِّ: قولُ مَن قال: إنَّ القُرآن نزلَ بِلُغة قُريش، معناهُ عندي: في الأغلبِ. والله أعلم. لأنَّ غيرَ لُغةِ قُريش موجودةٌ في صحيحِ القراءات، من تحقيقِ الهَمزَاتِ ونحوِها، وقُريشٌ لا تَهمِزُ[٧].

---

(١) ليس هذا الكلام كلُّه للخطابي، إنما نقل الخطابيُّ عن ابن الأنباري كلامه في الآيتين المذكورتين، ثم قال: وذكر وجوهاً..، كأنه يذهب (يعني ابن الأنباري) في تأويل الحديث... الخ. انظر معالم السنن ١/ ٢٩٣.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص٢٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦.

(٣) في فضائل القرآن ص٢٠٣: فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٨٧).

(٥) فضائل القرآن ص٢٠٤.

(٦) في النسخ الخطية: أبو الطيب، والمثبت من (م).

(٧) التمهيد ٨/ ٢٨٠.

وقال ابن عطيَّة: معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «أُنزِلَ القرآنُ على سَبعَةِ أحرُف» أي: فيه[(١)] عبارةُ سبع قبائِلَ، بِلُغةِ جُملَتِها نزلَ القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مَرَّة بعبارة قريش، ومَرَّة بعبارة هُذَيل، ومَرَّة بغير ذلك، بحسبِ الأفصح، والأوجَزِ في اللفظ. ألا ترى أنَّ «فَطَر» معناه عند غير قريش: ابتدأ، فجاءت في القرآن، فلم تَتَّجِهْ لابن عباس، حتَّى اختَصَمَ إليه أعرابيَّان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فَطَرْتُها، قال ابنُ عبَّاس: ففهمتُ حينئذ موقع[(٢)] قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]. وقال أيضاً: ما كنتُ أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعتُ بنتَ ذي يَزَن تقول لزوجها: تَعالَ أُفاتِحْكَ، أي: أُحاكِمْكَ.

وكذلك قال عمرُ بنُ الخطاب، وكان لا يفهمُ معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] أي: على تَنَقُّص لهم.

وكذلك اتَّفَقَ لقُطبَةَ بنِ مالك[(٣)]، إذ سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقرأُ في الصَّلاة: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠]. ذكره مُسلمٌ في باب القراءة في صلاة الفجر[(٤)] إلى غير ذلك من الأمثلة[(٥)].

القولُ الثالث: أنَّ هذه اللُّغاتِ السَّبعةَ إنَّما تكون في مُضَر. قاله قومٌ، واحتجُّوا بقول عثمان: نزلَ القُرآنُ بِلُغةِ مُضَر، وقالوا: جائزٌ أن يكونَ منها لقُريش، ومنها لِكنانَة، ومنها لأَسَد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَمِيم[(٦)]، ومنها لِضَبَّة، ومنها لِقَيس، قالوا: هذه قبائلُ مُضَرَ تستوعِبُ سبعَ لُغات على هذه المراتِبِ، وقد كان ابنُ مسعود يُحبُّ أن يكون الذين يكتُبون المصاحِفَ من مُضَر[(٧)]. وأنكَر آخرونَ أن تكونَ كُلُّها في[(٨)] مُضَرَ، وقالوا: في مُضَرَ شَواذُّ لا يجوزُ أن يُقرَأَ القرآنُ بها، مثلُ كَشكَشَةِ قَيس،

---

(١) في (ز): في.
(٢) في (م): موضع.
(٣) الثعلبي، ويقال: الذبياني، من أهل الكوفة، وهو عم زياد بنِ عِلاقة، وهو ممن أخرج لهم مسلم في الصحابة دون البخاري. الإصابة ٨/ ١٦٥.
(٤) صحيح مسلم (٤٥٧)، وهو عند أحمد (١٨٩٠٣).
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٦ ـ ٤٧، وانظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٧١ ـ ٧٢.
(٦) في (د) و(ظ) و(م): لتيم، ولم ترد في (ز)، و المثبت من التمهيد ٨/ ٢٧٧.
(٧) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٠٥.
(٨) في (م): من.

وعَنْعَنَةِ[1] تميم. فأمَّا كَشكَشَةُ قيس، فإنَّهم يجعلون كافَ المؤنَّثِ شِيناً، فيقولون في ﴿جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]: «جعل رَبُّشِ تحتشِ سَرِيًّا». وأمَّا عَنْعَنَةُ تميم، فيقولون [في أن: عن، فيقولون: «عَسَى اللهُ عن يأتيَ بالفتح»، وبعضهم يُبدلُ السينَ تاءً، فيقولُ] في النَّاسِ: النَّات، وفي أكيَاس: أكيَات[2]. قالوا: وهذه لُغَاتٌ يُرغَبُ عن القرآن بها، ولا يُحفَظُ عن السَّلَفِ فيها شيءٌ.

وقال آخرون: أمَّا بدل[3] الهمزَةِ عَيناً، وبدل حروفِ الحَلق بعضِها من بعض، فمشهورٌ عن الفُصحاء، وقد قرأ به الجِلَّةُ، واحتَجُّوا بقِرَاءةِ ابنِ مسعود: «لَيَسجُنُنَّهُ عتَّى حِين». ذكرَها أبو داود[4]، وبقولِ ذي الرُّمَّة[5]:

فعيناكِ عيناها وجِيدُكِ جِيدُها ولَونُكِ إلا عَنَّها غيرُ طائِلِ

يريدُ: إلا أنَّها.

القولُ الرَّابع: ما حكاهُ صاحبُ «الدَّلائِل»[6] عن بعضِ العلماء، وحكى نحوَهُ القاضي ابنُ الطَّيِّب[7] قال: تَدَبَّرتُ وجُوهَ الاختلافِ في القراءَةِ، فوجدتُها سبعة:

منها: ما تَتَغيَّرُ حركَتُه، ولا يزولُ معناه ولا صورَتُه، مثل: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] وأطهَرَ[8]، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ [الشعراء: ١٣] ويَضيقَ[9].

---

(١) تحرف في النسخ الخطية و(م) (في الموضعين) إلى: تمتمة، ونقله الزرقاني في مناهل العرفان ١/ ١٧٥. وعَنعَنَةُ تميم: إبدالهم العين من الهمزة كما سيمثّل له المصنف.

(٢) وهو الوتم في لغة اليمن، كما في المزهر للسيوطي ١/ ٢٢٣.

(٣) في (م) (في الموضعين): إبدال.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٨/ ٢٧٨ من طريق أبي داود السجستاني، (وليس هو في سننه). وقراءة ابن مسعود هذه ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٣. وقد نقل المصنف القول الثالث بتمامه من التمهيد ٨/ ٢٧٧ . ٢٧٨، وما بين حاصرتين منه.

(٥) هو غَيلان بن عقبة بن بُهيش، أبو الحارث، من فحول الشعراء، مات بأصبهان سنة (١١٧هـ). سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٧، والبيت في ديوانه ٢/ ١٣٤١.

(٦) هو قاسم بن ثابت السَّرَقُسطي، سلفت ترجمته ص٧٤.

(٧) في الانتصار ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥ مخطوط نشرة سزكين.

(٨) بالنصب، وهي قراءة شاذة، ذكرها ابن خالويه في كتابه ص ٦٠، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٢٥، ونقل أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٢٤٧ عن سيبويه قوله: هو لحن.

(٩) بالنصب، عطف على «يكذبون» في الآية قبلها، وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر النشر ٢/ ٣٣٥.

ومنها: مالا تَتَغيَّرُ صُورَتُه، ويتغيَّرُ معناه بالإعراب، مثل: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، و[ربُّنا] بَاعَدَ[١].

ومنها: ما تَبقى صورتُه، ويتغيَّرُ معناه باختلافِ الحروف، مثل قوله: ﴿نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ونُنشِرُها[٢].

ومنها: ما تَتَغيَّرُ صورتُه، ويبقى معناه: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وكالصُّوفِ المَنفُوش[٣].

ومنها: ماتتغيَّرُ صورتُه ومعنَاهُ، مثل: ﴿وَطَلۡحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩]: وطَلعٍ مَنضُود[٤].

ومنها: بالتَّقديم والتَّأخير، كقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق: ١٩]: وجاءت [سكرةُ] الحقِّ بالمَوت[٥].

ومنها: بالزِّيادةِ والنُّقصان، مثل قولهِ: «تِسعٌ وتسعُونَ نَعجَةً أنثى»[٦]، وقولهِ: «وأمَّا الغُلامُ فكان كافِراً وكان أبَواه مؤمنَين»[٧]، وقولهِ: «فإنَّ اللهَ مِن بَعدِ إكراهِهِنَّ لهنَّ غفورٌ رحيم»[٨].

القولُ الخامس: أنَّ المرادَ بالأحرُفِ السَّبعَةِ معاني كتاب الله تعالى، وهي أمرٌ

---

(١) أي على جهة الخبر، وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر النشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) من: أنشَرَ، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو من السبعة، وأبي جعفر ويعقوب من العشرة. انظر السبعة ص ١٨٩، والتيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢٣١. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦ لأبان عن عاصم: نَنشُرُها، بفتح النون، ونسبها صاحب إتحاف فضلاء البشر ص٢٠٨ للحسن.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٧٨ لابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٥١، أن علياً رضي الله عنه قرأها على المنبر، فقيل له: أفلا نغيره في المصحف؟ قال: ما ينبغي للقرآن أن يُهاج، أي: لا يغير.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٤ لأبي بكر الصديق وأُبي رضي الله عنهما.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٣ وقد حكاه ابن عطية عن صاحب الدلائل وابن الطيّب الباقلاني، ونسب ابن خالويه لابن مسعود رضي الله عنه في القراءات الشاذة ص ١٣٠ قراءة: ولي نعجة أنثى. وانظر التمهيد ٨/ ٢٩٥.

(٧) ذكرها ابن عطية في تفسير الآية (٨٠) المذكورة من سورة الكهف، ونسبها لأُبيّ، وانظر البحر المحيط ٦/ ١٥٤.

(٨) نسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٠٨ لابن عباس، وسعيد بن جبير. وذكرها ابن عطية في تفسيره ٤/ ١٨٢، ونسبها لابن مسعود وجابر وسعيد بن جبير.

ونَهيٌ، ووَعدٌ ووَعيدٌ، وقَصَصٌ، ومُجادَلَةٌ وأمثالٌ. قال ابنُ عطيَّة: وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ هذا لا يُسمَّى أحرُفاً، وأيضاً؛ فالإجماعُ على أن التَّوسِعَةَ لم تَقَع في تحليلِ حلال[١]، ولا في تغييرِ شيء من المعاني. وذكر القاضي ابنُ الطَّيِّب في هذا المعنى حديثاً عن النبيِّ ﷺ، ثمَّ قال: ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءةَ بها، وإنَّما الحرفُ في هذه بمعنى الجهةِ والطريقة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] فكذلك معنى هذا الحديثِ على سبعِ طرائقَ من تحليل وتحريم، وغيرِ ذلك[٢].

وقد قيل: إنَّ المرادَ بقوله عليه السلام: «أُنزل القرآنُ على سَبعَةِ أحرف» القراءاتُ السَّبعُ التي قرأ بها القُرَّاءُ السَّبعةُ، لأنَّها كلَّها صَحَّت عن رسولِ الله ﷺ. وهذا ليسَ بشيء، لظهورِ بُطلانِه على ما يأتي.

فصل

قال كثيرٌ من علمائنا، كالدَّاوُدِي[٣]، وابنِ أبي صُفْرة[٤]، وغيرِهما: هذه القراءاتُ السَّبعُ التي تُنسبُ لهؤلاء القرَّاءِ السبعةِ، ليست هي الأحرفَ السَّبعةَ التي اتَّسعتِ الصحابةُ في القراءة بها، وإنَّما هي راجعةٌ إلى حرف واحد من تلك السَّبعةِ، وهو الذي جمعَ عليه عثمانُ المصحفَ، ذكره ابنُ النَّحاس وغيرُه. وهذه القراءاتُ المشهورةُ هي اختياراتُ أولئك الأئمةِ القرَّاء، وذلك أنَّ كلَّ واحد منهم اختارَ ـ فيما رَوى، وعَلِمَ وجهَةً من القراءات ـ ما هو الأحسَنُ عندهَ والأولى، فالتزمَه طريقةً، ورواه وأقرأ به، واشتهرَ عنه، وعُرِفَ به، ونُسِب إليه، فقيل: حرفُ نافع، وحرفُ ابنِ كَثير، ولم يمنع واحدٌ منهم اختيارَ الآخَر، ولا أنكرَه، بل سوَّغَه وجَوَّزه، وكلٌّ واحد من هؤلاء السبعةِ رُوي عنه اختياران، أو أكثر، وكلٌّ صحيح. وقد أجمعَ المسلمون

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤٣: أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣ ـ ٤٤، وفيه كلام ابن الباقلاني السالف.

(٣) لعله أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي؛ ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ٦٢٣ وقال: من أئمة المالكية بالمغرب، والمتَّسمين بالعلم، المجيدين للتأليف... توفي بتلمسان سنة (٤٠٢هـ).

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أبي صفرة أخو أبي القاسم المهلب، سمع من الأصيلي، وكان من كبار أصحابه، وتوفي بالقيروان. ترتيب المدارك ٤/ ٧٥٢، و٢/ ٢٠١، وإكمال المعلم ٣/ ١٩٠.

في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صَحَّ عن هؤلاء الأئمةِ مما رَوَوه ورأَوهُ من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنَّفات، فاستَمرَّ الإجماعُ على الصَّواب، وحصلَ ما وعدَ اللهُ به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمةُ المتقدِّمون، والفضلاءُ المحقِّقون، كالقاضي أبي بكر بن الطَّيِّب، والطَّبريِّ، وغيرِهما[1].

قال ابنُ عطيَّة: ومَضَتِ الأعصارُ والأمصارُ على قراءة السَّبعةِ، وبها يُصَلَّى، لأنَّها ثبتت بالإجماع. وأما شاذُّ القراءات[2]، فلا يُصَلَّى به، لأنَّه لم يُجمِعِ الناسُ عليه، أما أنَّ المرويَّ منه عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن علماء التابعين، فلا يُعتَقَدُ فيه إلا أنَّهم رَوَوْه. وأمَّا ما يُؤثَرُ عن أبي السَّمَّال[3] ومَن قارنَه، فإنَّه لا يُوثَقُ به[4].

قال غيرُه: أمَّا شاذُّ القراءة عن المصاحف المتواترة، فليست بقرآن، ولا يُعمَلُ بها على أنَّها منه، وأحسَنُ مَحامِلِها أن تكونَ بيانَ تأويلِ مذهَبِ مَن نُسبِت إليه، كقراءة ابنِ مسعود: «فصيامُ ثلاثةِ أيام مُتَتابعات»[5]. فأما لَو صَرَّح الراوي بسماعها من رسول الله ﷺ، فاختلفَ العُلماءُ في العمل بذلك على قولين: النَّفي والإثبات، وجهُ النَّفي[6]: أنَّ الراويَ لم يروه في مَعرِض الخبر، بل في مَعرِض القرآن، ولم يُثبت، فلا يَثبت. والوجه الثاني: أنَّه وإن لم يَثبت كونُه قرآناً، فقد ثبتَ كونُه سنَّةً، وذلك يُوجِبُ العملَ، كسائر أخبارِ الآحاد.

فصل في ذكر معنى حديثِ عُمر وهشام

قال ابنُ عطيَّة[7]: أباحَ اللهُ تعالى لنبيِّه عليه السلامُ هذه الحروفَ السَّبعةَ،

---

(١) من قوله: قال كثير من علمائنا... هو كلام أبي العباس القرطبي في المفهم ٢/ ٤٥٠.

(٢) في النسخ الخطية: القرآن، والمثبت من المحرر الوجيز ١/٤٨.

(٣) في النسخ الخطية: ابن السماك، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤٨، وهو قعنب بن أبي قعنب العدوي البصري، ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ٢/ ٢٧ وقال: له اختيار في القراءة شاذ عن العامة، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٣٤ وقال: لا يُعتمد على نقله، ولا يوثق به.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨، وفيه: قاربَه، بدل: قارنه.

(٥) أخرجها عبد الرزاق في المصنف (١٦١٠٢) (١٦١٠٣) (١٦١٠٤)، والطبري في التفسير ٨/ ٦٥٢. وقال: ذلك خلاف ما في مصاحفنا.

(٦) في (ز) و(ظ): النافي.

(٧) في المحرر الوجيز ١/ ٤٧.

وعارضَه بها جبريلُ عليه السلامُ في عَرَضَاته على الوجه الذي فيه الإعجازُ، وجودةُ الرَّصف[١]، ولم تقعِ الإباحةُ في قوله عليه السلام: «فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه» بأن يكون كلُّ واحد من الصَّحابة إذا أرادَ أن يُبَدِّلَ اللَّفْظةَ من بعض هذه اللُّغاتِ، جَعَلَها من تلقاءِ نفسِه، ولو كان هذا، لذهبَ إعجازُ القرآن، وكان مُعرَّضاً أن يُبدَّلَ هذا وهذا، حتَّى يكون غيرَ الذي نزلَ من عند الله، وإنَّما وقعت الإباحَةُ في الحروف السَّبعة للنبيِّ ﷺ ليوسِّعَ بها على أُمَّتِه، فأقْرأَ مَرَّةً لأُبَيٍّ بما عارضَه به جبريلُ، ومَرَّةً لابن مسعود بما عارضَه به أيضاً، وعلى هذا تجيءُ قراءةُ عمرَ بنِ الخطاب لسورة الفرقان، وقراءةُ هشام بنِ حَكِيم لها، وإلا، فكيف يستقيمُ أن يقولَ النبيُّ ﷺ في كلٍّ قراءة منهما وقد اختلفا: «هكذا أقرأني جبريلُ» ؟ هل ذلك إلا أنَّه أقرأه مَرَّةً بهذه، ومَرَّةً بهذه ؟ وعلى هذا يُحملُ قولُ أنس حين قرأ: «إن ناشِئةَ اللَّيلِ هي أشدُّ وَطْأً وأصْوَبُ قِيلاً»، فقيل له: إنَّما تُقرأ: «وأقوَمُ قِيلاً»، فقال أنس: وأصوَبُ قِيلاً، وأقوَمُ قِيلاً، وأهيأ، واحدٌ[٢]. فإنَّما معنى هذا أنَّها مرويَّةٌ عن النبي ﷺ، وإلا، فلو كان هذا لأحد من الناس أن يَضَعَه، لَبَطَل معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن عمرَ بنِ الخطاب قال: سمعتُ هشامَ بنَ حَكِيم يقرأ سورةَ الفُرقانِ على غير ما أقرؤُها، وكان رسولُ الله ﷺ أقرَأَنِيها، فَكِدتُ أن أَعجَلَ عليه، ثم أمهَلتُه حتَّى انصرفَ، ثم لَبَّبتُه بردائه، فجئتُ به رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يارسول الله، إنِّي سمعتُ هذا يقرأ سورةَ الفرقان على غيرِ ما أقرَأتَنِيها ! فقال رسول الله ﷺ: «أرسِلْه. اِقْرأ». فقرأ القراءة التي سمعتُه يقرأ، فقال رسولُ الله ﷺ: «هكذا أُنزِلَت». ثمَّ قال لي: «اِقْرأ»، فقرأتُ، فقال: «هكذا أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سَبعَةِ أحرُف، فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ منه»[٣].

قلتُ: وفي معنى حديثِ عُمر هذا ما رواه مسلم عن أُبَيِّ بنِ كعب قال: كنتُ في المسجد، فدخلَ رجلٌ يصلِّي، فقرأ قراءةً أنكرتُها عليه، ثمَّ دخَلَ آخَرُ، فقرأ قراءة

---

(١) في النسخ الخطية: الوصف. والمثبت من (م).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٧ و٢٣/ ٣٧٣، وابن جني في المحتسب ٢/ ٣٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٤٩٩٢)، و صحيح مسلم (٨١٨). وهو في المسند (٢٧٧).

سِوَى قراءةِ صاحبِه، فلمَّا قَضَينا الصلاةَ، دَخَلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلتُ: إنَّ هذا قَرَأَ قراءةً أنكَرتُها عليه، ودَخَلَ آخَرُ، فقرأ سِوَى قراءةِ صاحبِه، فأمَرَهما النبيُّ ﷺ فقَرَأا، فَحسَّنَ النبيُّ ﷺ شأنَهما، فَسُقِطَ في نفسي من التَّكذيب، ولا إذ كنتُ في الجاهليَّة، فلما رأى النبيُّ ﷺ ماقد غَشِيَني، ضَرَبَ في صدري، فَفِضْتُ عَرَقاً، وكأنَّما أنظرُ إلى الله تعالى فَرَقاً، فقال[1]: «يا أُبَيُّ، أُرسِلَ إليَّ أن أقرَأ القرآنَ على حَرف، فَرَدَدتُ إليه: أن هَوِّنْ على أمَّتي، فَردَّ إليَّ الثانيةَ: اِقرَأْهُ[2] على حَرفَين، فَرَدَدتُ إليه: أن هَوِّنْ على أمَّتي، فَرَدَّ إليَّ الثالثةَ: اِقرَأْهُ على سبعةِ أحرُف، ولك[3] بكلِّ رَدَّةٍ رَدَدتُكَها مسألةٌ تَسألُنِيها، فقلتُ: اللَّهمَّ اغفِر لأمتي، اللَّهم اغفِر لأمتي، وأخَّرتُ الثالثةَ ليوم يَرغَبُ إليَّ فيه الخلقُ كُلُّهم، حتَّى إبراهيمُ عليه السَّلام»[4].

قولُ أُبَيٍّ رضي الله عنه[5]: فَسُقِطَ في نفسي، معناه: اعتَرتني حَيرةٌ ودَهشَةٌ، أي: أصابتهُ نَزغَةٌ من الشيطان ليشوِّشَ عليه حالَه، ويُكدِّرَ عليه وقتَه، فإنه عَظُمَ عليه من اختلاف القراءاتِ ماليس عظيماً في نفسه، وإلا، فأيُّ شيء يلزمُ من المحال والتَّكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك ـ والحمد لله ـ في النَّسخ الذي هو أعظم، فكيفَ بالقراءة؟

ولمَّا رأى النبيُّ ﷺ ما أصابه من ذلك الخاطر، نَبَّهَهُ، بأن ضرب[6] في صدره، فأعقَبَ ذلك بأنِ انشرحَ صدرُه، وتَنَوَّرَ باطنُه، حتَّى آلَ به الكَشفُ والشَّرحُ إلى حالةِ المُعَاينة. ولمَّا ظهر له قُبحُ ذلك الخاطر، خافَ من الله تعالى، وفاضَ بالعَرَق استحياءً من الله تعالى، فكان هذا الخاطرُ من قبيل ما قال فيه النبيُّ ﷺ حين سألوه: إنَّا نَجِدُ في أنفُسنا ما يَتَعاظَمُ أحَدُنا أن يَتَكَلَّمَ به، قال: «وقد وَجَدتُموه؟!». قالوا:

---

(١) في (م): فقال لي.
(٢) في (ظ): أن اقرأه.
(٣) في (م): فلك.
(٤) صحيح مسلم (٨٢٠)، وهو في المسند برقم (٢١١٧١).
(٥) الكلام من هذا الموضع إلى آخر الباب، من المفهم ٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٢ بتصرف يسير.
(٦) في (م): ضربه.

نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة[١]. وسيأتي الكلام عليه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى[٢].

بابُ ذِكرِ جمعِ القرآن، وسببِ كَتبِ عثمانَ المصاحفَ، وإحراقِه ما سواها، وذِكرِ مَن حَفِظَ القرآنَ من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبيِّ ﷺ

كان القرآنُ في مدَّة النبيِّ ﷺ متفرِّقاً في صدور الرجال، وقد كتبَ الناسُ منه في صُحُف، وفي جَريد، وفي لِخاف وظُرَر، وفي خَزَف، وغير ذلك. قال الأصمعيُّ[٣]: اللِّخاف: حجارةٌ بِيضٌ رِقاق، واحدتُها لَخْفَة. والظُّرَرُ: حجرٌ، له حدٌّ كحدِّ السكين، والجمع ظِرارٌ؛ مثلُ رُطَب ورِطاب، ورُبَع ورِباع، وظِرَّان أيضاً، مثلُ صُرَد وصِردان[٤].

فلما استَحَرَّ القتلُ بالقُرَّاء يومَ اليمامة في زمن الصدِّيق رضي الله عنه، وقُتِلَ منهم في ذلك اليوم ـ فيما قيل ـ سبعُ مئة، أشار عمرُ بنُ الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن، مخافةَ أن يموتَ أشياخُ القرَّاء، كأُبَيٍّ، وابنِ مسعود، وزيد، فندبا زيدَ بنَ ثابت إلى ذلك، فجمَعَه غيرَ مرتَّب السُّوَر، بعد تعب شديد، رضي الله عنه[٥].

روى البخاري عن زيد بنِ ثابت قال: أرسلَ إليَّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامةِ، وعندَه عُمرُ، فقال أبو بكر: إنَّ عمرَ أتاني، فقال: إنَّ القَتلَ قدِ استَحَرَّ يومَ اليمامةِ بالناس، وإني أخشَى أن يَستَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاء في المواطن، فيذهبَ كثيرٌ من القرآن، إلا أن تَجمعوه، وإني لأرى أن تَجمعَ القرآنَ. قال أبو بكر: فقلتُ لعمر: كيف أفعلُ

---

(١) صحيح مسلم (١٣٢).

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ (الآية: ٢٠٠).

(٣) عبد الملك بن قُريب، أبو سعيد الأصمعي البصري، اللغوي الأخباري، توفي سنة (٢١٥هـ) وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٧٥.

(٤) الرُّبَع: الفصيل يُنتَجُ في الربيع، وهو أول النتاج، والصُّرَد: طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمنقار، وكانوا يتشاءمون به. (المعجم الوسيط).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٩.

شيئاً لم يَفعَلْه رسولُ الله ﷺ ؟! فقال: هو واللهِ خيرٌ. فلم يَزَل يُراجِعُني حتى شرحَ اللهُ لذلك صدري، ورأيتُ الذي رأى عمرُ.

قال زيدٌ: وعندَه عمرُ جالسٌ لا يَتكلَّمُ، فقال لي أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ، ولا نَتَّهِمُك، كنتَ تَكتُبُ الوحيَ لرسولِ اللهِ ﷺ، فتَتَبَّعِ القرآنَ، فاجْمَعْه. فواللهِ، لو كلَّفَني نقلَ جبلٍ من الجبال، ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمعِ القرآن. قلتُ: كيف تَفعلانِ شيئاً لم يَفعَلْهُ رسولُ الله ﷺ ؟! فقال أبو بكر: هو واللهِ خيرٌ. فلم أزَل أراجِعُه حتى شرحَ اللهُ صَدرِي للذي شرحَ له صَدرَ أبي بكر وعمرَ، فقمتُ، فَتَتَبَّعتُ القرآنَ أجمعُه من الرِّقاع، والأكتاف، والعُسُبِ، وصُدورِ الرجال، حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين مع خُزيمةَ الأنصاريِّ[1]، لم أجِدهما مع غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها. فكانت الصُّحُفُ التي جُمِعَ فيها القرآنُ عند أبي بكر حتى توفَّاه الله، ثم عند عمرَ حتى توفَّاه الله، ثم عند حفصةَ بنتِ عمر.

وقال اللَّيثُ: حدثني عبدُ الرحمن بنُ خالد[2]، عن ابن شِهاب، وقال: مع أبي خُزيمةَ الأنصاريِّ. وقال أبو ثابت: حدثنا إبراهيمُ، وقال: مع خُزيمة، أو أبي خُـزَيـمـة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[3].

وقال الترمذيُّ في حديثه عنه: فوجَدتُ آخِرَ سورة براءةَ مع خُزيمةَ بنِ ثابت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[4].

---

(١) هو خُزيمة بن ثابت، أبو عمارة، الخطمي، ذو الشهادتين، شهد أحداً وما بعدها، واستشهد يوم صفّين سنة (٣٧هـ). سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٨٥.

(٢) تحرف في النسخ و(م) إلى: غالب.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٧٩)، وهو في المسند(٥٧). الليث: هو ابنُ سَعد، وابنُ شِهاب: هو الزُّهري، وأبو ثابت: هو محمد بن عُبيد الله المدني، وإبراهيم: هو ابنُ سَعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عَوف.

(٤) سنن الترمذي (٣١٠٣).

وفي «البخاري»: عن زيد بن ثابت قال: لما نَسَخْنا الصُّحُفَ في المصاحف، فَقَدْتُ آية من سورة الأحزاب، كنتُ أسمَعُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها، لم أجِدها مع أحد إلا مع خُزيمةَ الأنصاري، الذي جعلَ رسولُ الله ﷺ شهادتَه بشهادة رجلَين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] [1].

وقال الترمذيُّ عنه: فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب، كنتُ أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ فالتمستُها، فوجدتُها عند خُزيمةَ بن ثابت، أو أبي خُزيمةَ، فألحقتُها في سورتها[2].

قلتُ: فسقَطَتِ الآيةُ الأولى من آخِر «براءَة» في الجمع الأوَّل، على ما قاله البخاريُّ والترمذيُّ، وفي الجمع الثاني فُقدَتْ آيةٌ من سورة الأحزاب. وحكى الطبريُّ: أنَّ آيَةَ «براءة» سَقَطَت في الجمع الأخير، والأوَّل أصحُّ[3]، والله أعلم.

فإن قيل: فما وجهُ جمعِ عثمانَ للناسِ[4] على مُصْحَفِه، وقد سبقَه أبو بكر إلى ذلك، وفرَغَ منه؟.

قيل له: إنَّ عثمانَ رضي الله عنه لم يَقصِد بما صنعَ جَمعَ الناسِ على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسلَ إلى حَفصَةَ أن أرسِلي إلينا بالصُّحُف نَنسَخُها في المصاحف، ثم نَردُّها إليكِ؟ على ما يأتي. وإنما فعلَ ذلك عثمانُ، لأنَّ الناسَ اختلفوا في القراءات بسبب تفرُّق الصحابة في البلدان، واشتدَّ الأمرُ في ذلك، وعَظُمَ اختلافُهم وتَشَتُّتُهم[5]، ووقعَ بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفةُ رضي الله عنه، وذلك أنهم اجتمعوا في غَزوة إرمِينِيَةَ، فقرأت كُلُّ طائفة بما رُوِيَ لها، فاختَلَفوا، وتَنازَعُوا، وأظهرَ بعضُهم إكفارَ بعضٍ[6]، والبراءةَ منه، وتلاعَنوا، فأشفَقَ حذيفةُ مما

(١) صحيح البخاري (٤٧٨٤)، وهو في مسند أحمد (٢١٦٤٠).
(٢) سنن الترمذي (٣١٠٤).
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩. وانظر تفسير الطبري ١/ ٥٤ - ٥٦.
(٤) في (م): الناس.
(٥) في (م): وتشبثهم.
(٦) في المحرر الوجيز ١/ ٤٧: فاختلفوا وتنازعوا حتى قال بعضُهم لبعض: أنا كافر بما تقرأ به.

رَأَى منهم، فلما قَدِم حُذَيفَةُ المدينةَ ـ فيما ذكر البخاريُّ والترمذي[١] ـ دخل إلى عثمانَ قبل أن يَدخُلَ إلى بيته، فقال: أدرِكْ هذه الأمةَ قبل أن تَهلِكَ! قال: فيماذا؟ قال: في كتاب الله، إني حضرتُ هذه الغزوةَ، وجَمَعَت ناساً من العراق والشام والحجاز. فوصفَ له ما تقدَّم، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفُوا في كتابهم، كما اختلف اليهودُ والنصارى[٢].

قلت: وهذا أدلُّ دليل على بطلان مَن قال: إنَّ المرادَ بالأحرف السبعة قراءاتُ القُرَّاء السبعة، لأنَّ الحقَّ لا يُختلَفُ فيه.

وقد روى سُوَيدُ بنُ غَفَلَةَ[٣]، عن عليِّ بنِ أبي طالب أنَّ عثمان قال: ما تَرَونَ في المصاحف؟ فإنَّ الناسَ قد اختلفوا في القراءة، حتى إنَّ الرجلَ لَيقول: إنَّ قراءتي خيرٌ من قراءتك، وقراءتي أفضلُ من قراءتك. وهذا شبيهٌ بالكفر؟ قلنا: ما الرأيُ عندك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: الرأيُ عندي أن يجتمعَ الناسُ على قراءة، فإنكم إذا اختلفتُم اليومَ، كان مَن بَعدَكم أشَدَّ اختلافاً، قلنا: الرأيُ رأيُك يا أميرَ المؤمنين. فأرسلَ عثمانُ إلى حَفصَةَ أن أرسِلي إلينا بالصُّحُف نَنسَخُها في المصاحف، ثم نَرُدُّها إليك. فأرسلَت بها إليه، فأمرَ زيدَ بنَ ثابت، وعبدَ الله بنَ الزُّبير، وسعيدَ بنَ العاصي[٤]، وعبدَ الرحمن بنَ الحارث بنِ هشام[٥]، فنسخُوها في المصاحف. وقال عثمانُ للرَّهط القُرَشِيِّين: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بنُ ثابت في شيء من القرآن، فاكتُبُوه بلسان قريش، فإنما نزلَ بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نَسَخُوا الصُّحُفَ في المصاحف، ردَّ عثمانُ الصُّحُفَ إلى حفصةَ، وأرسلَ إلى كلِّ أُفُق بمصحف مما نَسخُوا، وأمرَ بما سوى ذلك من القرآن في كلِّ صحيفة أو مصحف أن يُحرقَ[٦].

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٨٧)، وسنن الترمذي (٣١٠٤).

(٢) من قوله: ووقع بين أهل الشام والعراق... إلى هذا الموضع، من المحرر الوجيز ١/ ٤٧.

(٣) أبو أمية، الجُعفي الكوفي، أسلَم في حياة النبي ﷺ، وقدم المدينة حين فرغوا من دفن رسول الله ﷺ، وشهد اليرموك، مات سنة (٨١هـ). السير ٤/ ٦٩.

(٤) الأموي، كان له عند موت النبي ﷺ تسع سنين، وَلِيَ إمرة الكوفة لعثمان، وإمرةَ المدينة لمعاوية، مات سنة (٥٧هـ). السير ٣/ ٤٤٤.

(٥) المخزومي، رأى النبي ﷺ، مات في خلافة معاوية بالمدينة، سنة (٤٣هـ) السير ٣/ ٤٨٤.

(٦) أخرجه مختصراً ابن أبي داود في المصاحف ص٢٢، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ٩/ ١٨.

وكان هذا من عثمانَ رضي الله عنه بعد أن جمعَ المهاجرين والأنصارَ، وجِلَّةَ أهلِ الإسلام، وشاورَهم في ذلك، فاتفقُوا على جَمعِه بما صحَّ، وثبتَ من[١] القراءات المشهورةِ عن النبيِّ ﷺ، واطِّراحِ ما سواها، واستَصوَبُوا رأيَه، وكان رأياً سَديداً مُوفَّقاً، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

وقال الطبري فيما رَوى: إن عثمانَ قَرَنَ بزيد أبانَ بنَ سعيد بنِ العاصي[٢] وحدَه، وهذا ضعيفٌ[٣]. وما ذكره البخاريُّ والترمذيُّ وغيرُهما أصحُّ.

وقال الطبري أيضاً: إن الصُّحُفَ التي كانت عند حفصةَ، جُعلت إماماً في هذا الجمع الأخير[٤]. وهذا صحيحٌ.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبيدُ الله بن عبد الله، أنَّ عبدَ الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نَسخَ المصاحفِ، وقال: يامعشرَ المسلمين، أُعْزَلُ عن نَسخِ المصاحف، ويتولاها[٥] رجلٌ، والله، لقد أسلمتُ وإنه لَفي صُلب رجل كافر! يُريد زيدَ بنَ ثابت. ولذلك قال عبدُ الله بنُ مسعود: يا أهلَ العراق، اكتُمُوا المصاحفَ التي عندَكم وغُلُّوها، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، فَالْقَوُا اللهَ بالمصاحف. خرَّجه الترمذي[٦]. وسيأتي الكلام في هذا في سورة آل عمران، إن شاء الله تعالى[٧].

---

(١) في (م): في.

(٢) هو أبو الوليد الأموي، أسلم قبل الفتح، واستعمله النبي ﷺ على البحرين، استُشهد يوم أجنادين. السير ١/ ٢٦١.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٤ ـ ٥٥، وفي إسناده عُمارة بنُ غَزيَّة. قال الخطيب ـ فيما نقله عنه الحافظ في الفتح ٩/ ١٩ ـ: ووهم عُمارةُ في ذلك، لأن أبان قُتل بالشام في خلافة عمر، ولا مدخل له في هذه القصة.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٥٦، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩..

(٥) في (م): ويتولاه.

(٦) سنن الترمذي (٣١٠٤). ابنُ شِهاب: هو الزُّهرِي، وعُبيد الله بنُ عبد الله: هو ابنُ عُتبةَ بنِ مسعود. وقال الترمذي بعده: قال الزُّهري: فبلغني أن ذلك كَرِهَه من مقالة ابنِ مسعود رجالٌ من أفاضل أصحابِ النبي ﷺ.

(٧) لم يذكر المصنف في تفسير الآية المذكورة التأويلَ الذي ذهب إليه عبد الله بنُ مسعود رضي الله عنه. قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند (٣٩٢٩): كان هذا من ابن مسعود... خشية اختلافهم، فغضب ابن مسعود، وهذا رأيُه، ولكنه رحمه الله أخطأ خطأ شديداً في تأويل الآية على ما =

قال أبو بكر الأنباريُّ: ولم يكن الاختيارُ لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمانَ على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن ـ وعبدُ الله أفضلُ من زيد، وأقدمُ في الإسلام، وأكثرُ سوابقَ، وأعظمُ فضائلَ ـ إلا لأن[1] زيداً كان أحفظَ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلَّه ورسولُ الله ﷺ حَيٌّ، والذي حَفِظَ منه عبدُ الله في حياة رسولِ الله ﷺ نَيِّفٌ وسبعون سورة، ثم تَعلَّمَ الباقيَ بعدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ، فالذي ختمَ القرآنَ وحفظَه ورسولُ الله ﷺ حيٌّ، أَولَى بجمع المصحف، وأحقُّ بالإيثار والاختيار. ولا ينبغي أن يَظنَّ جاهلٌ أنَّ في هذا طعناً على عبد الله بن مسعود، لأن زيداً إذا كان أحفظَ للقرآن منه، فليس ذلك مُوجِباً لتقدمته عليه، لأنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيدٌ أحفظَ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب.

قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك، فشيءٌ نَتَجَهُ الغضب، ولا يُعمَل به، ولا يُؤخذ به، ولا يُشكُّ في أنه رضي الله عنه قد عَرَفَ بعد زوالِ الغضبِ عنه حُسنَ اختيار عثمانَ، ومَن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقيَ على موافقتهم، وتركَ الخلافَ لهم. فالشائعُ الذائعُ المتعالَمُ عند أهل الرواية والنقل أنَّ عبدَ الله بنَ مسعود تعلَّم بقيَّةَ القرآنِ بعد وفاةِ رسول الله ﷺ. وقد قال بعضُ الأئمة: مات عبدُ الله بنُ مسعود قبلَ أن يَختِمَ القرآنَ. قال يزيدُ بنُ هارون[2]: المُعَوِّذَتان بمنزلة البقرة وآلِ عمران، مَن زعمَ أنهما ليستا من القرآن، فهو كافرٌ بالله[3] العظيم، فقيلَ له: فقولُ عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلافَ بين المسلمين في أنَّ عبدَ الله بن مسعود مات وهو لا يَحفَظُ القرآنَ كلَّه.

قلتُ: هذا فيه نظرٌ، وسيأتي[4].

وروى إسماعيلُ بن إسحاقَ وغيره، قال حمَّادٌ: أظنُّه عن أنس بن مالك قال: كانوا يختلفون في الآية، فيقولون: أقرأها رسولُ الله ﷺ فلانَ بنَ فلان، فعسى أن

= أوّل، فإنَّ الغُلول هو الخيانة، والآيةُ واضحةُ المعنى في الوعيد لمن خان أو اختلس من المغانم.

(١) في النسخ الخطية: أن، والمثبت من (م).

(٢) أبو خالد الواسطي، ثقة متقن، توفي في خلافة المأمون سنة (٢٠٦هـ). سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٥٨.

(٣) في (ظ): بالقرآن.

(٤) ص ٩٥.

يكونَ من المدينة على ثلاثِ ليال، فُيرسَلُ إليه، فُيجاء به، فيقال: كيف أقرأكَ رسولُ الله ﷺ آيةَ كذا وكذا؟ فيكتُبون كما قال[١].

قال ابنُ شِهاب: واختلفوا يومئذ في «التابوت»، فقال زيدٌ: «التابوه». وقال ابنُ الزُّبير وسعيد بن العاصي: «التابوت»، فرُفع اختلافُهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه بالتاء، فإنه نَزَلَ بلسان قريش. أخرجه البخاري والترمذي[٢].

قال ابن عطية[٣]: قرأه زيد بالهاء، والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء، وكُتبتِ المصاحفُ على ما هو عليه غابِرَ الدهر، ونَسخَ منها عثمانُ نُسَخاً. قال غيره: قيل: سبعة، وقيل: أربعة، وهو الأكثر، ووجَّه بها إلى الآفاق، فوجَّه للعراق والشام ومصر بأمَّهات، فاتخذَها قُرَّاءُ الأمصار مُعتمَدَ اختياراتِهم، ولم يخالِف أحدٌ منهم مصحفَه على النحو الذي بلغَه، وما وُجدَ بين هؤلاء القُرَّاء السبعةِ من الاختلاف في حروف يَزيدُها بعضُهم، ويَنقُصُهابعضُهم، فذلك لأنَّ كلاًّ منهم اعتمدَ على ما بلغَه في مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمانُ كتب تلك المواضعَ في بعض النسخ، ولم يكتُبها في بعض، إشعاراً بأنَّ كلَّ ذلك صحيحٌ، وأنَّ القراءةَ بكلٍّ منها جائزةٌ.

قال ابنُ عطية: ثم إنَّ عثمانَ أمرَ بما سواها من المصاحف أن تُحرقَ، أو تُخرقَ - تُروى بالحاء غير منقوطة، وتُروى بالخاء على معنى - ثم تُدفنَ، وروايةُ الحاء غير منقوطة أحسن[٣].

وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ» عن سُوَيدِ بنِ غَفَلَةَ قال: سمعتُ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه يقول: يامعشرَ الناس، اتقوا الله، وإيَّاكم والغُلُوَّ في عثمانَ وقولَكم: حرق[٤] المصاحف، فوالله ما حَرقَها إلا عن ملأ منَّا أصحابَ

---

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في المقنع ص٧، وقد اختصر القرطبي إسنادَه. حماد: هو ابن زيد، وأخرج ابنُ أبي داود في المصاحف ص٢١ . ٢٢ نحوَه من وجه آخر.

(٢) لم يخرجه البخاري، وإنما أخرجه الترمذي (٣١٠٤)، ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٢٠ عن الخطيب أن هذه الزيادة رواها ابن شهاب - وهو الزُّهري - مرسلة.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩.

(٤) في (م): حرَّاق.

محمد ﷺ[١]. وعن عُميربن سعيد قال: قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كنتُ الواليَ وقتَ عثمان، لفعلتُ في المصاحف مثلَ الذي فعل عثمان[٢].

قال أبو الحسن بنُ بطَّال: وفي أمرِ عثمانَ بتحريق الصُّحُف والمصاحف حين جمعَ القرآنَ جوازُ تحريقِ الكتبِ التي فيها أسماءُ الله تعالى، وأنَّ ذلك إكرامٌ لها، وصيانةٌ عن الوطء بالأقدام، وطرحِها في ضِياع من الأرض.

روى مَعمَرٌ، عن ابن طاوس، عن أبيه، أنه كان يَحرِقُ الصُّحُفَ إذا اجتمعَت عنده الرسائلُ فيها «بسم الله الرحمن الرحيم». وحرقَ عروةُ بنُ الزُّبير[٣] كتبَ فقه كانت عندَه يومَ الحَرَّة. وكرهَ إبراهيمُ أن تُحرَقَ الصُّحُفُ إذا كان فيها ذكرُ الله تعالى[٤]. وقولُ من حرقها أولى بالصواب، وقد فعلَه عثمان.

وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة[٥]: جائزٌ للإمام تحريقُ الصُّحُف التي فيها القرآن، إذا أدَّاه الاجتهادُ إلى ذلك.

فصل

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وفي فعل عثمانَ رضي الله عنه ردٌّ على الحُلُولية[٦] والحَشْوِيَّة[٧] القائلين بقِدَمِ الحروف والأصوات، وأنَّ القراءةَ والتلاوةَ قديمةٌ، وأنَّ

(١) أخرجه ابن شبَّة في تاريخ المدينة ٣/ ٩٩٤ ـ ٩٩٥ مطولاً.

(٢) وأخرج هذين الأثرين ابنُ أبي داود في المصاحف ص٢٢ و٢٣، وأخرج الثاني منهما أبو عمرو الداني في المقنع ص٨.

(٣) أبو عبد الله القرشي، أحدُ الفقهاء السبعة، أبوه الزبير بن العوام حواريُّ رسول الله ﷺ، توفي سنة (٩٤هـ). السير ٤/ ٤٢١.

(٤) أخرج الآثار الثلاثة عبدُ الرزاق في مصنفه ١١/ ٤٢٥ (٢٠٩٠١) (٢٠٩٠٢) (٢٠٩٠٣).

(٥) هو أبو بكر ابنُ الطيب الباقلاني، وسلفت ترجمته ص٧٤، وقد لقَّبه بلسان الأمة القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ٥٨٥.

(٦) هم القائلون: إن الله حالٌّ في كل شيء، مُتَّحِدٌ به، حتى جوَّزوا أن يطلق على كل شيءٍ أنه الله! تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.
وينظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٦٤ وما بعدها.

(٧) الحَشْوِيَّة ـ بسكون الشين؛ نسبة إلى الحَشْو ـ طائفة من المبتدعة؛ لُقِّبُوا بهذا اللقب؛ لاحتمالهم كل حَشْوٍ رُوِيَ من الأحاديث المختلفة، أو لأن منهم المجسِّمة، والجسم محشوّ. المستصفى للغزالي ٢/ ٤٦٢، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ودائرة المعارف الإسلامية (حشو).
وقد يطلق بعض المبتدعة هذا اللقب على المخالف لهم. وقيل: إن أول من أطلق هذا اللقب عمرو بن=

الإيمانَ قديمٌ، والروحَ قديم. وقد أجمعتِ الأمةُ، وكُلُّ أمة من النصارى واليهود والبراهمة، بل كلُّ مُلحِد وموحِّد، أنَّ القديمَ لا يُفعَل، ولا تتعلقُ به قدرةُ قادر بوجه ولابسبب، ولا يجوز العدمُ على القديم، وأنَّ القديمَ لا يصيرُ مُحدَثاً، والمُحدَثَ لا يصيرُ قديماً، وأنَّ القديمَ ما لا أوَّلَ لوجوده، وأنَّ المُحدَثَ هو ما كانَ بعدَ أن لم يكن، وهذه الطائفةُ خَرَقَت إجماعَ العقلاء من أهل المِلل وغيرِهم، فقالوا: يجوز أن يصيرَ المُحْدَثُ قديماً، وأنَّ العبدَ إذا قرأ كلامَ الله تعالى، فعلَ كلاماً لله قديماً، وكذلك إذا نَحتَ حروفاً من الآجُرِّ والخشب، أو صاغَ أحرفاً من الذهب والفضة، أو نسجَ ثوباً، فنقشَ عليه آيةً من كتاب الله، فقد فعل هؤلاء كلامَ الله قديماً، وصار كلامُه منسوجاً قديماً، ومنحوتاً قديماً، ومَصُوغاً قديماً. فيقال لهم: ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوزُ أنْ يذابَ ويُمحى ويُحرقَ؟ فإن قالوا: نعم، فارقوا الدِّينَ، وإن قالوا: لا، قيل لهم: فما قولُكم في حروف مصوَّرة آية من كتاب الله تعالى من شَمَع، أو ذهب، أو فضة، أو خشب، أو كاغَد، فوقَعَت في النار، فذابَت واحترقَت، فهل تقولون: إنَّ كلامَ الله احترق؟ فإن قالوا: نعم، تركوا قولَهم، وإن قالوا: لا، قيل لهم: أليس قلتُم: إنَّ هذه الكتابةَ كلامُ الله وقد احترقت، وقلتُم: إن هذه الأحرفَ كلامُه وقد ذابَت؟! فإن قالوا: احترقتِ الحروفُ، وكلامُه تعالى باقٍ، رَجَعوا إلى الحقِّ والصواب، ودَانُوا بالجواب، وهو الذي قاله النبيُّ ﷺ مُنَبِّهاً على ما يقول[1] أهلُ الحق: «لو كان القرآنُ في إهاب، ثم وقعَ في النار، ما احترَقَ»[2]. وقال الله عز وجل: «أنزلتُ عليك كتاباً لا يَغسِلُه الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظانَ» الحديث. أخرجه مسلم[3].

= عُبيد المعتزلي على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى ٢/ ٧٦-٨٠.

(١) في (ظ): يقوله.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣٦٥) من حديث عقبة بن عامر، وإسناده ضعيف، ونقل البغوي في شرح السنة ٤/ ٤٣٧ عن الإمام أحمد قوله: معناه: لو كان القرآن في إهاب، يعني في جلد، في قلب رجل، يُرجى لمن القرآن محفوظ في قلبه أن لا تمسّه النار. ونقل عن أبي عبد الله البوشنجي قوله: معناه: أن من حمل القرآن وقرأه، لم تمسّه النار يوم القيامة. وانظر جمال القراء للسخاوي ١/ ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٦٥). وهو قطعة من حديث عِياض بن حمار المجاشعي، وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤). قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٩٨: معناه: محفوظ في الصدور، لايتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على ممر الأزمان. يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة، وقيل: تقرأه في يسر وسهولة.

فثبت بهذا أنَّ كلامَه سبحانه ليس بحرف، ولا يُشبه الحروفَ. والكلامُ في هذه المسألة يطول، وتتميمُها في كتب الأصول، وقد بيَّنَّاها في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

فصل

وقد طعن الرافضةُ ـ قبَّحهم الله تعالى ـ في القرآن، وقالوا: إنَّ الواحدَ يكفي في نقل الآيةِ والحرفِ، كما فعلتُم، فإنكم أثبتُّم بقول رجل واحد ـ وهو خُزيمةُ بنُ ثابت وحدَه ـ آخرَ براءة[1]، وقولَه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فالجوابُ: أن خُزيمةَ رضي الله عنه لمَّا جاء بها تَذكَّرَها كثيرٌ من الصحابة، وقد كان زيدٌ يعرفها[2]، ولذلك قال: فقدتُ آيتَينِ من آخر سورةِ التوبة. ولو لم يعرفها[3]، لم يَدرِ هل فَقَدَ شيئاً أو لا، فالآيةُ إنما ثَبتَت بالإجماع، لا بخزيمةَ وحدَه.

جوابٌ ثان: إنما ثَبتَت بشهادة خُزيمةَ وحدَه لقيام الدليل على صِحَّتها في صفة النبيِّ ﷺ، فهي قرينة تُغني عن طلب شاهد آخرَ، بخلاف آية الأحزاب، فإنَّ تلك ثبتَت بشهادة زيد وأبي خُزيمةَ، لسماعهما إيَّاها من النبيِّ ﷺ. قال معناه المهلب[4]، وذكر أنَّ خُزيمةَ غيرُ أبي خُزيمةَ، وأنَّ أبا خُزيمةَ الذي وُجدَت معه آيةُ التوبة معروفٌ من الأنصار، وقد عَرَفه أنسٌ، وقال: نحن وَرِثناه، والتي في الأحزاب وُجدَت مع خُزيمةَ بنِ ثابت، فلا تَعارضَ، والقصةُ غيرُ القصة، لا إشكالَ فيها ولا التباس.

وقال ابنُ عبد البَر: أبو خُزيمةَ لا يُوقَفُ على صحة اسمه، وهو مشهورٌ بكُنيته، وهو أبو خُزيمةَ بنُ أوس بن زيد بن أَصْرم بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وتُوفِّي في خلافةِ عثمانَ بنِ عفان، وهو أخو مسعود بنِ أوس[5]. قال ابنُ شِهاب، عن عُبَيد بنِ السبَّاق، عن زيدِ بنِ ثابت: وجدتُ آخِرَ التوبة

---

(١) في (م): سورة براءة.

(٢) في (م): لما جاء بهما تذكرهما وقد كان زيد يعرفهما.

(٣) في (م): يعرفهما.

(٤) هو أبو القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صُفرة أسيد بن عبد الله الأسدي الأندلسي، ولي قضاء المريَّة. توفي سنة (٤٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٧٩.

(٥) هو أبو محمد الأنصاري، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، قيل: توفي في خلافة عمر. الاستيعاب ١٠/ ٧٩ (بهامش الإصابة).

مع أبي خُزَيمةَ الأنصاري. وهو هذا، ليس[١] بينه وبين الحارث بنِ خُزيمةَ[٢] أبي خزيمة نسبٌ إلا اجتماعُهما في الأنصار، أحدُهما أوسيٌّ، والآخَرُ خَزرَجيٌّ[٣].

وفي «مسلم» و«البخاري»، عن أنس بن مالك قال: جمعَ القرآنَ على عهد النبيِّ ﷺ أربعةٌ، كلُّهم من الأنصار: أُبَيُّ بنُ كعب، ومعاذُ بنُ جَبَل، وزيدُ بنُ ثابت، وأبو زيد. قلتُ لأنس: مَن أبو زيد؟ قال: أحدُ عمومتي[٤].

وفي «البخاري» أيضاً، عن أنس قال: ماتَ النبيُّ ﷺ ولم يجمعِ القرآنَ غيرُ أربعة: أبو الدرداء، ومعاذُ بن جبل، وزيد، وأبو زيد، ونحن وَرِثْناه[٥].

وفي أُخرى قال: مات أبو زيد ولم يَترك عَقِباً، وكان بَدرِيًّا[٦]، واسمُ أبي زيد: سَعدُ بنُ عُبَيد[٧].

قال ابنُ[٨] الطَّيِّب رضي الله عنه: لا تدلُّ هذه الآثارُ على أنَّ القرآنَ لم يَحفَظه في حياة النبيِّ ﷺ، وأنه لم[٩] يجمعه غيرُ أربعة من الأنصار، كما قال أنسُ بن مالك، فقد ثبتَ بالطرق المتواترة أنه جمعَ القرآنَ عثمانُ، وعليٌّ، وتَميمٌ الداريُّ[١٠]، وعُبادةُ بنُ الصامت، وعبدُ الله بنُ عَمرو بنِ العاص.

فقولُ أنس: لم يجمعِ القرآنَ غيرُ أربعة، يَحتَمِلُ أنه لم يجمعِ القرآنَ، وأخذَه تَلَقِّياً[١١]

---

(١) في (م): وليس.

(٢) شهد بدراً وما بعدها، ومات بالمدينة سنة (٤٠هـ). الاستيعاب ٢/ ٢٣٤.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ١١/ ٢١٤ (بهامش الإصابة)، وقول زيد بن ثابت أخرجه البخاري ضمن حديث جمع القرآن (٤٩٨٦)، وانظر كلام الحافظ في الفتح ٨/ ٣٤٥ و٩/ ١٥.

(٤) صحيح البخاري (٣٨١٠)، وصحيح مسلم (٢٤٦٥)، وهو في مسند أحمد (١٣٩٤٢).

(٥) صحيح البخاري (٥٠٠٤).

(٦) صحيح البخاري (٣٩٩٦).

(٧) ذكر الحافظ في الفتح ٧/ ١٢٨ أن الأرجح في اسمه: قيس بن السكن، وذكر أيضاً في ٩/ ٥٣ أن ابن أبي داود روى بإسناد على شرط البخاري إلى ثمامة عن أنس أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن قال: وكان رجلاً منا من بني عدي بن النجار، أحد عمومتي، ومات ولم يدع عقباً، ونحن ورثناه.

(٨) وقع في هذا الموضع وفي المواضع السالفة في (ظ): أبو، وهو خطأ.

(٩) في (م): ولم.

(١٠) أبو رقية، صاحب رسول الله ﷺ، وفد سنة تسع وأسلم، حدث عنه النبي ﷺ بقصة الجسّاسة، توفي سنة (٤٠هـ). سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٢.

(١١) في (م): تلقيناً.

من في رسول الله ﷺ، غيرُ تلك الجماعة، فإنَّ أكثرَهم أخذَ بعضَه عنه، وبعضَه عن غيره، وقد تظاهرتِ الرواياتُ بأنَّ الأئمةَ الأربعةَ جمعُوا القرآنَ على عهد النبيِّ ﷺ لأجل سَبقِهم إلى الإسلام، وإعظامِ الرسول ﷺ لهم.

قلت: لم يذكر القاضي عبدَ الله بنَ مسعود وسالماً مولى أبي حُذيفة[١] رضي الله عنهما فيما رأيت، وهما ممَّن جمعَ القرآن.

روى جريرٌ، عن عبد الله بن يزيدَ الصُّهباني، عن كُمَيْل قال: قال عمرُبن الخطاب: كنتُ مع رسول الله ﷺ، ومعه أبو بكر، ومن شاء الله، فمرَرنا بعبد الله بنِ مسعود وهو يُصلِّي، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَن هذا الذي يقرأُ القرآن؟» فقيل له: هذا عبدُ الله بنُ أُمِّ عَبد، فقال: «إنَّ عبدَ الله يَقرأُ القرآنَ غَضًّا كما أُنْزِلَ»[٢] الحديث.

قال بعضُ العلماء: معنى قوله: «غَضًّا كما أُنزل» أي: إنه كانَ يقرأُ الحرفَ الأوَّلَ الذي أُنزِل عليه القرآنُ دون الحروفِ السبعة التي رُخِّصَ لرسول الله[٣] ﷺ في قراءته عليها بعد معارضة[٤] جبريلَ عليه السلام القرآنَ إيَّاه في كلِّ رمضان.

وقد روى وكيعٌ وجماعةٌ معه، عن الأعمش، عن أبي ظَبْيان قال: قال لي عبدُ الله بنُ عباس: أيَّ القراءتين تقرأ؟ قلتُ: القراءةَ الأولى؛ قراءةَ ابنِ أُمِّ عَبْد، فقال لي: بل هي الآخِرةُ[٥]، إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَعرِضُ القرآنَ على جبريلَ في كلِّ عام مرَّة، فلما كان العامُ الذي قُبِضَ فيه رسولُ الله ﷺ، عَرَضَه عليه مرَّتين، فحضَرَ ذلك عبدُ الله، فعَلِمَ ما نُسِخَ من ذلك، وما بُدِّل[٦].

---

(١) أبو حذيفة: هو ابنُ عتبة بن ربيعة، القرشي، قيل: اسمه مِهشَم، أحدُ السابقين، وقد أسلم قبل دخولهم دار الأرقم، استشهد هو ومولاه سالم يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة. ومولاه سالم، هو ابنُ معقل، أصلُه من اصطخر، وهو من السابقين الأولين، وهو الذي أرضعته سهلة بنتُ سهيل زوجة أبي حذيفة لتظهر عليه، وخُصًّا بذلك الحكم عند جمهور العلماء. السير ١/ ١٦٤ ـ ١٦٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣١٧ من الطريق التي ذكرها المصنف، لكن قال فيه: عن علي قال: كنتُ مع النبي ﷺ... الحديث. وكذا ذكره الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة ١١/ ٦٠٠. فلعلَّ قوله أعلاه: عمر بن الخطاب، خطأً، أو وهم. وقد أخرجه أحمد في المسند (١٧٥) من طريق إبراهيم النخعي، عن علقمة، عن عمر بن الخطاب، وأخرجه أيضاً (٤٢٥٥) من طريق عاصم، عن زر، عن ابن مسعود.

(٣) في النسخ الخطية: رسول الله، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ الخطية: معارضته، والمثبت من (م).

(٥) في (ظ): لا بل الآخرة.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٢٢)، وإسناده صحيح.

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بنِ عَمرو قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خُذُوا القرآنَ من أربعة: من ابنِ أمِّ عبد. فبدأ به. ومعاذِ بنِ جَبَل، وأُبَيِّ بنِ كَعب، وسالم مَولى أبي حُذَيفةَ»[١].

قلتُ: هذه الأخبارُ تدلُّ على أنَّ عبدَ الله جمعَ القرآنَ في حياة رسول الله ﷺ، خلافَ ما تقدَّم[٢]. والله أعلم.

وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الرَّد»: حدثنا محمدُ بن شَهرَيار، حدثنا حسينُ بنُ الأسود، حدثنا يحيى بنُ آدمَ، عن أبي بكر، عن أبي إسحاقَ قال: قال عبدُالله بن مسعود: قرأتُ من في رسول الله ﷺ ثنتين وسبعين سورة - أوثلاثاً وسبعين سورة - وقرأتُ عليه من البقرة إلى [قوله تعالى]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال أبو إسحاق: وتعلَّم عبدُ الله بقيَّةَ القرآن من مُجَمِّع بنِ جارِيَةَ الأنصاريِّ.

قلت: فإن صَحَّ هذا، صحَّ الإجماعُ الذي ذكره يزيدُ بن هارون، فلذلك لم يذكُره القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّب مع مَنْ جمع القرآنَ وحَفِظَه في حياة النبيِّ ﷺ. والله أعلم.

قال أبو بكر الأنباري: حدثني إبراهيمُ بن موسى الجَوْزي[٣]، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا مالك بن إسماعيلَ، حدثنا زهيرٌ، عن أبي إسحاقَ قال: سألتُ الأسودَ: ما كان عبدُ الله يصنعُ بسورة الأعراف؟ فقال: ما كان يَعلَمُها[٤] حتى قَدِم الكوفةَ. قال: وقد قال بعضُ أهلِ العلم: مات عبدُ الله بن مسعود رحمه الله قبلَ أن يتعلَّمَ المعوِّذَتَيْن. فلهذه العلةِ لم تُوجدا في مصحفه، وقيل غيرُ هذا على ما يأتي بيانُه آخِرَ الكتاب، عند ذكر المعوِّذتين، إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر: والحديثُ الذي حدثناه إبراهيمُ بن موسى، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا عُمر بن هارون الخُراساني، عن ربيعةَ بن عثمان، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: كان ممَّن ختمَ القرآنَ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ: عثمانُ بنُ عفان، وعليُّ بنُ أبي

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٦٤)، وهو عند أحمد (٦٧٩٠).

(٢) ص ٨٨.

(٣) في (م): الخوزي، وهو خطأ، انظر السير ١٤/ ٢٣٤.

(٤) في (د): تعلَّمها.

طالب، وعبدُ الله بنُ مسعود، رضي الله عنهم، حديثٌ ليس بصحيح عند أهل العلم، إنما هو مقصورٌ على محمد بن كعب، فهو مقطوع، لا يُؤخذ به، ولا يُعوَّلُ عليه.

قلت: قوله عليه السلام: «خُذُوا القرآنَ من أربعة: من ابنِ أُمِّ عَبد» يدلُّ على صِحَّته، ومما يبيِّنُ لك ذلك أنَّ أصحابَ القراءات من أهل الحجاز والشامِ والعراقِ، كلٌّ منهم عَزَا قراءَتَه التي اختارها إلى رجل من الصحابة، قرأها على رسول الله ﷺ، لم يستثن من جملة القرآنِ شيئاً، فأسندَ عاصمٌ[١] قراءتَه إلى عليٍّ وابنِ مسعود، وأسندَ ابنُ كثير[٢] قراءتَه إلى أُبَيٍّ، وكذلك أبو عمرو بنُ العلاء[٣]؛ أسندَ قراءتَه إلى أُبَيٍّ، وأما عبدُ الله بنُ عامر[٤]، فإنه أسنَدَ قراءتَه إلى عثمان، وهؤلاء كلُّهم يقولون: قرأْنا على رسول الله ﷺ، وأسانيدُ هذه القراءات متصلةٌ، ورجالُها ثقاتٌ. قاله الخَطَّابي[٥].

باب ما جاء في ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشَكْلِه ونَقْطِه، وتَحْزِيبِه، وتعشيرِه، وعددِ حروفِه، وأجزائِه[٦]، وكلماتِه، وآيِهِ

قال ابنُ الطَّيِّب: إن قال قائلٌ: قد اختلفَ السَّلَفُ في ترتيبِ سُوَرِ القرآن، فمنهم مَن كتبَ في مُصحفه السورَ على تاريخ نزولها، وقَدَّم المكيَّ على المدنيِّ، ومنهم مَن جَعَلَ في أوَّل مصحفه: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، ومنهم مَن جعلَ في أوَّله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وهذا أوَّلُ مصحف عليٍّ رضي الله عنه. وأما مصحفُ ابن مسعود؛ فإنَّ أوَّلَه: ﴿مَـٰلِكِ

(١) هو عاصم بنُ أبي النَّجود بَهدَلَة (وقيل: بهدلة أمُّه) أبو بكر الأسدي، شيخ الإقراء بالكوفة، وأحد القُرَّاء السبعة. توفي آخر سنة (١٢٧هـ). سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٦.

(٢) هو عبد الله بن كثير، مقرئُ مكة، أحد القُرَّاء السبعة، أبو معبد الكناني. توفي سنة (١٢٠هـ). السير ٥/ ٣١٨.

(٣) البصري، أحد القراء السبعة، اختلف في اسمه على أقوال، أشهرها زبَّان، كان أعلم الناس بالقراءات والعربية والشعر وأيام العرب، مدحه الفرزدق وغيره، توفي سنة (١٥٤هـ)، وقيل (١٥٧هـ). السِّيَر ٦/ ٤٠٧.

(٤) أبو عمران اليَحصُبي، الدمشقي، مقرىء الشام، أحد القُرَّاء السبعة، توفي سنة (١٢٨هـ). السِّيَر ٥/ ٢٩٢.

(٥) في أعلام الحديث ٣/ ١٨٥٥.

(٦) في (ظ): وأحزابه، وهو تكرار.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ثم البقرة، ثم النساء، على ترتيب مختلف. وفي مصحف[١] أُبَيٍّ كان أوَّلُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [ثم البقرة] ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم الأعراف، ثم المائدة، ثم كذلك على اختلاف شديد.

قال القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّب: فالجواب أنه يَحتمل أن يكونَ ترتيبُ السور على ما هي عليه اليومَ في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة[٢].

وذكر ذلك مكيٌّ رحمه الله في تفسير سورة براءة[٣]، وذكر أنَّ ترتيبَ الآيات في السور، ووضعَ البَسملة في الأوائل، هو من النبيِّ ﷺ، ولما لم يأمُر بذلك في أوَّل سورة براءة، تُركت بلا بسملة. هذا أصحُّ ما قيل في ذلك، وسيأتي[٤].

وذكر ابنُ وَهْب في «جامعه» قال: سمعتُ سليمانَ بنَ بلال[٥] يقول: سمعتُ ربيعةَ[٦] يُسأل: لم قُدِّمتِ البقرةُ وآلُ عمران، وقد نزلَ قبلَهما بضعٌ وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعةُ: قد قُدِّمتا، وأُلِّف القرآنُ على علم ممَّن ألَّفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ننتهي إليه، ولانَسألُ[٧] عنه.

وقد ذكر سُنَيْدٌ[٨] قال: حدثنا مُعتَمِرٌ، عن سلَّام بنِ مسكين، عن قتادةَ قال: قال ابنُ مسعود: مَن كان منكم متأسِّياً، فَليتأسَّ بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمةِ قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تَكَلُّفاً، وأقومَها هَدياً، وأحسنَها حالاً، اختارهم اللهُ لصحبة نبيِّه ﷺ، وإقامة دينه، فاعْرِفوا لهم فضلَهم، واتَّبِعُوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم.

---

(١) في (م): ومصحف.

(٢) الانتصار (١٦٥ ـ ١٦٦ مخطوط) بتصرف واختصار، وما بين حاصرتين منه.

(٣) لعله ذكر ذلك في كتابه «الهداية إلى بلوغ النهاية» في معاني القرآن وأنواع علومه في سبعين جزءًا، ذكره صاحب هدية العارفين ٦/ ٤٧١.

(٤) في أول سورة براءة.

(٥) القرشي التيمي مولاهم، المدني، المفتي الحافظ، توفي سنة (١٧٢هـ). السير ٧/ ٤٢٥.

(٦) هو ابنُ أبي عبد الرحمن، أبو عثمان، ويقال: أبو عبد الرحمن القرشي، المشهور بربيعة الرأي، مفتي المدينة، توفي سنة (١٣٦هـ) السير ٦/ ٨٩. ولم نجد قول ابن وهب في جامعه الذي بين أيدينا.

(٧) في (ظ): تسأل.

(٨) هو ابنُ داود المِصِّيصي، من رجال التهذيب.

وقال قومٌ من أهل العلم: إنَّ تأليفَ سُوَرِ القرآن على ما هو عليه في مُصحفنا كان عن توقيف من النبيِّ ﷺ، وأمَّا ما رُوي من اختلاف مُصحفِ أُبَيٍّ وعليٍّ وعبدِ الله، فإنما[1] كان قبلَ العَرضِ الأخير، وإنَّ رسولَ الله ﷺ رتَّبَ لهم تأليفَ السور بعد أن لم يكُن فعلَ ذلك.

روى يونسُ، عن ابنِ وَهْب قال: سمعتُ مالكاً يقول: إنما أُلِّف القرآنُ على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ.

وذكر أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردّ» أنَّ الله تعالى أنزلَ القرآنَ جملة إلى سماء الدُّنيا، ثم فُرِّقَ على النبيِّ ﷺ في عشرين سنة، وكانت السورةُ تَنزِلُ في أمر يحدُثُ، والآيةُ جواباً لمستخبرٍ يَسأل، ويُوقِفُ جبريلُ رسولَ الله ﷺ على موضع السورة والآية، فاتِّساقُ السُّور كاتِّساق الآيات والحروف، فكلُّه عن محمد خاتم النبيِّين عليهم السلام، عن ربِّ العالمين، فمَن أخَّرَ سورة مُقدَّمة، أو قَدَّمَ أخرى مُؤخَّرة، فهو كمن أفسدَ نَظْمَ الآيات، وغيَّر الحروفَ والكلماتِ، ولا حُجَّةَ على أهل الحقِّ في تقديم البقرةِ على الأنعام ـ والأنعامُ نزلَت قبلَ البقرة ـ لأنَّ رسولَ الله ﷺ أُخِذَ عنه هذا الترتيبُ، وهو كان يقول: «ضَعُوا هذه السورةَ موضعَ كذا وكذا من القرآن»[2]. وكان جبريلُ عليه السلام يَقِفُ على مكان الآيات.

حدثنا حسنُ بن الحُبَاب، حدثنا أبو هشام، حدثنا أبو بكر بنُ عيَّاش، عن أبي إسحاقَ، عن البراء قال: آخِرُ ما نزلَ من القرآن[3]: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦][4].

قال أبو بكر بنُ عيَّاش: وأخطأ أبو إسحاقَ، لأنَّ محمدَ بنَ السائب حدثنا عن أبي صالح[5]، عن ابن عباس قال: آخِرُ ما نزلَ من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ

---

(١) في النسخ الخطية: إنما، والمثبت من (م).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩) من حديث عثمان بن عفان مطولاً.
(٣) قوله: من القرآن، ليس في (ظ).
(٤) أبو هشام ـ وهو محمد بن يزيد الرفاعي ـ ضعيف، لكن الحديث صحيح، فقد أخرجه من وجه آخر البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).
(٥) في النسخ الخطية و(م): عن أبي السائب، وهو خطأ.

إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. فقال جبريلُ للنبيِّ عليهما السلام: يا محمدُ، ضَعْها في رأس ثمانين ومئتين من البقرة[١].

قال أبو الحسن بنُ بطَّال: ومَن قالَ بهذا القولِ، لا يقولُ: إنَّ تلاوةَ القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكونَ مرتَّبةً على حسب الترتيب الموقَّف عليه في المصحف، بل إنما يجب تأليفُ سُوَرِهِ في الرسم والخطِّ خاصَّة، ولا يُعلَمُ أنَّ أحداً منهم قال: إنَّ ترتيبَ ذلك واجبٌ في الصلاة، وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يَحِلُّ لأحد أن يَتلقَّنَ الكهفَ قبلَ البقرة، ولا الحجَّ قبل[٢] الكهف. ألا ترى قولَ عائشةَ رضي الله عنها للذي سألها: لا يَضرُّكَ أيَّهُ قرأتَ قبلُ[٣]؟

وقد كان النبيُّ ﷺ يقرأ في الصلاة السورةَ في ركعة، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها.

وأما مارُوي عن ابن مسعود وابن عمر، أنهما كَرِها أن يُقرأ القرآنُ منكوساً، وقالا: ذلك منكوسُ القلب[٤]؛ فإنما عَنَيا بذلك مَن يقرأُ السورةَ منكوسة، ويَبتدىءُ من آخرها إلى أوَّلها، لأنَّ ذلك حرامٌ محظورٌ، ومن الناس مَن يتَعاطى هذا في القرآن والشِّعر، لِيُذَلِّلَ لسانَه بذلك، ويَقدِرَ على الحفظ، وهذا حظَره اللهُ تعالى، ومنعَه في القرآن؛ لأنه إفسادٌ لِسُوَرِه، ومخالفةٌ لما قُصِدَ بها.

ومما يدلُّ على أنه لا يجب إثباتُه في المصاحف على تاريخ نزوله، ما صحَّ وثبتَ أنَّ الآياتِ كانت تَنزِلُ بالمدينة، فتُوضَعُ في السورة المكيَّة. ألا ترى قولَ عائشةَ رضي

---

(١) محمد بن السائب: هو الكلبي، وقد تكلموا فيه، وأبو صالح (وهو باذام ـ ويقال باذان ـ مولى أم هانىء) ضعيف. والكلبي معروف بروايته عنه، وقد أخرجه الفرَّاء في معاني القرآن ١/ ١٨٣ عن أبي بكر بن عياش، بهذا الإسناد. وكذلك أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٣٧ من طريق سفيان الثوري، عن الكلبي بنحوه. وقد صحَّ هذا الحديث من طرق أخرى فيما أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٦٧ وغيرُه. وجمع الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٢٠٥ بين هذه الرواية والرواية السالفة بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كلاً منهما آخر بالنسبة لما عداهما.

(٢) في النسخ الخطية: بعد، والمثبت من (م).

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

(٤) أثر صحيح، وأخرجه عبد الرزاق (٧٩٤٧)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٦٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣١٢) و(٢٣١٣) من طريقين عن الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود.

الله عنها: وما نزلَت سورةُ البقرة والنساء إلا وأنا عنده[١]؟ يعني بالمدينة. وقد قُدِّمَتا في المصحف على ما نزلَ قبلَهما من القرآن بمكة. ولو أُلِّفوه[٢] على تاريخ النزول، لوجب أن يَنتقِضَ ترتيبُ آياتِ السُّوَر.

قال أبو بكر الأنباريُّ: حدثنا إسماعيلُ بن إسحاق القاضي، حدثنا حجَّاج بن مِنهال، حدثنا همَّامٌ، عن قتادةَ قال: نزلَ بالمدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرَّعد، والنَّحل، والحجّ، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحُجُرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحَشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ إلى رأس العَشر، وإذا زُلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السُّوَرُ نزلنَ[٣] بالمدينة، وسائرُ القرآن نزل بمكة[٤].

قال أبو بكر: فمَن عَمِلَ على تركِ الأثر، والإعراضِ عن الإجماع، ونظَمَ السُّوَرَ على منازلها بمكةَ والمدينة، لم يَدرِ أينَ تقعُ الفاتحةُ، لاختلاف الناس في موضع نزولِها، ويضطرُّ إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومئتين من البقرة إلى رأس الأربعين، ومن أفسَدَ نَظمَ القرآن، فقد كفرَ به، وردَّ على محمد ﷺ ما حكاه عن رَبِّه تعالى.

وقد قيل: إنَّ عِلَّةَ تقديمِ المدنيِّ على المكِّيِّ هو أنَّ الله تعالى خاطَبَ العربَ بلغتها، وما تعرِفُ من أفانين خطابها ومحاورتها، فلما كان فَنٌّ من كلامِهم مبنيًّا على تقديمِ المؤخَّر، وتأخيرِ المقدَّم، خُوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى، الذي لو فقدوه من القرآن، لقالوا: ما بالُه عَرِيَ من هذا الباب الموجود في كلامنا، المُستَحلَى من نِظامنا. قال عَبِيدُ بنُ الأبرص[٥]:

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

(٢) في (ظ): أبقوه.

(٣) في (ظ): نزلت.

(٤) وأورده كذلك السيوطي في الإتقان ١/ ١١ ـ ١٢ عن ابن الأنباري.

(٥) شاعر جاهلي قديم، من المعمَّرين، شهد مقتل حُجر أبي امرىء القيس. الشعر والشعراء ١/ ٢٦٧، وذكره ابن سلَّام الجُمحي في الطبقة الرابعة من طبقاته ١/ ١٣٨، وقال: قديم، عظيم الذكر، عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب. والبيتان في ديوانه ص٢٤.

أن بُـدِّلَـتْ أهـلَـهـا وُحـوشـاً[١] وغَـيَّـرتْ حـالَـهـا الـخُـطـوبُ
عَـيـنـاكَ دَمـعُـهُـمـا سَـرُوبُ كـأنَّ شَـأنَـيـهـمـا شَـعِـيـبُ

أراد: عيناكَ دمعُهما سَروبُ لأنْ تَبدَّلَت من أهلها وُحوشاً، فقَدَّمَ المؤخَّر، وأخَّرَ المقدَّمَ. ومعنى سَروب: منصبٌّ على وجه الأرض من كثرته[٢]، ومنه السارِب، للذاهب على وجهِه في الأرض. قال الشاعر[٣]:

أنَّـى سَـرَبْـتِ وكُـنْـتِ غـيـرَ سَـرُوبِ

وقـولـه: شَـأنَـيـهـمـا؛ الـشـأنُ: واحـدُ الـشـؤون، وهـي مَـوَاصِـلُ قـبـائـلِ الـرأس ومُلتقاها[٤]، ومنها يجيءُ الدمع[٥]. شَعِيب: مُتفرِّق.

فصل[٦]

وأما شَكْلُ المصحف ونَقْطُه، فَرُوِيَ أنَّ عبدَ الملك بنَ مروان[٧] أمرَ به وعَمِلَه، فتجرَّد لذلك الحجَّاجُ[٨] بواسِط، وجدَّ فيه، وزادَ تحزيبَه[٩]، وأمرَ ـ وهو والي العراق ـ

---

(١) اضطربت النسخ في هذا الشطر من البيت، فوقع في (ظ): لأن تبدَّلت من أهلها وحوشاً (وعليه شرحَ المصنف)، وفي (د): أن يبدل من أهلها...، وفي (م): أن بدلت منهم...، وما أثبتناه من ديوانه ص٢٤. وقد اختلفت المصادر في روايته، فوقع في جمهرة أشعار العرب لابن أبي الخطاب القرشي ص ٤٦٠: أإن تبدَّلت من أهلها...، وأعاده ص ٤٦٢: أن بدلت من أهلها. وفي شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٣٢٥: وبُدِّلت من أهلها...، وفي المعلقات العشر للشنقيطي ص ١٧٠: وبُدِّلَت منهم... ونقل شارح ديوانه ص ٢٤ عن ابن كناسة قوله: لم أرَ أحداً يُنشد هذه القصيدة على إقامة العَروض.

(٢) قوله: من كثرته، ليس في (م).

(٣) هو قيس بنُ الخَطِيم، من الأوس، أدرك الإسلام ولم يسلم، ذكره ابن سلَّام في طبقاته ١/ ٢١٥. وتمام البيت: وتُقَرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريب. وهو في ديوانه ص٥٥.

(٤) في (د) و(ظ): وملتقاهما.

(٥) في (د) و(ظ): الدموع.

(٦) هذا الفصل بتمامه من المحرر الوجيز ١/ ٥٠.

(٧) ابن الحكم بن أبي العاص، الأموي، الخليفة، من رجال الدهر ودهاة الرجال، مات سنة (٨٦هـ). السير ٤/ ٢٤٦.

(٨) ابن يوسف الثقفي، توفي سنة (٩٥هـ). السير ٤/ ٣٤٣.

(٩) في (ظ): تجزئته.

الحسنَ ويحيى بنَ يَعمَرَ[١] بذلك، وألَّفَ إثرَ ذلك بوَاسِط كتاباً في القراءات، جمعَ فيه ماروِي من اختلاف الناس فيما وافق الخطَّ، ومشى الناسُ على ذلك زماناً طويلاً، إلى أن ألَّفَ ابنُ مجاهد كتابَه[٢] في القراءات.

وأسندَ الزُّبيديُّ في كتاب «الطبقات»[٣] إلى المبرِّد أنَّ أوَّلَ من نَقَطَ المصحفَ أبو الأسود الدُّؤلي[٤]، وذكر أيضا أنَّ ابنَ سِيرِينَ كان له مُصحفٌ، نَقَطَهُ له يحيى بنُ يَعمَرَ[٥].

فصل

وأما وضعُ الأعشار، فقال ابن عطيَّة: مرَّ بي في بعض التواريخ أنَّ المأمون العباسي[٦] أمر بذلك، وقيل: إنَّ الحجَّاجَ فعل ذلك[٧].

وذكر أبو عمرو الدَّاني في كتاب «البيان»[٨] له عن عبد الله بن مسعود، أنه كَرِه التَّعشيرَ في المصحف، وأنه كان يَحُكُّه. وعن مجاهد أنه كره التعشيرَ والطِّيبَ في المصحف.

وقال أشهبُ[٩]: سمعتُ مالكاً، وسُئلَ عن العُشُور التي تكون في المصحف بالحُمرة وغيرها من الألوان، فكرهَ ذلك، وقال: تَعشِيرُ المصحف بالحِبر لا بأسَ به.

---

(١) هو أبو سليمان العَدواني البصري المقرىء، قاضي مرو، مات قبل سنة (٩٠هـ). السير ٤/ ٤٤١.

(٢) في (د): كتاباً، وابن مجاهد: هو أحمد بن موسى بن العباس، أبو بكر البغدادي، المحدث النحوي شيخ المقرئين، توفي سنة (٣٢٤هـ). السير ١٥/ ٢٧٢.

(٣) ص٢١، والزُّبيدي: هو محمد بن الحسن بن عبيد الله، أبو بكر الأندلسي، إمام النحو، توفي سنة (٣٧٩هـ). السير ١٦/ ٤١٧.

(٤) ظالم بن عمرو، كان معدوداً في الفقهاء والشعراء والمحدِّثين، وهو أول من تكلم في النحو، مات سنة (٦٩هـ). السير ٤/ ٨١.

(٥) المصدر السالف ص ٢٩.

(٦) هو عبد الله بن هارون الرشيد، أبو العباس، الخليفة، مات سنة (٢١٨هـ) السير ١٠/ ٢٧٢.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٠.

(٨) لعله البيان في عد آي القرآن، ذكره صاحب هدية العارفين ٦/ ٦٥٣. وقد أخرج أبو عمرو الدَّاني هذه الآثار أيضاً (التي سيوردها المصنف عنه) في كتابه المحكم في نقط المصاحف ص١٤ ـ ١٧. وفيه بدل أشهب: ابنُ وهب، وابن القاسم، وعبد الله بنُ عبد الحكم. وانظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٤٠. ٢٤٢، والمصنَّف لابن أبي شيبة ١٠/ ٥٤٨. ٥٤٩، والمصاحف لابن أبي داود ص ١٣٨. ١٣٩.

(٩) ابنُ عبد العزيز بن داود بن إبراهيم، مفتي مصر، يقال: اسمه مسكين، وأشهب لقب له، سمع مالك بنَ أنس، مات سنة (٢٠٤هـ). «السير» ٩/ ٥٠٠.

وسُئل عن المصاحف يُكتَبُ فيها خَواتِمَ السُّوَرِ في كلِّ سورة ما فيها من آية، قال: إني أكرهُ ذلك في أمَّهات المصاحف أن يُكتَبَ فيها شيء، أو يُشكَلَ، فأما ما يَتعلَّمُ به الغِلمان من المصاحف، فلا أرى بذلك بأساً. قال أشهبُ: ثم أخرج إلينا مُصحفاً لِجَدِّه، كَتَبَهُ إذ كتبَ عثمانُ المصاحفَ، فرأينا[١] خواتِمَهُ من حِبر، على عمل السلسلة في طول السطر، ورأيتُه معجومَ الآي بالحِبر.

وقال قتادة: بدؤوا فنقَطوا، ثم خَمَّسوا، ثم عَشَّروا.

وقال يحيى بنُ أبي كثير: كان القرآنُ مجرَّداً في المصاحف، فأوَّلُ ما أحدثوا فيه النَّقْطُ على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لابأسَ به، هو[٢] نورٌ له، ثم أحدَثوا نَقْطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتِحَ والخواتيمَ[٣].

وعن أبي حمزةَ[٤] قال: رأى إبراهيمُ النَّخَعِيُّ في مُصحفي فاتحةَ سورة كذا وكذا، فقال لي: أُمحُهُ، فإنَّ عبدَ الله بن مسعود قال: لا تَخْلِطُوا في كتاب الله ماليس فيه.

وعن أبي بكر السَّرَّاج[٥] قال: قلتُ لأبي رَزِين[٦]: أأكتبُ في مُصحفي سورةَ كذا وكذا؟ قال: إني أخافُ أن ينشأَ قومٌ لا يعرِفونه، فيظنُّونه من القرآن.

قال الدَّاني رضي الله عنه: وهذه الأخبارُ كلُّها تُؤْذِنُ بأنَّ التعشيرَ والتخميسَ وفواتِحَ السور ورؤوسَ الآي من عمل الصحابة رضي الله عنهم، قادَهم[٧] إلى عمله الاجتهادُ. وأرى أنَّ من كَرِه ذلك منهم ومن غيرهم، إنما كَرِه أن يُعملَ بالألوان، كالحُمْرةِ والصُّفْرة وغيرِهما، على أنَّ المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله في الأمهات وغيرها. والحرَجُ والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (د): فرأينا قرآناً.

(٢) في (د): ثم هو.

(٣) قال أبو عمرو في المحكم ص١٧: وهذا يدل على التوسعة في ذلك.

(٤) ميمون الأعور الكوفي، صاحب إبراهيم النخعي، من رجال التهذيب.

(٥) هو الزبرقان بن عبد الله الأسدي، كما ذكر ابن أبي داود في المصاحف ص١٣٨، من أهل الكوفة، وذكره ابن حبان في الثقات ٦/ ٣٤١.

(٦) لعله مسعود بن مالك، الكوفي، وهو من رجال التهذيب، وانظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٢٩٦.

(٧) في (د): فأداهم، ولم تجوّد اللفظة في (ظ).

فصل

وأما عددُ حُروفِهِ وأحزابه[١]، فروى سلَّام[٢] أبو محمد الحِمَّاني، أن الحجَّاجَ بنَ يوسف جمع القُرَّاءَ والحُفَّاظَ والكُتَّاب، فقال: أخبِروني عن القرآن كلِّه: كم من حرفٍ هو؟. قال: وكنتُ فيهم، فحسَبنا، فأجمَعنا على أنَّ القرآن ثلاثُ مئة ألفِ حرفٍ، وأربعون ألفَ حرف، وسبعُ مئة حرف، وأربعون حرفاً. قال: فأخبِروني إلى أيِّ حرف ينتهي نصفُ القرآن؟ فإذا هو في الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [١٩] في الفاء. قال: فأخبِروني بأثلاثه، فإذا الثُّلثُ الأوَّلُ رأسُ مئة من براءة، والثلثُ الثاني رأسُ مئة ـ أو إحدى ومئة ـ من «طسم» الشعراء، والثُّلثُ الثالثُ ما بقي من القرآن. قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف، فإذا أوَّلُ سُبع في النساء: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ﴾ [٥٥] في الدال، والسُّبعُ الثاني في الأعراف: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[٣] [١٤٧] في التاء، والسُّبعُ الثالثُ في الرَّعد: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [٣٥] في الألف من آخِر ﴿أُكُلُهَا﴾، والسُّبعُ الرابعُ في الحجِّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾[٣٤] في الألف، والسُّبعُ الخامسُ في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [٣٦] في الهاء، والسُّبعُ السادسُ في الفتح: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[٦] في الواو، والسُّبعُ السابعُ ما بقي من القرآن.

قال سلَّامٌ أبو محمد: عملناه في أربعة أشهر، وكان الحجَّاجُ يقرأُ في كلِّ ليلة رُبعاً، فأوَّلُ رُبعه خاتِمةُ الأنعام، والرُّبعُ الثاني في الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [١٩] في الفاء[٤]. والربعُ الثالثُ خاتمةُ الزُّمَر، والربعُ الرابعُ مابقي من القرآن[٥]. وفي هذه الجملة خلافٌ مذكورٌ في كتاب «البيان» لأبي عمرو الدَّاني، من أراد الوقوفَ عليه، وجدَه هناك.

---

(١) في (م): وأجزائه.

(٢) قال ابنُ أبي داود في المصاحف ص١١٩: إنما هو راشد. اهـ وهو ابنُ نَجيح الحِمَّاني، من رجال التهذيب.

(٣) في النسخ وعند ابن أبي داود: أولئك حبطت، وهو خطأ.

(٤) قوله: في الفاء، ليس في (م).

(٥) أخرجه ابنُ أبي داود في المصاحف ص ١١٩ ـ ١٢٠.

فصل

وأما عددُ آي القرآن في المدنيِّ الأوَّل[١]، فقال محمدُ بن عيسى[٢]: جميعُ عدد آي القرآن في المدني الأوَّل ستةُ آلاف آية.

قال أبو عمرو: وهو العدد الذي رواه أهلُ الكوفة عن أهل المدينة، ولم يُسَمُّوا في ذلك أحداً بعينه يُسندونه إليه.

وأما المدنيُّ الأخير، فهو في قول إسماعيلَ بن جعفر[٣] ستةُ آلاف آية، ومئتا آية، وأربعَ عَشْرةَ آية.

وقال الفضلُ[٤]: عددُ آي القرآن في قول المكيِّين ستةُ آلاف آية، ومئتا آية، وتسعَ عَشْرةَ آية.

قال محمدُ بن عيسى: وجميعُ عددِ آيِ القرآن في قول الكوفيِّين ستةُ آلاف آية، ومئتا آية، وثلاثون وستُّ آيات، وهو العددُ الذي رواه سُليم[٥] والكِسائيُّ[٦]، عن حمزةَ[٧]، وأسنده الكِسائي إلى عليٍّ رضي الله عنه.

---

(١) نقل السيوطي في الإتقان ص ٦٧ عن أبي عبد الله الموصلي أن لأهل المدينة في عدد آي القرآن عددَين، الأول: لأبي جعفر يزيد بن القعقاع (وهو من العشرة)، وشيبة بن نصاح مولى أم سَلَمة وختن أبي جعفر. والثاني: لإسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، وسيرد ذكره.

(٢) محمد بن عيسى بن إبراهيم، أبو عبد الله الأصبهاني، إمام في القراءات، وله اختيار في القراءة، صنف كتاب الجامع في القراءات، وكتاباً في العدد، وغيرهما. مات سنة (٢٥٣هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢٣.

(٣) هو إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير، الإمام الحافظ، أبو إسحاق الأنصاري، كان مقرىء المدينة في زمانه. توفي سنة (١٨٠هـ). السير ٨/ ٢٣٠، وطبقات القراء ١/ ١٦٣.

(٤) هو الفضل بن شاذان بن عيسى، أبو العباس الرازي، قال الداني: لم يكن في دهره مثل علمه وفهمه وعدالته وحسن اطلاعه، مات في حدود (٢٩٠هـ). طبقات القراء ٢/ ١٠.

(٥) هو سُليم بن عيسى بن سليم، أبو عيسى ـ ويقال: أبو محمد ـ الحنفي مولاهم الكوفي المقرىء، عرض القرآن على حمزة، وهو أخصُّ أصحابه، توفي سنة (١٨٨هـ)، وقيل غير ذلك. طبقات القراء ١/ ٣١٨ وانظر السير ٩/ ٣٧٥.

(٦) أبو الحسن عليُّ بنُ حمزة شيخُ القراءة والعربية، اختار قراءة اشتهرت وصارت إحدى السَّبع، مات بالري سنة (١٨٩هـ). السير ٩/ ١٣١، وطبقات القراء ١/ ٥٣٥.

(٧) هو ابن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، أبو عمارة، التيمي، مولاهم، الكوفي، الزيات، شيخ القراء. توفي سنة (١٥٦هـ). انظر السير ٧/ ٩٠.

قال محمد: وجميعُ عددِ آي القرآن في عدد البصريين ستةُ آلاف، ومئتان، وأربعُ آيات، وهو العددُ الذي مضى عليه سلفُهم حتى الآن.

وأما عددُ أهل الشام، فقال يحيى بنُ الحارث الذِّماري[١]: ستةُ آلاف ومئتان، وستٌّ وعشرون. وفي رواية: ستةُ آلاف ومئتان وخمسٌ وعشرون، نقصَ آية.

قال ابن ذَكوان[٢]: فظننتُ أنَّ يحيى لم يعدَّ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾.

قال أبو عمرو: فهذه الأعدادُ التي يتداولُها الناسُ تأليفاً، ويعدُّون بها في سائر الآفاق قديماً وحديثاً.

وأما كلماتُه؛ فقال الفضلُ بنُ شاذان: جميعُ كلمات[٣] القرآن ـ في قول عطاء بن يسار ـ سبعةٌ وسبعون ألفاً، وأربعُ مئة، وتسعٌ وثلاثون كلمة. وحروفهُ ثلاثُ مئة ألف، وثلاثةٌ وعشرون ألفاً، وخمسةَ عشرَ حرفاً.

قلت: هذا يُخالف ما تقدَّم عن الحِمَّاني قبل هذا.

وقال عبدُ الله بن كثير، عن مجاهد قال: هذا ما أَحصَينا من القرآن، وهو ثلاثُ مئة ألف حرف، وأحدٌ وعشرون ألفَ حرف، ومئة وثمانون حرفاً، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحِمَّاني من عدد[٤] حروفه.

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السُّورةِ في كلام العرب: الإبانةُ لها من سُورة أخرى، وانفصالُها عنها، وسُمِّيت بذلك لأنه يرتفعُ فيها من منزلة إلى منزلة. قال النَّابغةُ[٥]:

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ اللهَ أعـطَـاكَ سُـورةً ... تَـرىَ كُـلَّ مَـلْـكٍ دُونَـهـا يَـتَـذَبْـذَبُ

---

(١) أبو عمرو الغساني الذِّماري، ثم الدمشقي، شيخ المقرئين إمام جامع دمشق، مات سنة (١٤٥هـ). السير ٦/ ١٨٩.

(٢) عبد الله بن أحمد، أبو عمرو، القرشي الدمشقي، شيخ الإقراء بالشام، وإمام جامع دمشق. توفي سنة (٢٤٢هـ). طبقات القراء ١/ ٤٠٤.

(٣) في النسخ الخطية: كلام، والمثبت من (م).

(٤) في (م): عدّ.

(٥) زياد بن معاوية الذبياني، يكنى أبا أمامة، والنابغة لقب له، من فحول الشعراء. والبيت في ديوانه ص ١٨. وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٥٧.

أي: منزلةَ شرَف، ارتفعتَ إليها عن مَنزِل الملوك.

وقيل: سُمِّيت بذلك لِشَرَفِها وارتفاعِها، كما يُقال لما ارتفعَ من الأرض: سُور.

وقيل: سُمِّيت بذلك لأنَّ قارئها يُشرِفُ على ما لم يكن عنده، كسُورِ البناء. كلُّه بغير همز.

وقيل: سُمِّيت بذلك لأنها قُطِعَت من القرآن على حِدَة، من قول العرب للبقيَّة: سُؤر، وجاء في أسآرِ الناس، أي: بقاياهم، فعلى هذا يكون الأصلُ: سُؤرة بالهمزة، ثم خُفِّفَت، فأُبدلت واواً، لانضمام ما قبلَها.

وقيل: سُمِّيت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقة التامَّة: سُورة.

وجمعُ سُورة: سُوَر، بفتح الواو. وقال الشاعر:

سُودُ المَحاجِرِ لا يَقرَأنَ بالسُّوَرِ[1]

ويجوز أن يُجمع على: سُوْرَات، وسُوَرَات.

وأما الآيةُ، فهي العلامةُ، بمعنى أنها علامةٌ لانقطاع الكلامِ الذي قبلَها من الذي بعدَها وانفصالِه، أي: هي بائنةٌ من أختها ومنفردةٌ. وتقولُ العربُ: بيني وبين فلان آيةٌ، أي: علامةٌ، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقال النابغة[2]:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفْتُها ... لِستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

وقيل: سُمِّيَت آية، لأنها جماعةُ حروف من القرآن، وطائفةٌ منه، كما يقال: خرج القومُ بآيَتِهم[3]، أي: بجماعتهم. قال بُرْجُ بنُ مُسْهِر الطائي[4]:

خَرَجْنا من النَّقْبَينِ لا حَيَّ مِثلُنا ... بآيَتِنا[5] نُزْجي اللِّقاحَ المَطافِلا

---

(١) قائله الراعي، أبو جندل، عُبيد بن حُصَين النُّميري، من شعراء العصر الأموي. وصدر البيت: هنَّ الحرائرُ لَا ربَّاتُ أحمرة. وهو في ديوانه ص ١٢٢. وينظر الشعر والشعراء ١/ ٤١٥. ونُسب البيت أيضاً للقتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص ٥٣، وسيرد البيت بتمامه عند تفسير الآية (٢٠) من سورة المؤمنون.

(٢) ديوانه ص ٧٩.

(٣) في (م): بآياتهم.

(٤) ابن الجُلاس، أحدُ بني جَديلة، ثم أحدُ بني طَريف، من معمَّري الجاهلية. ينظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص٨٠، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٦٨١، والبيت في إصلاح المنطق لابن السكيت ص٣٣٧، والتنبيهات لعلي بن حمزة البصري ص٣٠٨، وانظر اللسان (أيا)، وخزانة الأدب ٦/ ٥١٥.

(٥) في (م): بآياتنا.

وقيل: سُمِّيَت آيةً، لأنها عَجَبٌ، يَعجِزُ البشرُ عن التكلُّم بمثلها[١].

واختلف النَّحويون في أصل «آية»، فقال سيبويه[٢]: أَيَيَة على فَعَلَة، مثل: أَكَمَة، وشَجَرَة، فلما تحرَّكت الياءُ، وانفتحَ ما قبلَها، انقلَبَت ألفاً، فصارَت آية، بهمزة بعدَها مدَّة.

وقال الكِسائيُّ: أصلُها آيِيَة، على وزن فاعلة، مثلُ آمِنة، فقُلِبَتِ الياء ألفاً، لتحرُّكها وانفتاحِ ماقبلها، ثم حذفَت، لالتباسِها بالجمع[٣].

وقال الفرَّاء[٤]: أصلُها أيّية؛ بتشديد الياء الأولى، فقُلِبَت ألفاً كراهةً للتشديد، فصارَت آية[٥].

وجمعُها آيٌ، وآياتٌ، وآياءٌ. وأنشدَ أبو زيد[٦]:

لم يُبْقِ هذا الدَّهرُ من آيائِه   غيرَ أثافِيه وأَرْمِدائِه[٧]

وأما الكلمةُ، فهي الصورةُ القائمةُ بجميع مايختلطُ بها من الشُّبُهات، أي: الحروف. وأطولُ الكَلِم في كتاب الله عزَّ وجلَّ مابلغَ عَشَرةَ أحرف، نحو قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، و﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، وشبههما. فأما قولُه: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، فهو عشرةُ أحرف في الرسم، وأحدَ عشرَ في اللفظ.

وأقصَرُهُنَّ ما كان على حَرفَين، نحو: ما، ولا، ولك، وله، وما أشبه ذلك. ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة، مثلُ همزة الاستفهام، وواو العطف، إلا أنه لا يُنطقُ به مفرداً.

---

(١) وقع قوله: وقيل سميت آية لأنها عجب ... إلى هذا الموضع في (د) قبل قوله: قال برج بن مسهر.

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، البصري، إمام النحو، مات سنة (١٨٠هـ). السير ٨/ ٣٥٢.

(٣) الذي نقله ابن عطيَّة في تفسيره ١/ ٥٧ عن الكسائي في تعليله هو قوله: حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في «دابَّة». وينظر البحر المحيط ١/ ١٦٠، والدر المصون ١/ ٣٠٨.

(٤) يحيى بن زياد، أبو زكريا، الكوفي النحوي، له معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، وغيرهما، مات بطريق الحج سنة (٢٠٧هـ). السير ١٠/ ١١٨.

(٥) المنقول عن الفرَّاء (كما في المصادر السالفة) أنها فَعْلَة، بسكون العين، ثم أُبدلت الياء الساكنة ألفاً، استثقالاً للتضعيف.

(٦) سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، النحوي، صاحب كتاب النوادر، مات سنة (٢١٥هـ). السير ٩/ ٤٩٤.

(٧) هو في أدب الكاتب ص٥٨٧، والمنصف ٢/ ١٤٣، وينظر اللسان (رمد، أيا).

وقد تكون الكلمةُ وحدَها آيةً تامَّة، نحو قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾. ﴿وَالْعَصْرِ﴾. وكذلك ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ في قول الكوفيِّين، وذلك في فواتح السُّور، فأما في حَشْوِهنَّ، فلا.

قال أبو عمرو الدَّاني: ولا أعلم كلمة هي وحدَها آية إلا قولَه في «الرَّحمن»: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [٦٤] لاغير[١].

وقد أتت كلمتانِ متصلتان، وهما آيتان، وذلك في قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١ و٢]. على قول الكوفيِّين لاغير.

وقد تكون الكلمةُ في غير هذا الآيةَ التامَّةَ، والكلامَ القائمَ بنفسه، وإن كان أكثرَ أو أقلَّ، قال الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. قيل: إنما يعني بالكلمة هاهنا قولَه تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] إلى آخر الآيتين، وقال عز وجل: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]؛ قال مجاهد: لا إله إلا الله، وقال النبيُّ ﷺ: «كلمتانِ خفيفتانِ على اللسان، ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلى الرحمن: سبحان اللهِ وبحمده، سبحان الله العظيم»[٢]. وقد تُسمِّي العربُ القصيدةَ بأسرها، والقصةَ كلَّها كلمة، فيقولون: قال قُسٌّ[٣] في كلمته كذا، أي: في خطبته. وقال زُهيرٌ في كلمته كذا، أي: في قصيدته. وقال فلانٌ في كلمته، يعني في رسالته، فتُسمِّي[٤] جملةَ الكلام كلمة، إذ كانت الكلمةُ منها، على عادتهم في تسميتهم الشيءَ باسم ما هو منه، وما قاربَه وجاورَه، وكان بسبب منه، مجازاً واتِّساعاً.

وأما الحرف، فهو الشُّبهةُ القائمةُ وحدَها من الكلمة، وقد يُسمَّى الحرفُ كلمة، والكلمةُ حرفاً، على ما بيَّنَّاه من الاتِّساع والمجاز.

---

(١) وذكره السيوطيُّ في الإتقان ١/ ٦٦.

(٢) أخرجه أحمد (٧١٦٧) والبخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو قُس بن ساعدة بن عمرو بن إياد، خطيبُ العرب وشاعرُها وحكيمها في عصره، يقال: إنه أول من علا على شَرَف، وخطب عليه، وأولُ من قال في كلامه: أما بعد، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا، أدركه الرسول ﷺ، ورآه بعكاظ. الأغاني ١٥/ ٢٤٦، وينظر الأوائل للعسكري ١/ ٨٤.

(٤) في (د): فسمي.

قال أبو عمرو الدَّاني: فإن قيل: فكيف يُسمَّى ماجاء من حروفِ الهجاء في الفواتح على حرف واحد، نحو ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ حرفاً أو كلمة ؟ قلتُ: كلمة لاحرفاً، وذلك من جهة أنَّ الحرفَ لا يُسكَتُ عليه، ولا ينفردُ وحدَه في الصورة، ولا ينفصلُ مما يَختلِطُ به، وهذه الحروفُ مسكوتٌ عليها، منفردةٌ منفصلةٌ، كانفرادِ الكَلِم وانفصالها، فلذلك سُمِّيت كلماتٍ لا حروفاً.

قال أبو عمرو: وقد يكون الحرفُ في غير هذا المَذهبَ والوجهَ، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: ١١] أي: على وَجهٍ ومَذهب، ومن ذلك قولُ النبيِّ ﷺ: «أُنزِلَ القرآنُ على سبعةِ أحرف»[١] أي: سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم.

باب هل ورد في القرآن كلماتٌ خارجةٌ عن لغات العرب، أو لا

لاخلافَ بين الأمة[٢] أنه ليس في القرآن كلامٌ مركَّبٌ على أساليبِ غيرِ العرب، وأنَّ فيه أسماءَ أعلاماً لِمن لسانُه غيرُ لسان العرب، كإسرائيلَ، وجبريلَ، وعمرانَ، ونوح، ولوط.

واختلفوا هل وقعَ فيه ألفاظٌ غيرُ أعلام[٣] مفردةٌ من غير كلام العرب ؟

فذهب القاضي أبو بكر بن الطَّيِّب والطبريُّ[٤] وغيرُهما إلى أنَّ ذلك لا يُوجد فيه، وأنَّ القرآنَ عربيٌّ صريحٌ، وما وُجد فيه من الألفاظ التي تُنسب إلى سائر اللُّغات إنما اتَّفق فيها أن تواردَت اللُّغاتُ عليها[٥]، فتكلَّمَت بها العربُ والفُرسُ والحبشةُ وغيرُهم.

وذهبَ بعضُهم إلى وجودها فيه، وأنَّ تلك الألفاظَ لِقلَّتها لا تُخرِجُ القرآنَ عن كونه عربيًّا مُبيناً، ولا رسولَ الله عن كونه مُتكلِّماً بلسان قومه. فالمِشكاةُ: الكَوَّةُ، ونشأ:

---

(١) سلف تخريجه ص ٧١.

(٢) في (م): الأئمة.

(٣) في (د): وقع فيه أعلام.

(٤) تفسير الطبري ١/ ١٤ ـ ٢٠.

(٥) قوله: عليها من (م).

قامَ من الليل، ومنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: ٦]، و﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ [الحديد: ٢٨] أي: ضِعْفَين، و﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥١]، أي: الأسد، كلُّه بلسان الحبشة. والغَسَّاقُ: الباردُ المُنتنُ، بلسان التُّرك، والقِسطاسُ: الميزانُ، بلغة الرُّوم، والسِّجِّيلُ: الحجارةُ والطين، بلسان الفُرس، والطُّورُ: الجبلُ، واليَمُّ: البحرُ، بالسُّريانية، والتَّنُّور: وَجْهُ الأرض، بالعجمية.

قال ابن عطية: فحقيقةُ العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العربُ، وعَرَّبَتها، فهي عربيةٌ بهذا الوجه. وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآنُ بلسانها[١] بعضُ مخالطة لسائر الألسنةِ بتجارات، وبرحلَتَي قريش، وكسفرِ مُسافر بن أبي عمرو[٢] إلى الشام، وكسفر عمرَ بن الخطاب، وكسفر عمرو بنِ العاصي وعُمارة بن الوليد[٣] إلى أرض الحبشة، وكسفرِ الأعشى إلى الحِيرة، وصُحبته لنصاراها، مع كونه حُجَّةً في اللُّغة، فعَلِقت العربُ بهذا كلِّه ألفاظاً أعجمية غيَّرت بعضَها بالنقص من حروفها، وجَرَت إلى تخفيف ثِقَلِ العُجْمَة، واستعملَتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مَجرى العربيِّ الصحيح[٤]، ووقع بها البيانُ، وعلى هذا الحدِّ نزل بها القرآنُ. فإن جَهِلَها عربيٌّ مَا، فكَجَهله الصريحِ بما في لغة غيره، كما لم يَعرِف ابنُ عباس معنى «فاطر»[٥] إلى غير ذلك.

قال ابن عطية[٦]: وما ذهب إليه الطبريُّ رحمه الله من أنَّ اللُّغتين اتفقتا في لفظة لفظة، فذلك بعيدٌ، بل إحداهما أصلٌ، والأخرى فرعٌ في الأكثر[٧]، لأنَّا لا[٨] ندفع أيضاً جوازَ الاتفاق قليلاً شاذًّا.

---

(١) في (د): بلغاتها.

(٢) يكنى أبا أمية، كان سيداً جواداً، وهو أحدُ شعراء قريش، وكان يناقضُ عُمارة بن الوليد، وله شعر ليس بالكثير. الأغاني ٩/ ٤٩ ـ ٥٥.

(٣) الجاهلي المخزومي، أحد مَن دعاعليهم النبي ﷺ، ومات كافراً. الإصابة ٨/ ٢٤.

(٤) في المحرر الوجيز (والكلام منه) ١/ ٥١: الصريح.

(٥) سلفت هذه القصة ص ٧٦.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥١.

(٧) قوله: في الأكثر، من المحرر الوجيز.

(٨) في (ز) و(ظ): لا أنا، وفي (د): لأنا، والمثبت من المحرر الوجيز.

قال غيره: والأوَّلُ أصحُّ.

وقوله: هي أصلٌ في كلام غيرهم، دَخيلةٌ في كلامهم، ليس بأولى من العكس، فإنَّ العربَ لا يخلُو أن تكونَ تخاطَبَت بها، أو لا، فإن كان الأوَّل، فهي من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم وكلامِهم إلا ما كان كذلك عندَهم، ولا يَبعُدُ أن يكونَ غيرُهم قد وافقَهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة(١).

فإن قيل: ليست هذه الكلماتُ على أوزان كلام العرب، فلا تكون منه.

قلنا: ومَن سلَّم لكم أنكم حصرتُم أوزانَهم حتى تُخرجوا هذه منها؟ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب، وردَّ هذه الأسماءَ إليها على الطريقة النَّحوية.

وأما إن لم تكن العربُ تخاطَبَت بها، ولا عَرَفَتها، استحالَ أن يُخاطِبَهم اللهُ بما لا يَعرِفون، وحينئذ لا يكون القرآنُ عربيًّا مبِيناً، ولا يكون الرسولُ مُخاطِباً لقومه بلسانهم. والله أعلم.

باب ذكرِ نُكَت في إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزةُ واحد(٢) معجزات الأنبياءِ الدَّالة على صدقهم، صلواتُ الله عليهم، وسُمِّيَت مُعجِزةً لأنَّ البشرَ يَعجِزُون عن الإتيان بمثلها.

وشرائِطُها خمسةٌ، فإن اختلَّ منها شرطٌ، لا تكون معجزة:

فالشرطُ الأوَّل من شروطها: أن تكونَ مما لا يَقدِرُ عليها إلا اللهُ سبحانه. وإنما وجبَ حصولُ هذا الشرطِ للمعجزة، لأنه لو أتى آتٍ في زمانٍ يَصِحُّ فيه مجيءُ الرُّسُل، وادَّعى الرسالةَ، وجعلَ معجزتَه أن يتحرَّكَ ويسكُن، ويقومَ ويقعُدَ، لم يكن هذا الذي ادَّعاه معجزةً له، ولا دالاً على صدقه، لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجبُ أن تكونَ المعجزاتُ كفَلْقِ البحر، وانشقاقِ القمر، وما شاكلَها مما لا يقدرُ عليها البشر.

---

(١) معمر بن المثنى التيمي البصري النحوي، صاحب التصانيف، قال المبرِّد: كان هو والأصمعي متقاربين في النحو، وكان أبو عبيدة أكمل القوم، مات سنة (٢٠٩هـ)، وقيل غير ذلك. السير ٩/ ٤٤٥.

(٢) في (م): واحدة.

والشرطُ الثاني: هو أن تَخرِقَ العادةَ. وإنما وجبَ اشتراطُ ذلك، لأنه لو قال المدَّعي للرسالة[١]: آيتي مجيءُ الليل بعدَ النهار، وطلوعُ الشمسِ من مَشرِقها، لم يكُن فيما ادَّعاه معجزة، لأنَّ هذه الأفعالَ، وإن كان لا يَقدِرُ عليها إلا اللهُ، فلم تُفعَل من أجله، وقد كان قبلَ دَعواه على ما هي عليه في حين دَعواهُ، ودعواه في دلالتها على نبوَّته، كدعوى غيره، فبانَ أنه لا وجهَ له لاستشهاده بها[٢] يَدُلُّ على صِدقه. والذي يَستَشهِدُ به الرسولُ عليه السلام له وجهٌ يَدُلُّ على صِدقِه، وذلك أن يقولَ: الدليلُ على صدقي أن يَخرِقَ اللهُ تعالى العادةَ من أجل دعواي عليه الرسالةَ، فيَقلِبَ هذه العصا ثُعباناً، ويَشُقَّ الحجرَ، ويُخرِجَ من وَسطِه ناقة، أو يُنبعَ الماءَ من بين أصابعي، كما يُنبِعُه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التي يَنفرِدُ بها جبَّارُ الأرضِ والسماوات، فتقومُ له هذه العلاماتُ مقامَ قولِ الربِّ سبحانه ـ لو أسمَعَنا كلامَه العزيزَ وقال ـ: صَدَقَ، أنا بعثتُه.

ومثالُ هذه المسألةِ ـ ولله ولرسوله المَثَلُ الأعلى ـ ما لو كانت جماعةٌ بحضرة ملك من ملوك الأرض، وهم بمرأًى أو مسمعٍ منه، فقال أحد رجاله والملكُ يَسمَعُهُ[٣]: الملكُ ـ أيها الجماعة[٤] ـ يأمُرُكم بكذا وكذا، ودليلُ ذلك أنَّ الملكَ يُصدِّقُني بفعل من أفعاله، وهو أن يُخرِجَ خاتِمَهُ من يده قاصداً بذلك تصديقي، فإذا سمع الملكُ كلامَه لهم، ودعواه فيهم، ثم عَمِلَ ما استَشهَدَ به على صِدقه، قام ذلك مقامَ قوله ـ لو قال ـ: صَدَقَ فيما ادَّعاه عليَّ. فكذلك إذا عَمِلَ اللهُ عملاً لا يَقدِرُ عليه إلا هو، وخَرَقَ به العادةَ على يدي[٥] الرسول، قام ذلك الفعلُ مقامَ كلامه تعالى لو أسمَعَناه[٦] وقال: صَدَقَ عبدي في دعوى الرسالةِ، وأنا أرسلتُه إليكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

---

(١) في (ظ): مدعي الرسالة.
(٢) قوله: لاستشهاده بها، من (د) و(ز)، وفي (ظ): لا وجه يدل ...
(٣) في (م): وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه.
(٤) في (م): الملك يأمركم أيها الجماعة.
(٥) في (م): يد.
(٦) في (د): سمعناه.

والشرطُ الثالثُ: هو أن يَستَشهِدَ بها مُدَّعي الرسالةِ على الله عزَّ وجلَّ، فيقولَ: آيتي أن يَقلِبَ الله سُبحانه هذا الماءَ زَيتاً، أو يُحرِّكَ الأرضَ عند قولي لها: تزلزلي، فإذا فعلَ اللهُ سبحانه ذلك، حصل المُتَحدَّى به.

الشرطُ الرابعُ: هو أن تقعَ على وَفقِ دعوى المتحدِّي بها، المُستَشهِدِ بكونها معجزةً له. وإنما وجبَ اشتراطُ هذا الشرطِ؛ لأنه لو قال المدَّعي للرسالة: آيةُ نبوَّتي ودليلُ حُجَّتي أن تَنطِقَ يدي، أو هذه الدَّابَّةُ، فنَطَقَت يدُه، أو الدَّابَّةُ، بأن قالت: كذبَ، وليس هو بنبي، فإنَّ هذا الكلامَ الذي خَلَقَه اللهُ تعالى دالٌّ على كَذِبِ ذلك المدَّعي للرسالة؛ لأنَّ ما فعلَه اللهُ لم يَقَع على وَفقِ دعواه. وكذلك ما يُروَى أنَّ مُسَيلِمَةَ الكذَّابَ ـ لعنه الله ـ تَفَلَ في بئر ليَكثُرَ ماؤُها، فغارَت البئرُ، وذهبَ ماكانَ فيها من الماء[1]، فما فعلَ اللهُ سبحانَه من هذا، كان من الآياتِ المُكَذِّبةِ لمن ظَهرَت على يديه، لأنها وقَعت على خلافِ ما أراده المُتَنَبِّئُ الكذَّابُ.

والشرطُ الخامسُ من شروط المعجزة: ألا يأتيَ أحدٌ بمثل ما أتى به المُتحدِّي على وجهِ المعارضة، فإن تَمَّ الأمرُ المتحدَّى به، المُسْتَشْهَدُ به على النبوَّة، على هذا الشرطِ، مع الشروط المتقدمة، فهي معجزةٌ دالَّةٌ على نُبوَّةِ مَن ظَهرَت على يده، فإن أقامَ الله تعالى مَن يُعارِضُه حتى يأتيَ بمثل ما أتى به، ويَعْمَلَ مثلَ ما عَمِلَ، بَطَلَ كونُه نبيًّا، وخَرَجَ ما ظَهَرَ على يديه[2] عن كونه مُعجِزاً، ولم يَدُلَّ على صِدقه، ولهذا قال المولى سبحانه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. كأنه يقول: إن ادَّعيتُم أنَّ هذا القرآنَ من نَظمِ محمد ﷺ وعملِهِ، فاعمَلُوا عَشْرَ سُورٍ من جنس[3] نَظمِهِ، فإذا عَجَزتُم بأسركم عن ذلك، فاعلموا أنه ليس مِن نَظْمِهِ، ولا مِن عَمَلِه.

لا يقال: إنَّ المعجزاتِ المقيَّدةَ بالشروط الخمسةِ لا تظهر إلا على أيدي

---

(١) أورد الطبريُّ هذه القصة في تاريخه ٣/ ٢٨٤ـ ٢٨٥ ضمن خبر مسيلمة.

(٢) قوله: ما ظهر على يديه، ليس في (م).

(٣) في (ظ): حسن.

الصادقين، فهذا المسيح[١] الدَّجَّال - فيما رويتُم عن نبيّكم ﷺ - يظهر على يديه من الآيات العِظام، والأمورِ الجِسام، ما هو معروفٌ مشهورٌ.

فإنَّا نقول: ذلك يدَّعي الرسالةَ، وهذا يدَّعي الرُّبوبيَّةَ، وبينهما من الفُرقان مابين البُصَراءِ والعُميانِ، وقد قام الدليلُ العقليُّ على أنَّ بِعثةَ بعضِ الخَلقِ إلى بعض غيرُ مُمتنعَة، ولا مُستحيلة، فلم يَبعُد أن يُقيمَ الله تعالى الأدلَّةَ على صِدق مخلوق أتى عنه بالشرع والمِلَّةِ.

ودلَّت الأدلَّةُ العقليَّةُ أيضاً على أنَّ المسيح الدَّجَّال فيه التصويرُ والتغييرُ[٢] من حال إلى حال، وثبت أنَّ هذه الصفاتِ لا تليقُ إلا بالمُحدَثات، تعالى ربُّ البريَّات عن أن يُشبِهَ شيئاً، أو يُشبِهَهُ شيءٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فصل

إذا ثبتَ هذا، فاعلَمْ أنَّ المعجزاتِ على ضربَيْن:

الأول: ما اشتَهَرَ نقلُه وانقرضَ عصرُه بموت النبيِّ ﷺ.

والثاني: ما تواترتِ[٣] الأخبارُ بصحته وحصولِه، واستفاضَت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلمُ بذلك ضرورة.

ومن شرطه أن يكونَ الناقلون له خَلقاً كثيراً وجمًّا غَفيراً، وأن يكونوا عالِمين بما نقلوه عِلماً ضرورياً، وأن يستويَ في النقل أوَّلُهم وآخِرُهم ووسطُهم في كَثرةِ العدد، حتى يستحيلَ عليهم التواطؤُ على الكذب. وهذه صفةُ نقلِ القرآن، ونقلِ وجودِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، لأنَّ الأمةَ رضي الله عنها لم تَزَل تنقُلُ القرآنَ خَلَفاً عن سَلَف، والسَّلَفُ عن سَلَفِهِ، إلى أن يتَّصِلَ ذلك بالنبيِّ عليه السلام، المعلومِ وجودُه بالضرورة، وصِدقُه بالأدلَّةِ المُعجِزات، والرسولُ أخذَه عن جبريلَ عليه السلام، عن ربِّه عزَّ وجلَّ، فنقَلَ القرآنَ في الأصل رسولانِ معصومانِ من الزيادة والنُّقصان، ونقلَه

---

(١) في (د) و(م): المسيخ (بالخاء المعجمة). ويقال له كذلك، وسيذكر المصنف الأقوال في تسميته بذلك، عند تفسير قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية ٤٥.

(٢) في النسخ الخطية: والتغير، والمثبت من (م).

(٣) في النسخ الخطية: تواردت، والمثبت من (م).

إلينا بعدَهم أهلُ التواتر، الذين لا يجوزُ عليهم الكذبُ فيما ينقُلونه ويسمَعونه، لكَثْرةِ العدد، ولذلك وقع لنا العلمُ الضروريُّ بصدقهم فيما نقلوه، من وجودِ محمد ﷺ، ومن ظهورِ القرآن على يديه، وتحدِّيه به.

ونظيرُ ذلك من عِلمِ الدنيا: عِلمُ الإنسانِ بما نُقِلَ إليه من وجود البُلدان، كالبَصرة والشام، والعراقِ وخُراسان، والمدينةِ ومكَّةَ، وأشباهِ ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة[1] المتواترة. فالقرآنُ معجزةُ نبيِّنا ﷺ الباقيةُ بعدَه إلى يوم القيامة. ومُعجزةُ كلِّ نبيٍّ انقرضَت بانقراضه، أو دخلَها التبديلُ والتغييرُ، كالتوارة والإنجيل.

ووجوهُ إعجاز القرآن العظيم[2] عشرة:

منها: النَّظمُ البديعُ المخالِفُ لكلِّ نَظم معهود في لسان العرب وفي غيرها؛ لأنَّ نَظمَه ليس من نَظم الشعر في شيء، وكذلك[3] قال ربُّ العزَّة الذي تَولَّى نَظمَه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]. وفي «صحيح» مسلم: أن أُنَيساً أخا أبي ذَرٍّ قال لأبي ذَرٍّ: لَقِيتُ رجلاً بمكَّةَ على دِينك، يَزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَه، قلتُ: فما يقول الناسُ؟ قال: يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ. وكان أُنيسٌ أحدَ الشعراء، قال أُنيس: لقد سمعتُ قولَ الكَهَنَةِ، فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قولَه على أقراء الشِّعر[4]، فلم يَلتَئِم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادقٌ، وإنهم لكاذبون[5].

وكذلك أقَرَّ عُتبةُ بنُ رَبيعةَ أنه ليس بسِحر ولا شِعر، لَمَّا قرأ عليه رسولُ الله ﷺ: «حم» فُصِّلَت، على ما يأتي بيانُه هناك[6]. فإذا اعترفَ عُتبةُ ـ على موضعِه من اللسان، وموضعِه من الفصاحة والبلاغة ـ بأنه ما سَمِعَ مثلَ القرآن قَطُّ، كان في هذا القولِ مُقِرًّا بإعجاز القرآنِ له، ولضُرَبائه من المتحقِّقين بالفصاحة، والقُدرة على

---

(١) في (ظ): المتظاهرة.

(٢) في (م): الكريم.

(٣) في (د): ولذلك.

(٤) في النسخ الخطية: الشعراء، والمثبت من (م).

(٥) صحيح مسلم (٢٤٧٣)، وعنده: فما يلتئم. وهو في مسند أحمد (٢١٥٢٥).

(٦) أخرج قصة عتبة بن ربيعة ابنُ إسحاق فيما ذكر ابن هشام ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥، وستَرد القصة في أول تفسير سورة فصلت.

التكلُّمِ بجميع أجناسِ القَولِ وأنواعِه.

ومنها: الأسلوبُ المخالِفُ لجميع أساليب العرب.

ومنها: الجَزَالةُ التي لا تصحُّ من مخلوق بحال، وتأمَّل ذلك في سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] إلى آخر السورة. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى آخر السورة.

قال ابن الحَصَّار[1]: فَمَن عَلِمَ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو الحقُّ، عَلِمَ أنَّ مثلَ هذه الجَزالةِ لا تصحُّ في خطاب غيره، ولا يصحُّ من أعظم ملوك الدنيا أن يقولَ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: ١٦]، ولا أن يقولَ: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣].

قال ابنُ الحَصَّار: وهذه الثلاثةُ من النَّظم، والأسلوب، والجَزالة، لازِمةٌ كلَّ سورة، بل هي لازِمةٌ كلَّ آية. وبمجموع هذه الثلاثةِ يتميَّزُ مسموعُ كلِّ آية وكلِّ سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التَّحدِّي والتعجيزُ. ومع هذا، فكلُّ سورة تنفرِدُ بهذه الثلاثةِ، من غير أن ينضافَ إليها أمرٌ آخرُ من الوجوه العشرة. فهذه سورةُ الكوثر ثلاثُ آيات قِصار، وهي أقصرُ سورة في القرآن، وقد تضمَّنَت الإخبارَ عن مُغيَّبَين:

أحدهما: الإخبار عن الكَوثر، وعِظَمِهِ وسَعتِه، وكَثرةِ أوانيه، وذلك يدُلُّ على أنَّ المصدِّقين به أكثرُ من أتباع سائر الرُّسُل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المُغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ [المدثر]. ثم أهلكَ اللهُ سبحانه مالَه وولدَه، وانقطعَ نسلُه[2].

ومنها: التصرُّفُ في لسان العرب على وجه لا يستقلُّ به عربيٌّ، حتى يقعَ منهم الاتفاقُ من جميعهم على إصابته في وضعِ كلِّ كلمة وحرف موضعَه[3].

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد، أبو المطرِّف، القرطبي المالكي، تفقه بأبي عمر الإشبيلي. توفي سنة (٤٢٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٧٣.

(٢) في (د): وقطع نسلَه.

(٣) في (ظ): في موضعه.

ومنها: الإخبارُ عن الأمور التي تَقدَّمَت من[١] أوّل الدنيا إلى وقت نزولِه من أمّيٍّ ما كان يَتلُو من قبله من كتاب، ولا يَخُطُّه بيمينه، فأخبرَ بما كان من قَصصِ الأنبياء مع أممها، والقرونِ الخالية في دهرها، وذكَرَ ما سأله أهلُ الكتاب عنه، وتحدَّوه به، من قصةِ أهل الكهف، وشأنِ موسى والخَضِرِ عليهما السلام، وحالِ ذي القرنين، فجاءهم ـ وهو أميٌّ من أمّة أُمِّيَّة، ليس لها بذلك علمٌ ـ بما عرَفوا من الكتب السالفة صِحَّتَه، فتحقَّقُوا صِدقَه.

قال القاضي ابنُ الطَّيِّب[٢]: ونحن نعلَمُ ضرورة أنَّ هذا مما لا سبيلَ إليه إلا عن تعلُّم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابِساً لأهلِ الآثار، وحَمَلَةِ الأخبار، ولا متردِّداً إلى التعلُّم[٣] منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقعَ إليه كتابٌ، فيأخُذَ منه، عُلِمَ أنه لا يصِلُ إلى علمِ ذلك إلا بتأييد من جهةِ الوَحي.

ومنها: الوفاءُ بالوعدِ المُدرَكِ بالحِسِّ في العِيان، في كلِّ ما وعدَ اللهُ سبحانه، وهو ينقسمُ[٤] إلى: أخباره المطلقة، كوعده بنصرِ رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيَّد بشرط، كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، و﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وشبه ذلك.

ومنها: الإخبارُ عن المُغيَّبات في المستقبل التي لا يُطَّلَعُ عليها إلا بالوحي. فمن ذلك: ماوعد اللهُ نبيَّه عليه السلام، أنه سَيُظهِرُ دينَه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] الآية، ففعلَ ذلك. وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزَى جيوشَه، عَرَّفَهم ما وعدَهم اللهُ في إظهار دينِه، ليَثِقوا بالنصر، وليَسْتَيقِنوا بالنُّجح. وكان عمرُ يفعلُ ذلك[٥]، فلم يزل الفتحُ يتوالى شَرقاً وغَرباً، برًّا وبحراً. قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

---

(١) في (د) و(م): في.

(٢) في إعجاز القرآن ص ٥١.

(٣) في (م): المتعلم.

(٤) في (د) و(ز): وهي تنقسم، وفي (م): وينقسم، والمثبت من (ظ).

(٥) من قوله: فمن ذلك ما وعد الله نبيه، إلى هذا الموضع، من إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٨.

فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، وقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقال: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم].

فهذه كلُّها أخبارٌ عن الغيوب التي لا يَقِفُ عليها إلا رَبُّ العالمين، أو من أوقفه عليها ربُّ العالمين، فدَلَّ على أنَّ اللهَ تعالى قد أوقف عليها رسولَه، لتكونَ دلالة على صدقه.

ومنها: ما تضمَّنه القرآنُ من العلم، الذي هو قِوامُ جميعِ الأنام في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

ومنها: الحِكَمُ البالغةُ التي لم تَجْرِ العادةُ بأن تصدُرَ في كَثرتِها وشَرَفِها من آدميٍّ.

ومنها: التناسبُ في جميع ما تضمَّنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قلت: فهذه عَشرةُ أوجه، ذكرها علماؤنا رحمةُ الله عليهم.

ووجهٌ حادي عشرَ قاله النَّظَّامُ[١] وبعضُ أهل[٢] القَدَرية، أنَّ وجهَ الإعجاز هو المنعُ من معارضته، والصَّرْفَةُ عند التحدِّي بمثله. وأنَّ المنعَ والصَّرْفةَ هو المعجزةُ دون ذات القرآن، وذلك أنَّ اللهَ تعالى صَرَفَ هِمَمَهم عن معارضته، مع تحدِّيهم بأن يأتوا بسورة من مِثله. وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ إجماعَ الأمة قبل حدوثِ المخالف أنَّ القرآنَ هو المُعجِزُ، فلو قلنا: إن المنعَ والصَّرْفةَ هو المُعجِزُ، لخرجَ القرآنُ عن أن يكونَ مُعجِزاً، وذلك خلافُ الإجماع. وإذا كان كذلك، عُلِمَ أن نفسَ القرآن هو المُعجِزُ؛ لأنَّ فصاحتَه وبلاغَتَه أمرٌ خارِقٌ للعادة، إذ لم يُوجَد قطُّ كلامٌ على هذا الوجهِ، فلما لم يكن ذلك الكلامُ مألوفاً مُعتاداً منهم، دلَّ على أنَّ المنعَ والصَّرفةَ لم يكن معجِزاً.

واختلف مَن قال بهذه الصَّرفَة على قولين:

---

(١) إبراهيم بن سيار، أبو إسحاق البصري، شيخ المعتزلة، تكلم في القدر، وانفرد بمسائل، مات سنة بضع وعشرين ومئتين. السير ١٠/ ٥٤١.

(٢) ليست في (م).

أحدهما: أنهم صُرِفوا عن القُدرة عليه، ولو تعرَّضوا له، لَعجَزوا عنه.

الثاني: أنهم صُرِفوا عن التعرُّضِ له، مع كونه في مقدورهم، ولو تعرَّضوا له، لجاز أن يَقدِرُوا عليه.

قال ابن عطية: وجهُ الإعجاز[١] في القرآن، إنما هو بِنَظْمِه وصِحَّةِ معانيه، وتوالي فصاحةِ ألفاظِه. ووجهُ إعجازِه أنَّ اللهَ تعالى قد أحاطَ بكلِّ شيء عِلماً، وأحاطَ بالكلام كلِّه عِلماً، فَعَلِمَ بإحاطته أيَّ لفظة تصلُحُ أن تليَ الأولى، وتُبيِّنَ المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوَّلِ القرآن إلى آخره، والبشرُ معهم الجهلُ والنِّسيانُ والذُّهولُ، ومعلومٌ ضرورةً أنَّ بَشَراً لم يكن محيطاً قطُّ، فبهذا جاء نَظْمُ القرآنِ في الغاية القُصوى من الفصاحة.

وبهذا النظرِ يَبطُلُ قولُ مَن قال: إنَّ العربَ كان في قُدرتها أن تأتيَ بمثل القرآن في الغاية القُصوى من الفصاحة، فلما جاء محمدٌ ﷺ، صُرِفوا عن ذلك، وعَجَزوا عنه.

والصحيحُ أنَّ الإتيانَ بمثل القرآن لم يكُن قَطُّ في قُدرةِ أحد من المخلوقين. ويَظهَرُ لك قصورُ البشر في أنَّ الفصيحَ منهم يصنعُ[٢] خُطبة، أو قصيدة، يَستفرِغُ فيها جُهدَهُ، ثم لا يزال يُنَقِّحُها حَولاً كاملاً، ثم تُعطَى لآخَرَ بعدَه، فيأخذُها بقريحة جامة[٣]، فيبدِّلُ فيها ويُنَقِّحُ، ثم لا تزالُ كذلك[٤] فيها مواضعُ للنظر والبَدَلِ. وكتابُ الله تعالى لو نُزِعَت منه لَفظَةٌ، ثم أُدِيرَ لسانُ العرب أن يُوجَدَ أحسنُ منها، لم يُوجَد[٥].

ومن فصاحةِ القرآنِ أنَّ اللهَ تعالى جلَّ ذِكرُه ذَكَرَ في آية واحدة أمرَيْن، ونَهْيَيْن، وخَبَرَيْن، وبِشارَتَيْن، وهو قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] الآية.

وكذلك فاتحة سورة المائدة: أمرَ بالوفاء، ونَهَى عن النَّكثِ، وحلَّلَ تحليلاً

---

(١) في (م) والمحرر الوجيز: التحدي.

(٢) في (م): يضع.

(٣) كذا في المحرر الوجيز (والكلام منه)، وفي (ظ): جامدة، وفي (د): جامعة، ولم نتبينها في (ز).

(٤) في (م): بعد ذلك.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٢ باختلاف يسير.

عامًّا، ثم استثنى استثناءً بعدَ استثناءٍ، ثم أخبرَ عن حِكمته وقُدرته، وذلك مما لا يَقدِرُ عليه إلا الله سبحانه.

وأنبأ سبحانه عن الموت، وحَسرةِ الفَوت، والدارِ الآخرة وثوابِها وعقابِها، وفوزِ الفائزين، وتردِّي المجرمين، والتحذيرِ من الاغترار[1] بالدنيا، ووصفها بالقِلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥] الآية.

وأنبأ أيضاً عن قَصص الأوَّلين والآخِرين، ومآلِ المُترَفين، وعواقبِ المُهلَكين، في شَطرِ آية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأنبأ جَلَّ وعزَّ عن أمرِ السفينة وإجرائها، وإهلاكِ الكَفَرةِ، واستقرارِ السفينة واستوائها، وتوجيهِ أوامرِ التسخيرِ[2] على[3] الأرض والسماء، بقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤١ ـ ٤٤] إلى غير ذلك.

فلما عَجَزَتْ قريشٌ عن الإتيانِ بمثله، وقالت: إنَّ النبيَّ ﷺ تَقَوَّله، أنزلَ الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤] ثم أنزلَ تعجيزاً أبلغَ من ذلك، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. فلما عَجَزوا، حَطَّهم عن هذا المِقدار إلى مثلِ سُورة من السُّوَر القصار، فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. فأُفحِمُوا عن الجواب، وتَقَطَّعَت بهم الأسبابُ، وعَدَلوا إلى الحروب والعِناد، وآثروا سَبْيَ الحَريم والأولاد. ولو قَدَروا على المعارضة، لكانَ أهوَنَ كثيراً، وأبلغَ في الحُجَّة، وأشدَّ تأثيراً. هذا مع كونهم أربابَ البلاغةِ واللَّحنِ، وعنهم تُؤخَذُ الفَصاحةُ واللَّسَنُ.

---

(١) في النسخ الخطية: التغرير، والمثبت من (م).

(٢) في (د): للتسخير.

(٣) في (م): إلى.

فبلاغةُ القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفعِ درجاتِ الإيجازِ والبيان، بل تجاوزَت حدَّ الإحسان والإجادة، إلى حيِّزِ الإرباءِ والزيادة. هذا رسولُ الله ﷺ مع ما أُوتي من جوامع الكَلِمِ، واختصَّ به من غرائب الحِكَمِ، إذا تأمَّلتَ قولَه ﷺ في صفةِ الجِنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وَجَدْتَه مُنحَطًّا عن رُتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام: «فيها ما لا عَينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر»[1] فأينَ ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. هذا أعدَلُ وَزْناً، وأحسنُ تركيباً، وأعْذَبُ لَفظاً، وأقلُّ حروفاً، على أنه لا يُعتبر إلا في مِقدار سورة، أو أطولِ آية؛ لأنَّ الكلامَ كلما طالَ، اتَّسعَ فيه مجالُ المُتصرِّف، وضاقَ المقالُ على القاصِرِ المُتكلِّف، وبهذا قامتِ الحُجَّةُ على العرب، إذ كانوا أربابَ الفصاحةِ، ومَظِنَّةَ المعارضة، كما قامت الحُجَّةُ في مُعجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومُعجزةِ موسى عليه السلام على السَّحَرةِ، فإنَّ اللهَ سبحانه إنَّما جعلَ مُعجزاتِ الأنبياء عليهم السلام بالوجهِ الشَّهيرِ أبرعَ ما يكون في زمان النبيِّ الذي أراد إظهارَه، فكان السِّحْرُ في مدة[2] موسى عليه السلام قد انتهى إلى غاية[3]، وكذلك الطِّبُّ في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحةُ في زمن محمد ﷺ[4].

باب التنبيه على أحاديثَ وُضعت في فضل سُور القرآن وغيرها[5]

لا التفاتَ لِمَا وَضَعَه الواضعون، واختلقَه المختلِقون، من الأحاديثِ الكاذبة، والأخبارِ الباطلة، في فضل سُوَرِ القرآن، وغير ذلك من فضائلِ الأعمال، وقد ارتكَبَها جماعةٌ كثيرةٌ، اختلفَت أغراضُهم ومقاصِدُهم في ارتكابها. فمن[6] قوم من الزَّنادقة مثلِ

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٤٣)، والبخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) في (م): زمان.

(٣) في (م): غايته.

(٤) من قوله: قامت الحجة على العرب ... من المحرر الوجيز ١/ ٥٣.

(٥) في (م): وغيره.

(٦) في (د): فمنهم.

المغيرةِ بنِ سعيد الكوفيِّ[١]، ومحمدِ بن سعيد الشاميِّ[٢] المصلوبِ في الزندقة، وغيرِهما، وضَعوا أحاديثَ، وحدَّثوا بها، ليُوقِعُوا بذلك الشَّكَّ في قلوب الناس، فممَّا رواه محمدُ بنُ سعيد، عن أنس بنِ مالك في قوله ﷺ: «أنا خاتمُ النبيين[٣]، لا نبيَّ بعدي، إلا ماشاء الله»[٤] فزاد هذا الاستثناءَ، لِمَا كان يدعو إليه من الإلحادِ والزندقةِ.

قلتُ: وقد ذكره ابنُ عبد البرِّ في كتاب «التمهيد»[٥] ولم يتكلَّم عليه، بل تأوَّلَ الاستثناءَ على الرؤيا ! فالله أعلم.

ومنهم قومٌ وضَعُوا الحديثَ، لِهَوًى يَدعُونَ الناسَ إليه. قال شيخٌ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إنَّ هذه الأحاديثَ دِينٌ، فانظُروا ممن تأخُذُون دِينَكم، فإنَّا كنَّا إذا هَوِينا أمراً، صَيَّرناه حديثاً[٦].

ومنهم جماعةٌ وضعوا الحديثَ حِسْبَةً كما زعموا، يدعون الناسَ إلى فضائل الأعمال، كما رُوي عن أبي عِصْمةَ نوح بن أبي مريم المَرْوَزِيِّ[٧]، ومحمد بن عُكَّاشة الكِرماني[٨]، وأحمدَ بنِ عبد الله الجُويبارِي[٩]، وغيرهم[١٠].

---

(١) هو أبو عبد الله البجلي الرافضي الكذاب، قُتل في حدود العشرين ومئة. ميزان الاعتدال ٤/ ١٦٠.

(٢) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٥٦١ وقال: من أهل دمشق، هالك، وكان من أصحاب مكحول.

(٣) في (م): الأنبياء.

(٤) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢٠٦، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٢١.

(٥) ١/ ٣١٤.

(٦) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٤٤٣)، والخطيب في الكفاية في علم الرواية ص ١٢٣. وأخرج مسلم في مقدمة صحيحه، والخطيب في الكفاية ص١٢٢، عن محمد بن سيرين قوله: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

(٧) ولي قضاء مرو في خلافة المنصور، وامتدت حياته، قال البخاري: منكر الحديث، مات سنة (١٧٣هـ). ميزان الاعتدال ٤/ ٢٨٠.

(٨) ويقال: محمد بن إسحاق العكاشي، كذاب، قال سهل بن السري الحافظ: وضع أحمد الجويباري ومحمد بن تميم ومحمد بن عكاشة على رسول الله ﷺ أكثر من عشرة آلاف حديث، وقال ابن عساكر: بلغني أنه كان حيًّا سنة (٢٢٥هـ). لسان الميزان ٥/ ٢٨٦.

(٩) ويقال: الجوباري، وجوبار من عمل هراة، يعرف بستّوق، روى عن ابن عيينة وطبقته، قال ابن حبان: دجال من الدجاجلة، وقال الذهبي: يُضرب المثل بكذبه. ميزان الاعتدال ١/ ١٠٦.

(١٠) نقل نحو هذا الكلام الحافظُ ابنُ حجر في لسان الميزان ٥/ ٢٨٨ عن الحاكم (في ترجمة محمد بن عكاشة).

قيل لأبي عِصمةَ: من أين لك عن عِكرمةَ، عن ابن عباس في فضل سُوَرِ القرآن سورةً سورة ؟ فقال: إني رأيتُ الناسَ قد أعرَضُوا عن القرآن، واشتغلُوا بفقه أبي حنيفةَ، ومَغَازي محمد بنِ إسحاقَ[(١)]، فوضعتُ هذا الحديثَ حِسبَةً[(٢)].

قال أبو عمرو عثمانُ بن الصلاح في كتاب «علوم الحديث»[(٣)] له: وهكذا الحديثُ الطويلُ الذي يُروَى عن أُبَيٍّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ في فَضل[(٤)] القرآنِ سورةً سورة[(٥)]. وقد بحثَ باحثٌ عن مَخْرَجِه حتى انتهى إلى من اعترفَ بأنه وجماعةٌ وضعوه[(٦)]. وإنَّ أثر الوَضع عليه لَبَيِّنٌ. وقد أخطأ الواحديُّ المفسِّرُ[(٧)]، ومن ذَكَره من المفسرين، في إيداعه تفاسيرَهم.

ومنهم قومٌ من السُّؤَّال والمُكْدِينَ[(٨)]، يَقِفُون في الأسواق والمساجد، فيضعُون على رسول الله ﷺ أحاديثَ بأسانيدَ صِحاح قد حَفِظُوها، فيذكُرون الموضوعاتِ بتلك الأسانيد.

قال جعفرُ بن محمد الطيالسيُّ[(٩)]: صلَّى أحمدُ بنُ حنبل ويحيى بنُ مَعِين في

(١) هو أبو بكر القرشي المطلبي مولاهم، المدني، الحافظ الأخباري، صاحب السيرة النبوية، وأول مَن دوَّن العلم بالمدينة، مات سنة (١٥٠هـ) . سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣.

(٢) ذكره الخليلي في الإرشاد ٣/ ٩٠٣، والسيوطي في تدريب الراوي ١/ ٢٨٢، والصنعاني في توضيح الأفكار ٢/ ٨١.

(٣) ص١٠٠ ـ ١٠١، وابن الصلاح: هو عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشهرزوري الشافعي، كان ذا فصاحة وعلم نافع، توفي سنة (٦٤٣هـ) . السير ٢٣/ ١٤٠.

(٤) في (ظ): فضائل .

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤، ثم قال: وقد فَرَّقَ هذا الحديثَ أبو إسحاق الثعلبي، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك، ولا أعجبُ منهما، لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عجبتُ من أبي بكر بن أبي داود كيف فرَّقَه على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن وهو يعلم أنه حديث محال ! وانظر اللآلىء المصنوعة ١/ ٢٠٥، وتنزيه الشريعة ١/ ٢٨٥.

(٦) موضوعات ابن الجوزي ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٧) أبو الحسن علي بنُ أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، مات سنة (٤٦٨هـ) . السير ١٨/ ٣٣٩.

(٨) أي: الملحِّين في المسألة .

(٩) أبو الفضل البغدادي، الحافظ، كان مشهوراً بالحفظ والإتقان، توفي سنة (٢٨٢هـ) . السير ١٣/ ٣٤٦.

مسجد الرُّصَافةِ، فقامَ بين أيديهما قَاصٌّ، فقال: حدثنا أحمدُ بنُ حنبل ويحيى بنُ معين قالا: حدثنا[١] عبدُ الرزاق قال: حدثنا مَعْمَرٌ، عن قَتادة، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: مَن قال: لا إله إلا الله، يُخلَقُ من كلِّ كلمة منها طائرٌ مِنقارُهُ من ذهب، وريشُه مَرْجان. . وأخذَ في قصة نحو من عشرين ورقة، فجعلَ أحمدُ ينظُرُ إلى يحيى، ويحيى ينظُرُ إلى أحمدَ، فقال: أنتَ حدَّثتَه بهذا ؟! فقال: والله ما سمعتُ به إلا هذه الساعةَ، قال: فسكتا جميعاً حتى فَرَغَ من قَصَصِه، فقال له يحيى: مَن حدَّثَك بهذا الحديثِ ؟ فقال: أحمدُ بنُ حنبل ويحيى بنُ مَعِين، فقال: أنا ابنُ مَعِين، وهذا أحمدُ بنُ حنبل، ما سَمِعنا بهذا قطُّ في حديثِ رسول الله ﷺ، فإن كانَ ولا بُدَّ من الكذب، فعلى غيرِنا ! فقال له: أنت يحيى بنُ مَعِين ؟! قال: نعم، قال: لم أَزَل أسمعُ أنَّ يحيى بنَ مَعِين أحمقُ، وما عَلِمتُه إلا هذه الساعةَ، فقال له يحيى: وكيف علمتَ أني أحمقُ ؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بنُ مَعِين وأحمدُ بنُ حنبل غيركما، كتبتُ عن سبعةَ عشرَ أحمدَ بن حنبل غير هذا. قال: فوضعَ أحمدُ كُمَّهَ على وجهِه وقال: دَعهُ يقوم[٢]، فقام كالمُستهزِىء بهما[٣].

فهؤلاء الطوائف كَذَبةٌ على رسول الله ﷺ، ومَن يَجري مَجراهم.

يُذكَر أنَّ الرشيدَ[٤] كان يُعجِبُهُ الحمَامُ، واللَّهوُ به، فأُهدِيَ إليه حمامٌ وعنده أبو البَختَرِي القاضي[٥]، فقال: روى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا سَبَقَ إلا في خُفٍّ، أو حافر، أو جَناح». فزاد: «أو جَناح»، وهي لفظةٌ وضَعَها للرشيد، فأعطاه جائزة سَنِيَّة، فلما خرج، قال الرشيدُ: واللهِ لقد علمتُ أنه[٦] كذَّابٌ. وأمرَ بالحمَام أن

---

(١) في (م): أنبأنا (في الموضعين).

(٢) في (ظ): يقول.

(٣) أخرج هذه القصة ابن حبان في المجروحين ١/ ٨٥، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٣٩ـ ٢٤٠ من طريق إبراهيم بن عبد الواحد البكري، عن جعفر بن محمد الطيالسي، وذكَرها المِزّي في تهذيب الكمال (ترجمة يحيى بن معين)، والذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٤٧، وفي السير ١١/ ٨٦ و ٣٠٠. قال الذهبي: هذه الحكاية اشتهرت على ألسنة الجماعة، وهي باطلة، أظن البلدي (يعني البكري) وضعها.

(٤) هارون بن محمد، أبو جعفر، الخليفة العباسي، كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حجٍّ وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي، توفي سنة (١٩٣هـ). السير ٩/ ٢٨٦.

(٥) وَهْب بن وَهب بن كثير بن زَمعة، ولاه الرشيد القضاء. تاريخ بغداد ١٣/ ٤٥١، وميزان الاعتدال ٤/ ٣٥٣.

(٦) في النسخ الخطية: أنك، والمثبت من (م).

يُذبَحَ، فقيل له: وماذنبُ الحمَام ؟! قال: من أجلِه كُذِبَ على رسول الله ﷺ[١]. فترك العلماءُ حديثَه لذلك، ولغيره من موضوعاته، فلا يَكتُبُ العلماءُ حديثَه بحال.

قلتُ: فلو اقتصرَ الناسُ على ماثبت في الصِّحاح والمسانيد، وغيرِهما من المصنفات التي تداولها العلماءُ، ورواها الأئمةُ الفقهاءُ، لكان لهم في ذلك غُنْيَةٌ، وخَرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: «اتَّقوا الحديثَ عنِّي إلا ما عَلِمتُم، فمن كَذَبَ عليَّ مُتعمِّداً، فَليَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النار» الحديث[٢]. فتخويفُه ﷺ أمَّتَه بالنار على الكذب دليلٌ على أنه كان يعلمُ أنه سيُكذَبُ عليه. فحذارِ مما وضعَه أعداءُ الدين، وزنادقةُ المسلمين، في باب الترغيب والترهيب، وغير ذلك.

وأعظمُهم ضَرَراً أقوامٌ من المنسوبين إلى الزُّهد، وضعوا الحديثَ حِسْبَةً فيما زَعَموا، فتقبَّلَ[٣] الناسُ موضوعاتِهم، ثقة منهم بهم، ورُكوناً إليهم، فضَلُّوا وأَضلُّوا.

باب ما جاء من الحُجَّة في الرَّدِّ على مَن طعنَ في القرآن، وخالفَ مصحفَ عثمانَ بالزيادة والنقصان

لاخلافَ بين الأمة، ولا بين الأئمة أهلِ السُّنَّة، أنَّ القرآنَ اسمٌ لكلام الله تعالى الذي جاء به محمدٌ ﷺ معجزة له، على ما تقدَّم[٤]، وأنه محفوظٌ في الصدور، مقروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحف، معلومةٌ على الاضطرار سُوَرُهُ وآياتُه، مُبَرَّأةٌ من

---

(١) نقل الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣/ ٤٥٥ عن الإمام أحمد قوله: ماروى هذا إلا ذاك الكذاب أبو البَختَرِي. وذكر له الخطيب أيضاً أنه دخلَ على هارون الرشيد وهو يطيِّر الحمام، فحدَّثه أن النبي ﷺ كان يطيِّر الحمام، فقال له الرشيد: اخرج عني. ثم قال: لولا أنه رجلٌ من قريش لعزلتُه. اهـ. وقد رُويت القصة أيضاً (التي أوردها المصنف) عن غياث بن إبراهيم النخعي في دخوله على المهدي، كما في تاريخ بغداد ١٢/ ٣٢٤، وميزان الاعتدال ٣/ ٣٣٨. قال ابن القيم في المنار المنيف ١/ ١٠٦: أحاديث الحَمَام لا يصح منها شيء.

وقد أخرج حديث أبي هريرة (يعني دون قوله: أو جناح) الإمام أحمد في المسند (٧٤٨٢)، وغيرُه، ونقل الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٦١ تصحيحه عن ابن القطان وابن دقيق العيد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧٥) و(٢٩٧٤)، والترمذي (٢٩٥١) من حديث ابن عباس. وقد ذكره المصنف بأطول منه ص ٥٧. باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي.

(٣) في النسخ الخطية: فيقبل، والمثبت من (م).

(٤) في (م): على نحو ماتقدم.

الزيادة والنقصان حروفُه وكلماتُه، فلا يُحتاجُ في تعريفه بحدٍّ، ولا في حَصره بعدٍّ، فمن ادَّعى زيادةً عليه، أو نقصاناً منه، فقد أبطلَ الإجماعَ، وبَهَتَ الناسَ، وردَّ ماجاء به الرسولُ ﷺ من القرآن المُنزَل عليه، وردَّ قولَه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وأبطلَ آيةَ رسولِه عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصيرُ القرآنُ مَقدوراً عليه حين شِيبَ بالباطل، ولمَّا قُدِرَ عليه، لم يكُن حُجَّةً ولا آية، وخرج عن أن يكونَ مُعجِزاً[١].

فالقائلُ بأنَّ القرآنَ فيه زيادةٌ ونُقصانٌ، رادٌّ لكتابِ الله، ولِمَا جاء به الرسولُ، وكان كمن قال: الصلواتُ المفروضاتُ خمسون صلاة، وتزوُّجُ تسع من النساء حلالٌ، وفرضَ اللهُ أياماً مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يَثبُت في الدِّين، فإذا رُدَّ هذا بالإجماع، كان الإجماعُ على القرآن أثبتَ وآكدَ، وألزمَ وأوجبَ.

قال الإمام أبو بكر محمدُ بنُ القاسم بن بشار بن محمد الأنباريُّ: ولم يَزَل أهلُ الفضلِ والعقلِ يَعرِفون مِن شَرَفِ القرآنِ وعُلُوِّ منزلتِه، ما يُوجِبُه الحقُّ والإنصافُ والدِّيانةُ، ويَنفُونَ عنه قولَ المُبطِلين، وتَمويهَ المُلحِدين، وتحريفَ الزائغين، حتى نَبَغَ[٢] في زماننا هذا زائغٌ زاغَ عن المِلَّةِ، وهجمَ على الأمَّة، بما يُحاولُ به إبطالَ الشريعة، التي لا يزالُ اللهُ يؤيِّدُها، ويُثَبِّتُ أُسَّها، ويُنَمِّي فَرعَها، ويَحرُسُها من معايب أولي الحَيْف[٣] والجَوْر، ومكايدِ أهل العداوةِ والكفرِ. فزعم أنَّ المُصْحفَ الذي جمعَه عثمانُ رضي الله عنه ـ باتفاق أصحابِ رسول الله ﷺ على تصويبه فيما فعَل ـ لا يَشتَمِلُ[٤] على جميع القرآن، إذ كان قد سَقَطَ منه خمسُ مئة حرف، قد قرأتُ ببعضها، وسأقرأُ ببقيتها، فمنها: «والعصرِ ونوائبِ الدَّهر»[٥] فقد سقطَ من القرآن على جماعة المسلمين[٦]: «ونوائبِ الدَّهر». ومنها: «حتى إذا أخذتِ الأرضُ

(١) قوله: وخرج عن أن يكون معجزاً، من (م).

(٢) أي: ظهر، ووقع في (د) و(م): نبع، وفي (ظ): تبع، ولم تنقط في (ز)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) في (م): الجنَف.

(٤) في (ز): لا يجتمع.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٩، وانظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨٩.

(٦) في (د): من المسلمين.

زُخرُفَها وازَّيَّنَت وظَنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلها»[١]. فادَّعى هذا الإنسانُ أنه سقطَ على أهل الإسلام من القرآن: «وما كان اللهُ ليُهلِكَها إلا بذنوب أهلها» وذكر مما يدَّعي حروفاً كثيرة.

وادَّعى أنَّ عثمانَ والصحابةَ رضي الله عنهم زادوا في القرآن ماليس فيه، فقرأ في صلاة الفرضِ والناسُ يسمعون: «اللهُ الواحدُ الصمد»[٢]، فأسقطَ من القرآن: «قل هو»، وغيَّر لفظَ «أحد»، وادَّعى أنَّ هذا هو الصوابُ، والذي عليه الناسُ هو الباطلُ والمُحَالُ، وقرأ في صلاة الفرض: «قُل للذين كفروا لا أعبدُ ما تعبدون»[٣] وطَعَنَ على[٤] قراءة المسلمين.

وادعى أنَّ المُصحفَ الذي في أيدينا اشتملَ على تصحيفِ حروف[٥] مُفسِدَة مُغيِّرة، منها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فادَّعى أنَّ الحِكمةَ والعِزَّةَ لا يُشاكِلان المغفرةَ، وأنَّ الصوابَ: «وإن تَغفِر لهم فإنك أنت الغفورُ الرحيمُ»[٦]. وترامَى به الغَيُّ في هذا وأشكالِه حتى ادَّعى أنَّ المسلمين يُصَحِّفون: ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، والصوابُ الذي لم يُغيَّر عنده: «وكان عبداً للهِ وجيهاً»[٧]، وحتى قرأ في صلاة مُفترَضة على ما أخبرنا جماعةٌ سَمِعُوه وشَهِدُوه[٨]: «لا تُحرِّك به لسانَك، إنَّ علينا جمعَه وقراءتَه، فإذا قرأناه فاتَّبع

---

(١) أخرجها أبو عبيد في الفضائل ص١٧٣، والطبري في التفسير ١٢/ ١٥٢ وذكرها ابن عطية ٣/ ١١٥، وأبو حيان في البحر ٥/ ١٤٤ وقال: ولا يحسنُ أن يقرأ أحد بهذه القراءة، لأنها مخالفةٌ لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٨٢، ونسبها لعبد الله والأعمش.

(٣) نقلها أيضاً ابن عادل الحنبلي في اللباب ٢٠/ ٥٣٠ عن ابن الأنباري.

(٤) في (م): في.

(٥) في (ظ): وحروف.

(٦) نقل الذهبي في معرفة القراء الكبار ١/ ٥٤٩ عن عبد الرحمن بن عبد الله الفرائضي قوله: استُتِيبَ ابن شَنَبوذ على قراءة هذه الآية. اهـ. وذكرها كذلك أبو حيان في البحر ٤/ ٦٢ وقال: ليست من المصحف.

(٧) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٥ عن ابن مسعود، وانظر كتاب ابن خالويه ص ١٢٠.

(٨) في (ظ): وشهروه.

قراءته، ثم إنَّ علينا نبأ به». وحكى لنا آخرون عن آخَرين، أنهم سَمِعُوه يقرأ: «ولقد نصركم اللهُ ببدر بسيف عَليٍّ وأنتم أذِلَّةٌ»(١). وروى هؤلاء أيضاً لنا عنه قال: «هذا صراط علي مستقيم»(٢). وأخبرونا أنه أدخلَ في آية من القرآن مالا يُضاهي فصاحةَ رسولِ الله ﷺ، ولا يدخُلُ في لسان قومه الذين قال اللهُ عز وجل فيهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، فقرأ: «أليس قلتَ للناس» في موضع: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا لا يُعرَفُ في نحو المُعربين، ولا يُحمل على مذاهب النَّحْويين؛ لأنَّ العربَ لم تَقُل: ليس قُمتَ، فأمَّا: لستَ قمتَ، بالتاء، فشاذٌّ قبيحٌ، خبيثٌ رديء، لأنَّ «ليس» لا تجحَدُ الفعلَ الماضي، لم(٣) يُوجَد مثلُ هذا إلا في قولهم: ليس خلق اللهُ مثله(٤)، وهو لغةٌ شاذَّةٌ، لا يُحمَلُ كتابُ الله عليها.

وادَّعى أنَّ عثمانَ رضي اللهُ عنه لما أسندَ جَمْعَ القرآن إلى زيد بن ثابت، لم يُصِب؛ لأنَّ عبدَ الله بن مسعود وأُبَيَّ بنَ كعب كانا أَولَى بذلك من زيد، لقول النبيِّ ﷺ: «أقرأُ أمَّتي أُبَيُّ بن كعب»(٥)، ولقوله عليه السلام: «مَن سَرَّهُ أن يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أُنزِلَ، فَليقرَأهُ بقراءة ابنِ أُمِّ عَبد»(٦)، وقال هذا القائلُ: لي أن أخالفَ مُصحفَ عثمانَ كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَين﴾ [طه: ٦٣]، ﴿فأصَّدَّق وأكونَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿فَبَشِّرْ عباديَ ، الذين﴾ [الزمر: ١٧] بفتح الياء(٧)، ﴿فما

---

(١) هي قراءة واضحة البطلان.

(٢) قرأ يعقوب، وهو من العشرة: هذا صراطٌ عليٌّ مستقيم، انظر النشر ٢/ ٣٠١. وذكرها ابن جنّي في المحتسب ٢/ ٣، وقال: عليٌّ ـ هنا ـ كقولهم: كريم، وشريف، وليس المرادُ علوَّ الشخوص والنُّصْبة. اهـ. ومن الواضح أن المصنف رحمه الله يقصد تقييداً آخر للفظ، كما هو ظاهر سياق كلامه في الردّ على الزائغين عن الملّة.

(٣) في (م): ولم.

(٤) في (م): أليس قد خلق الله مثلهم.

وقال صاحب النحو الوافي ١/ ٥٥٩: اشترطَ الكوفيون للقياس على هذا الأسلوب دخولَ «قد» على خبر «ليس» مجاراة للمثال المسموع، ولأن «قد» تُقَرِّبُهُ من الحال.

(٥) سلف نحوه ص٦٢ ضمن حديث.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٥٥) وغيرُه بلفظ: «من أحبَّ ...» وانظر ما سلف ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٧) قراءة أبي عمرو في الموضع الثالث هي من رواية السوسي وصلاً، واختلف عنه وقفاً بين الحذف والإثبات. وانظر قراءته في الآيات المذكورة في السبعة ص ٤١٩، ٦٣٧، ٥٦١، والتيسير ص ١٥١، =

آتانيَ الله﴾ [النمل: ٣٦] بفتح الياء[١]. والذي في المُصحفِ: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾ بالألف[٢]، ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ بغير واو[٣]، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ بغير ياء[٤] في الموضعين[٥]. وكما خالف ابنُ كَثير ونافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ مُصحفَ عثمانَ، فقرؤوا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] بإثبات نونين، يفتحُ الثانيةَ بعضُهم، ويُسَكِّنُها بعضُهم[٦]، وفي المصحف نونٌ واحدة[٧]. وكما خالف حمزةُ المُصحفَ، فقرأ: ﴿أَتُمِدُّونِّي بمال﴾ [النمل: ٣٦] بنون واحدة، ووقف على الياء[٨]، وفي المُصحف نونانِ، ولا ياء بعدَهما[٩]. وكما خالف حمزةُ أيضاً المُصحفَ، فقرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨] بغير تنوين[١٠]، وإثباتُ الألف يُوجِبُ التنوين[١١]. وكلُّ هذا الذي شَنَّعَ به على القُرَّاء ما يلزمُهم به خِلافٌ للمصحف.

= ٢١١، ١٨٩ على الترتيب.

(١) وقرأها كذلك من السبعة نافع وعاصم في رواية حفص وصلاً، واختلف عن قالون وأبي عمرو وحفص وقفاً بين الحذف والإثبات. وقرأ ورش بالحذف وقفاً. ذكره ابن مجاهد في السبعة ص٤٨٢، والداني في التيسير ص ١٧٠.

(٢) ذكره أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٥١، والمقنع ص ١٥.

(٣) التيسير ص ٢١١، والمقنع ص ١١٣.

(٤) في (د) و(ز) و(م): ياءين، والمثبت من (ظ).

(٥) التيسير ص ١٧٠ و١٨٩، والمقنع ص ٣٢.

(٦) لم يذكر المصنف بقية القراء السبعة ـ وهم أبو عمرو البصري، وابن عامر الشامي، وعاصم ـ مع أنهم اتفقوا جميعاً على قراءتها بنونين؛ قرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص عنه بإسكان الثانية، وتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بفتح الثانية وتشديد الجيم. انظر السبعة ص ٣٣٠، والتيسير ص ١٢٣.

(٧) لكن أبا عمرو الداني ذكر في المقنع ص٩١ عن أبي عبيد أنه رأى في مصحف عثمان رضي الله عنه الحرفين اللذين في يونس: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ و﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بنونين، وذكر أيضاً ص٨٥ فيما اتفقت على رسمه مصاحف أهل الأمصار، أنها بنونين.

(٨) قرأ حمزة بنون واحدة مشدَّدة، فأدغمَ النون الأولى في الثانية، مع المدِّ المشبع، وأثبت الياء وصلاً ووقفاً، وكذلك قرأها يعقوب من العشرة. السبعة في القراءات ص٤٨٢، والتيسير ص ١٧٠، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٩) ذكره أبو عمرو الداني في المقنع ص ٩١.

(١٠) هي أيضا قراءة عاصم من السبعة في رواية حفص، وقراءة يعقوب من العشرة. السبعة ص٣٣٧، والتيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩.

(١١) قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٩٠: كلُّ مَنْ نَوَّنَ وقف بالألف، ومَنْ لم يُنَوِّنْ وقف بغير ألف وإن كانت مرسومة.

قلتُ: قد أشرنا إلى العدِّ فيما تقدَّم[(١)] مما اختلفَت فيه المصاحفُ، وسيأتي بيانُ هذه المواضعِ في مواضعها من هذا الكتاب، إن شاء اللهُ تعالى.

قال أبو بكر: وذكر هذا الإنسانُ أنَّ أُبَيَّ بنَ كَعب هو الذي قرأ: «كأن لم تَغنَ بالأمس، وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلها». وذلك باطلٌ[(٢)]؛ لأنَّ عبدَ الله بنَ كثير قرأ على مجاهد، ومجاهدٌ قرأ على ابن عباس، وابنُ عباس قرأ القرآنَ على أُبَيِّ بن كعب: ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ [يونس: ٢٤] في رواية. وقرأ أُبَيٌّ القرآنَ على رسول الله ﷺ. وهذا الإسنادُ مُتَّصِلٌ بالرسول عليه السلام، نقلَه أهلُ العدالةِ والصِّيانة، وإذا صحَّ عن رسول الله ﷺ أمرٌ، لم يُؤخَذ بحديث يُخالِفُه. وقال يحيى بنُ المبارك اليزيدي[(٣)]: قرأتُ القرآنَ على أبي عمرو بنِ العلاء، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهدٌ على ابن عباس، وقرأ ابنُ عباس على أُبَيِّ بن كعب، وقرأ أُبَيٌّ على النبيِّ ﷺ، وليس فيها: «وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلِها»[(٤)]. فمن جَحَدَ أنَّ هذه الزيادةَ أنزلَها اللهُ تعالى على نبيِّه عليه السلام، فليس بكافر ولا آثم: حدثني أبي، حدثنا نَصرُ بنُ داود الصَّاغاني[(٥)]، نبَّأنا أبو عُبيد قال: ما يُروَى من الحروف التي تُخالِفُ المُصحفَ الذي عليه الإجماعُ، من الحروف التي يَعرِفُ[(٦)] أسانيدَها الخاصَّةُ دون العامَّةِ، مما[(٧)] نقلوا فيه عن أُبَيٍّ: «وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلها»، وعن ابن عباس: «ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»[(٨)]، ومما يَحكُون عن عمرَ بن الخطاب أنه قرأ: «غيرِ

---

(١) ص ١٠٥.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٢/ ١٥٢، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٥، وأبو حيان في البحر ٥/ ١٤٤، وقال: ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة، لأنها مخالفة لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون. وانظر ما جاء آخر هذا الباب.

(٣) أورده ابن الجزري في طبقاته ٢/ ٣٧٥، وقال: نحوي مقرىء علامة كبير، عُرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري خال المهدي، فكان يؤدب ولده ... توفي سنة (٢٠٢) بمرو.

(٤) في (ظ): إلا بذنوبها.

(٥) هو من أجلِّ أصحاب أبي عبيد، فيما نقله ابن الجزري في طبقاته ٢/ ٣٣٥ عن أبي عمرو الداني.

(٦) في (ظ): تعرف.

(٧) في (م): فيما.

(٨) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٦٤ وقال ص١٩٥: هذه الحروف وأشباه لها كثيرة قد صارت=

المغضوب عليهم وغير الضالين»[١]، مع نظائرَ لهذه الحروفِ كثيرة، لم يَنقُلها أهلُ العلم على أنَّ الصلاةَ بها تَحِلُّ، ولا على أنها مُعارَضٌ بها مُصحفُ عثمان، لأنها حروفٌ لو جَحَدَها جاحدٌ أنها من القرآن، لم يكن كافراً، والقرآنُ الذي جمعَه عثمانُ بموافقة الصحابة له، لو أنكرَ بعضَه مُنكِرٌ، كان كافراً، حُكمُه حكمُ المرتدِّ، يُستتاب، فإن تاب، وإلا ضُرِبَت عنقُه.

وقال أبو عُبيد: لم يَزَل صَنيعُ عثمانَ رضي الله عنه في جمعه القرآنَ يُعتدُّ له بأنه من مناقبه العِظام، وقد طَعَنَ عليه فيه بعضُ أهل الزَّيغ، فانكشفَ عَوارُه، ووَضَحَت فَضائِحُه.

قال أبو عُبيد: وقد حُدِّثتُ عن يزيدَ[٢] بنِ زُرَيع، عن عِمرانَ بنِ حُدَير[٣]، عن أبي مِجلَز قال: طَعَنَ قومٌ على عثمانَ رحمه الله ـ بحُمقهم ـ جَمْعَ القرآن، ثم قرؤوا بما نُسخ.

قال أبو عُبيد: يذهَبُ أبو مِجلَز[٤] إلى أنَّ عثمانَ أسقطَ الذي أسقطَ بعلم، كما أثبتَ الذي أثبتَ بعلم[٥].

قال أبو بكر: وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] دلالةٌ على كُفرِ هذا الإنسانِ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حَفِظَ القرآنَ من التغيير والتبديل، والزيادةِ والنقصان، فإذا قرأ قارئٌ: «تَبَّت يَدَا أبي لهب وقد تَبَّ، ما أغنى عنه مالُه وما كَسَبَ، سيصلى ناراً ذاتَ لهب، ومُرَيَّتُه حمالةُ الحطب، في جِيدها حبلٌ من ليف» فقد كَذَبَ على الله جل وعلا، وقَوَّلَه مالم يَقُل، وبدَّل كتابَه وحرَّفه، وحاولَ ماقد حَفِظه منه، ومنعَ من اختلاطه به، وفي هذا الذي أتاه توطئةُ الطريقِ لأهل الإلحاد، لِيُدخِلُوا في القرآن ما يَحُلُّون به عُرى الإسلام، ويَنسُبونَه إلى قوم كهؤلاء

= مفسرة للقرآن. وانظر البحر ٢/ ٩٤.

(١) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص ١٦٢.

(٢) في فضائل القرآن ص١٩٤: حدثنا يزيد.

(٣) تحرف في (ز) و(م) إلى: جرير.

(٤) لاحق بن حُمَيد بن سعيد السَّدوسي، البصري، الأعور، مشهور بكنيته، ثقة، روى له الجماعة، مات سنة مئة، وقيل غير ذلك. تقريب التهذيب.

(٥) ما نقله المصنف عن ابن الأنباري عن أبي عبيد مما سلف، هو بنحوه في فضائل القرآن له ص١٩٣ ـ ١٩٥.

القومِ الذين أحالُوا هذا بالأباطيل[1] عليهم. وفيه إبطالُ الإجماعِ الذي به يُحرَسُ الإسلام، وبثباته تُقامُ الصلواتُ، وتُؤدَّى الزكَواتُ، وتُتحرَّى المتعبَّدات.

وفي قولِ الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] دلالةٌ على بِدعة هذا الإنسانِ وخروجِه إلى الكفر؛ لأنَّ معنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: منْعُ الخلق من القُدرة على أن يَزيدوا فيها، أو يَنقُصوا منها، أو يُعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسانَ زاد فيها: «وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ بعليٍّ وكان الله قويًّا عزيزاً». فقال في القرآن هُجْراً، وذكر عليًّا في مكان لو سَمِعَه يذكُره فيه، لأمضى عليه الحدَّ، وحَكَمَ عليه بالقتل. وأسقطَ من كلام الله «قل هو» وغيَّر «أحد» فقرأ: اللهُ الواحدُ الصمدُ. وإسقاطُ ما أسقَطَه نَفْيٌ له وكُفرٌ، ومَن كَفَرَ بحرف من القرآن، فقد كَفَرَ به كلِّه، وأبطلَ معنى الآيةِ؛ لأنَّ أهلَ التفسير قالوا: نزلتِ الآيةُ جواباً لأهل الشِّرك، لمَّا قالوا لرسول الله ﷺ: صِف لنا ربَّك، أمِن ذهب، أم مِن نحاس، أم من صُفْر؟ فقال اللهُ جلَّ وعَزَّ ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2]. ففي «هو» دلالةٌ على موضع الردِّ، ومكان الجواب. فإذا سَقَطَ، بطلَ معنى الآيةِ، ووَضَحَ الافتراءُ على الله عزَّ وجلَّ، والتكذيبُ لرسول الله ﷺ.

ويُقال لهذا الإنسان ومَن يَنتَحِلُ نُصْرتَه: أَخْبِرونا عن القرآن الذي نقرؤه، ولا نعرِفُ نحن ولا مَن كان قبلَنا من أسلافنا سواه: هل هو مُشتَمِلٌ على جميع القرآن من أوَّله إلى آخِره، صحيحُ الألفاظِ والمعاني، عارٍ من[3] الفساد والخَلَلِ؟ أم هو واقعٌ على بعض القرآن، والبعضُ الآخَرُ غائبٌ عنَّا كما غابَ عن أسلافنا والمتقدِّمين من أهل مِلَّتنا؟ فإن أجابوا بأنَّ القرآنَ الذي معنا مُشتَمِلٌ على جميع القرآنِ، لا يسقُطُ منه شيءٌ، صحيحُ اللَّفظ والمعاني، سَلِيمُها من كلِّ زَلَلٍ وخَلَلٍ، فقد قَضَوا على أنفسهم

(١) في (ظ) و(ز): بالبواطيل.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٣٣٤١)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٨٣، وفي الأسماء والصفات (٦٠٥) من طريق ديلم بن غزوان، عن ثابت البُناني، عن أنس. وأخرجه أيضا الطبري ١٣/ ٤٨٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٢٣٢ من طريق علي بن أبي سارة، عن ثابت، عن أنس. وقال: ولا يتابع (أي: علي بن أبي سارة) عليه من جهة تثبت. وقال أيضا: ولا يتابعه إلا من هو مثله أو قريب منه. وسيذكره المصنف في تفسير الآية المذكورة من سورة الرعد، عن الحسن، وسيذكر نحوه عن أبي بن كعب في تفسير سورة الإخلاص.

(٣) في (م): عن.

بالكفر حين زادوا فيه: «فليس له اليومَ هاهنا حميمٌ، وليس له شرابٌ إلا من غِسلين، من عَين تجري من تحت الجحيم» فأيُّ زيادة في القرآن أوضَحُ من هذه، وكيف تُخلَطُ[١] بالقرآن، وقد حرسَه اللهُ منها، ومنعَ كلَّ مُفتَرٍ ومُبْطلٍ من أن يُلْحِقَ به مثلَها ؟! وإذا تُؤُمِّلَتْ وبُحِثَ عن معناها، وُجِدَتْ فاسدةً غيرَ صحيحة، لاتُشاكِلُ كلامَ البارىء تعالى، ولا تختلط[٢] به، ولا تُوافِقُ معناه، وذلك أنَّ بَعدَها: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ فكيف يُؤكَلُ الشرابُ ؟! والذي أتى به قبلَها: «فليس له اليومَ هاهنا حميمٌ، وليس له شرابٌ إلا من غِسلين، من عين تجري من تحت الجحيم، لا يأكلُه إلا الخاطئون». فهذا متناقِضٌ يُفسِدُ بعضُه بعضاً، لأنَّ الشرابَ لا يُؤكَلُ، ولا تقول العربُ: أكلتُ الماءَ، لكنَّهم يقولون: شَرِبتُه، وذُقتُه، وطَعِمْتُه. ومعناه ـ فيما أنزل اللهُ تبارك وتعالى ـ على الصِّحة في القرآن، الذي مَن خالفَ حَرفاً منه كفرَ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] لا يأكلُ الغِسلينَ إلا الخاطئون، أو لا يأكُلُ الطعامَ إلا الخاطئون. والغِسلين: ما يخرُجُ من أجوافهم من الشَّحم، وما يتعلَّقُ به من الصَّديدِ وغيره، فهذا طعامٌ يُؤكَلُ عند البَلِية والنِّقمة، والشرابُ مُحالٌ أن يُؤكَلَ.

فإنِ ادَّعى هذا الإنسانُ أنَّ هذا الباطلَ الذي زاده من قوله: «مِن عين تجري من تحت الجحيم» ليس بعدَها: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ ونفَى هذه الآيةَ من القرآن، لِتَصِحَّ له زيادتُه، فقد كفر لَمَّا جَحَدَ آية[٣] من القرآن. وحسبُك بهذا كلِّه رَدًّا لقوله، وخِزياً لِمَقَالِهِ.

وما يؤثَرُ عن الصحابة والتابعين أنهم قرؤوا بكذا وكذا، إنما ذلك على جِهة البيان والتفسير، لا أنَّ ذلك قرآنٌ يُتلَى، وكذلك ما نُسِخَ لفظُه وحُكمُه، أو لفظُه دون حُكمِه، ليس بقرآن، على ما يأتي بيانُه عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦] إن شاء الله تعالى.

---

(١) في النسخ الخطية: يخلط، والمثبت من (م).

(٢) في (م): تخلط.

(٣) في (ز): أنه.

مقدمة ابن كثير(١)

قال الشيخ الإمام الأوحد، البارع الحافظ المتقن، عماد الدين أبو الفداء(٢) إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كَثير البصروى الشافعى، رحمه الله تعالى، ورضى عنه:

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال: **﴿الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِين. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾** [الفاتحة: ٢ـ٤]، وقال تعالى: **﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾** [الكهف: ١ـ٥]،وافتتح خَلْقه بالحمد، فقال تعالى: **﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾** [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: **﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال [الله](٣) تعالى: **﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** [القصص: ٧٠]، كما قال: **﴿الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾** [سبأ: ١].

فله الحمد فى الأولى والآخرة، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود فى ذلك كله، كما يقول المصلى: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شىء بعد»(٤)؛ ولهذا يُلْهَم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلْهَمون النَّفَس، أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالى منَنه ودوام إحسانه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [يونس: ٩، ١٠].

والحمد لله الذى أرسل رسله **﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبى الأمى العربى المكى الهادى لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ**

---

(١) بعدها فى جـ: «رب يسر ولا تعسر» وفى ط: «رب يسر وأعن يا كريم».

(٢) فى جـ: «قال الشيخ العالم العلامة الأوحد الحافظ، المجتهد القدوة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، بركة الإسلام، حجة الأعلام، محيى السنة، ومن عظم الله به علينا المنة عماد الدين أبو الفضل».

(٣) زيادة من جـ.

(٤) هذا اقتباس من حديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٧١) من حديث البراء بن عازب، رضى الله عنه.

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعَجَم، وأسودَ وأحمرَ، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا [1] فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ .وَأُمْلِي لَهُمْ**﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود» [2]. قال مجاهد: يعني: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذى ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نَدَبهم إلى تَفَهُّمه، فقال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتَعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٧٧].

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أن ننتهى عما ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تَعَلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه

---

(١) فى جـ: «ذكرناه».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) من حديث جابر ،رضى الله عنه.

جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق فى ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل فى مكان فإنه قد فُسِّر فى موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى، رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾** [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: **﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه»[١] يعنى: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى، كما ينزل[٢] القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله[٣]، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسيرَ القرآن منه، فإن لم تجدْه فمن السنة، كما قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد برأيى. قال: فضرب رسول الله ﷺ فى صدره، وقال: «الحمد لله الذى وفَّق رَسُولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله»[٤]. وهذا الحديث فى المساند[٥] والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر فى موضعه.

وحينئذ، إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنه[٦].

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير[٧]: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، قال: قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: والذى لا إله غيره، ما نزلت آية من[٨] كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ١٣١) وأبو داود فى السنن برقم (٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معدى كرب، رضى الله عنه.

(٢) فى ب: «كما ينزله عليه».
(٣) فى ب: «رحمة الله عليه».

(٤) رواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٣٠) وأبو داود فى السنن برقم (٣٥٩٢) والترمذى فى السنن برقم (١٣٢٨) من طرق عن شعبة عن أبى عون عن الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ به، وقال الترمذى: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندى بمتصل، وأبو عون الثقفى اسمه محمد بن عبيد الله». وللشيخ ناصر الألبانى مبحث ماتع بين فيه كلام العلماء فى نقد الحديث. انظر: السلسلة الضعيفة برقم (٨٨١).

(٥) فى جـ: «المسانيد».

(٦) فى ب: «عنهم».
(٧) فى ب: «جرير الطبرى».
(٨) فى ب: «فى».

بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته[١]. وقال الأعمش أيضاً، عن أبى وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن[٢].

وقال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا[٣].

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل»[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مُسْلم قال[٥]: قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: نعْم ترجمانَ القرآن ابنُ عباس[٦]. ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيانَ، عن الأعمش، عن مسلم بن صُبَيْح أبى الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس[٧]. ثم رواه عن بُنْدَار، عن جعفر ابن عَوْن، عن الأعمش[٨]، به كذلك.

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود، رضى الله عنه، فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟.

وقال الأعمش عن أبى وائل: استخلف علىّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ فى خطبته سورة البقرة، وفى رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا[٩].

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التى أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بَلِّغوا عنى ولو آية، وحَدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج، ومن كذب عَلَىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخارى عن عبد الله[١٠]؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٨٠) وجابر بن نوح ضعيف لكنه توبع، فرواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٠٢) عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش به.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٠) من طريق الحسين بن واقد عن الأعمش به.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٠) من طريق جرير عن عطاء عن أبى عبد الرحمن السلمى.

(٤) رواه الإمام أحمد فى المسند (١/٣٢٧، ٢٦٦، ٣١٤) وأصله فى صحيح البخارى برقم (٧٥).

(٥) فى ب: «كذا قال».

(٦) تفسير الطبرى (١/ ٩٠).

(٧) تفسير الطبرى (١/ ٩٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٣٧) من طريق سفيان به.

(٨) تفسير الطبرى (١/ ٩٠) ورواه أبو خثيمة فى العلم برقم (٤٨) من طريق جعفر بن عون به.

(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨١) والفسوى فى تاريخه (١/ ٤٩٥) من طريق الأعمش به.

(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٤٦١).

من هذا الحديث من الإذن فى ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح (١).

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدّتهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم. ولكن نَقْلُ الخلاف عنهم فى ذلك جائز، كما قال تعالى: **﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾** [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال فى مثل هذا: **﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾**، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: **﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾** أى: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه. أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور، والله الموفق للصواب.

[قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبى يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية فى القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، فإن لم يكن اجتهد برأيه](٢).

---

(١) فى جـ: «صحيح للاعتقاد».

(٢) زيادة من ط، ب.

فصل

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جَبْر[١]، فإنه كان آية فى التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عَرَضْتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا طَلْق بن غنام، عن عثمان المكى، عن ابن أبى مُلَيْكَة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله[٣]. ولهذا كان سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[٤].

وكسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبى العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مُزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم فى الآية فيقع فى عباراتهم تباين فى الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالا، وليس كذلك، فإن منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد فى كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادى.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين فى الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟ يعنى: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأى فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثنى عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «من قال فى القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار»[٥].

وهكذا أخرجه الترمذى والنسائى، من طرق، عن سفيان الثورى، به. ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبى عَوَانة، عن عبد الأعلى، به[٦]. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

---

(١) فى جـ، ط: «جبير».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٩٠).

(٣) تفسير الطبرى (١/ ٩٠).

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٩١) من طريق أبى بكر الحنفى سمعت سفيان فذكره.

(٥) تفسير الطبرى (١/ ٧٧).

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٨٤) وسنن أبى داود برقم (٣٦٥٢)، والحديث مداره على عبد الأعلى ابن عامر قال أبو زرعة: ضعيف، وتركه ابن مهدى.

وهكذا رواه ابن جرير ـ أيضاً ـ عن يحيى بن طلحة اليربوعى، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعا[١]. ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس المُلائى، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه[٢]. وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله[٣]، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العَنْبَرِى، حدثنا حَبَّان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن جُنْدب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ»[٤].

وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذى، والنسائى من حديث سهيل بن أبى حزم القُطعى، وقال الترمذى: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فى سهيل[٥].

وفى لفظ لهم: «من قال فى كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أى: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، وإن وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر، لكن يكون أخف جُرْماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمى الله القَذَفَة كاذبين، فقال: ﴿**فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تَحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبى مَعْمَر، قال: قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه: أىّ أرض تقلّنى؟ وأى سماء تظلنى؟ إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم[٦].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد[٧] بن يزيد، عن العَوَّام بن حَوْشَب، عن إبراهيم التَّيْمِى؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى؟ إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم. منقطع[٨].

وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر:

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٧٧).

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٧٨) ورواه وكيع عن عبد الأعلى فوقفه، رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٥١٢).

(٣) تفسير الطبرى (١/ ٧٨).

(٤) تفسير الطبرى (١/ ٧٩).

(٥) سنن أبى داود برقم (٣٦٥٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٨٦).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٧٨).

(٧) فى ب: «محمود».

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٥١٣) عن محمد بن عبيد عن العوام بن حوشب به.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر(١).

وقال عَبْد بن حُمَيْد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وفى ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف(٢)، فما عليك ألا تدريه(٣).

وهذا كله محمول على أنهما، رضى الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن ابن أبى مُلَيْكَة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها(٤). إسناده(٥) صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبى مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثنى. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم(٦).

وقال ـ أيضاً ـ ابن جرير: حدثنى يعقوب ـ يعنى ابن إبراهيم ـ حدثنا ابن عُلَيَّة، عن مَهْدى بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طَلْق بن حبيب إلى جُنْدُب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أحرِّج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قمتَ عنى، أو قال: أن تجالسنى(٧).

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول فى القرآن شيئاً (٨).

وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن(٩).

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٥١٢) عن يزيد به، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥١٤) من طريق يزيد عن حميد به، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) فى جـ: «التكلف يا عمر».

(٣) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٣٢٧)، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٩٣) عن سليمان بن حرب به مختصراً ولفظه: «نهينا عن التكلف».

(٤) تفسير الطبرى (١/ ٨٦).

(٥) فى ب: «إسناد».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٢٨).

(٧) تفسير الطبرى (١/ ٨٦).

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٥) من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٦) من طريق ابن وهب عن مالك به.

تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء، يعني: عكرمة[١].

وقال ابن شَوْذَب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع[٢].

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضَّبِّيُّ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظِّمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع[٣].

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن عُرْوَة، قال: ما سمعت أبي تأوَّل آية من كتاب الله قط[٤].

وقال أيوب، وابن عَوْن، وهشام الدَّسْتوائي، عن محمد بن سيرين: سألت عبَيدة السلماني، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمونَ فيم أنزل[٥] القرآن؟ فاتَّق الله، وعليك بالسداد[٦].

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده[٧].

حدثنا هُشَيْم، عن مُغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه[٨].

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السَّفْر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله عز وجل[٩].

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله[١٠].

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما

(١) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨٧) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥١١) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.
(٢) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨٦) عن العباس بن الوليد عن أبيه عن ابن شوذب به.
(٣) تفسير الطبري (١/ ٨٥).
(٤) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).
(٥) في جـ: «نزل».
(٦) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨٦) من طريق ابن علية عن أيوب وابن عون به.
(٧) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).
(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٩) ورواه أبو نعيم (٤/ ٢٢٢) من طريق جرير عن المغيرة به.
(٩) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨٧) من طريق سعيد بن عامر عن شعبة به.
(١٠) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]،ولما جاء فى الحديث المروى من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار»(١).

فأما الحديث الذى رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبيرى، حدثنى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبى ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيا تُعد، علمهن إيَّاه جبريل، عليه السلام.ثم رواه عن أبى بكر محمد بن يزيد الطرسوسى، عن مَعْن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام، به.(٢)

فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشى الزبيرى، قال البخارى: لا يتابع فى حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى: منكر الحديث.

وتكلَّم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقفه عليها جبريل.وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبى الزناد [عن الأعرج](٣)، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله(٤).

قال ابن جرير: وقد روى نحوه فى حديث فى إسناده نظر:

حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصدفى، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبى، عن أبى صالح، مولى أم هانئ، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة(٥) أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تفسره [العرب، وتفسير

---

(١) جاء من حديث أبى هريرة، ومن حديث أنس، وأبى سعيد الخدرى،رضى الله عنهم. أما حديث أبى هريرة، فرواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٦٣) وأبو داود فى السنن برقم (٣٦٥٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٩) وابن ماجة فى السنن برقم (٢٦١) من طريق على ابن الحكم عن عطاء عن أبى هريرة، وقال الترمذى: «حديث حسن». وأما حديث أنس، فرواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٦٤) من طريق يوسف بن إبراهيم عن أنس، وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ١١٧): «هذا إسناد ضعيف». وأما حديث أبى سعيد، فرواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٦٥) من طريق محمد بن داب عن صفوان بن سليم عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبى سعيد، وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ١١٨): «هذا إسناد ضعيف».

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٨٤) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٨/ ٢٣) من طريق معن القزاز عن فلان بن محمد بن خالد، عن هشام بن عروة به، ورواه البزار فى مسنده برقم (٢١٨٥) «كشف الأستار» عن محمد بن المثنى، عن محمد بن خالد بن عثمة، عن حفص ـ أظنه ابن عبد الله ـ عن هشام عن أبيه به.

(٣) زيادة من نسخة مساعدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٤) تفسير الطبرى (١/ ٧٥).

(٥) فى هـ، ب: «سبعة» والمثبت من جـ، والطبرى.

تفسره][1] العلماء. ومتشابه لا يعلمه إلا الله، عز وجل، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب»[2].

والنظر الذى أشار إليه فى إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبى؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم فى رفعه. ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) زيادة من جـ، والطبرى.

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٧٦).

كتاب فضائل القرآن

قال البخارى، رحمه الله:

كيف نزول الوحى وأول ما نزل:

قال ابن عباس: المهيمن الأمين القرآن، أمين على كل كتاب قبله: حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن يحيى عن أبى سلمة قال: أخبرتنى عائشة وابن عباس قالا: لبث النبى ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرا(١).

ذكر البخارى، رحمه الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، [ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثا على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان](٢).

وقول ابن عباس فى تفسير المهيمن إنما يريد به البخارى قوله تعالى فى المائدة بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله:

حدثنا المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية عن على ـ يعنى ابن أبى طلحة ـ عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: المهيمن: الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله(٣). وفى رواية: شهيدا عليه(٤). وقال سفيان الثورى وغير واحد من الأئمة عن أبى إسحاق السبيعى، عن التميمى، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمنا(٥). وبنحو ذلك قال مجاهد والسدى وقتادة وابن جريج والحسن البصرى وغير واحد من أئمة السلف. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَبَ الرجل الشىء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن، وفى أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شىء، والرقيب: الحفيظ بكل شىء.

وأما الحديث الذى أسنده البخارى: أنه، عليه السلام، أقام بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرا، فهو مما انفرد به البخارى دون مسلم، وإنما رواه النسائى من حديث شيبان وهو ابن عبد الرحمن، عن يحيى وهو ابن أبى كثير، عن أبى سلمة عنها(٦).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة، ثم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٨، ٤٩٧٩).

(٢) جاء فى م: «فجرينا على منواله وسننه مقتدين به» وما أثبته من ط، جـ.

(٣) تفسير الطبرى (١٠/ ٣٧٩) ط. المعارف.

(٤) تفسير الطبرى (١٠/ ٣٧٧) ط. المعارف.

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٠/ ٣٧٨) ط. المعارف.

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٧٧).

قرأ ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]. هذا إسناد صحيح[١]. أما إقامته بالمدينة عشرا فهذا ما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالمشهور ثلاث عشرة سنة؛ لأنه، عليه الصلاة والسلام، أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، ويحتمل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصارا فى الكلام؛ لأن العرب كثيرا ما يحذفون الكسور فى كلامهم، أو أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل، عليه السلام، به عليه السلام. فإنه[٢] قد روى الإمام أحمد أنه قرن به، عليه السلام، ميكائيل فى ابتداء الأمر، يلقى إليه الكلمة والشىء، ثم قرن به جبريل.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنه ابتدئ بنزوله فى مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان فى زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان؛ ولهذا يستحب إكثار تلاوة القرآن فى شهر رمضان؛ لأنه ابتدئ نزوله فيه؛ ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ فى كل سنة فى شهر رمضان، فلما كان فى السنة التى توفى فيها عارضه به مرتين تأكيدا وتثبيتاً.

وأيضا فى هذا الحديث بيان أنه من القرآن مكّى ومنه مدنى، فالمكى: ما نزل قبل الهجرة، والمدنى: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أى البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة. وقد أجمعوا على سور أنها من المكى وأخر أنها من المدنى، واختلفوا فى أخر، وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط فى تقييدها عسر ونظر، ولكن قال بعضهم: كل سورة فى أولها شىء من الحروف المقطعة فهى مكية إلا البقرة وآل عمران، كما أن كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهى مدنية وما فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكى. وقد يكون مدنيا كما فى البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا[٣] رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا من سمع الأعمش يحدث عن إبراهيم بن علقمة: كل شىء فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه أنزل بالمدينة، وما كان﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنه أنزل بمكة[٤]. ثم قال: حدثنا على بن معبد، عن أبى المَلِيح، عن ميمون بن مِهْران، قال: ما كان فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا بَنِى آدَمَ﴾ فإنه مكى، وما كان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه مدنى[٥].

ومنهم من يقول: إن بعض السور نزل مرتين، مرة بالمدينة ومرة بمكة، والله أعلم. ومنهم من يستثنى من المكى آيات يدعى أنها من المدنى، كما فى سورة الحج وغيرها.

والحق فى ذلك ما دل عليه الدليل الصحيح، فالله أعلم. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٢٢) من طريق يزيد بن هارون به، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) فى ط: «فكأنه».

(٣) فى م: «اتقوا» وهو خطأ.

(٤، ٥) فضائل القرآن (ص ٢٢٢).

صالح، عن معاوية بن صالح بن على بن أبى طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريون، والتغابن، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ والفجر، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ و﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة[(١)].

وهذا إسناد صحيح عن ابن أبى طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رووا عنه التفسير، وقد ذكر فى المدنى سورا فى كونها مدنية نظر، وفاته الحجرات والمعوذات.

الحديث الثاني: وقال البخارى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر قال: سمعت أبى عن أبى عثمان قال: أنبئت أن جبريل، عليه السلام، أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبى ﷺ: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبى، فلما قام قلت: والله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبى ﷺ يُخبر خَبَر جبريل. أو كما قال، قال أبى: فقلت لأبى عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد. وهكذا رواه أيضا فى علامات النبوة عن عباس بن الوليد النرسى، ومسلم فى فضائل أم سلمة عن عبد الأعلى بن حماد [ومحمد بن عبد الأعلى][(٢)] كلهم عن معتمر بن سليمان به[(٣)].

والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمد ﷺ جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو وجاهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ .ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ .مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات[التكوير: ١٩ ـ ٢٢]. فمدح الرب تبارك وتعالى عبديه ورسوليه جبريل ومحمداً ﷺ وسنستقصى الكلام على تفسير هذا الكتاب[(٤)] فى موضعه إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وفى الحديث فضيلة عظيمة لأم سلمة، رضى الله عنها ـ كما بينه مسلم رحمه الله ـ لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضا لدحية بن خليفة الكلبى، وذلك أن جبريل، عليه السلام، كان كثيرا ما يأتى رسول الله ﷺ على صورة دحية وكان جميل الصورة، رضى الله عنه، وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبى، كلهم ينسبون إلى كلب بن وبرة وهم قبيلة من قضاعة، وقضاعة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بطن مستقل بنفسه، والله أعلم.

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢١).

(٢) زيادة من جـ، م.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٠)، (٣٦٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٥١).

(٤) فى جـ. «المكان».

الحديث الثالث: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقبرى، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال النبى [١] ﷺ: «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[٢].

ورواه أيضا فى [كتاب] [٣] الاعتصام عن عبد العزيز بن عبد الله ومسلم والنسائى عن قتيبة جميعا، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبيه ـ واسمه كيسان المقبرى ـ به.

وفى هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبى من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبى إلا أعطى من المعجزات ما آمن عليه البشر، أى: ما كان دليلا على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من اتبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهده فى زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منقولا إلى الناس بالتواتر، ففى كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾** [الفرقان: ١]، وقال تعالى: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾** [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [هود: ١٣] ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: **﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [يونس: ٣٨]، وقصر التحدى على هذا المقام فى السور [٤] المكية كما ذكرنا وفى المدنية أيضا كما فى سورة البقرة، حيث يقول تعالى: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾** [البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لايفعلون ذلك فى المستقبل أيضا، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله مالا قبل لأحد من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوى على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾** [الأنعام: ١١٥].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا محمد بن إسحاق قال: ذكر محمد بن كعب القرظى عن الحارث بن عبد الله الأعور قال: قلت: لآتين أمير المؤمنين، فلأسألنه عما سمعت العشية [قال] [٥]: فجئته بعد العشاء، فدخلت عليه، فذكر الحديث. قال: ثم

---

(١) فى جـ: «رسول الله».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١)، (٧٢٧٤).
(٣) زيادة من جـ.
(٤) فى جـ، ط: «السورة».
(٥) زيادة من جـ، ط.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتانى جبريل فقال: يامحمد، أمتك مختلفة بعدك». قال: «فقلت له: فأين المَخْرَج ياجبريل؟» قال: فقال: «كتاب الله به يَقْصِم الله كلَّ جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، مرتين، قول فَصْل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولاتفنى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم» هكذا رواه الإمام أحمد(١). وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا حسين بن على الجعفى، حدثنا حمزة الزيات، عن أبى المختار الطائى، عن ابن أخى الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، قال: مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت علَى علِىّ فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا فى الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المَخْرج منها يارسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهَزْل، من تركه من جبار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تَلْتَبس به الألسنة، ولايشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق عن كثرة الرد، ولاتنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذْ سمعته حتى قالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ**﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صَدَق، ومن عمل به أجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم». خذها إليك يا أعور، ثم قال: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفى حديث الحارث مقال(٢).

قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظى، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام فى القراءة والحديث، مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب فى الحديث فلا، والله أعلم.

وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على، رضى الله عنه، وقد وَهِم بعضهم فى رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ.

قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه فضائل القرآن: حدثنا أبو اليقظان، حدثنا عمار بن محمد الثورى أو غيره عن أبى إسحاق الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عز وجل، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عِصْمَة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، لا يزيغ فيستعتب، ولاتنقضى عجائبه، ولا يَخْلَق عن كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول لكم الـم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر»(٣). وهذا غريب من هذا الوجه، وقد رواه محمد بن فضيل عن أبى إسحاق

(١) المسند (١/ ٩١).

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٦).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢١) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٥٥) من طريق الهجرى به.

الهجرى، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيرا.

وقال أبو حاتم الرازى: لين ليس بالقوى. وقال أبو الفتح الأزدى: رفَّاع كثير الوهم. **قلت**: فيحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم.

وقال أبو عبيد أيضا: حدثنا حجاج عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال: لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله[(١)].

الحديث الرابع: قال البخارى: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، عن صالح بن كيسان، عن ابن [(٢)] شهاب، قال: أخبرنى أنس بن مالك أن الله تابع الوحى على رسوله ﷺ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحى، ثم توفى رسول الله ﷺ بعد. وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا ـ وهو الناقد ـ وحسن الحلوانى وعبد بن حميد والنسائى عن إسحاق ابن منصور الكوسج، أربعتهم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى به[(٣)].

ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحى على رسول الله ﷺ شيئاً بعد شىء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التى كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾[العلق: ١] فإنه استلبث الوحى بعدها حينا يقال: قريبا من سنتين أو أكثر، ثم حمى الوحى وتتابع، وكان أول شىء نزل بعد تلك الفترة ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر: ١، ٢].

الحديث الخامس: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبا يقول: اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿**والضحى.وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ .مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ [الضحى: ١ـ٣][(٤)].

وقد رواه البخارى فى غير موضع أيضا، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق أخر[(٥)]، عن سفيان ـ وهو الثورى ـ وشعبة بن الحجاج كلاهما عن الأسود بن قيس العبدى، عن جندب بن عبد الله البجلى، به. وسيأتى الكلام على هذا الحديث فى تفسير سورة الضحى إن شاء الله تعالى.

والمناسبة فى ذكر هذا الحديث والذى قبله فى فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢١).

(٢) فى ط، جـ: «أبى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٦).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٣).

(٥) صحيح البخارى برقم (١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٥١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨١).

عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحى متتابعا عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقا ليكون ذلك فى أبلغ العناية والإكرام.

قال البخارى، رحمه الله: نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرآنا عربيا، بلسان عربى مبين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب[1]، عن الزهرى: أخبرنى أنس بن مالك قال: فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها فى المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد فى عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا [2].

هذا الحديث قطعة من حديث سيأتى قريبا والكلام عليه ومقصود البخارى منه ظاهر، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا شيبان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يملى فى مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف. وهذا إسناد صحيح [3]. وقال أيضا: حدثنا إسماعيل بن أسد، حدثنا هوذة، حدثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم فى اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر ﷺ[4]، وقد قال الله تعالى: **﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾** [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وقال تعالى: **﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾** [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾** الآية [فصلت: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم ذكر البخارى، رحمه الله، حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى. فذكر الحديث الذى سأل عمن أحرم بعمرة وهو متمطخ بطيب وعليه جبة، وقال: فنظر رسول الله ﷺ ساعة ثم فجأه الوحى، فأشار عمر إلى يعلى أى: تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسه فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سرى عنه، فقال: «أين الذى سألنى عن العمرة آنفا؟» فذكر أمره بنزع الجبة وغسل الطيب.

وهذا الحديث رواه جماعة [5] من طرق عديدة[6]، والكلام عليه فى كتاب الحج، ولا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذكر فى الترجمة التى قبلها لكان أظهر وأبين، والله أعلم.

---

(١) فى جـ: «سفيان».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٤).

(٣) المصاحف (ص ١٧).

(٤) المصاحف (ص١٧).

(٥) ط، جـ: «الجماعة».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٥)، وبرقم (١٨٤٧، ١٧٨٩) وصحيح مسلم برقم (١١٨٠) وسنن أبى داود برقم (١٨١٩، ١٨٢٠) وسنن الترمذى برقم (٨٣٦) وسنن النسائى (٥/ ١٣٠).

جمع القرآن

قال المؤلف، رحمه الله[١] :فائدة جليلة حسنة: ثبت فى الصحيحين عن أنس قال: جمع القرآن على عهد النبى ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار؛ أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. فقيل له: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتى. وفى لفظ للبخارى عن أنس قال: مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة؛ أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه.

قلت: أبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنه مات قديما، وقد ذكروه فى أهل بدر، وقال بعضهم:سعيد ابن عبيد. ومعنى قول أنس: «ولم يجمع القرآن». يعنى من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصديق، وابن مسعود، وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعرى، رحمه الله: قد علم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر فى مرض الموت ليصلى بالناس، وقد ثبت فى الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: «ليؤم القوم أقرؤهم»[٢]، فلو لو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه فى كتاب فضائل الصديق عن الأشعرى.

وحكى القرطبى فى أوائل تفسيره عن القاضى أبى بكر الباقلانى أنه قال ـ بعد ذكره حديث أنس ابن مالك هذا ـ: فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلى، وتميم الدارى، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: «لم يجمعه غير أربعة» يحتمل لم يأخذه تلقيا من فِىّ رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعض. قال: وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم[٣].

قال القرطبى: لم يذكر القاضى ابن مسعود وسالما مولى أبى حذيفة، وهما ممن جمع القرآن[٤]. [نقلت هذه من على ظهر الجزء الأول من أجزاء المؤلف][٥] . ا. هـ.

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر ـ مقتل أهل اليمامة ـ فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتانى، فقال: إن القتل قد استَحَرَّ بقُرَّاء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لانتهمك، وقد

---

(١) فى م: «قال المؤلف، رحمه الله، فيما وجد على ظهر الجزء الأول من تفسيره» وسيأتى هذا فى ط فى آخر الفائدة.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث عقبة بن عمرو، رضى الله عنه.

(٣، ٤) تفسير القرطبى (١/ ٥٧).

(٥) زيادة من ط.

كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما. فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخَاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة:١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضى الله عنهم[١].

وقد روى البخارى هذا [الحديث] [٢] فى غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن الزهرى به[٣].

وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضى الله عنه، فإنه أقامه الله بعد النبى ﷺ مقاما لا ينبغى لأحد بعده، قاتل الأعداء من مانعى الزكاة، والمرتدين، والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعوث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضى الله عنه وأرضاه. ولهذا روى غير واحد من الأئمة منهم وكِيع وابن زيد وقبيصة عن سفيان الثورى عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير عن عبد خير، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين[٤]. إسناده صحيح.

وقال أبو بكر بن أبى داود فى كتاب المصاحف: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة، عن هشام، عن أبيه، أن أبا بكر هو الذى جمع القرآن بعد النبى ﷺ، يقول: ختمه[٥]. صحيح أيضا. وكان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، هو الذى تنبه لذلك لما استحر القتل بالقراء، أى اشتد القتل وكثر فى قراء القرآن يوم اليمامة، يعنى يوم اليمامة، يعنى يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه ومن بنى حنيفة بأرض اليمامة فى حديقة الموت، وذلك أن مسيلمة التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد فى قريب من ثلاثة عشر ألفاً، فالتقوا معهم[٦]، فانكشف الجيش الإسلامى لكثرة من فيه من الأعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة: يا خالد، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فتميزوا [٧] منهم، وانفردوا، فكانوا قريبا من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة، وقاتلوا قتالا شديدا، وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٦).
(٢) زيادة من جـ.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٧٩، ٤٩٨٩) والمسند (١/ ١٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٥).
(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ١٥٦) وابن أبى داود فى المصاحف (ص١١).
(٥) المصاحف (ص ١٢). (٦) فى جـ: «بهم». (٧) فى جـ: «فميزوا».

عليهم وولّى جيش الكفار [١] فارا، وأتبعتهم السيوف المسلمة فى [أقنيتهم] [٢] قتلا وأسرا، وقتل الله مسيلمة، وفرق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام، ولكن قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة، رضى الله عنهم، فلهذا أشار عمر على الصِّديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شىء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك فى مواطن القتال، فإذا كتب وحفظ صار ذلك محفوظا فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجعه الصديق قليلا ليثبت فى الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت فى ذلك ثم صارا [٣] إلى ما رأياه، رضى الله عنهم أجمعين، وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصارى؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خَلاّد، حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن؛ أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إنا لله، فأمر بالقرآن فجمع فكان أول من جمعه فى المصحف[٤].

هذا منقطع، فإن الحسن لم يدرك عمر، ومعناه: أشار بجمعه فجمع؛ ولهذا كان مهيمنا على حفظه وجمعه كما رواه ابن أبى داود حيث قال: حدثنا أبو الطاهر [٥]، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمر ابن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، أن عمر لما جمع القرآن كان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان[٦].

وذلك عن أمر الصديق له فى ذلك، كما قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر، رضى الله عنه، أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه [٧]. منقطع حسن.

ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة، يعنى قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ إلى آخر الآيتين [التوبة:١٢٨، ١٢٩] مع أبى خزيمة الأنصارى، وفى رواية: مع خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين فى قصة الفرس التى ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابى، فأنكر الأعرابى البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله ﷺ، فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابى. والحديث رواه أهل السنن [٨] وهو مشهور، وروى أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية أن أُبىّ ابن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت[٩].

وقد روى ابن وهب عن عمرو [١٠] بن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى

(١) فى جـ: «الكفر». (٢) فى ط: «أخفيتهم». (٣) فى ط: «صاروا».
(٤) المصاحف (ص١٦).
(٥) فى جـ: «الظاهر».
(٦) المصاحف (ص١٧).
(٧) المصاحف (ص١٢).
(٨) سنن أبى داود برقم (٣٦٠٧) وسنن النسائى (٧/ ٣٠٢).
(٩) رواه أحمد فى المسند (٥/ ١٣٤) من طريق عمر بن شقيق عن أبى جعفر به.
(١٠) فى ط: «عمر».

ابن عبد الرحمن بن حاطب؛ أن عثمان شهد بذلك أيضاً [(١)].

وأما قول زيد[بن ثابت] [(٢)]: «فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال» وفى رواية: «من العسب والرِّقَاع والأضلاع»، وفى رواية: «من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال».

أما العُسُب فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهرى: وهو من السعف فويق الكَرَب لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف.

واللِّخاف: جمع لَخْفَة وهى القطعة من الحجارة مستدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العسب وغير ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعونه من القرآن من رسول الله ﷺ.

ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقاه زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لخافه، ومن صدر هذا، أى من حفظه وكانوا أحرص شىء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده كما قال [الله] [(٣)] تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾[المائدة: ٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أمر به؛ ولهذا سألهم فى حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: «إنكم مسؤولون عنى فما أنتم قائلون[(٤)]؟». فقالوا: نشهد أنك قد بَلَّغت وأدَّيت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد». رواه مسلم عن جابر [(٥)]. وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب وقال: «بَلِّغوا عنى ولو آية» [(٦)] يعنى: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلى من وراءه، فبلَّغوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآنا، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كتب عنى سوى القرآن فليمحه» [(٧)] أى: لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه: ألا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أداه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا، ولله الحمد والمنة، فكان الذى فعله الشيخان أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله فى الصحف؛ لئلا يذهب منه شىء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده محروسة معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين، رضى الله عنها، حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال البخارى، رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن

---

(١) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص١٧). (٢، ٣) زيادة من م.

(٤) فى ط، جـ: «مجيبون».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما.

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٩٩) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

أنس بن مالك، حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضى الله عنهما وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى محل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب الزهرى: فأخبرنى خارجة ابن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، التمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها فى سورتها فى المصحف[(١)].

وهذا ـ أيضا ـ من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شىء وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لئلا يختلفوا فى القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روى عن عبد الله [(٢)] بن مسعود شىء من التغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ماعدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق حتى قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: لولم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فاتفق الأئمة [(٣)] أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، رضى الله عنهم، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى»[(٤)]. وكان السبب فى هذا حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه لما [(٥)] كان غازيا فى فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات على حروف شتى، ورأى منهم اختلافا وافتراقا، فلما رجع إلى عثمان أعلمه وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم فى ألفاظ كثيرة ومعان أيضا، وليس فى توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء، والنصارى ـ أيضا ـ بأيديهم توراة يسمونها العتيقة وهى مخالفة لنسختى اليهود والسامرة، وأما

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٧، ٤٩٨٨).

(٢) فى ط، جـ: «عبد الرحمن».

(٣) فى ط، جـ: «الأربعة».

(٤) رواه أحمد فى المسند (٤/١٢٦) وأبو داود فى السنن برقم (٤٦٠٧) والترمذى فى السنن برقم (٢٦٧٦) وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٥) فى ط، جـ: «فإنه».

الأناجيل التى بأيدى النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وهى مختلفة ـ أيضا ـ اختلافا كثيرا، وهذه الأناجيل الأربعة كل منها لطيف الحجم منها ما هو قريب من أربع عشرة ورقة بخط متوسط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالنصف أو بالضعف، ومضمونها سيرة عيسى وأيامه وأحكامه وكلامه وفيه شيء قليل مما يدعون أنه كلام الله، وهى مع هذا مختلفة، كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التبديل والتحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المطهرة.

فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفزعه وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالصحف التى عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك فى مصحف واحد، وينفذه إلى الآفاق، ويجمع الناس على القراءة به وترك ما سواه، ففعلت حفصة وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم زيد بن ثابت الأنصارى، أحد كتاب الوحى لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى، أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علما وعملا وأصلا وفضلا، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى، وكان كريما جوادا ممدحا، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى، فجلس هؤلاء النفر يكتبون القرآن نسخا، وإذا اختلفوا فى وضع الكتابة على أى لغة رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا فى التابوت أيكتبونه بالتاء والهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوه. وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو التابوت فتراجعوا [١] إلى عثمان فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وكان عثمان ـ والله أعلم ـ رتب السور فى المصحف، وقدم السبع الطوال وثنى بالمئين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابى، عن يزيد الفارسى، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ماحملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتموها فى السبع الطوال؟ ماحملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فوضعتها فى السبع الطوال[٢].

---

(١) فى ط: «فترافعوا».

(٢) تفسير الطبرى (١/١٠٢) وسنن أبى داود برقم (٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٠٨٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٠٧) ويزيد الفارسى مجهول وقد انفرد بهذا الحديث.

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات والسور أمر توقيفى متلقى عن الرسول ﷺ، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتبا؛ فإن نكسه أخطأ خطأ كبيرا. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان، رضى الله عنه، والأولى إذا قرأ أن يقرأ متواليا كما قرأ عليه، الصلاة والسلام، فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين وتارة بسبح وهل أتاك حديث الغاشية، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيد بقاف واقتربت الساعة، رواه مسلم عن أبى واقد [(١)] فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة: الم ٓالسجدة، وهل أتى على الإنسان[(٢)].

وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضا، فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم[(٣)].

وقرأ عمر فى الفجر بسورة النحل ثم بيوسف. ثم إن عثمان رد المصحف إلى حفصة، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لئلا يكون فيها شيء يخالف المصاحف التى نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفا إلى أهل مكة، ومصحفا إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفا، رواه أبو بكر بن أبى داود عن أبى حاتم السجستانى، سمعه يقوله[(٤)]. وصحح القرطبى أنه إنما نفذ إلى الآفاق أربعة مصاحف. وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لئلا تختلف قراءات الناس فى الآفاق، وقد وافقه الصحابة فى عصره على ذلك ولم ينكره أحد منهم، وإنما نقم عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمالؤوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفى ذلك جملة ما أنكروه مما لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصحابة، ومن نشأ فى عصرهم ذلك من التابعين، فكلهم وافقوه.

قال أبو داود الطيالسى وابن مهدى وغُنْدَر عن شعبة، عن عَلْقَمة بن مَرْثَد، عن رجل، عن سُوَيد ابن غفلة، قال علىّ حين حرق عثمان المصاحف: لو لم يصنعه هو لصنعته[(٥)].

وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق[(٦)]، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص، قال: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد[(٧)]. وهذا إسناد صحيح.

وقال أيضا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا ثابت بن عمارة

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٩١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٧٢).

(٤) المصاحف لابن أبى داود (ص٤٣).

(٥) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص١٩).

(٦) فى جـ: «أبى مصعب».

(٧) المصاحف (ص١٩).

الحنفى، قال: سمعت غنيم بن قيس المازنى قال: قرأت القرآن على الحرفين جميعا، والله ما يسرنى أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ماله. قال: قلنا له: يا أبا العنبر، ولم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرؤون الشعر(١).

حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنى عمران بن حدير، عن أبى مِجْلَز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرؤون الشعر. حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدى يقول: خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبى بكر ولا لعمر: صبره نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف(٢).

وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن حميد (٣) بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف ـ يعنى بتحريقها ـ ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يغلَّ مصحفاً فليغلل، فإنه من غلَّ شيئاً جاء بما غل يوم القيامة.

ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من فِىِّ رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبى، أفأترك ما أخذت من فِىِّ رسول الله ﷺ(٤).

وقال أبو بكر: حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سعيد بن سليمان(٥)، حدثنا ابن (٦) شهاب، عن الأعمش، عن أبى وائل، قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٦١]، غلوا مصاحفكم، وكيف تأمرونى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت القرآن من فِىِّ رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتى مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما نزل من القرآن شىء إلا وأنا أعلم فى أى شىء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله منى، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكانا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله منى لأتيته. قال أبو وائل: فلما نزل عن (٧) المنبر جلست فى الحلق، فما أحد ينكر ما قال(٨). أصل هذا مخرج فى الصحيحين (٩) وعندهما: ولقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله. وقول أبى وائل: : «فما أحد ينكر ما قال»، يعنى: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم.

وأما أمره بغَلِّ المصاحف وكتمانها، فقد أنكره عليه غير واحد. قال الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء، فقال: كنا نعد عبد الله جبانا(١٠)، فما باله يواثب الأمراء(١١). وقال أبو بكر بن أبى داود: باب رضا عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك: حدثنا عبد الله بن سعيد ومحمد بن عثمان العجلى قالا: حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامرى، عن فُلفُلة الجعفى قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله فى

(١، ٢) المصاحف (ص ١٩).
(٣) فى جـ: «عمير».
(٤) المصاحف (ص٢١).
(٥) فى جـ: «سلمان». (٦) فى ط، جـ: «أبو». (٧) فى جـ: «من».
(٨) المصاحف (ص٢٣).
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٢).
(١٠) فى المصاحف: «حناناً». (١١) المصاحف (ص٢٥).

المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب، على سبعة أحرف ـ أو حروف ـ وإن الكتاب قبلكم كان ينزل ـ أو نزل ـ من باب واحد على حرف واحد[١]. وهذا الذى استدل به أبو بكر، رحمه الله، على رجوع ابن مسعود فيه نظر، من جهة أنه لا يظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه، والله أعلم.

وقال أبو بكر أيضا: حدثنا عمى، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: [يا][٢] أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون فى القرآن، وتقولون: قراءة أبى وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك وأعزم على كل رجل منكم ماكان معه من كتاب الله لما جاء به، فكان الرجل يجىء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لسمعت رسول الله ﷺ أمله عليك فيقول: نعم، فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتبُ الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأى الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليملْ سعيد، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها فى الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون[٣]: قد أحسن[٤]. إسناده[٥] صحيح.

وقال أيضا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار، فيهم أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر فجىء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، وكانوا إذا تدارؤوا فى شىء أخره. قال محمد: فقلت لكثير ـ وكان فيهم فيمن يكتب ـ: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننت ظنا إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهدا بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله[٦]. صحيح أيضا.

قلت: الربعة هى الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة، رضى الله عنها، فلما جمعها عثمان، رضى الله عنه، فى المصحف، ردها إليها، ولم يحرقها فى جملة ما حرقه مما سواها، إلا أنها هى بعينها الذى كتبه، وإنما رتبه، ثم إنه كان قد عاهدها على أن يردها إليها، فما زالت عندها حتى ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرقها وتأول فى ذلك ما تأول[٧] عثمان، كما رواه أبو بكر بن أبى داود:

حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى سالم بن عبد الله:

---

(١) المصاحف (ص ٢٥).

(٢) زيادة من جـ، ط.

(٣) فى ط، جـ: «يقول».

(٤) المصاحف (ص ٣١).

(٥) فى جـ، ط: «إسناد».

(٦) المصاحف (ص٣٣).

(٧) فى ط: «أول».

أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التى كتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشققت، وقال مروان: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان [١] أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب أو يقول: إنه كان شيء منها لم يكتب [٢]. إسناد صحيح.

وأما ما رواه الزهرى [٣] عن خارجة عن أبيه فى شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها فى سورتها، فذكره [٤] لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف كما جاء مصرحاً به فى غير هذه الرواية عن الزهرى، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل على ذلك أنه قال: «فألحقناها [٥] فى سورتها من المصحف» وليست هذه الآية ملحقة فى الحاشية فى المصاحف العثمانية. فهذه الأفعال [٦] من أكبر القربات التى بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، حفظا على الناس القرآن، جمعاه لئلا يذهب منه شيء وعثمان، رضى الله عنه، جمع قراءات الناس على مصحف واحد ووضعه على العرضة الأخيرة التى عارض بها جبريل رسول الله ﷺ فى آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى». أخرجاه فى الصحيحين[٧].

وقد روى أن علياً، رضى الله عنه، أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ﷺ مرتبا بحسب نزوله أولاً فأولاً، كما رواه [٨] ابن أبى داود حيث قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى، حدثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفى النبى ﷺ أقسم على ألا يرتدى برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن فى مصحف ففعل، فأرسل، إليه أبو بكر، رضى الله عنه، بعد أيام: أكرهت إمارتى يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله إلا أنى أقسمت ألا أرتدى برداء إلا لجمعة. فبايعه ثم رجع[٩]. هكذا رواه وفيه انقطاع، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث[١٠]، وهو لين الحديث[١١]، وإنما رووا[١٢]: حتى أجمع القرآن، يعنى أتم حفظه، فإنه يقال للذى يحفظ القرآن: قد جمع القرآن.

قلت: وهذا الذى قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإن عليا لم ينقل عنه مصحف على ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثمانى، يقال: إنها بخط على، رضى الله عنه، وفى ذلك نظر، فإنه فى بعضها: كتبه على بن أبى طالب، وهذا لحن من الكلام[١٣]؛ وعلى،

---

(١) فى جـ: «الزمان».

(٢) المصاحف (ص٣٢).

(٣) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص٣٧) عن الزهرى.

(٤) فى جـ: «فذكر». (٥) فى ط، جـ: «وألحقناها». (٦) فى جـ: «الآيات».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٥٠).

(٨) فى جـ: «روى».

(٩) المصاحف (ص١٦).

(١٠) فى جـ: «الأشعث». (١١) فى جـ، ط: «وهو ابن الحرث». (١٢) فى جـ، ط: «رواه».

(١٣) وقد ذكر «كوركيس عواد» فى كتابه «أقدم مخطوطات فى العالم» بعض هذه المصاحف وأماكنها وأرقامها فى إيران وطاشقند، ولايشك عاقل أنها ليست من خط على، رضى الله عنه.

رضى الله عنه، من أبعد الناس عن ذلك فإنه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى، وأنه قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أخر تممها أبو الأسود بعده، ثم أخذه الناس عن أبى الأسود فوسعوه ووضحوه، وصار علما مستقلا.

وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن شرقى المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كانت قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق فى حدود ثمان عشرة وخمسمائة، وقد رأيته كتابا عزيزا جليلا عظيما ضخما بخط حسن مبين قوى بحبر محكم فى رق أظنه من جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريفا وتكريما وتعظيما(١).

فأما عثمان، رضى الله عنه، فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت فى أيامه، ربما وغيره، فنسبت إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدى عثمان، ثم نفذت إلى الآفاق، رضى الله عنه، وقد قال أبو بكر بن أبى داود:

حدثنا على بن حرب الطائى، حدثنا قريش (٢) بن أنس، حدثنا سليمان التيمى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد مولى بنى (٣) أسيد، قال: لما دخل المصريون على عثمان ضربوه بالسيف على يده فوقعت على: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فمد يده فوقعت: والله إنها لأول يد خطت المفصل(٤).

وقال أيضا: حدثنا أبو طاهر، حدثنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال لى: ذَهَب. يحتمل أنه سأله عن المصحف الذى كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الذى تركه فى المدينة، والله أعلم.

قلت: وقد كانت الكتابة فى العرب قليلة جداً، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما (٥) ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبى وغيره: أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب، وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيئ من قرية هناك يقال لها: بقة، ثم هذبوه ونشروه فى جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهرى، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبى قال: سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار(٦).

قلت: والذى كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو على مقلة الوزير، وصار

---

(١) ذكر «كوركيس عواد» فى كتابه المتقدم ذكره (ص٣٤) أن مصحفاً فى متحف الآثار الإسلامية بتركيا مكتوب على الرق كتب فى آخره أنه مصحف، عثمان، رضى الله عنه، وهو فى هذا المتحف برقم (٤٥٧).

(٢) فى جـ: «يونس».

(٣) فى ط، جـ: «أبى».

(٤) لم أجد هذا الأثر والذى بعده فى المصاحف.

(٥) فى ط، جـ: «كما».

(٦) المصاحف (ص٩).

له فى ذلك منهج وأسلوب فى الكتابة، ثم قربها على بن هلال البغدادى المعروف بابن البواب وسلك الناس وراءه. وطريقته فى ذلك واضحة جيدة. والغرض أن الكتابه لما كانت فى ذلك الزمان لم تحكم جيدا، وقع فى كتابة المصاحف اختلاف فى وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى، وصنف الناس فى ذلك، واعتنى بذلك الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتابه فضائل القرآن[١]، والحافظ أبو بكر بن أبى داود، رحمه الله، فبوبا على ذلك[٢]، وذكر قطعة صالحة هى من صناعة القرآن، ليست مقصدنا ههنا؛ ولهذا نص الإمام مالك، رحمه الله، على أنه لاتوضع المصاحف إلا على وضع كتابة الإمام، ورخص فى ذلك غيره، واختلفوا فى الشكل والنقط فمن مرخص ومن مانع، فأما كتابة السور وآياتها والتعشير والأجزاء والأحزاب فكثير [٣] فى مصاحف زماننا، والأولى اتباع السلف الصالح.

ثم قال البخارى: ذكر كُتَّاب النبى ﷺ. وأورد فيه من حديث الزهرى، عن ابن السباق، عن زيد ابن ثابت، أن أبا بكر الصديق قال له: وكنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ وذكر نحو ما تقدم فى[٤] جمعه للقرآن[٥]، وقد تقدم، وأورد حديث زيد بن ثابت فى نزول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] [٦]، وسيأتى الكلام عليه فى سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولم يذكر البخارى أحداً من الكتّاب فى هذا الباب سوى زيد بن ثابت، وهذا عجب، وكأنه لم يقع له حديث يورده سوى هذا، والله أعلم.

وموضع هذا فى كتاب السيرة عند ذكر كتّابه عليه السلام.

ثم قال البخارى، رحمه الله:

أنزل القرآن على سبعة أحرف

حـدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حـدثنى عقيل عن ابن شهاب قال: حدثنى عبيد الله بن عبد الله؛ أن عبد الله بن عباس حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأنى جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[٧].

وقد رواه ـ أيضاً ـ فى بدء الخلق، ومسلم من حديث يونس، ومسلم ـ أيضا ـ من حديث معمر، كلاهما عن الزهرى بنحوه[٨]، ورواه ابن جرير من حديث الزهرى به[٩]، ثم قال الزهرى: بلغنى أن تلك السبعة الأحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحدا لا تختلف فى حلال ولا فى حرام.

---

(١) فضائل القرآن (ص٢٣٧ ـ ٢٤٣).
(٢) المصاحف (ص١٤٥ ـ ١٧٦).
(٣) فى ط، جـ: «فكثر».
(٤) فى جـ: «من».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٩).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٠).
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٩١).
(٨) فى جـ: «نحوه».
(٩) صحيح البخارى برقم (٣٢١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٩) وتفسير الطبرى (١/ ٢٩).

وهذا مبسوط فى الحديث الذى رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال:

حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن أبىّ بن كعب قال: ما حاك فى صدرى شىء منذ أسلمت، إلا أننى قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتى فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأمن رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقرأتنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم»، وقال الآخر: أليس تقرأنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم». فقال: «إن جبريل وميكائيل أتيانى فقعد جبريل عن يمينى وميكائيل عن يسارى، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف وكل حرف شاف كاف»[(١)].

وقد رواه النسائى من حديث يزيد ـ وهو ابن هارون ـ ويحيى بن سعيد القطان كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس، عن أبىّ بن كعب بنحوه[(٢)]. وكذا رواه ابن أبى عدى ومحمود[(٣)] بن ميمون الزعفرانى ويحيى بن أيوب كلهم عن حميد به[(٤)]. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فأدخل بينهما عبادة بن الصامت[(٥)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبى خالد، حدثنى عبد الله بن عيسى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبىّ بن كعب، قال: كنت فى المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فقمنا جميعا، فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه، فقال لهما النبى ﷺ: «اقرآ»، فقرآ، فقال: «أصبتما». فلما قال لهما النبى ﷺ الذى قال كبُر علىّ ولا إذا كنت فى الجاهلية، فلما رأى الذى غشينى ضرب فى صدرى ففضضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى [رسول][(٦)] الله فرقاً فقال: «يا أبىّ، إن ربى أرسل إلىّ أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتى، فأرسل إلىّ أن اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هوّن على أمتى، فأرسل إلىّ أن اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة تسألنيها». قال: «قلت: اللهم اغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام». وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبى خالد به[(٧)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبيه، عن جده، عن أبىّ بن كعب، قال: قال

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠١).

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٨٦).

(٣) فى ط، جـ: «محمد».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٣٣).

(٥) تفسير الطبرى (١/ ٣٤).

(٦) زيادة من جـ.

(٧) المسند (٥/ ١٢٧) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠).

رسول الله ﷺ: «إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: خفف عن أمتى، فقال[١]: اقرأه على حرفين، فقلت: اللهم ربّ خفف عن أمتى، فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة كلها شافٍ كافٍ»[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا يونس عن ابن وهب: أخبرنى هشام بن سعد، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبىّ بن كعب، أنه قال: سمعت رجلا يقرأ فى سورة النحل قراءة تخالف قراءتى، ثم سمعت آخر يقرؤها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنى سمعت هذين يقرآن فى سورة النحل فسألتهما: من أقرأكما[٣]؟ فقالا: رسول الله ﷺ، فقلت: لأذهبن بكما إلى رسول الله ﷺ إذ خالفتما ما أقرأنى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهما: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت» ثم قال للآخر: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت». قال أبىّ: فوجدت فى نفسى وسوسة الشيطان حتى احمر وجهى، فعرف ذلك رسول الله ﷺ فى وجهى، فضرب يده فى صدرى ثم قال: «اللهم أخسئ[٤] الشيطان عنه، يا أبىّ، أتانى آت من ربى فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: رب، خفف عنى، ثم أتانى الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين[٥] فقلت: رب، خفف عن أمتى، ثم أتانى الثالثة، فقال: مثل ذلك وقلت له مثل ذلك، ثم أتانى الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة، فقلت: يارب، اللهم اغفرلأمتى، يارب، اغفر لأمتى، واختبأت الثالثة شفاعة لأمتى يوم القيامة»[٦]. إسناده صحيح.

قلت: وهذا الشك الذى حصل لأبىّ فى تلك الساعة هو، والله أعلم، السبب الذى لأجله قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وإعلام ودواء لما كان حصل له سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخرها لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]، وهذا نظير تلاوته سورة الفتح حين أنزلت مرجعه، عليه السلام، من الحديبية على عمر بن الخطاب، وذلك لما كان تقدم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ ولأبى[٧] بكر الصديق، رضى الله عنهما، فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن أبى ليلى، عن أبىّ بن كعب أن رسول الله ﷺ كان عند أخباة بنى غفار، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين. قال:

---

(١) فى ط، جـ: «قال».
(٢) تفسير الطبرى (١/ ٣٧).
(٣) فى ط، جـ: «أقرأهما».
(٤) فى جـ: «أذهب».
(٥) فى ط، جـ: «حرف واحد».
(٦) تفسير الطبرى (١/ ٤١).
(٧) فى ط، جـ: «ثم لأبى».

«أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم جاءه الثالثة قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا[(١)].

وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى من رواية شعبة به، وفى لفظ لأبى داود عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبىّ، إنى أقرئت القرآن فقيل لى: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذى معى: قال على حرفين. قلت: على حرفين. فقيل لى: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذى معى: قل على ثلاثة. قلت: على ثلاثة. حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال: ليس منها إلا شاف كاف إن قلت: سميعا عليما، عزيزا حكيما، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»[(٢)].

وقد روى ثابت بن قاسم نحوا من هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ[(٣)] ومن كلام ابن مسعود، رضى الله عنه، نحو ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن على الجعفى، عن زائدة، عن عاصم، عن زر، عن أبى قال: لقى رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إنى بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسى، والعجوز الكبيرة، والغلام، فقال: مرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف»[(٤)].

وأخرجه الترمذى من حديث عاصم بن أبى النَّجُود، عن زر، عن أبىّ بن كعب، به[(٥)]، وقال: حسن صحيح.

وقد رواه أبو عبيد عن أبى النضر، عن شيبان، عن عاصم بن أبى النجود، عن زر، عن حذيفة أن رسول الله ﷺ لقى جبريل عند أحجار المراء، فذكر الحديث[(٦)]، والله أعلم.

وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد، عن عاصم، عن زر، عن حذيفة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لقيت جبريل عند أحجار المراء، فقلت: يا جبريل، إنى أرسلت إلى أمة أمية؛ الرجل، والمرأة، والغلام، والجارية، والشيخ الفانى، الذى لم يقرأ كتاب قط فقال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»[(٧)].

وقال أحمد أيضا: حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن رِبْعى ابن حِراش: حدثنى من لم يكذبنى ـ يعنى حذيفة ـ قال: لقى النبى ﷺ جبريل عند أحجار المراء

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٤٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٢٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائى (٢/ ١٥٣).

(٣) ورواه أحمد فى المسند (٢/ ٣٣٢، ٤٤٠) من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٤) المسند (٥/ ١٣٢) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٧٣٩) «موارد» من طريق زائدة به مثله.

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٤٤).

(٦) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٠٢).

(٧) المسند (٥/ ٣٩١، ٤٠٠).

فقال: إن أمتك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منهم على حرف فليقرأ كما علم، ولا يرجع عنه. وقال عبد الرحمن: إن فى أمتك الضعيف، فمن قرأ على حرف فلا يتحول منه إلى غيره رغبة عنه[١]. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

حديث آخر فى معناه عن سليمان بن صرد: قال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن موسى السدىّ، حدثنا شريك عن أبى إسحاق، عن سليمان بن صرد ـ يرفعه ـ قال: «أتانى ملكان، فقال أحدهما: اقرأ. قال: على كم؟ قال: على حرف. قال: زده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[٢]. ورواه النسائى فى اليوم والليلة عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن إسحاق الأزرق عن العوَّام بن حَوْشَب، عن أبى إسحاق، عن سليمان بن صرد قال: أتى أبىّ بن كعب رسول الله ﷺ برجلين اختلفا فى القراءة، فذكر الحديث[٣].

وهكذا رواه أحمد بن مَنِيع عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به، ورواه أبو عبيد عن يزيد بن هارون، عن العوام، عن أبى إسحاق، عن سليمان بن صرد، عن أبىّ أنه أتى النبى ﷺ برجلين، فذكره[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق، عن فلان العبدى ـ قال ابن جرير: ذهب عنى اسمه ـ عن سليمان بن صرد، عن أبىّ بن كعب قال: رحت إلى المسجد، فسمعت رجلا يقرأ فقلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: استقرئ هذا. قال: فقرأ، فقال: «أحسنت». قال: قلت: إنك أقرأتنى كذا وكذا! فقال: «وأنت قد أحسنت». فقلت: قد أحسنت قد أحسنت. قال: فضرب بيده على صدرى ثم قال: «اللهم أذهب عن أبىٍّ الشك». قال: ففضت عرقا، وامتلأ جوفى فرقا. قال: ثم قال: «إن الملكين أتيانى، فقال أحدهما: اقرأ القرآن على حرف، وقال الآخر: زده. قال: قلت: زدنى. فقال[٥]: اقرأه على حرفين، حتى بلغ سبعة أحرف فقال: اقرأه على سبعة أحرف»[٦].

وقد رواه أبو عبيد عن حجاج، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن شتير[٧] العبدى، عن سليمان بن صرد[٨] عن أبىّ، عن النبى ﷺ بنحو ذلك[٩]، ورواه أبو داود عن أبى داود الطيالسى، عن همام، عن قتادة، عن يحيى بن يَعْمَر، عن سليمان بن صرد، عن أبى بن كعب بنحوه[١٠].

(١) المسند (٥/ ٣٨٥، ٤٠١).

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٣٠).

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٠٦).

(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٠١).

(٥) فى ط، جـ: «قال».

(٦) تفسير الطبرى (١/ ٣٢).

(٧) فى فضائل أبى عبيد: «صقير».

(٨) فى ط، جـ: «حدد».

(٩) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(١٠) سنن أبى داود برقم (١٤٧٧).

فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبىّ بن كعب، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعى شاهد على ذلك، والله أعلم.

حديث آخر عن أبى بكرة: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: «أتانى جبريل وميكائيل، عليهما السلام، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب[١] أو آية عذاب برحمة»[٢].

وهكذا رواه ابن جرير عن أبى كُرَيب، عن زيد بن الحباب، عن حماد بن سلمة به، وزاد فى آخره كقولك: هلم وتعال[٣].

حديث آخر عن سمرة: قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». إسناد صحيح، ولم يخرجوه[٤].

حديث آخر عن أبى هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنى أبو حازم، عن أبى سلمة ـ لا أعلمه إلا عن أبى هريرة ـ أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، مراء فى القرآن كفر ـ ثلاث مرات ـ فما علمتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». ورواه النسائى عن قتيبة عن أبى ضمرة أنس بن عياض به[٥].

حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عبيد الله وهو ابن أبى يزيد ـ عن أبيه، عن أم أيوب ـ يعنى امرأة أبى أيوب الأنصارية ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت جزاك[٦]»[٧]. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبى جهيم: قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد مولى الحضرمى[٨]، وقال غيره: عن بسر بن سعيد، عن أبى جهيم الأنصارى؛ أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن، كلاهما يزعم أنه تلاقاها من رسول الله ﷺ، فمشيا جميعا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فذكر أبو جهيم أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فلا

---

(١) فى ط، جـ: «ما لم تختم آية رحمة بعذاب».

(٢) المسند (٥/ ٤١).

(٣) تفسير الطبرى (١/ ٤٢).

(٤) المسند (٥/ ١٦).

(٥) المسند (٢/ ٣٠٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٩٣).

(٦) فى ط: «أجزأه».

(٧) المسند (٦/ ٤٣٣، ٤٦٢).

(٨) فى فضائل أبى عبيد: «مولى ابن الحضرمى».

تماروا، فإن مراء فيه كفر»[(١)]. هكذا رواه أبو عبيد على الشك[(٢)]، وقد رواه الإمام أحمد على الصواب، فقال: حدثنا أبو سلمة الخزاعى، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنى يزيد بن خصيفة، أخبرنى بسر بن سعيد، حدثنى أبو جهيم؛ أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ وقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النبى ﷺ فقال: «القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا فى القرآن، فإن مراءً فى القرآن كفر»[(٣)]. وهذا إسناد صحيح ـ أيضا ـ ولم يخرجوه.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر[(٤)] بن سعيد، عن أبى قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ أن رجلا قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو ـ يعنى ابن العاص ـ: إنما هى كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ [فخرجا إلى رسول الله ﷺ][(٥)] حتى أتياه، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فأىّ ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا فى القرآن، فإن مراء فيه كفر»[(٦)]. ورواه الإمام أحمد عن أبى سلمة الخزاعى، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن بسر[(٧)] بن سعيد، عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص به نحوه، وفيه: «فإن المراء فيه كفر أو إنه الكفر به[(٨)]» . وهذا ـ أيضا ـ حديث جيد[(٩)].

حديث آخر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى حيوة بن شريح، عن عقيل بن خالد، عن سلمة بن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ أنه قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا»[(١٠)]. ثم رواه عن أبى كُرَيْب عن المحاربى، عن ضمرة بن حبيب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن مسعود من كلامه[(١١)] وهو أشبه[(١٢)] . والله أعلم.

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر فى حاشيته على الطبرى (١/ ٤٤): «قوله: على الشك، إنما للحديث طريقان: الأول: إسماعيل بن جعفر يرويه عن يزيد عن مسلم بن سعيد، وسليمان يرويه عن يزيد عن بسر ـ أخو مسلم، فأشار أبو عبيد أثناء الإسناد إلى الرواية الأخرى دون أن يذكر إسنادهما».

(٣) المسند (٤/ ١٧٠).

(٤) فى جـ: «بشر».

(٥) زيادة من جـ، ط.

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(٧) فى جـ: «بشر».

(٨) فى ط: «آية الكفر».

(٩) المسند (٤/ ٢٠٤).

(١٠) تفسير الطبرى (١/ ٦٨).

(١١) تفسير الطبرى (١/ ٦٩).

(١٢) قال الشيخ أحمد شاكر: «وهو الصحيح، حيث صرح بذلك الطبرى بقوله: وروى عن ابن مسعود من قبله، أما الإسناد السابق فقد قال ابن عبد البر: حديث لا يثبت؛ لأنه من رواية أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود، ولم يلق ابن مسعود».

فصل

قال أبو عبيد: قد تواترت[١] هذه الأحاديث كلها عن الأحرف السبعة إلا ما حدثنى عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبى ﷺ قال: «نزل القرآن على ثلاثة أحرف»[٢].

قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وهذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة فى جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة والثانى بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض، وذلك بين فى أحاديث تترى، قال: وقد روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن[٣].

قال أبو عبيد: والعجز هم بنو أسعد[٤] بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف هم عليا[٥] هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعنى دارم. ولهذا قال عمر: لا يملى فى مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف[٦].

قال ابن جرير: واللغتان الأخريان: قريش وخزاعة رواه قتادة عن ابن عباس، ولكن لم يلقه[٧].

قال أبو عبيد: وحدثنا هُشَيْم عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس؛ أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعنى: أنه كان يستشهد به على التفسير[٨]. حدثنا هُشَيْم عن أبى بشر، عن سعيد أو مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، قال: ما جمع وأنشد:

قد اتسقن لو يجدن سائقا[٩]

حدثنا هُشَيْم، أنبأنا[١٠] حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، قال: الأرض، قال: وقال ابن عباس: قال أمية بن أبى الصلت:

عندهم لحم بحرٍ ولحم ساهرة[١١]

---

(١) فى جـ: «تواردت».

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٠٣) ورواه من طريق البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ٣٨٥).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٠٤).

(٤) فى ط: «سعد».

(٥) فى ط: «علياء».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٠٤).

(٧) تفسير الطبرى (١/ ٦٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٠٥).

(٩) فضائل القرآن (ص ٢٠٦).

(١٠) فى ط، جـ: «عن».

(١١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦)، وكتب بين قوسين:

وفيها لحم ساهر وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كنت لا أدرى ما ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١]، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها[١]. إسناد جيد أيضا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى، رحمه الله، بعد ما أورد طرفا مما تقدم: وصح وثبت أن الذى نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجمع[٢]، إذا كان معلوما أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه ثم قال: وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب وترهيب، وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة؟ قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التى تقدم ذكرها، هو ما زعمت أنهم قالوه فى الأحرف السبعة، التى نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفا، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على[٣] سبعة أوجه، والذى قالوا من ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذى قالوا من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة، كما تقدم. يعنى كما تقدم فى رواية عن أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود: أن القرآن نزل من سبعة أبواب الجنة[٤].

قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هى المعانى التى فيها من الأمر والنهى، والترغيب والترهيب، والقصص والمثل، التى إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهى، استوجب بها الجنة.

ثم بسط القول فى هذا بما حاصله: أن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف، ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، اختلاف الناس فى القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم ـ جمعهم على حرف واحد، وهو هذا المصحف الإمام، قال: واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة الأحرف الستة التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها وعن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها. إلى أن قال: فإن قال من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة اقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيرين. إلى أن قال: فأما ما كان من اختلاف القراءة فى رفع حرف ونصبه وجره وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦).
(٢) فى ط: «الجميع».
(٣) فى ط، جـ: «من».
(٤) تفسير الطبرى (١/ ٤٧).

الصورة فى معنى قول النبى ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» بعزل؛ لأن المراء فى مثل هذا ليس بكفر، فى قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب ﷺ بالمراء فى الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم[١].

الحديث الثانى: قال البخارى، رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرنى عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه[٢] أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره فى الصلاة، فتبصرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التى أقرأنى، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»[٣].

وقد رواه الإمام أحمد والبخارى ـ أيضا ـ ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى من طرق عن الزهرى[٤]، ورواه الإمام أحمد ـ أيضا ـ عن ابن مهدى، عن مالك، عن الزهرى، عن عروة، عن عبد الرحمن بن عبدٍ، عن عمر، فذكر الحديث بنحوه[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب بن ثابت، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن أبيه، عن جده قال: قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير علىّ قال: فاجتمعا عند النبى ﷺ، فقرأ الرجل على النبى ﷺ فقال له: «قد أحسنت». قال: فكأن عمر وجد من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم يجعل عذاب مغفرة أو مغفرة عذابا»[٦].

وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبى ثابت، لا نعرف أحداً جرحه.

وقد اختلف العلماء فى معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى المالكى فى مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء فى المراء بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستى، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٤٩).

(٢) فى ط، جـ: «أخبراه».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٢).

(٤) المسند (١/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٢٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٥) وسنن النسائى (٢/ ١٥٠) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٣).

(٥) المسند (١/ ٤٠).

(٦) المسند (٤/ ٣٠)

قلت: ثم سردها القرطبى، وحاصلها ما أنا مورده ملخصا:

فالأول ـ وهو قول أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوى ـ: أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم. وقال الطحاوى: وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب واسرع وعجل.

وروى عن ورقاء عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبىّ بن كعب: أنه كان يقرأ: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ**﴾ [الحديد: ١٣]: «للذين آمنوا أمهلونا» «للذين آمنوا أخرونا» «للذين آمنوا ارقبونا»، وكان يقرأ: ﴿**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٢٠]: «مروا فيه» «سعوا فيه». قال الطحاوى وغيره: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقرأه رسول الله ﷺ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ وقد ادّعى الطحاوى والقاضى الباقلانى والشيخ أبو عمرو بن عبد البر أن ذلك كان رخصة فى أول الأمر، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة.

قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذى جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم فى القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضاً، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العرضة الأخيرة التى عارض بها جبريل رسول الله ﷺ فى آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يتعاطا الرخصة التى كانت لهم فيها سعة، ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تتابعوا فيها وأكثروا منها، قال: فلو أنا أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك ينهى عن المتعة فى أشهر الحج لئلا ينقطع زيارة البيت فى غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسى يفتى بالتمتع فترك فتياه اتباعا لأمير المؤمنين وسمعا وطاعة لأئمة المهديين.

القول الثانى: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أن جميعه يقرأ على سبعة أحرف، ولكن بعضه على حرف وبعضه على حرف آخر. قال الخطابى: وقد يقرأ بعضه بالسبع لغات كما فى قوله: ﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾ [المائدة: ٦٠] و﴿**يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ**﴾ [يوسف: ١٢]. قال القرطبى: ذهب إلى هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطية. قال أبو عبيد: وبعض اللغات أسعدُ به من بعض، وقال القاضى الباقلانى: ومعنى قول عثمان: إنه نزل بلسان قريش، أى: معظمه، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى: ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [يوسف: ٢]، ولم يقل: قرشيا. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولا واحدا، يعنى حجازها ويمنها، وكذلك قال الشيخ أبو عمر بن

عبدالبر، قال: لأن غير لغة قريش موجودة فى صحيح القراءات بتحقيق الهمزات، فإن قريشا لا تهمز. وقال ابن عطية: قال ابن عباس: ما كنت أدرى ما معنى: ﴿ **فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [فاطر: ١]، حتى سمعت أعربيا يقول لبئر ابتدأ حفرها: أنا فطرتها.

القول الثالث: أن لغات القرآن السبع منحصرة فى مضر على اختلاف قبائلها خاصة؛ لقول عثمان: إن القرآن نزل بلغة[١] قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث فى سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع ـ وحكاه الباقلانى عن بعض العلماء ـ: أن وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل: ﴿ **وَيَضِيقُ صَدْرِي** ﴾ [الشعراء: ١٣] و «يضيقَ»، ومنها ما لا تتغير صورته ويختلف معناه مثل: ﴿ **فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ [سبأ: ١٩] و «باعَدَ بين أسفارنا»، وقد يكون الاختلاف فى الصورة والمعنى بالحرف مثل: ﴿ **نُنشِزُهَا** ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، و«نَنشُرُها»[٢]، أو بالكلمة مع بقاء المعنى [مثل][٣]: ﴿ **كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ** ﴾ [القارعة: ٥]، أو «كالصوف المنفوش» أو باختلاف الكلمة بالتقدم والتأخر مثل: ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ** ﴾ [ق: ١٩]، أو «سكرة الحق بالموت»، أو بالزيادة مثل «تسع وتسعون نعجة أنثى»، «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[٤]. «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور».

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معانى القرآن وهى: أمر، ونهى، ووعد، ووعيد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى حروفا، وأيضا فالإجماع أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال[٥]، ولا فى تغيير شىء من المعانى، وقد أورد القاضى الباقلانى فى هذا حديثاً، ثم قال: وليست هذه هى التى أجاز لهم القراء[٦] بها[٧].

فصل

قال القرطبى: قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النحاس وغيره.

قال القرطبى: وقد سوغ كل واحد من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه لأنه رآها أحسن والأولى[٨] عنده. قال: وقد أجمع المسلمون فى هذه الأمصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة فيما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا فى ذلك مصنفات واستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب[٩].

قال البخارى، رحمه الله:

---

(١) فى جـ: «بلسان». (٢) فى جـ: «ينشرها». (٣) زيادة من ط.
(٤) كذا فى جـ، ط. (٥) فى جـ: «حرام». (٦) فى جـ: «القراءة».
(٧) تفسير القرطبى (١/ ٤٢ ـ ٤٧).
(٨) فى م: «وأولى».
(٩) تفسير القرطبى (١/ ٤٦).

تأليف القرآن

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرنى يوسف ابن ماهك قال: إنى لعند عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، إذ جاءها عراقى فقال: أى الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أرينى مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلى أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شىء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنى لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السور[١]. وهكذا رواه النسائى من حديث ابن جريج به[٢]، والمراد من التأليف ههنا ترتيب سوره.

وهذا العراقى سأل أولا عن أى الكفن خير، أى: أفضل، فأخبرته عائشة، رضى الله عنها، أن هذا لا ينبغى أن يعتنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن فى هذا تكلفا لا طائل تحته، وكانوا فى ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت فى الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ![٣]. ولهذا لم تبالغ معه عائشة، رضى الله عنها، فى الكلام لئلا يظن أن ذلك أمر مهم، وإلا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سمرة وابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض، وكفنوا فيها موتاكم، فإنها أطهر وأطيب»[٤] وصححه الترمذى من الوجهين.

وفى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة[٥]. وهذا محرر فى باب الكفن من كتاب الجنائز.

ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يقرأ غير مؤلف، أى: غير مرتب السور. وكأن هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان، رضى الله عنه، إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم.

ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأى سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٩٣).

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٨٧).

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٥٣).

(٤) حديث ابن عباس فى المسند (١/ ٢٣١، ٢٤٧) وسنن أبى داود برقم (٣٨٧٨) وسنن النسائى (٨/ ١٤٩) وسنن الترمذى برقم (٩٩٤) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٧٢)، وحديث سمرة فى المسند (٥/ ٢٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨١١) وسنن النسائى (٨/ ٢٠٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٢٦٤) وصحيح مسلم برقم (٩٤١).

وهذه إن لم تكن «اقرأ» فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التى فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدريج أولا فأولا، وهذا من حكمة الله ورحمته. ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التى فيها ذكر الجنة والنار ليس البداءة بها فى أوائل المصاحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما فى المصحف، وقد نزلت عليه فى المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات فى السور فليس فى ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفى عن رسول الله ﷺ، كما تقدم تقرير ذلك؛ ولهذا لم ترخص له فى ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آى السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأى سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو أخر، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعود، وهو فى الصحيح أنه، عليه السلام، قرأ فى قيام الليل بالبقرة ثم النساء[١] ثم آل عمران[٢]. وقد حكى القرطبى عن أبى بكر بن الأنبارى فى كتاب الرد أنه قال: فمن أخرّ سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات[٣]، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان، رضى الله عنه، فإنه مرتب على هذا النحو المشهور، والظاهر أن ترتيب السور فيه منه ما هو رجع إلى رأى عثمان، وذلك ظاهر فى سؤال ابن عباس له فى ترك البسملة فى أول براءة، وذكره الأنفال من الطول، والحديث فى الترمذى وغيره بإسناد جيد وقوى. وقد ذكرنا عن على أنه كان قد عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله.

ولقد حكى القاضى الباقلانى: أن أول مصحفه كان: «اقرأ باسم ربك الأكرم» وأول مصحف ابن مسعود: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ثم البقرة، ثم النساء على ترتب مختلف، وأول مصحف أبىّ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم المائدة، ثم كذا على اختلاف شديد، ثم قال القاضى: ويحتمل أن ترتيب السور فى المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة، رضى الله عنهم ، وكذا ذكره مكى فى تفسير سورة براءة قال: فأما ترتيب الآيات والبسملة فى الأوائل فهو من النبى ﷺ.

وقال ابن وهب فى جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه، وقد أجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى ﷺ[٤].

قال أبو الحسن بن بطال: إنا نجد[٥] تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ولا يعلم أن أحداً منهم

---

(١) فى جـ: «بالنساء».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٧٢).

(٣) تفسير القرطبى (١/ ٦٠).

(٤) ذكره القرطبى فى تفسيره (١/ ٥٩، ٦٠).

(٥) فى ط، جـ: «إنما يجب».

قال: إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل[١] الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أيه قرأت قبل. وقد كان النبى ﷺ يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة، ثم يقرأ فى الركعة الأخرى بغير السورة التى تليها.

وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا[٢]. وقالا: إنما ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسةً فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.

ثم قال البخارى: حدثنا آدم، عن شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود يقول فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادى[٣]. انفرد البخارى بإخراجه والمراد منه ذكر ترتيب هذه السور فى مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: «من العتاق الأول» أى: من قديم ما نزل، وقوله: «وهن من تلادى» أى: من قديم ما قنيت وحفظت. والتالد فى لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارف حديثه وجديده، والله أعلم.

وحدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمع البراء بن عازب يقول: تعلمت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قبل أن يقدم النبى ﷺ[٤]. وهذا متفق عليه، وهو قطعة من حديث الهجرة، والمراد منه أن ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ مكية نزلت قبل الهجرة، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا عبْدَان، عن أبى حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: لقد علمت النظائر التى[٥] كان النبى ﷺ يقرأهن اثنين اثنين فى كل ركعة، فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه فقال: عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود، آخرهن من الحواميم حم الدخان وعمّ يتساءلون.

وهذا التأليف الذى عن ابن مسعود غريب مخالف لتأليف عثمان، رضى الله عنه، فإن المفصل فى مصحف عثمان، رضى الله عنه، من سورة الحجرات إلى آخره وسورة الدخان، لا تدخل فيه بوجه، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس الثقفى عن جده أوس بن حذيفة قال: كنت فى الوفد الذين أتوا النبى ﷺ فذكر حديثا فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: «طرأ على حزب من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه». قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟

---

(١) فى ط، جـ: «بعد».
(٢) فى جـ: «مقلوباً».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٤).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٥).
(٥) فى ط: «الذى».

قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم(١).

ورواه أبو داود وابن ماجة من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفى به(٢)، وهذا إسناد حسن.

فصل

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصرى ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر(٣)، والله أعلم.

وأما كتابة الأعشار على الحواشى فينسب إلى الحجاج أيضا، وقيل: بل أول من فعله المأمون، وحكى أبو عمرو الدانى عن ابن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف، وكان يحكه(٤)، وكره مجاهد ذلك أيضا.

وقال مالك: لا بأس به بالحبر، فأما بالألوان المصبغة فلا. وأكره تعداد آى السور فى أولها فى المصاحف الأمهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأسا.

وقال قتادة: بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا. وقال يحيى بن أبى كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطاً عند آخر الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم.

ورأى إبراهيم النخعى فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها وقال: قال ابن مسعود: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه. قال أبو عمرو الدانى: ثم قد أطبق المسلمون فى ذلك فى سائر الآفاق على جواز ذلك فى الأمهات وغيرها.

ثم قال البخارى، رحمه الله:

كان جبريل يعرض القرآن على النبى ﷺ

قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة، رضى الله عنها، أسر إلىّ رسول الله ﷺ: أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلى. هكذا ذكره معلقا وقد أسنده فى موضع آخر(٥).

ثم قال: حدثنا يحيى بن قزعة، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهرى، عن عبد الله بن عبيد الله،

---

(١) المسند (٤/ ٩).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٥).

(٣) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص ١٦٠).

(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ٢٤٠).

(٥) صحيح البخارى (٩/ ٤٣) «فتح».

عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون فى شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه فى كل ليلة فى شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وهذا الحديث متفق عليه[١]، وقد تقدم الكلام عليه فى أول الصحيح وما فيه من الحكم والفوائد، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا أبو بكر، عن أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: كان يعرض على النبى ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشرا فاعتكف عشرين فى العام الذى قبض.

ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجة من غير وجه عن أبى بكر ـ وهو ابن عياش ـ عن أبى حصين، واسمه عثمان بن عاصم، به[٢]. والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليبقى ما بقى، ويذهب ما نسخ توكيداً، أو استثباتاً وحفظاً؛ ولهذا عرضه فى السنة الأخيرة من عمره، عليه السلام، على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم، عليه السلام، اقتراب أجله وعثمان، رضى الله عنه، جمع المصحف الإمام على العرضة الأخيرة، وخصّ بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإيحاء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم اجتهاد الأئمة فيه فى تلاوة القرآن، كما تقدم ذكرنا لذلك.

القراء من أصحاب النبى ﷺ

حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن إبراهيم، عن مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب»، رضى الله عنهم[٣].

وقد أخرجه البخارى فى المناقب فى غير موضع، ومسلم والنسائى من حديث شعبة، عن عمرو ابن مرة به[٤].

وأخرجاه والترمذى والنسائى ـ أيضا ـ من حديث الأعمش عن أبى وائل، عن مسروق به[٥].

فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأولين عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين وكان يؤم الناس قبل مقدم النبى ﷺ فى المدينة، واثنان من الأنصار معاذ بن جبل، وأبىّ بن كعب، وهما سيدان كبيران، رضى الله عنهم أجمعين.

ثم قال: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا شقيق بن سلمة قال: خطبنا

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٨).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٨) وسنن أبى داود برقم (٢٤٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٦٩).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٩).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٠٦، ٣٧٥٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٦).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٨١٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٧).

عبد الله فقال: والله لقد أخذت من فى رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبى ﷺ أنى من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست فى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك[١].

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا بحمص، فقرأ ابن مسعود سورة يوسف فقال رجل: ما هكذا أنزلت، فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فقال: «أحسنت» ووجد منه ريح الخمر، فقال: أتجترئ أن تكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده الحد[٢].

حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: والله الذى لا إله غيره، ما أنزلت [٣] سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحدا أعلم منى تبلغه الإبل لركبت إليه[٤].

وهذا كله حق وصدق، وهو من إخبار الرجل بما يعلم عن نفسه ما قد يجهله غيره، فيجوز ذلك للحاجة، كما قال تعالى إخبارا عن يوسف لما قال لصاحب مصر: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥]، ويكفيه مدحا وثناء قول رسول الله ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة»، فبدأ به.

وقال أبو عبيد: حدثنا مصعب بن المقدام عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر عن النبى ﷺ قال: «من أحب أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه على حرف ابن أم عبد»[٥]. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى معاوية، عن الأعمش به مطولا، وفيه قصة[٦]، وأخرجه الترمذى والنسائى من حديث أبى معاوية وصححه الدارقطنى[٧]، وقد ذكرته فى مسند عمر[٨]، وفى مسند الإمام أحمد ـ أيضا ـ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ومن أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[٩]، وابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود، وكان يعرف بذلك.

ثم قال البخارى: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا همام، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبىّ بن كعب، ومعاذ بن

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٠).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٠١).
(٣) فى جـ: «ما نزلت».
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٢).
(٥) فضائل القرآن (ص٢٢٥).
(٦) المسند (١/ ٢٥، ٢٦).
(٧) سنن الترمذى برقم (١٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٢٥٦).
(٨) مسند عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ للمؤلف (ص١٧١ ـ ١٧٣) وقال: «وهذا الحديث لا يشك أنه محفوظ، وهذا الاضطراب لا يضر صحته، والله أعلم».
(٩) المسند (٢/ ٤٤٦).

جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ورواه مسلم من حديث همام[١].

ثم قال البخارى: تابعه الفضل، عن حسين بن واقد، عن ثمامة، عن أنس [٢].

حدثنا معلى بن أسد، حدثنا عبد الله بن المثنى قال: حدثنى ثابت البنانى وثمامة عن أنس بن مالك قال: مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه[٣].

فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذى لاشك فيه أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضا، ولعل مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار؛ ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار، وهم أبى بن كعب فى الرواية الأولى المتفق عليها وفى الثانية من أفراد البخارى: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وكلهم مشهورون إلا أبا زيد هذا، فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث، وقد اختلف فى اسمه فقال الواقدى: اسمه قيس بن السكن بن قيس بن زعواء بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار[٤].

وقال ابن نمير: اسمه سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية من الأوس. وقيل: هما اثنان جمعا القرآن، حكاه أبو عمر بن عبد البر، وهذا بعيد وقول الواقدى أصح لأنه خزرجى؛ لأن أنساً قال: ونحن ورثناه، وهم من الخزرج، وفى بعض ألفاظه[٥]: وكان أحد عمومتى. وقال قتادة عن أنس: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حنظلة بن أبى عامر، ومنا الذى حمته الدبُرُ عاصم بن ثابت، ومنا الذى اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت .

فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

فهذا كله يدل على صحة قول الواقدى، وقد شهد أبو زيد هذا بدرا، فيما ذكره غير واحد. وقال موسى بن عقبة عن الزهرى: قتل أبو زيد قيس بن السكن يوم جسر [٦] أبى عبيدة على رأس خمس عشرة [٧] من الهجرة، والدليل على أن [٨] من المهاجرين من جمع القرآن أن الصديق، رضى الله عنه، قدّمه رسول الله ﷺ فى مرضه [٩] إماما على المهاجرين والأنصار، مع أنه ﷺ قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله» [١٠]، فلولا أنه كان أقرؤهم لكتاب الله لما قدّمه عليهم. هذا مضمون ما قرره

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٥).
(٢) فى جـ: «أنس بن مالك».
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٤).
(٤) انظر: الإصابة (٣/ ٢٤٠).
(٥) فى ط: «الألفاظ».
(٦) فى ط: «خيبر».
(٧) فى ط: «عشرة سنة».
(٨) فى ط: «أنه».
(٩) فى جـ، ط: «زمنه».
(١٠) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث أبى مسعود الأنصارى.

الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، وهذا التقرير لا يُدفع ولاشك [١] فيه، وقد جمع الحافظ ابن السمعانى فى ذلك جزءاً، وقد بسطت تقرير ذلك فى كتاب مسند الشيخين، رضى الله عنهما. ومنهم عثمان بن عفان وقد قرأه فى ركعة ـ كما سنذكره ـ وعلى بن أبى طالب يقال: إنه جمعه على ترتيب ما أنزل، وقد قدمنا هذا. ومنهم عبد الله بن مسعود، وقد تقدم عنه أنه قال: ما من آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت[٢]؟ وفيم نزلت؟ ولو علمت أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه المطى لذهبت إليه. ومنهم سالم مولى أبى حذيفة، كان من السادات النجباء والأئمة الأتقياء وقد قتل يوم اليمامة شهيدا. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله[٣] ﷺ وترجمان القرآن، وقد تقدم عن مجاهد أنه قال: قرأت القرآن على ابن عباس مرتين، أقفه عند كل آية وأسأله عنها. ومنهم عبد الله بن عمرو، كما رواه النسائى وابن ماجة من حديث ابن جريج عن عبد الله بن أبى مُلَيْكة، عن يحيى بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «اقرأه فى شهر». وذكر تمام الحديث[٤].

ثم قال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال عمر: علىٌّ أقضانا، وأُبىّ أقرأنا، وإنا لَنَدع من لحنِ أُبىٍّ، وأُبىّ يقول: أخذته من فى رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشىء قال الله تعالى: ﴿ **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ [البقرة: ١٠٦][٥].

وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشىء يظنه صوابا وهو خطأ فى نفس الأمر؛ ولهذا قال الإمام مالك: ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا قول صاحب هذا القبر، أى: فكله مقبول، صلوات الله وسلامه عليه. ثم ذكر البخارى فضل فاتحة الكتاب وغيرها، وسنذكر فضل كل سورة عندها ليكون ذلك أنسب. ثم قال:

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

وقال الليث: حدثنى يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت[٦]، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبا منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبى ﷺ فقال: «اقرأ يا بن حضير، اقرأ يا بن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا، فرفعت رأسى وانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها قال: «أو تدرى[٧] ما ذاك؟». قال: لا، قال: «الملائكة دَنَتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبحت

---

(١) فى ط: «ولا يشك». (٢) فى ط: «أنزلت». (٣) فى ط: «الرسول».
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٦).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٥).
(٦) فى جـ، ط: «فجالت الفرس». (٧) فى ط: «وتدرى».

ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». قال ابن الهاد: وحدثنى هذا الحديث عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى عن أسيد بن الحضير[١].

هكذا أورد البخارى هذا الحديث معلقا، وفيه انقطاع فى الرواية الأولى، فإن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمى المدنى تابعى صغير لم يدرك أسيدا لأنه مات سنة عشرين، وصلى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما. ثم فيه غرابة من حيث إنه قال: وقال الليث: حدثنى يزيد بن الهاد ولم أره بسند متصل عن الليث بذلك، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى الأطراف أن يحيى بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك[٢].

وقد رواه الإمام أبو عبيد فى فضائل القرآن فقال: حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن بُكيْر، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى، عن أسيد ابن حضير، فذكر الحديث إلى آخره، ثم قال: [قال][٣] ابن الهاد: وحدثنى عبد الله بن خباب، عن أبى سعيد، عن أسيد بن حضير بهذا[٤].

وقد رواه النسائى فى فضائل القرآن، عن محمد بن عبد الله بن [عبد][٥] الحكم عن شعيب بن الليث، وعن على بن محمد بن على، عن داود بن منصور، كلاهما عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن يزيد بن عبد الله، وهو ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبى سعيد، عن أسيد، به[٦]. ورواه يحيى بن بكير، عن الليث كذلك أيضا، فجمع بين الإسنادين. ورواه فى المناقب عن أحمد بن سعيد الرباطى، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبى سعيد، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ فى مربده، الحديث. ولم يقل: عن أسيد، ولكن ظاهره أنه عنه، والله أعلم[٧].

وقال أبو عبيد: حدثنى عبد الله بن صالح، عن الليث، عن ابن شهاب، عن ابن كعب بن مالك، عن أسيد بن حضير: أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن وهو حسن الصوت، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه[٨]:

حدثنا قبيصة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البنانى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أسيد ابن حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ البارحة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠١٨).
(٢) انظر: تحفة الأشراف للمزى (١/ ٧٢).
(٣) زيادة من ط.
(٤) فضائل القرآن (ص ٢٦).
(٥) زيادة من ط.
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٧٤).
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٢٤٤).
(٨) فضائل القرآن (ص ٢٧).

وجبة من خلفي، حتى ظننت أن فرسي تطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» [مرتين][١] قال: فالتفت إلى أمثال المصابيح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك». فقال: والله ما استطعت أن أمضي فقال: «تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب»[٢].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق سمع البراء يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأى دابته تركض، أو قال: فرسه يركض، فنظر فإذا مثل الضبابة أو مثل الغمامة، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت على القرآن»[٣]. وقد أخرجه صاحبا الصحيح من حديث شعبة[٤]. والظاهر أن هذا هو أسيد بن الحضير، رضي الله عنه، فهذا ما يتعلق بصناعة الإسناد، وهذا من أغرب تعليقات البخاري، رحمه الله، ثم سياق ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وقد اتفق نحو هذا الذي وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شماس كما قال أبو عبيد:

حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد[٥]، أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح؟ قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة[٦].

وفي الحديث المشهور الصحيح: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحَفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم عن أبي هريرة[٧].

ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء في بعض التفاسير: أن الملائكة تشهده. وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[٨].

---

(١) زيادة من ط.

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٢٧).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٧١٤).

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥).

(٥) في ط، م: «يزيد».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٧).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٨) صحيح البخاري برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

من قال: لم يترك النبى ﷺ إلا ما بين الدفتين

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبى ﷺ من شىء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين.

تفرد به البخارى[(١)]، ومعناه: أنه، عليه السلام، ما ترك مالا ولا شيئا يورث عنه، كما قال عمرو ابن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا[(٢)]. وفى حديث أبى الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[(٣)]. ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين يعنى: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة له، فهى تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، فالأنبياء، عليهم السلام، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، إنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»[(٤)]، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، لما سئل عن ميراث النبى ﷺ، فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه، عليه السلام، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلى والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقول ـ أيضا ـ عنه عليه السلام، رضى الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

حدثنا هُدْبة بن خالد أبو خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، حدثنا أنس بن مالك، عن أبى موسى، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ: «مثل الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذى لا يقرأ القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»[(٥)]. وهكذا رواه فى مواضع أخر مع بقية الجماعة من طرق عن قتادة به[(٦)].

ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجودا وعدما، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر. ثم قال: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنى عبد الله بن دينار، قال: سمعت ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «إنما أجلكم فى أجل من خلا

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠١٩).

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣٩، ٤٤٦١).

(٣) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٦٤١) وابن ماجة فى السنن برقم (٢٢٣) وابن حبان فى صحيحه برقم (٨٠) «موارد».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٩٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٥٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٠).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٤٢٧، ٥٠٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٥) وسنن النسائى (٨/ ١٢٤، ١٢٥) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٤).

من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا، فقال: من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود فقال: من يعمل لى من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاءً! قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلى أوتيه من شئت»[(١)].

تفرد به من هذا الوجه، ومناسبته للترجمة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلَتْ الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفى المسند والسنن عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»[(٢)]. وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذى شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمنا عليه، وناسخا له، وخاتما له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثمّ إلى أن بعث محمد ﷺ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بآخر النهار، وأعطى الله المتقدمين قيراطا قيراطا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفى ما أعطى أولئك، فقالوا: أى ربنا، ما لنا أكثر عملا وأقل أجرا؟ فقال: هل ظلمتكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أى: الزائد على ما أعطيتكم أؤتيه من أشاء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

الوصايا بكتاب الله

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا مالك بن مِغْول، حدثنا طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبد الله ابن أبى أوفى: أوصى النبى ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله، عز وجل[(٣)].

وقد رواه فى مواضع أخر مع بقية الجماعة، إلا أبا داود من طرق عن مالك بن مغول به[(٤)]، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين الدفتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية فى أموالهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأما هو ﷺ فلم يترك شيئا يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٢١).
(٢) المسند (٥/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٧، ٤٢٨٨) وقال الترمذى: «حديث حسن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٢).
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٠، ٤٤٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٣٤) وسنن الترمذى برقم (٢١١٩) وسنن النسائى (٦/ ٢٤٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٦٩٦).

بعده، فلم يحتج إلى وصية فى ذلك ولم يوصِ إلى خليفة يكون بعده على التنصيص؛ لأن الأمر كان ظاهرا من إشارته وإيمائه إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبى بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»(١)، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغنَّ بالقرآن وقول الله تعالى:

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشىء، ما أذن لنبى أن يتغنى بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به فرد من هذا الوجه. ثم رواه عن على بن عبد الله بن المدينى، عن سفيان بن عيينة، عن الزهرى به(٢). قال سفيان: تفسيره: يستغنى به، وقد أخرجه مسلم والنسائى من حديث سفيان بن عيينة(٣)، ومعناه: أن الله ما استمع لشىء كاستماعه لقراءة نبى يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع فى قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية فى ذلك.

وهو، سبحانه وتعالى، يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة، رضى الله عنها: سبحان الله الذى وسع سمعه الأصوات(٤). ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم من فسر الأذن ههنا بالأمر، والأول أولى لقوله: «ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى أن يتغنى بالقرآن» أى: يجهر به، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ. وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٥] أى: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع؛ ولهذا جاء فى حديث رواه ابن ماجة بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد أذنا إلى الرجل(٥) الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به](٦) من صاحب القينة إلى قينته»(٧).

وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغنى: يستغنى به، فإن أراد: أنه يستغنى عن الدنيا، وهو الظاهر من كلامه الذى تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره، فخلاف الظاهر من مراد الحديث؛ لأنه قد فسره بعض رواته بالجهر، وهو تحسين القراءة والتحزين بها(٨).

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢١٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٨٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٣)، (٥٠٢٤).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٩٢) وسنن النسائى (٢/ ١٨٠).
(٤) رواه النسائى فى السنن (٦/ ١٦٨) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣٨٥) معلقاً.
(٥) فى ط، جـ: «أذنا الرجل». (٦) زيادة من ابن ماجه.
(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٤٠).
(٨) نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٧٠) عن ابن الجوزى أربعة أقوال فى معنى يتغنى: تحسين الصوت، الاستغناء، التحزن كما قال الشافعى، التشاغل به. قال: وحكى ابن الأنبارى قولاً خامساً وهو التلذذ والاستحلاء.

قال حرملة: سمعت ابن عيينة يقول: معناه: يستغنى به، فقال لى الشافعى: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغانى به، وإنما هو يتحزن ويترنم به، ثم قال حرملة: وسمعت ابن وهب يقول: يترنم به، وهكذا نقل المزنى والربيع عن الشافعى، رحمه الله.

وعلى هذا فتصدير البخارى الباب بقوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٥١]، فيه نظر؛ لأن هذه الآية الكريمة ذكرت ردا على الذين سألوا عن آيات تدل على صدقه، حيث قال: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ الآية [العنكبوت: ٥٠، ٥١]. ومعنى ذلك: أو لم يكفهم آية دالة على صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت رجل أمى ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٨] أى: وقد جئت فيه بخبر الأولين والآخرين فأين هذا من التغنى بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عداه من أمور الدنيا، فعلى كل تقدير تصدير الباب بهذه الآية الكريمة فيه نظر[١].

فصل

فى إيراد أحاديث فى معنى الباب وذكر أحكام التلاوة بالأصوات

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن قباث بن رزين، عن على بن رباح اللخمى، عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن فى المسجد نتدارس القرآن، فقال: «تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحسبت أنه قال: «وتغنوا به، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تفلتا من المخاض من العقل»[٢].

وحدثنا عبد الله بن صالح، عن موسى بن على، عن أبيه، عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ مثل ذلك إلا أنه قال: «واقتنوه وتغنوا به»[٣] ولم يشك، وهكذا رواه أحمد والنسائى فى فضائل

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/٦٨): «أشار بهذه الآية إلى ترجيح تفسير ابن عيينة: يتغنى: يستغنى، كما سيأتى فى هذا الباب عنه، وأخرجه أبو داود عن ابن عيينة ووكيع جميعاً، وقد بين إسحاق بن راهويه عن ابن عيينة أنه استغناء خاص، وكذا قال أحمد عن وكيع: يستغنى به عن أخبار الأمم الماضية، وقد أخرج الطبرى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب وقد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبى ﷺ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزل: ﴿**أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم**﴾. وقد خفى وجه مناسبة تلاوة هذه الآية على كثير من الناس كابن كثير، فنفى أن يكون لذكرها وجه، على أن ابن بطال مع تقدمه قد أشار إلى المناسبة فقال: قال أهل التأويل فى هذه الآية، فذكر أثر يحيى بن جعدة مختصراً قال: فالمراد بالآية: الاستغناء عن أخبار الأمم الماضية، وليس المراد الاستغناء الذى هو ضد الفقر، قال: وإتباع البخارى الترجمة بالآية يدل على أنه يذهب إلى ذلك. وقال ابن التين: يفهم من الترجمة: أن المراد بالتغنى الاستغناء؛ لكونه أتبعه الآية التى تضمن الإنكار على من لم يستغن بالقرآن على غيره، فحمله على الاكتفاء به وعدم الافتقار إلى غيره، وحمله على ضد الفقر من جملة ذلك».

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٩).

القرآن، من حديث موسى بن على، عن أبيه به[١]، ومن حديث عبد الله بن المبارك، عن قباث بن رزين، عن على بن رباح، عن عقبة، وفى بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فسلم علينا، وذكر الحديث. ففيه دلالة على السلام على القارئ.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا أبو اليمان، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم، عن المهاصر بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وتغنوه واقتنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون»[٢] وهذا مرسل.

ثم قال أبو عبيد: قوله: «تغنوه»: يعنى: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال منه فقرا. وقوله: «واقتنوه»، يقول: اقتنوه، كما تقتنون الأموال اجعلوه مالكم.

وقال أبو عبيد: حدثنى هشام بن عمار، عن يحيى بن حمزة، عن الأوزاعى، حدثنى إسماعيل ابن عبيد الله بن أبى المهاجر، عن فضالة بن عبيد، عن النبى ﷺ قال: «لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[٣].

قال أبو عبيد: هذا الحديث بعضهم يزيد فى إسناده يقول: عن إسماعيل بن عبيد الله عن مولى فضالة عن فضالة، وهكذا رواه ابن ماجة، عن راشد بن سعيد بن أبى راشد، عن الوليد، عن الأوزاعى عن إسماعيل بن عبيد الله عن ميسرة مولى فضالة عن فضالة عن النبى ﷺ: «لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به][٤] من صاحب القينة إلى قينته»[٥]. قال أبو عبيد: يعنى: الاستماع. وقوله فى الحديث الآخر: «ما أذن الله لشىء» أى: ما استمع.

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، عن ابن أبى مُلَيْكة، حدثنا القاسم بن محمد، حدثنا السائب قال: قال لى سعد: يا بن أخى، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غن به، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غنوا بالقرآن، ليس منا من لم يغن بالقرآن، وابكوا، فإن لم تقدروا على البكاء فتباكوا»[٦].

وقد روى أبو داود من حديث الليث وعمرو بن دينار كلاهما عن عبد الله بن أبى مُلَيْكة، عن عبيد الله بن أبى نَهِيك، عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٧].

ورواه ابن ماجة من حديث ابن أبى مليكة، عن عبد الرحمن بن السائب، عن سعد بن أبى

---

(١) المسند (٤/١٤٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٤).

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٧٧، ٧٨).

(٤) زيادة من ابن ماجه.

(٥) سنن ابن ماجه برقم (١٣٤٠).

(٦) وفى إسناده محمد بن حميد الرازى وهو متروك.

(٧) سنن أبى داود برقم (١٤٦٩، ١٤٧٠).

وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحرف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا»(١).

وقال أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا سعيد(٢) بن حسان المخزومى، عن ابن أبى مُلَيْكة، عن عبد الله بن أبى نهيك، عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(٣). [قال وكيع: يعنى: يستغنى به](٤).

ورواه (٥) أيضا عن الحجاج وأبى النضر، كلاهما عن الليث بن سعد، وعن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، كلاهما عن عبد الله بن أبى مليكة به(٦). وفى هذا الحديث كلام طويل يتعلق بسنده ليس هذا موضعه، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا عبد الجبار بن الورد، سمعت ابن أبى مُلَيْكة، يقول عبيد الله بن أبى يزيد: مرّ بنا أبو لُبَابة فاتَّبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه، فإذا رجل رَثُّ البيت، رَثُّ الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجار كسبة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبى مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت قال: يحسنه ما استطاع. تفرد به أبو داود(٧).

فقد فهم من هذا أن السلف، رضى الله عنهم، إنما فهموا من التغنى بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله، ويدل على ذلك ـ أيضا ـ ما رواه أبو داود حيث قال: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»(٨).

وأخرجه النسائى وابن ماجة من حديث شعبة، عن طلحة وهو ابن مصرف به(٩).

وأخرجه النسائى من طرق أخر عن طلحة(١٠)، وهذا إسناد جيد.

وقد وثق النسائى، وابن حبان عبد الرحمن بن عوسجة هذا، ونقل الأزدى عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: سألت عنه بالمدينة، فلم أرهم يحمدونه(١١).

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٤٣٤): «هذا إسناد فيه أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع، ضعيف متروك».

(٢) فى ط، م: «سفيان».

(٣) المسند (٥/ ١٧٢).

(٤) زيادة من جـ، ط.

(٥) فى ط: «ورواه أحمد».

(٦) المسند (١/ ١٧٥، ١٧٩).

(٧) سنن أبى داود برقم (١٤٧١).

(٨) سنن أبى داود برقم (١٤٦٨).

(٩) سنن النسائى (٢/ ١٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٢).

(١٠) سنن النسائى (٢/ ١٧٩).

(١١) وانظر: تهذيب الكمال للمزى (١٧/ ٣٢٢) وابن حجر ـ رحمه الله ـ اختار توثيقه فى التقريب.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة قال: نهانى أيوب أن أحدث بهذا الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم». قال أبو عبيد: وإنما كره أيوب فيما نرى، أن يتأول الناس بهذا الحديث الرخصة من رسول الله ﷺ فى الألحان المبتدعة، فلهذا أنهاه أن يحدث به[(١)].

قلت: ثم إن شعبة روى الحديث متوكلا على الله، كما رُوى له، ولو ترك كل حديث يتأول مبطل لترك من السنة شيء كثير، بل قد تطرقوا إلى تأويل آيات كثيرة وحملوها على غير محاملها الشرعية المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به، كما رواه الحافظ الكبير بَقِىّ بن مَخْلَد، حيث قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، حدثنا طلحة بن يحيى ابن طلحة، عن أبى بردة بن أبى موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتى لحبرتها لك تحبيرا. ورواه مسلم من حديث طلحة به وزاد: «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»[(٢)]. وسيأتى هذا فى بابه حيث يذكره البخارى، والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تستمع لحبّرته لك تحبيرا، فدل على جواز تعاطى ذلك وتكلفه، وقد كان أبو موسى كما قال، عليه السلام، قد أعطى صوتا حسنا كما سنذكره إن شاء الله، مع خشية تامة ورقة أهل اليمن الموصوفة، فدل على أن هذا من الأمور الشرعية.

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة قال: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده[(٣)].

وقال أبو عبيد: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا سليمان التيمى، أنبئت عنه، حدثنا أبو عثمان النهدى قال: كان أبو موسى يصلى بنا، فلو قلت: إنى لم أسمع صوت صنجٍ قط، ولا بربطٍ قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته[(٤)].

وقال ابن ماجة: حدثنا العباس بن عبد الرحمن[(٥)] الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنى حنظلة بن أبى سفيان أنه سمع عبد الرحمن بن سابط الجمحى يحدث عن عائشة قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أين كنت؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إلىّ فقال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا»[(٦)]. إسناد جيد.

وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما

---

(١) فضائل القرآن (ص ٨١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).

(٣) فضائل القرآن (ص ٧٩).

(٤) فضائل القرآن (ص ٧٩). وقال الحافظ ابن حجر: «سنده صحيح».

(٥) فى جـ: «عثمان».

(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٨).

سمعت أحدا أحسن صوتاً أو قال: قراءة منه. وفى بعض ألفاظه: فلما سمعته قرأ: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥]، خلت أن فؤادى قد انصدع[١]. وكان جبير لما سمع هذا بعدُ مشركا على دين قومه، وإنما قدم فى فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تؤثر قراءته فى المشرك المصر على الكفر! وكان هذا سبب هدايته ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب، كما قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث، عن طاوس قال: أحسن الناس صوتا بالقرآن أخشاهم لله[٢].

حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه، وعن الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أحسن صوتاً بالقرآن؟ فقال: «الذى إذا سمعته رأيته يخشى الله»[٣].

وقد روى هذا متصلا من وجه آخر، فقال ابن ماجة: حدثنا بشر بن معاذ الضرير، حدثنا عبد الله بن جعفر المدينى، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن أبى الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعتوه يقرأ حسبتموه يخشى الله»[٤]، ولكن عبد الله بن جعفر هذا، وهو والد على بن المدينى، وشيخه ضعيفان، والله أعلم.

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائى، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك فى أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بَقِيَّة بن الوليد، عن حصين بن مالك الفزارى: سمعت شيخاً يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين، ويجىء قوم من بعدى يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»[٥].

حدثنا يزيد، عن شريك، عن أبى اليقظان عثمان بن عمير، عن زاذان أبى عمر، عن عليم قال: كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبى ﷺ. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفارى، فرأى الناس يخرجون فى الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يفرون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذنى، فقالوا: تتمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت»؟ فقال: إنى أبادر خصالا سمعت رسول الله ﷺ يتخوفهن على أمته: «بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٢، ٣) فضائل القرآن (ص ٨٠).

(٤) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٩).

(٥) فضائل القرآن (ص ٨٠) وقال الذهبى فى ترجمة حصين بن مالك فى الميزان (١/ ٥٥٣): «تفرد عنه بقية، ليس بمعتمد، والخبر منكر».

[به][١] غناءً» وذكر خصلتين أخريين[٢].

وحدثنا إبراهيم بن يعقوب، عن ليث بن أبى سليم، عن عثمان بن عمير، عن زاذان، عن عابس الغفارى، عن النبى ﷺ مثل ذلك أو نحوه. وحدثنا يعقوب بن إبراهيم، عن الأعمش، عن رجل، عن أنس بن مالك: أنه سمع رجلا يقرأ القرآن بهذه الألحان التى أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه[٣].

هذه طرق حسنة فى باب الترهيب، وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التى يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة، رحمهم الله، على النهى عنه، فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش الذى يزيد بسببه حرفا أو ينقص حرفا، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا عبيد الله بن الأخنس، عن ابن أبى مُلَيْكة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن»[٤].

ثم قال: وإنما ذكرناه لأنهم اختلفوا على ابن أبى مليكة فيه، فرواه ابن عبد الجبار بن الورد عنه عن أبى لبابة، ورواه عمرو بن دينار والليث عنه عن أبى نَهِيك عن سعد، ورواه عَسْل بن سفيان عنه، عن عائشة[٥]، ورواه نافع مولى ابن عمر عنه، عن ابن الزبير[٦].

اغتباط صاحب القرآن

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، حدثنى سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا فى[٧] اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار»[٨].

انفرد به البخارى من هذا الوجه، واتفقا على إخراجه من رواية سفيان عن الزهرى[٩]، ثم قال البخارى: حدثنا على بن إبراهيم، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن سليمان: سمعت ذَكْوان، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار»، فسمعه جار له فقال: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، «ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق»، فقال رجل: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل[١٠].

ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن فى غبطة وهو حسن الحال، فينبغى أن يكون شديد

---

(١) زيادة من ط.

(٢) فضائل القرآن (ص ٨١) والخصلتين هما: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط.

(٣) فضائل القرآن (ص ٨١).

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٣٢) «كشف الأستار».

(٥) رواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٣٤) «كشف الأستار» والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٧٠) وقال الحاكم: «إسناده شاذ».

(٦) رواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٣٥) «كشف الأستار».

(٧) فى جـ، ط: «على».

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٥).

(٩) صحيح البخارى برقم (٧٥٢٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٥).

(١٠) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٦).

الاغتباط بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، يقال: غبطه يغبِطه غبطاً: إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمنى زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا وهذا مذموم شرعاً، مهلكٌ، وهو أول معاصى إبليس حين حسد آدم، عليه السلام، على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعى الممدوح هو تمنى مثل حال ذلك الذى هو على حالة سارة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لا حسد إلا فى اثنتين»، فذكر النعمة القاصرة وهى تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهى إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾** [فاطر: ٢٩]، وقد روى نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت فى كتاب أبى بخط يده: كتب إلىّ أبو توبة الربيع بن نافع، فكان فى كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن يزيد بن الأخنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا فى اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطانى مثل ما أعطى فلانا فأقوم(١) كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطانى مثل ما أعطى فلانا فأتصدق به»(٢). وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبادة بن مسلم، حدثنى يونس بن خباب، عن أبى سعيد البخترى الطائى، عن أبى كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثا فاحفظوه، فأما الثلاث التى أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذى أحدثكم حديثا فاحفظوه، فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه»، قال: «فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو كان لى مال عملت بعمل فلان» قال: «فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو كان لى مال لفعلت بعمل فلان». قال: «هى نيته فوزرهما فيه سواء»(٣).

وقال أيضا: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبى الجعد، عن أبى كبشة الأنمارى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما فى الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فيه ينفقه فى غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول: لو كان لى مثل

---

(١) فى ط، م: «فيقوم به».
(٢) المسند (٤/١٠٥).
(٣) المسند (٤/٢٣١).

هذا غملت فيه مثل الذى يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما فى الوزر سواء». إسناد صحيح[١].

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حدثنا حجاج بن مِنْهال، حدثنا شعبة، أخبرنى علقمة بن مَرْثَد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبى ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأقرأ أبو عبد الرحمن فى إمرة عثمان، رضى الله عنه، حتى كان الحجاج قال:

وذاك الذى أقعدنى مقعدى هذا[٢].

وقد أخرج الجماعة هذا الحديث سوى مسلم من رواية شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن وهو عبد الله بن حبيب السلمى ـ رحمه الله[٣].

وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عَلْقَمة بن مرثد، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن عثمان ابن عفان قال: قال النبى ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»[٤].

وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة من طرقٍ عن سفيان، عن علقمة، عن أبى عبدالرحمن، من غير ذكر سعد بن عبيدة[٥]، كما رواه شعبةً ولم يختلف عليه فيه، وهذا المقام مما حكم لسفيان الثورى فيه على شعبة، وخطأ بُنْدَار يحيى بن سعيد فى روايته ذلك عن سفيان، عن علقمة، عن سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن وقال: رواه الجماعة من أصحاب سفيان عنه، بإسقاط سعد بن عبيدة، ورواية سفيان أصحُ فى هذا المقام المتعلق بصناعة الإسناد، وفى ذكره طول لولا الملالة لذكرناه، وفيما ذكر كفاية وإرشاد إلى ما ترك، والله أعلم.

والغرض أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمل فى أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدى، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، فى أصح قولى[٦] المفسرين فى هذا، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن [٧] الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل فى نفسه وأن يسعى فى تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال [الله][٨] تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن

(١) المسند (٤/ ٢٣٠).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٧).

(٣) سنن أبى داود برقم (١٤٥٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣١١).

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٨).

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٢).

(٦) فى جـ: «قول». (٧) فى ط، جـ: «شأن شرار». (٨) زيادة من ط.

دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو فى نفسه صالحا، وقال قولا صالحا، فلا أحد أحسن حالا من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمى الكوفى ـ أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ـ من رغب فى هذا المقام، فقعد يعلم الناس فى[1] إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذى مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودامه. آمين.

قال[2] البخارى، رحمه الله: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا حماد عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: أتت النبى ﷺ امرأة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: « ما لى فى النساء من حاجة». فقال رجل: زوّجنيها قال: [«أعطها ثوباً»، قال: لا أجد، قال: «أعطها ولو خاتما من حديد»، فاعتل له، فقال][3] :«ما معك من القرآن». قال: كذا وكذا. فقال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن»[4].

وهذا الحديث متفق على إخراجه من طرق عديدة، والغرض منه أن الذى قصده البخارى أن هذا الرجل تعلم[5] الذى تعلمه من القرآن، وأمره النبى ﷺ أن يعلمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقا لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقاً؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصًا بذلك الرجل؟ وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «زوجتكها بما معك من القرآن»؟ أبسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نكرمك بذلك أو بعوض ما معك، وهذا أقوى، لقوله فى صحيح مسلم: «فعلمها»[6]، وهذا هو الذى أراده البخارى ههنا وتحرير باقى الخلاف مذكور فى كتاب النكاح والإجارة، والله المستعان.

القراءة عن ظهر قلب

إنما أفرد البخارى فى هذه الترجمة[7] حديث أبى حازم عن سهل بن سعد، الحديث الذى تقدم الآن، وفيه أنه، عليه السلام، قال لرجل: «فما معك من القرآن؟». قال: معى سورة كذا وكذا، لسور عددها. قال: «أتقرؤهن[8] عن ظهر قلبك؟». قال: نعم. قال: «اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن»[9].

وهذه الترجمة من البخارى، رحمه الله، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم. ولكن الذى صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر فى المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضى على الرجل يوم لا ينظر فى مصحفه، واستدلوا على فضيلة التلاوة فى المصحف بما رواه الإمام العلم[10]

---

(١) فى جـ: «من». (٢) فى جـ: «ثم قال». (٣) زيادة من جـ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٩).
(٥) فى جـ: «يعلمها». (٦) فى جـ: «فتعلمها». (٧) فى جـ: «هذا الوجه».
(٨) فى جـ: «أتقرأ».
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٠).
(١٠) فى جـ: «العالم».

أبو عبيد فى كتاب[١] فضائل القرآن حيث قال:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بقية بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سليم بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال: قال النبى ﷺ: «فضل قراءة القرآن نظرا على من يقرأه ظهرا، كفضل الفريضة على النافلة»[٢] وهذا الإسناد ضعيف[٣]، فإن معاوية بن يحيى هو الصدفى أو الأطرابلسى، وأيهما كان فهو ضعيف.

وقال الثورى عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر فى المصحف[٤].

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه[٥].

وقال حماد أيضا: عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن ابن مسعود: أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرؤوا، وفسر لهم[٦]. إسناد صحيح.

وقال حماد بن سلمة: عن حجاج بن أرطاة، عن ثوير بن أبى فاختة، عن ابن عمر قال: إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ[٧]. وقال الأعمش عن خَيْثَمة: دخلت على ابن عمر وهو يقرأ فى المصحف فقال: هذا جزئى الذى أقرأ به الليلة[٨].

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيخا يوقفه على لفظ[٩] القرآن، فأما عند العجز عمن يلقن فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ فى المصحف ـ والحالة هذه ـ فلا حرج عليه، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه، فقد قال الإمام أبو عبيد:

حدثنى هشام بن إسماعيل الدمشقى، عن محمد بن شعيب، عن الأوزاعى؛ أن رجلا صحبهم فى سفر قال: فحدثنا حديثا ما أعلمه إلا رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قرأ فحرف أو أخطأ كتبه الملك كما أنزل»[١٠].

---

(١) فى ط: «كتابه».

(٢) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٣) فى ط: «وهذا الإسناد فيه ضعف».

(٤) فضائل القرآن (ص ٤٦) وقال ابن حجر: «إسناده صحيح».

(٥) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٦) فضائل القرآن (ص ٤٧).

(٧) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٤٧)

(٩) فى ط: «ألفاظ».

(١٠) فضائل القرآن (ص ٤٧)

وحدثنا حفص بن غياث، عن الشيبانى[١]، عن بكير[٢] بن الأخنس قال: كان يقال: إذا قرأ الأعجمى والذى لا يقيم القرآن كتبه الملك كما أنزل. وقال بعض العلماء: المدار فى هذه المسألة على الخشوع فى القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر فى المصحف [٣] فهو أفضل فإن استويا فالقراءة نظرا أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر فى المصحف قال الشيخ أبو زكريا النووى[٤]، رحمه الله، فى التبيان: والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل.

تنبيه:

إن كان البخارى، رحمه الله، أراد بذكر[٥] حديث سهل للدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها فى المصحف، ففيه نظر؛ لأنها قضية عين، فيحتمل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله ﷺ منه، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقا فى حق من يحسن ومن لا يحسن، إذ لو دل هذا لكان ذكر حال رسول الله ﷺ وتلاوته عن ظهر قلب ـ لأنه أمى لا يدرى الكتابة ـ أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده.

الثانى: أن سياق الحديث إنما هو لأجل استثبات أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب؛ ليمكنه تعليمها لزوجته، وليس المراد ههنا: أن هذا أفضل من التلاوة نظرا، ولا عدمه[٦]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استذكار القرآن وتعاهده

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» هكذا رواه مسلم والنسائى من حديث مالك [به][٧]. وقال الإمام أحمد[٨]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا[٩] معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار، كمثل رجل له إبل، فإن عقلها حفظها، وإن أطلق عقالها ذهبت، فكذلك صاحب القرآن». أخرجاه، قاله[١٠] ابن الجوزى فى جامع المسانيد، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث عبد الرزاق به[١١]، وحدثنا محمد بن عرعرة، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبى وائل،

---

(١) فى جـ: «النسائى». (٢) فى جـ: «بكر».
(٣) فى ط: «المصحف أكثر». (٤) فى ط: «النواوى». (٥) فى ط: «بذكره».
(٦) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٧٨) بعد أن ذكر كلام الحافظ ابن كثير هنا: «ولا يرد على البخارى شىء مما ذكر؛ لأن المراد بقوله: باب القراءة عن ظهر قلب، مشروعيتها أو استحبابها، والحديث مطابق لما ترجم به، ولم يتعرض لكونها أفضل من القراءة نظراً، وقد صرح كثير من العلماء أن القراءة من المصحف نظراً أفضل من القراءة عن ظهر قلب».
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٠٣١) وصحيح مسلم برقم (٧٨٩) وسنن النسائى (٢/ ١٥٤).
(٨) المسند (٢/ ٣٥).
(٩) فى ط: «أخبرنا». (١٠) فى جـ: «قال».
(١١) صحيح مسلم برقم (٧٨٩).

عن عبد الله قال: قال النبى ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل نُسِىَ، واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النَّعم»[١].

تابعه بشر. هو ابن محمد السختيانى، عن ابن المبارك، عن شعبة.

وقد رواه الترمذى عن محمود بن غيلان، عن أبى داود الطيالسى، عن شعبة به[٢]، وقال: حسن صحيح. وأخرجه النسائى من رواية شعبة[٣].

وحدثنا عثمان، حدثنا جرير، عن منصور مثله. وتابعه ابن جريج عن عبدة، عن شقيق: سمعت عبد الله قال: سمعت النبى ﷺ[٤]،وهكذا أسنده مسلم من حديث ابن جريج به[٥]، ورواه النسائى فى اليوم والليلة من حديث محمد بن جحادة، عن عبدة [٦] وهو ابن أبى لُبَابة به[٧].وهكذا رواه مسلم عن عثمان وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير به[٨]، وستأتى رواية البخارى له عن أبى نعيم، عن سفيان الثورى، عن منصور به، والنسائى من رواية ابن عيينة عن منصور به، فقد رواه هؤلاء عن منصور به مرفوعا فى رواية هؤلاء كلهم [٩] ،وقد رواه النسائى عن قتيبة، عن حماد بن زيد، عن منصور، عن أبى وائل، عن عبد الله موقوفا[١٠]، وهذا غريب وفى مسند أبى يعلى[١١]، فإنما هو نَسِى بالتخفيف[١٢].

حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبى بردة، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تَفصِّيا من الإبل فى عقلها». وهكذا رواه مسلم عن أبى كريب محمد بن العلاء وعبد الله بن برادٍ [١٣] الأشعرى، كلاهما عن أبى أسامة حماد ابن أسامة به[١٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا موسى بن على:

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٢).

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٩٢٤).

(٣) سنن النسائى (٢/ ١٥٤).

(٤) صحيح البخارى (٩/ ٧٩) «فتح».

(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).

(٦) فى جـ: «عبيدة».

(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٦٠).

(٨) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).

(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٢).

(١٠) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٦٤).

(١١) مسند أبى يعلى (٩/ ٦٩).

(١٢) قال القرطبى: معنى التثقيل: أنه عوقب بوقوع النسيان عليه التفريط فى معاهدته واستذكاره. ومعنى التخفيف: أن الرجل ترك غير ملتفت إليه، وهو كقوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧] أى: تركهم فى العذاب أو تركهم من الرحمة.

(١٣) فى جـ: «بردة».

(١٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٣) وصحيح مسلم برقم (٧٩١).

سمعت أبى يقول: سمعت عقبة بن عامر يقول: [قال رسول الله ﷺ][١]: «تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه وتغنوا به، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تفلتا من المخاض فى العقل»[٢].

ومضمون هذه الأحاديث الترغيب فى كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرضه حافظه للنسيان[٣]، فإن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، فإنه قال الإمام أحمد:

حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولا لايفكه عن ذلك الغل إلا العدل، وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقى الله يوم القيامة يلقاه وهو أجذم»[٤].

هكذا رواه جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل، عن يزيد بن أبى زياد، كما رواه خالد بن عبد الله[٥]. وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء عن ابن إدريس، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ بقصة نسيان القرآن، ولم يذكر الرجل المبهم[٦].

وكذا رواه أبو بكر بن عياش، عن يزيد بن أبى زياد، وقد رواه شعبة عن يزيد فوهم فى إسناده، ورواه وَكِيع عن أصحابه، عن يزيد، عن عيسى بن فائد، عن النبى ﷺ مرسلاً. وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبادة بن الصامت فقال:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لايفكه منها إلا عدله، وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقى الله يوم القيامة أجذم»[٧].

وكذا رواه أبو عوانة، عن يزيد بن أبى زياد، ففيه اختلاف، لكن هذا فى باب الترهيب مقبول ـ والله أعلم ـ لاسيما إذا كان له شاهد من وجه آخر، كما قال أبو عبيد.

حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: حُدثت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أجور أمتى حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علىّ ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتيها رجل فنسيها». قال ابن جريج: وحُدِّثت عن سلمان الفارسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكبر ذنب توافى به أمتى يوم القيامة سورة من كتاب الله أوتيها رجل فنسيها»[٨].

---

(١) زيادة من ط، والمسند.

(٢) المسند (٤/ ١٤٦).

(٣) فى ط: «إلى النسيان».

(٤) المسند (٥/ ٢٨٥).

(٥) رواه أبو عبيد فى الفضائل (ص١٠٣) من طريق جرير، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٤٧٨) من طريق ابن فضيل.

(٦) سنن أبى داود برقم (١٤٧٤).

(٧) المسند (٥/ ٣٢٣).

(٨) فضائل القرآن (ص١٠٣).

وقد روى أبو داود والترمذى وأبو يعلى والبزار وغيرهم من حديث ابن أبى رواد، عن ابن جريج، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علىّ أجور أمتى حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علىّ ذنوب أمتى، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»(١).

قال الترمذى: غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به البخارى فاستغربه، وحكى البخارى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى أنه أنكر سماع المطلب من أنس بن مالك.

قلت: وقد رواه محمد بن يزيد الآدمى(٢)، عن ابن أبى رواد، عن ابن جريج عن الزهرى، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ به. والله أعلم.

وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾** [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦]، وهذا الذى قاله هذا ـ وإن لم يكن هو المراد جميعه ـ فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال عليه السلام: «تعاهدوا القرآن»، وفى لفظ: «استذكروا القرآن، فإنه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم».

التَّفَصِّى: التخلص يقال: تَفَصَّى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه: تفصى النوى من التمرة: إذا تخلص منها، أى: إن القرآن أشد تفلتا من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقال.

وقال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: إنى لأمقت القارئ أن أراه سمينا نسيا للقرآن(٣).

حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد العزيز بن أبى رواد قال: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله تعالى يقول: **﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾** [الشورى: ٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب(٤).

ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يُكره لرجل أن يمر عليه أربعون يوما لا يقرأ فيها القرآن، كما أنه يُكره له أن يقرأ فى أقل من ثلاثة أيام، كما سيأتى هذا، حيث يذكره البخارى بعد هذا، وكان الأليق أن يتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قوله:

القراءة على الدابة

حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، أخبرنى أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه،

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤٦١) وسنن الترمذى برقم (٢٩١٦) ومسند أبى يعلى (٧/ ٢٥٣).

(٢) فى جـ: «الأموى».

(٣) فضائل القرآن (ص١٠٤) وفيه انقطاع بين النخعى وابن مسعود.

(٤) فضائل القرآن (ص١٠٤).

قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح [١].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوى ابن ماجة من طرق، عن شعبة، عن أبى إياس، وهو معاوية بن قرة به[٢]، وهذا ـ أيضا ـ له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرا وحضرا، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارئ فى الطريق، وقد نقله ابن أبى داود عن أبى الدرداء أنه كان يقرأ فى الطريق، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن فى ذلك، وعن الإمام مالك أنه كره ذلك، كما قال ابن أبى داود: وحدثنى أبو الربيع، أخبرنا ابن وهب [قال][٣]: سألت مالكا عن الرجل يصلى فى آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقى من السورة التى كان يقرأ فيها شىء، فقال: ما أعلم القراءة تكون فى الطريق.

وقال الشعبى: تكره قراءة القرآن فى ثلاثة مواطن: فى الحمام، وفى الحشوش، وفى الرحى وهى تدور. وخالفه فى القراءة فى الحمام كثير من السلف: أنها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعى وإبراهيم النخعى وغيرهم، وروى ابن أبى داود عن على بن أبى طالب: أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبى وائل شقيق بن سلمة، والشعبى والحسن البصرى ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعى، ومحكىّ عن أبى حنيفة، رحمهم الله، ، أن القراءة فى الحمام تكره وأما القراءة فى الحشوش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحريم ذلك صيانة لشرف القرآن لكان مذهبا، وأما القراءة فى بيت الرحى وهى تدور فلئلا يعلو غير القرآن عليه، والحق يعلو ولا يُعلى، والله أعلم.

تعليم الصبيان القرآن

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير قال: إن الذى تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس: توفى رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم[٤].

حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمعت المحكم فى عهد النبى ﷺ فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصل»[٥].

انفرد بإخراجه البخارى، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، كما تقدم ذلك، وعمره آنذاك عشر سنين. وقد روى البخارى أنه قال: توفى رسول الله ﷺ وأنا مختون [٦]. وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم، فيحتمل أنه تجوز فى هذه الرواية بذكر العشر، وترك ما زاد عليها من

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٤).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٧) والشمائل للترمذى برقم (٣٠٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٦٢).

(٣) زيادة من ط.

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٦).

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٢٩٩).

الكسر، والله أعلم.

وعلى كل تقدير، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن فى الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبا أو واجبا؛ لأن الصبى إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلى به، وحفظه فى الصغر أولى من حفظه كبيرا، وأشد علوقا بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبى فى ابتداء عمره قليلا للعب، ثم توفر همته على القراءة، لئلا يلزم أولا بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلا قليلا، بحسب همته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر ابن الخطاب، رضى الله عنه، أن يلقن خمس آيات خمس آيات، رويناه عنه بسند جيد[١].

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى:
﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى. إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى:٦، ٧]

حدثنا الربيع بن يحيى، حدثنا زائدة، حدثنا هشام، عن عروة، عن عائشة قالت: لقد سمع النبى ﷺ رجلا يقرأ فى المسجد فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرنى كذا وكذا من سورة كذا».

وحدثنى محمد بن عبيد بن ميمون، حدثنا عيسى بن يونس، عن هشام وقال: أسقطتهن من سورة كذا وكذا. انفرد به أيضا. تابعه على بن مسهر وعبدة عن هشام[٢].

وقد أسندهما البخارى فى موضع آخر، ومسلم معه فى عبدة[٣].

وحدثنا أحمد بن أبى رجاء، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ فى سورة بالليل فقال: «يرحمه الله، فقد[٤] أذكرنى آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا». ورواه مسلم من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة[٥].

الحديث الثانى: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن أبى وائل، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّى» ورواه مسلم والنسائى، من حديث منصور به[٦]. وقد تقدم. وفى مسند أبى يعلى: «فإنما هو نُسِىَ»، بالتخفيف، هذا لفظه.

وفى هذا الحديث ـ والذى قبله ـ دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقصٍ له إذا كان

---

(١) مسند الفاروق للمؤلف (١/ ١٧٠).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٧).

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).

(٤) فى جـ، ط: «قد».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٨) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٢).

بعد الاجتهاد والحرص، وفى حديث ابن مسعود أدب فى التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسى والتغافل والتهاون المفضى إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «بل هو نُسِّىَ»، مبنى لما لم يسم فاعله، وأدب ـ أيضا ـ فى ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد فى قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وهو، والله أعلم، من باب المجاز السائغ بذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنبا، كما تقدم عن الضحاك بن مزاحم، فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب السيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر لشىء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

من لم ير بأساً أن يقول:
سورة البقرة، وسورة كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غياث[١]، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنى إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما فى ليلة كفتاه»[٢].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة من حديث عبد الرحمن بن يزيد وصاحبا الصحيح والنسائى وابن ماجة من حديث علقمة، كلاهما عن أبى مسعود عقبة بن عامر الأنصارى البكرى[٣].

الحديث الثانى: ما رواه من حديث الزهرى، عن عروة، عن المسْوَر وعبد الرحمن بن عبد القارئ، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم [بن حزام] [٤] يقرأ سورة الفرقان... وذكر الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتى[٥].

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ قارئا يقرأ من الليل فى المسجد، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرنى كذا وكذا آية، كنت أسقطتهن من سورة كذا وكذا»[٦].

وهكذا فى الصحيحين عن ابن مسعود: أنه كان يرمى الجمرة من الوادى ويقول: هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة [٧]. وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، كما تقدم من رواية يزيد الفارسى عن ابن عباس، عن عثمان أنه قال: إذا نزل شىء من

---

(١) فى جـ: «عتاب».
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٠).
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٠٨، ٥٠٥١، ٥٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٨٠٧، ٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٨، ٨٠١٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٦٨، ١٣٦٩).
(٤) زيادة من ط، جـ.
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٤١).
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٢).
(٧) صحيح البخارى برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦).

القرآن يقول رسول الله ﷺ: «اجعلوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا»، ولا شك أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحت الأحاديث بالرخصة فى الآخر، وعليه عملُ الناس اليوم فى ترجمة السور فى مصاحفهم، وبالله التوفيق.

الترتيل فى القراءة

وقول الله[1] عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أن يهذ كهذ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾: فصلناه.

حدثنا أبو النعمان، حدثنا مهدى بن حدثنا واصل[وهو ابن حيان الأحدب][2]، عن أبى وائل، عن عبد الله قال: غدونا على عبد الله. فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذِّ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإنى لأحفظ القراءات التى كان يقرأ بهن النبى ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم[3].

ورواه مسلم عن شيبان بن فَرُّوخ، عن مهدى بن ميمون، عن واصل ـ وهو ابن حيان الأحدب ـ عن أبى وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مِخْراق، عن عائشة أنه ذكر لها أن ناسا يقرؤون القرآن فى الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبى ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه[5].

الحديث الثانى: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن موسى بن أبى عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦]: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحى، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتى، وهو متفق عليه، وفيه والذى قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هَذْرَمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن[6] سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[7].

---

(١) فى جـ، ط: «وقوله».
(٢) زيادة من جـ.
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٣).
(٤) صحيح مسلم برقم (٨٢٢).
(٥) المسند (٦/ ٩٢).
(٦) فى ط: «عن».
(٧) المسند (٢/ ١٩٢).

وقال أبو عبيد: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فداك أبى وأمى، رتل فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن(١).

وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبى جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإنى أقرأ القرآن فى ثلاث فقال: لأن أقرأ البقرة (٢) فى ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلىَّ من أن أقرأ كما تقول(٣).

وحدثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبى جمرة، عن ابن عباس نحو ذلك، إلا أن فى حديث حماد: أحب إلىّ من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة(٤).

ثم قال البخارى، رحمه الله:

مد القراءة

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم الأزدى، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبى ﷺ فقال: كان يمد مدا(٥).

وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به(٦)، وحدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النبى ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. انفرد به البخارى من هذا الوجه(٧)، وفى معناه الحديث الذى رواه الإمام أبو عبيد: حدثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الليث بن سعد، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن يعلى بن مَملك، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً (٨).

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن يحيى بن إسحاق، وأبو داود عن يزيد بن خالد الرملى، والترمذى والنسائى، كلاهما عن قتيبة، كلهم عن الليث بن سعد به(٩). وقال الترمذى: حسن صحيح.

ثم قال أبو عبيد: وحدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن ابن جريج، عن ابن أبى مُلَيْكة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته؛ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وهكذا.

---

(١) فضائل القرآن(ص٧٤).

(٢) فى جـ : «القرآن».

(٣، ٤) فضائل القرآن (ص٧٤).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٥).

(٦) سنن أبى داود برقم (١٤٦٥) وسنن النسائى (٢/ ١٧٩) والشمائل للترمذى برقم (٣٠٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٥٣).

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٧٤).

(٩) المسند (٦/ ٣٠٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٦) وسنن النسائى (٢/ ١٨١) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٣).

رواه أبو داود والترمذى من حديث ابن جريج[١]. وقال الترمذى: غريب وليس إسناده بمتصل، يعنى: أن عبد الله بن عبيد الله بن أبى مُلَيْكة لم يسمعه من أم سلمة، وإنما رواه عن يعلى بن مَمْلَك، كما تقدم، والله أعلم.

الترجيع

حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبى ﷺ وهو على ناقته ـ أو جمله ـ وهى تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع[٢].

وقد تقدم هذا الحديث فى القراءة على الدابة وأنه من المتفق عليه، وفيه أن ذلك كان يوم الفتح، وأما الترجيع: فهو الترديد فى الصوت كما جاء ـ أيضا ـ فى البخارى أنه جعل يقول: (آ آ آ)، وكان ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة فى الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصلى على الدابة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك الصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

حسن الصوت بالقراءة

حدثنا محمد بن خلف أبو بكر، حدثنا أبو يحيى الحمّانى، حدثنا بريد بن عبد الله بن أبى بردة، عن جده أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى، عن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»[٣]، وهذا رواه الترمذى عن موسى بن عبد الرحمن الكندى، عن أبى يحيى الحمّانى[٤] ـ واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ وقال: حسن صحيح. وقد رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبى بردة، عن أبى موسى[٥]، وفيه قصة، وقد تقدم الكلام على تحسين الصوت عند قول البخارى: من لم يتغن بالقرآن، وذكرنا هنا أحكاما كافية عن إعادتها ههنا، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لى النبى ﷺ: «اقرأ علىّ القرآن». قلت: عليك أقرأ وعليك أنزل؟! قال: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى».

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش[٦]، وله طرق يطول ذكرها وبسطها، وقد

(١) فضائل القرآن (ص ٧٥) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٧).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٧).

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٨).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٨٥٥).

(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٩) وصحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٧٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٢٥).

تقدم فيما رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبى بردة، عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة». فقال: أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتى لحَبَّرْتها لك تحبيرا.

وقال الزهرى، عن أبى سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده.

وقال أبو عثمان النهدى: كان أبو موسى يصلى بنا، فلو قلت: إنى لم أسمع صوت صنج قط ولا بربط قط، ولا شيئا قط أحسن من صوته.

قول المقرئ للقارئ: حسبك

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ علىّ». فقلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم»، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن» [فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان][١] [٢].

أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من رواية الأعمش به[٣]، ووجه الدلالة ظاهر، وكذا الحديث الآخر: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا».

فى كم يقرأ القرآن

وقول الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]

حدثنا على، حدثنا سفيان، قال: قال لى ابن شبرمة: نظرت كم يكفى الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات. فقلت: لا ينبغى لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة عن أبى مسعود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النبى ﷺ أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه[٤].

وقد تقدم أن هذا الحديث متفق عليه، وقد جمع البخارى فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة عن أبى مسعود وهو صحيح؛ لأن عبد الرحمن سمعه أولا من علقمة، ثم لقى أبا مسعود وهو يطوف فسمعه منه، وعلىّ هذا هو ابن المدينى وشيخه هو سفيان بن عيينة، وما قاله عبد الله بن شبرمة - فقيه الكوفة فى زمانه - استنباط حسن، وقد جاء فى حديث فى السنن: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات»[٥]، ولكن هذا الحديث - أعنى حديث أبى مسعود - أصح وأشهر وأخص، ولكن وجه مناسبته

---

(١) زيادة من ط.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٧٨) والشمائل للترمذى برقم (٣٠٦).

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٥١).

(٥) كذا قال الحافظ ابن كثير، ولم أقع عليه فى السنن الأربعة، وقد رواه ابن عدى فى الكامل (٥/٢٩) من طريق عمر بن يزيد المدائنى عن عطاء عن ابن عمر، رضى الله عنه، مرفوعاً بلفظ: «لا تجزئ فى المكتوبة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات فصاعدا». والمدائنى منكر الحديث كما قال ابن عدى.

للترجمة التى ذكرها البخارى فيه نظر، والله أعلم[١].

والحديث الثانى أظهر فى المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوَانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحنى أبى امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَنَّتَه فيسألها عن بعلها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبى ﷺ، فقال: «ألقنى به»، فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟». قلت: كل يوم. قال: «وكيف تختم؟». قال: كل ليلة. قال: «صم كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن فى كل شهر»: قال: قلت: إنى أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام فى الجمعة». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصوم يوما». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ فى كل سبع ليال مرةً»، فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ! وذلك أنى كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذى يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئا فارق عليه النبى ﷺ. وقال بعضهم: فى ثلاث وفى خمس وأكثرهم على سبع[٢].

وقد رواه فى الصوم، والنسائى ـ أيضا ـ عن بُنْدَار عن غُنْدَر، عن شعبة، عن مغيرة، والنسائى من حديث حصين، كلاهما عن مجاهد به[٣].

ثم روى البخارى ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبى كثير، عن محمد بن عبد الرحمن ـ مولى بنى زهرة[٤] ـ عن أبى سلمة: قال: وأحسبنى قال: سمعت أنا من أبى سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لى النبى ﷺ: «اقرأ القرآن فى شهر». قلت: إنى أجد قوة. قال: «فاقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك»[٥]. فهذا السياق ظاهره يقتضى المنع من قراءة القرآن فى أقل من سبع، وهكذا الحديث الذى رواه أبو عبيد:

حدثنا حجاج وعمر بن طارق ويحيى بن بكير، كلهم عن ابن لَهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبى صعصعة؛ أنه قال للنبى ﷺ: يا رسول الله، فى كم أقرأ القرآن؟ فقال: «فى كل خمس عشرة». قال: إنى أجد فى أقوى من ذلك، قال: «ففى كل جمعة»[٦].

وحدثنا حجاج عن شعبة، عن محمد بن ذكوان ـ رجل من أهل الكوفة ـ قال: سمعت عبدالرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن فى غير رمضان من

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٩٥): «وقد خفيت مناسبة حديث أبى مسعود بالترجمة على ابن كثير، والذى يظهر أنها من جهة أن الآية المترجم بها تناسب ما استدل به ابن عيينة من حديث أبى مسعود، والجامع بينهما أن كلاً من الآية والحديث يدل على الاكتفاء بخلاف ما قال ابن شبرمة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٢).

(٣) صحيح البخارى برقم (١٩٧٨) وسنن النسائى (٤/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٤) فى ط: «أبى هريرة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٣) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) وسنن أبى داود برقم (١٣٨٨) لكنه عند أبى داود من طريق أبان العطار عن يحيى بن أبى كثير عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة، والله أعلم.

(٦) فضائل القرآن (ص ٨٧).

الجمعة إلى الجمعة[١].

وعن حجاج، عن شعبة، عن أيوب: سمعت أبا قِلاَبة، عن أبى المهلب قال: كان أبىّ بن كعب يختم القرآن فى كل ثمان.

وحدثنا على بن عاصم، عن خالد، عن أبى قلابة قال: كان أبىّ بن كعب يختم القرآن فى كل ثمان.

وكان تميم الدارى يختمه فى كل سبع، وحدثنا هُشَيْم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنه كان يختم القرآن فى كل سبع[٢].

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن فى كل ست، وكان علقمة يختمه فى كل خمس[٣].

فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر فى ذلك جليا، ولكن دلت أحاديث أخرجوها[٤] على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا حبان ابن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصارى؛ أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن فى ثلاث؟ قال: «نعم». قال: فكان يقرؤه حتى توفى[٥].

وهذا إسناد جيد قوى حسن، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة متفق على جلالته روى له الجماعة وابن لَهيعة، إنما يخشى من تدليسه وسوء حفظه، وقد صرح ههنا بالسماع، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية فى زمانه، وشيخه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم، والصحابى لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة، وهذا على شرط كثير منهم، والله أعلم.

وقد رواه أبو عبيد، رحمه الله، عن ابن كثير[٦]، عن ابن لَهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصارى أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن فى ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت». قال: فكان يقرؤه كذلك حتى توفى[٧].

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفقه من قرأه فى أقل من ثلاث».

وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به[٨]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يوسف بن الغرق، عن الطيب بن سليمان، حدثتنا عمرة بنت

---

(١) فضائل القرآن (ص ٨٧).

(٢، ٣) فضائل القرآن (ص ٨٨).

(٤) فى ط: «أخر».

(٥) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند، وقد ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٢/ ٤٦٥).

(٦) فى ط: «بكير».

(٧) فضائل القرآن (ص ٨٨).

(٨) فضائل القرآن (ص ٨٩) والمسند (٢/ ١٨٩، ١٦٥) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٦٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٧).

عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن فى أقل من ثلاث[(١)].

هذا حديث غريب وفيه ضعف، فإن الطيب بن سليمان هذا بصرى، ضعفه الدارقطنى، وليس هو بذاك المشهور، والله أعلم.

وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن فى أقل من ثلاث، كما هو مذهب أبى عبيد وإسحاق وابن راهويه وغيرهما من الخلف ـ أيضا ـ قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن هشام بن حسان، عن حفصة، عن أبى العالية، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث[(٢)]. صحيح.

وحدثنا يزيد، عن سفيان، عن على بن بَذِيمة، عن أبى عبيدة قال: [قال][(٣)] عبد الله: من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث فهو راجز. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن على بن بذيمة، عن أبى عبيدة، عن عبد الله مثله سواء[(٤)].

وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن محمد بن ذَكْوَان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه؛ أنه كان يقرأ القرآن فى رمضان فى ثلاث[(٥)]. إسناده صحيح.

وفى المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعا: «اقرؤوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»[(٦)].

فقوله: «لا تغلوا فيه» أى: لا تبالغوا فى تلاوته بسرعة فى أقصر مدة، فإن ذلك ينافى التدبر غالبا؛ ولهذا قابله بقوله: «ولا تجفوا عنه» أى: لا تتركوا تلاوته.

فصل

وقد ترخص جماعة[(٧)] من السلف فى تلاوة القرآن فى أقل من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، رضى الله عنه.

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرنى ابن خَصيفة، عن السائب بن يزيد: أن رجلا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمى عن صلاة طلحة بن عبيد[(٨)] فقال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان، رضى الله عنه، فقال: نعم. قال: قلت: لأغلبن الليلة على الحجر، فقمت، فلما قمت إذا أنا برجل مقنع يزحمنى، فنظرت فإذا عثمان بن عفان، فتأخرت عنه، فصلى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادى الفجر، أوتر بركعة لم يصل غيرها[(٩)]. وهذا إسناد

(١) فضائل القرآن (ص ٨٨، ٨٩).

(٢) فضائل القرآن (ص ٨٩).

(٣) زيادة من ط.

(٤) فضائل القرآن (ص ٨٩).

(٥) فضائل القرآن (ص ٩٠).

(٦) المسند (٣/ ٤٢٨) من طريق زيد بن سلام عن جده عن أبى راشد عن عبد الرحمن بن شبل به مرفوعاً، وقال الحافظ ابن حجر: «سنده قوى».

(٧) فى ط: «جماعات».

(٨) فى ط: «عبيد الله».

(٩) فضائل القرآن (ص ٩٠).

صحيح.

قال[١]: وحدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبية حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيى الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن. وهذا حسن أيضا[٢].

وقال ـ أيضا ـ: حدثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: إن تميما الدارى قرأ القرآن فى ركعة[٣].

حدثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبير: أنه قال: قرأت القرآن فى ركعة فى البيت ـ يعنى الكعبة[٤].

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قرأ القرآن فى ليلة، طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطول، ثم طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمئين، ثم طاف أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمثانى، ثم طاف بالبيت أسبوعا ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بقية القرآن[٥].

وهذه كلها أسانيد صحيحة، ومن أغرب ما ههنا: ما رواه أبو عبيد: حدثنا سعيد بن عُفَيْر، عن بكر بن مضر، أن سليم بن عتر التجيبى كان يختم القرآن فى ليلة ثلاث مرات، ويجامع ثلاث مرات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضى ربك وترضى أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلى صلاة الصبح[٦].

قلت: كان سليم بن عتر تابعيا جليلا ثقة نبيلا، وكان قاضيا بمصر أيام معاوية وقاصّها، ثم قال أبو حاتم: روى عن أبى الدرداء، وعنه ابن زحر، ثم قال: حدثنى محمد بن عوف، عن أبى صالح كاتب الليث، حدثنى حرملة بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر من خير التابعين[٧].

وذكره ابن يونس فى تاريخ مصر.

وقد روى ابن أبى داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء.

وعن منصور قال: كان على الأزدى يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان.

وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبى يحتبى فما يحل حبوته حتى يختم القرآن.

قلت: وروى عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما

---

(١) فى ط: «ثم قال».

(٢ ـ ٦) فضائل القرآن (ص ٩١).

(٧) الجرح والتعديل (٤/ ٢١١، ٢١٢).

بين المغرب والعشاء، وكانوا يؤخرونها قليلا.

وعن الإمام الشافعي، رحمه الله: أنه كان يختم في اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين، وفي غيره ختمة.

وعن أبي عبد الله البخاري ـ صاحب الصحيح ـ: أنه كان يختم في الليلة ويومها من رمضان ختمة.

ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات.

وهذا نادر جدا. فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة، والله أعلم.

قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهَذْرَمة)(١).

ثم قال البخاري، رحمه الله:

البكاء عند القراءة

وأورد فيه من رواية الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: «كفَّ أو أمسك»، فرأيت عيناه تذرفان(٢).

وهذا من المتفق عليه كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله.

من راءى بقراءة القرآن أو تأكّل به أو فجر به

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، حدثنا الأعمش، عن خَيْثَمة، عن سُوَيد بن غفلة، قال(٣) علي، رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»(٤).

---

(١) التبيان (ص ٧٦).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٥).

(٣) في ط: «عن».

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٧).

وقد روى فى موضعين آخرين، ومسلم وأبو داود والنسائى، من طرق عن الأعمش به[١]: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر فى النصل[٢] فلا يرى شيئاً، وينظر فى القدح فلا يرى شيئا، وينظر فى الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى فى الفوق»[٣].

ورواه فى موضع آخر، ومسلم ـ أيضا ـ والنسائى من طرق عن الزهرى، عن أبى سلمة به[٤].

حدثنا مُسَدَّد بن مسرهد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبى موسى، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القر آن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مرّ»[٥].

ورواه فى موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق، عن قتادة به[٦].

ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المراءاة بتلاوة القرآن التى هى من أعظم القرب، كما جاء فى الحديث: «واعلم أنك لن تتقرب إلى الله بأعظم مما خرج منه»[٧] يعنى: القرآن.

والمذكورون فى حديث على وأبى سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال فى الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم». ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراؤون فى أعمالهم فى نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا فى ذلك كالمذمومين فى قوله: **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [التوبة: ١٠٩]، وقد اختلف العلماء فى تكفير الخوارج وتفسيقهم ورد روايتهم، كما سيأتى [تفصيله][٨] فى موضعه إن شاء الله.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٦١١، ٦٩٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٦٧) وسنن النسائى (٧/ ١١٩).

(٢) فى ط: «السهم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٨).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦١٠، ٦٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٥٦٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٩).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٤٢٧)، (٧٥٦٠) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٥) وسنن النسائى (٨/ ١٢٤) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٤).

(٧) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٩١١) من طريق ليث بن أبى سليم عن زيد بن أرطأة عن أبى أمامة به مرفوعاً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٨) زيادة من ط.

والمنافق المشبه بالريحانة التي لها الريح ظاهر وطعمها مر هو المرائى بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ثم قال البخارى:

اقرؤوا القرآن ما ائتَلَفت عليه قلوبكم

حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبى عمران الجونى، عن جندب بن عبد الله، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا [عنه][1]»[2].

حدثنا عمرو بن على بن بحر الفلاّس، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا سلام بن أبى مطيع، عن أبى عمران الجونى، عن جُنْدُب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا [عنه][3]»[4].

تابعه الحارث بن عُبَيْد وسعيد بن زيد، عن أبى عمران، ولم يرفعه حماد بن سلمة وأبان.

وقال غُنْدَر: عن شعبة، عن أبى عمران قال: سمعت جُنْدُبا. قوله: وقال ابن عون، عن أبى عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. وجندب أصح وأكثر[5] [6].

وقد رواه فى موضع آخر، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور، عن عبد الصمد، عن همام، عن أبى عمران به[7]، ومسلم ـ أيضا ـ عن يحيى بن يحيى، عن الحارث بن عبيد أبى قدامة، عن أبى عمران به، ورواه مسلم ـ أيضا ـ عن أحمد بن سعيد، عن حبان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبى عمران به مرفوعا[8].

وقد حكى البخارى: أن أبان وحماد بن سلمة لم يرفعاه، فالله أعلم.

ورواه النسائى والطبرانى من حديث مسلم بن إبراهيم، عن هارون بن موسى الأعور النحوى، عن أبى عمران به.

---

(١) زيادة من ط والبخارى.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٠).

(٣) زيادة من البخارى.

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٦١).

(٥) فى النسخ: «أكثر وأصح» والتصويب من البخارى.

(٦) قال الحافظ ابن حجر: «أى أصح سنداً وأكثر طرقاً وهو كما قال، فإن الجم الغفير رواه عن أبى عمران عن جندب إلا أنهم اختلفوا عليه فى رفعه ووقفه، والذين رفعوه ثقات حفاظ فالحكم لهم، وأما رواية ابن عون فشاذة لم يتابع عليها».

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

ورواه النسائى ـ أيضا ـ من طرق عن سفيان، عن حجاج بن فرافصة، عن أبى عمران به مرفوعا[١]، وفى رواية عن هارون بن زيد بن أبى الزرقاء، عن أبيه، عن سفيان عن حجاج، عن أبى عمران، عن جُنْدُب موقوفا، ورواه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن عون، عن أبى عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله.

قال أبو بكر بن أبى داود: لم يخطئ ابن عون فى حديث قط إلا فى هذا، والصواب عن جندب. [ورواه الطبرانى عن على بن عبد العزيز عن مسلم بن ابراهيم وسعيد بن منصور قالا: حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران، عن جندب مرفوعا][٢] [٣].

فهذا مما تيسر من ذكر طرق هذا الحديث على سبيل الاختصار، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخ هذه الصناعة[٤] أبو عبد الله البخارى، رحمه الله، من أن الأكثر والأصح: أنه عن جندب بن عبد الله مرفوعا إلى رسول الله ﷺ.

ومعنى الحديث أنه، عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا فى حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت فى الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»[٥] ،وقال: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل»، وفى اللفظ الآخر: «أحب الأعمال إلى الله أدومها [وإن قل][٦]»[٧] .

ثم قال البخارى: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال ابن سبرة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع النبى ﷺ خلافها، فأخذت بيده فانطلقت إلى النبى ﷺ فقال: «كلاكما محسن فاقرآ» أكبر علمى قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم الله عز وجل».

وأخرجه النسائى من رواية شعبة به[٨]، وهذا فى معنى الحديث الذى تقدمه، وأنه ينهى عن الاختلاف فى القراءة والمنازعة فى ذلك والمراء فيه كما تقدم النهى عن ذلك، والله أعلم.

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه: حدثنا أبو محمد سعيد بن محمد الجرمى، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن الأعمش، عن عاصم، عن زر بن حبيش قال: قال عبد الله ابن مسعود: تمارينا فى سورة من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية قال: فانطلقنا

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٩٦).

(٢) زيادة من ط.

(٣) المعجم الكبير (٢/١٦٣).

(٤) فى ط: «البضاعة».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٧٨٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) زيادة من ط، م.

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٩٥).

إلى رسول الله ﷺ فوجدنا عليا بناصية فقلنا له: اختلفنا فى القراءة، فاحمر وجه رسول الله ﷺ، فقال على: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرؤوا كما قد علمتم[١].

وهذا آخر ما أورده البخارى، رحمه الله، فى كتاب[٢] فضائل القرآن، جل منزله، وتعالى قائله، ولله الحمد والمنة.

كتاب الجامع
لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن
وفضائله وفضل أهله

فصل

قال أحمد: حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال نبى الله عليه الصلاة والسلام[٣]: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شىء معه»[٤].

وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَة، حدثنا بشير بن أبى عمرو الخولانى؛ أن الوليد بن قيس التجيبى حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد الستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدوا تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر».

قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يَتَأَكَّل به، والمؤمن يؤمن به[٥].

وقال أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا الليث، حدثنى يزيد بن أبى حبيب، عن أبى الخير، عن أبى الخطاب، عن أبى سعيد أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؛ إن من خير الناس رجلا عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله، لا يرعوى إلى شىء منه»[٦].

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفى، حدثنا الحسين بن عبد الأول، حدثنا محمد بن الحسن الهمدانى، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من شغله قراءة القرآن عن دعائى أعطيته أفضل ثواب السائلين».

---

(١) زوائد المسند (١/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) فى ط: «كتابه».

(٣) فى ط: «ﷺ».

(٤) المسند (٣/ ٤٠).

(٥) المسند (٣/ ٣٨).

(٦) المسند (٣/ ٣٧، ٥٨).

وقال رسول الله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم قال: تفرد به محمد بن الحسن ولم يتابع عليه(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنى عبد الرحمن بن بُدَيْل بن ميسرة، حدثنى أبى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهْلِين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهْل القرآن هم أهل الله وخاصته»(٢).

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن على بن شعيب السمسار، حدثنا خالد بن خِدَاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا محمد بن عباد المكى، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن شريك، عن الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه»(٤).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عبد الله بن المحرر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شىء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن»(٥). ابن المحرر ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا بكر بن سوادة، عن وفاء الخولانى، عن أنس بن مالك قال: بينما نحن نقرأ فينا العربى والعجمى والأسود والأبيض، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أنتم فى خير تقرؤون كتاب الله وفيكم رسول الله ﷺ وسيأتى على الناس زمان يثقفونه كما يثقف القدح، يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها»(٦).

وقد رواه الإمام أحمد ـ أيضا ـ عن حسن، عن ابن لَهِيعة، عن بكر، عن وفاء، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ فذكره(٧).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن الجهم، حدثنا عمرو بن أبى قيس، عن عبد ربه بن عبد الله، عن عمر بن نبهان، عن الحسن، عن أنس؛ أن النبى ﷺ قال: «إن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره»(٨).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة، عن محتسب، حدثنى يزيد

---

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٩٢٦) من طريق محمد بن الحسن الهمدانى به، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) المسند (٣/ ١٢٨).

(٣) المعجم الكبير (١/ ٢٤٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٧٢): «رجاله ثقات».

(٤) المعجم الكبير (١/ ٢٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٥٨): «رواه أبو يعلى وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف».

(٥) مسند البزار برقم (٢٣٣٠) «كشف الأستار».

(٦) المسند (٣/ ١٤٦).

(٧) المسند (٥/ ٣٣٨).

(٨) مسند البزار برقم (٢٣٢١) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٧١): «فيه عمر بن نبهان ضعيف».

الرقاشى، عن أنس قال: قعد أبو موسى فى بيت واجتمع إليه ناس، فأنشأ يقرأ عليهم القرآن، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أفتستطيع أن تقعدنى حيث لا يرانى منهم أحد؟». قال: نعم. قال: فخرج رسول الله ﷺ فأقعده الرجل حيث لا يراه منهم أحد، فسمع قراءة أبى موسى فقال: «إنه ليقرأ على مزمار من مزامير داود، عليه السلام»[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا جعفر ـ هو ابن محمد بن على بن الحسين ـ عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه، ويشتد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: «أتتكم الساعة هكذا ـ وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ـ صبحتكم الساعة ومستكم، من ترك مالا فلأهله، ومن ترك دَيْنًا أو ضياعًا فإلىّ وعلىّ»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب ـ يعنى ابن عطاء ـ أنبأنا أسامة بن زيد الليثى، عن محمد ابن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرؤون القرآن فقال: «اقرؤوا القرآن وابتغوا به وجه الله ـ عز وجل ـ من قبل أن يأتى بقوم يقيمونه إقامة القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه»[(٣)].

قال أحمد ـ أيضا ـ: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، حدثنا حميد الأعرج، عن محمد بن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا العجمى والأعرابى قال: فاستمع فقال: «اقرؤوا فكل حسن، وسيأتى قوم يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه»[(٤)].

وقال أبو بكر البزار: حدثنا أبو كُرَيْب محمد بن العلاء، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن المعلى الكندى، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه ـ أو كلمة نحوها ـ زجّ فى قفاه إلى النار»[(٥)]. وحدثنا أبوكريب، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، عن النبى ﷺ بنحوه[(٦)].

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر، حدثنى بكر بن يونس، عن موسى بن على، عن أبيه، عن يحيى بن أبى كثير اليمامى، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية كتب الله له قنطارا، والقنطار مائة رطل، والرطل اثنتا عشرة أوقية،

---

(١) مسند أبى يعلى (٧/ ١٣٣ ـ ١٣٥) وفيه يزيد الرقاشى ضعيف.
(٢) المسند (٣/ ٣١٠).
(٣) المسند (٣/ ٣٥٧)
(٤) المسند (٣/ ٣٩٧).
(٥) مسند البزار برقم (١٢١) «كشف الأستار».
(٦) مسند البزار برقم (١٢٢) «كشف الأستار».

والوقية ستة دنانير، والدينار أربعة وعشرون قيراطا، والقيراط مثل أحُد، ومن قرأ ثلاثمائة آية قال الله لملائكته: نصب عبدى لى، أشهدكم يا ملائكتى أنِّى قد غفرت له، ومن بلغه عن الله فضيلة فعمل بها إيمانا به ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك وإن لم يكن ذلك كذلك»(١).

وقال أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب»(٢).

قال البزار: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنى أبى قال: وجدت فى كتاب أبى بخطه عن عمران بن أبى عمران، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]»(٣).

وقال الطبرانى: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبى، حدثنا ابن لَهيعة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به»(٤).

وقال ـ أيضا ـ: حدثنا أبو يزيد القراطيسى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدة بن سليمان، عن سعيد أبى سعد البقال، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الأصوات بالقرآن»(٥).

وروى ـ أيضا ـ بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس مرفوعا: «أشرف أمتى حملة القرآن»(٦).

وقال الطبرانى: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا إبراهيم بن أبى سويد الذارع(٧)، حدثنا صالح المرى، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: أى الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: «الحال المرتحل». قال: يا رسول الله، ما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره، وفى آخره حتى يبلغ أوله»(٨).

---

(١) معجم الشيوخ لأبى يعلى (٧٤) وإسناده ضعيف لعلتين: العلة الأولى: ضعف بكر بن يونس، والعلة الثانية: الانقطاع بين يحيى ابن أبى كثير وجابر.
(٢) المسند (١/ ٢٢٣).
(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٦٩): «فيه أبو شيبة وهو ضعيف جداً».
(٤) المعجم الكبير (١١/ ٧).
(٥) المعجم الكبير (١٢/ ١٨) وأبو سعد البقال ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.
(٦) المعجم الكبير (١٢/ ١٢٥) من طريق سعد الجرجانى عن نهشل ـ وكلاهما ضعيف ـ عن الضحاك به.
(٧) فى ط: «الزرع».
(٨) المعجم الكبير (١٢/ ١٦٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٨) من طريق صالح المرى به، وقال: «تفرد به صالح المرى، وهو من زهاد أهل البصرة». وتعقبه الذهبى فقال: «صالح متروك».

ذكر الدعاء المأثور
لحفظ القرآن وطرد النسيان

قال [الحافظ][١] أبو القاسم الطبراني فى معجمه الكبير: حدثنا الحسين بن إسحاق التسترى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن إبراهيم القرشى، حدثنى أبو صالح وعكرمة، عن ابن عباس قال: قال على بن أبى طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلت من صدرى، فقال النبى ﷺ: «أعلِّمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع من علمته». قال: قال: نعم بأبى وأمى، قال: «صلِّ ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ فى الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفى الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفى الثالثة بفاتحة الكتاب والـم تنزيل السجدة، وفى الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله واثن عليه، وصل على النبيين، واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى، وارحمنى من أن أتكلف ما لا يعنينى، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ[٢] كتابك كما علمتنى، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى، وأسألك أن تنور بالكتاب بصرى، وتطلق به لسانى، وتفرج به عن قلبى، وتشرح به صدرى، وتستعمل به بدنى، وتقوينى على ذلك وتعيننى على ذلك[٣]، فإنه لا يعيننى على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تحفظه بإذن الله وما أخطأ مؤمنا قط». فأتى النبى ﷺ بعد ذلك بسبع فأخبره بحفظ القرآن والحديث، فقال النبى ﷺ: «مؤمن ورب الكعبة»، علم أبو الحسن[٤]، علم أبو الحسن[٥] » هذا سياق الطبرانى[٦].

وقال أبو عيسى الترمذى فى كتاب الدعوات: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه على بن أبى طالب فقال: بأبى أنت وأمى، تفلت هذا القرآن من صدرى فما أجدنى أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، ويثبت ما تعلمت فى صدرك؟» قال: أجل يا رسول الله، فعلمنى، قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخى يعقوب لبنيه: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾ [يوسف:٩٨]، يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة، فإن لم تستطع فقم فى وسطها، فإن لم تستطع فقم فى أولها فصل أربع ركعات، تقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفى الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفى الركعة الثالثة بفاتة الكتاب والـمَ تنزيل السجدة، وفى الركعة

---

(١) زيادة من ط.

(٢) فى المعجم الكبير: «حب».

(٣) فى المعجم الكبير: «عليه».

(٤، ٥) فى المعجم الكبير: «أبا حسن».

(٦) المعجم الكبير (١١/٣٦٧) ورواه من طريق ابن الجوزى فى الموضوعات (٢/١٣٨) وقال: «هذا حديث لا يصح، ومحمد بن إبراهيم مجروح، وأبو صالح لا نعلمه إلا إسحاق بن نجيح وهو متروك».

الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد، فاحمد الله وأحسن الثناء على الله، وصل عليّ وأحسن وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، ثم قل فى آخر ذلك: اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك، أن تنور بكتابك بصرى، وأن تطلق به لسانى، وأن تفرج به عن قلبى، وأن تشرح به صدرى، وأن تغسل به بدنى، فإنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، يا أبا الحسن، تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تجاب بإذن الله تعالى، والذى بعثنى بالحق ما أخطأ مؤمنا قط». قال ابن عباس: فوالله ما لبث علىٌّ إلا خمسا أو سبعا حتى جاء [علىٌّ][1] رسول الله ﷺ فى مثل ذلك المجلس، فقال: يا رسول الله، والله إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتُهن على نفسى تَفَلَّتْنَ وأنا أتعلَّم اليوم أربعين آية أو نحوها، فإذا قرأتها على نفسى فكأنما كتاب الله بين عَيْنِى، ولقد كنت أسمع الحديث، فإذا رَدَّدْتُه تَفَلَّت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث، فإذا تحدثتُ بها لم أخرِم منها حرفا، فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: «مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن».

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه. ورواه الحاكم فى مستدركه من طريق الوليد، ثم قال: على شرط الشيخين حيث صرح الوليد بالسماع من ابن جريج، فالله أعلم ـ فإنه فى المتن غرابة بل نكارة[2]، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا العمرى، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن مثل الإبل المعقلة إن تعاهدها صاحبها أمسكها، وإن تركها ذهبت».

ورواه ـ أيضا ـ عن محمد بن عبيد ويحيى بن سعيد، عن عبيد الله العمرى به[3].

ورواه ـ أيضا ـ عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه[4].

وقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا حميد بن حماد بن أبى الحوار، حدثنا مِسْعر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أحسن قراءة؟ قال: «من إذا سمعته يقرأ رؤيت أنه يخشى الله، عز وجل»[5].

---

(١) زيادة من الترمذى.

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٥٧٠) والمستدرك (١/ ٣١٦، ٣١٧) وأعل بثلاث علل: الأولى: عنعنة ابن جريج. الثانية: تدليس بقية فإنه يدلس تدليس التسوية. الثالثة: سليمان الدمشقى تكلم فيه من جهة حفظه.

(٣) المسند (٢/ ٢٣)، (٢/ ١٧، ٣٠).

(٤) المسند (٢/ ٣٥).

(٥) مسند البزار برقم (٢٣٣٦) «كشف الأستار» وفيه حماد بن حميد ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ ورتِّل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[1].

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنى حيى بن عبد الله، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبى[2] ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أقرأ القرآن فلا أجد قلبى يعقل عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن قلبك حُشِىَ الإيمان، وإن العبد يعطى الإيمان قبل القرآن»[3].

وبهذا الإسناد: أن رجلا جاء بابن له فقال: يا رسول الله، إن ابنى هذا يقرأ المصحف بالنهار ويبيت بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «ما تنقم أن ابنك يظل ذاكرا ويبيت سالما»[4].

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لَهيعة، عن حيى، عن أبى عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، أن النبى ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعنى فيه»، قال: «فيشفعان»[5].

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دراج، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر منافقى أمتى قراؤها»[6].

وقال أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنى همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقه».

ورواه ـ أيضا ـ عن غُنْدَر، عن شعبة، عن قتادة به[7]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، حدثنا أبى، حدثنا عيسى بن يونس، ويحيى بن أبى الحجاج التميمى، عن إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر، عن عبد الله بن عَمْرو، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فكأنما استُدْرِجَت النبوَّةُ بين جنبيه، غير أنه لا يُوحَى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعْطِىَ أفضلَ مما أُعْطِىَ فقد عَظَّم ما صَغَّر الله، وصَغَّر ما عظَّم الله، وليس ينبغى لحامل القرآن أن يَسْفَه فيمن يَسْفَه، أو يَغْضَب فيمن يَغْضَب، أو يَحْتَدَّ فيمن يَحْتَدُّ، ولكن يعفو ويصفح، لِفضل القرآن»[8].

(١) المسند (٢/ ١٩٢).
(٢) فى مسند أحمد: «رسول الله».
(٣) المسند (٢/ ١٧٢).
(٤) المسند (٢/ ١٧٣).
(٥) المسند (٢/ ١٧٤).
(٦) المسند (٢/ ١٧٥).
(٧) المسند (٢/ ١٦٤، ١٩٣، ١٩٥).
(٨) قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٥٩): «فيه إسماعيل بن رافع وهو متروك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحَسَن، عن أبى هُرَيرَةَ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كُتِبَتْ له حسنةٌ مضاعفةٌ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»[١].

وقال البزار: حدثنا محمد بن حرب، حدثنا يحيى بن المتوكل، حدثنا عَنْبَسة بن مهْران عن الزهرى، عن سَعِيدٍ وأبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «مراءٌ فى القرآن كفرٌ». ثم قال: عنبسة: هذا ليس بالقوىّ. وعنده فيه إسناد آخر[٢].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو بكر، حدثنا ابن إدريس، حدثنا المقبرى، عن جدِّه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه[٣]»[٤].

وقال الطبرانى: حدثنا موسى بن حازم الأصبهانى، حدثنا محمد بن بكير الحضرمى، حدثنا إسماعيل بن عيَّاشٍ، عن يحيى بن الحارث الذِّمارى، عن القاسم أبى عبد الرحمن، عن فضالة بن عُبَيد، وتَمِيمٍ الدارىِّ، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات فى ليلة كُتِب له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك، عز وجل: اقرأ وارقَ بكل آية درجة حتى ينتهى إلى آخر آية معه، يقول ربك: اقبض، فيقول العبد بيده: يارب أنت أعلم. فيقول: بهذه الخلد وبهذه النعيم»[٥].

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة معقس بن عمران بن حطان قال: قال: دخلت مع أبى على أم الدرداء، رضى الله عنها، فسألها أبى: ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ؟ قالت: حدثتنى عائشة قالت: جُعلت دَرَجُ الجنة على عدد آى القرآن، فمن [٦] قرأ ثلث القرآن ثم دخل الجنة كان على الثلث من درَجها، ومن قرأ نصف القرآن كان على النصف من درَجها، ومن قرأ كُلَّه كان فى عِلِّيِّينَ، لم يكن فوقه إلا نبى أو صديق أو شهيد[٧].

وقال الطبرانى: حدثنا مَسْعَدَةُ [٨] بن سَعْد العطارُ المكى، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزَامى، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى جميع بن حارثة الأنصارى، حدثنا عبد الله بن ماهان الأزدى، حدثنى فائد مولى عُبَيد الله بن أبى رافع، حدثتنى سُكينة بنت الحُسَين بن على، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «حملة القرآن عُرَفاء أهل الجنة يوم القيامة»[٩].

وروى الطبرانى من حديث بقيَّة، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن المهاصر بن حبيب، عن عبيدة

(١) المسند (٢/ ٣٤١).

(٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٩٢) من طريق محمد بن حرب الواسطى به، وقال: «غريب من حديث مكحول، لم نكتبه إلا من حديث ابن حرب».

(٣) فى ط: «غرابته».

(٤) مسند أبى يعلى (١١/ ٤٣٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٦٣): «فيه عبد الله بن سعيد بن أبى سعيد المقبرى وهو متروك».

(٥) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).

(٦) فى ط: «من».

(٧) تاريخ دمشق (١٧/ ١٠ «المخطوط»).

(٨) فى ط: «مسورة».

(٩) المعجم الكبير (٣/ ١٣٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٦١): «فيه إسحاق المدنى وهو ضعيف».

المليكى، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «يا أهل القرآن، لا توسَّدوا القرآن، واتلوه حَقّ تلاوته من آناء الليل والنهار، وتغنوه وتَقَنَّوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تستعجلوا ثوابه، فإن له ثَوابَيْن[1]»[2].

وفى حديث عقبة بن عامر نحوه، كما تقدم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا ابن لَهيعَة، عن مشْرَح، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن القرآن جُعِل فى إهابٍ ثم ألقى فى النار ما احترق»[3].

تفرد به. قيل: معناه: أن الجسد الذى يقرأ القرآن [لاتمسه النار][4].

وفى سُنَن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نَهِيكٍ، عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «من تعلم القرآن [5] ثم تركه فقد عصانى»[6].

وفى حديث رواه أبو يعلى من طريق ليث، عن مجاهد، عن أبى سعيد مرفوعاً: «عليك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكْر الله وتلاوة القرآن، فإنَّه نورٌ لك فى الأرض وذكرٌ لك فى السماء، واخْزُنْ لسانَكَ إلا من خَيرٍ، فإنَّك بذلك تَغْلِبَ الشيطان»[7].

وهكذا أذكُرُ آثاراً مرويّةً عن ابن أمِّ عَبْد [8] أحدِ قُرَّاء القرآن مِنَ الصَّحَابةِ المأمورِ بالتلاوة على نحوهم[9]:

روى الطبرانى، عن الدَّبَرِىّ، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبى إسحاق، قال ابن مسعود: كل آية فى كتاب الله خيرٌ مما فى السماء والأرض[10].

ومن طريق شعبة، عن أبى إسحاق، عن مرَّة قال ابن مسعود: من أراد العلم فلْيَتَبوَّأْ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين[11].

ومن طريق سُفيان وشعبة، عن ساعد [12] بن كُهَيل، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: إنّ هذا القرآن ليس فيه حرف إلاّ له حدٌّ، ولكلٍّ حد مَطْلَعٌ [13].

ومن حديث الثورى، عن إسماعيل بن أبى خالد[14]، عن سيار أبى الحكم، عن ابن مسعودٍ أنه قال: أعربوا هذا القرآن فإنه عربىٌّ، وسيجىءُ قوم يُثَقِّفُونه وليسوا بخياركم[15].

---

(1) فى ط: «ثوابا».
(2) قال الهيثمى فى المجمع (2/ 252): «رواه الطبرانى فى الكبير وفيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».
(3) المسند (4/ 151).
(4) زيادة من ط.
(5) فى سنن ابن ماجة: «الرمى».
(6) سنن ابن ماجه برقم (2814).
(7) مسند أبى يعلى (2/ 284) وليث بن أبى سليم ضعيف.
(8) فى ط: «عن ابن أم عبد عبد الله بن مسعود».
(9) فى ط: «حرفهم».
(10) المعجم الكبير (9/ 145).
(11) المعجم الكبير (9/ 146).
(12) فى ط: «سلمة».
(13) المعجم الكبير (9/ 146).
(14) فى ط: «إسماعيل بن خالد».
(15) المعجم الكبير (9/ 150).

والثورى، عن عاصم، عن زرٍّ، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر فى المصحف، وإذا اختلفتم فى ياءٍ أو تاءٍ فاجعلوها ياءً، ذكّروا القرآن فإنه مذكَّر[١].

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن عبد العزيز بن رفيع، عن شَدَّاد[٢] بن مَعْقل، سَمِعْتُ ابن مسعود يقول: أول ما تفقدونَ من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة، وَلَيُصَلِّيَنَّ قومٌ لا خَلاَقَ لهم، ولينزعنَّ قومٌ من بين أظهركم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألسنا نقرأُ القرآن وقد أثبتناه فى مصاحفنا؟ قال: يُسْرَى على القرآن ليلاً فَيُذْهَبُ به من أجواف الرجال فلا يبقى فى الأرض منه شىء ـ وفى رواية: لا يبقى فى مصحف منه شىءٌ ـ ويصبح الناسُ فُقَرَاءَ كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٦][٣].

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنى شعبة، عن على بن بذيمة[٤]، عن أبى عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قال: من قرأ القرآن فى أقَلَّ من ثلاثٍ فهو راجز[٥].

قال هشام عن الحسَنِ: إنه بلغه عن ابن مسعود مثلُ ذلك.

ومن طريق الأعمش، عن أبى وائلٍ قال: كان عبد الله بن مسعود يقل الصوم، فيقال له فى ذلك، فيقول: إنى إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن القراءةِ والصلاة، والقراءة والصلاة أحبُّ إلىَّ[٦].

مقدمة مفيدة

قال أبو بكر بن الأنبارى: حدثنا إسماعيل بن إسحاقَ القاضى، عن حجاج بن منْهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل فى المدينة من القرآن البقرة، وآل عمرانَ، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنُّور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبى لمَ تُحَرِّم، وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة.

فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية، وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان[٧].

وأما كلماته، فقال الفضل بن شاذان، عن عطاءِ بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفُه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثُمائةِ ألفِ

(١) المعجم الكبير (٩/ ١٥٢).
(٢) فى ط: «مقداد».
(٣) المعجم الكبير (٩/ ١٥٢) والمصنف لعبد الرزاق (٥٩٨٠).
(٤) فى ط: «على بن زيد».
(٥) المعجم الكبير (٩/ ١٥٤).
(٦) المعجم الكبير (٩/ ١٩٥).
(٧) تفسير القرطبى (١/ ٦٥).

حرفٍ وواحدٌ وعشرون ألفَ حَرْفٍ ومائةٌ وثمانونَ حرفاً.

وقال الفضل، عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً.

وقال سَلاَّم أبو محمد الحمانيّ: إنّ الحجاج جمع القراء والحفاظ والكُتَّاب فقال: أخبرونى عن القرآن كُلِّه كم من حرف هو؟ قال: فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثُمائة ألف حَرْف وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً. قال: فأَخبرونى عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله فى الكهف: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]، وثُلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثانى على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره. وسُبُعُه الأول إلى الدال من قوله: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥]. والسُّبع الثاني إلى الباء من قوله فى الأعراف: ﴿ حَبِطَت ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، والثالث إلى الألف الثانية من: ﴿ أُكُلُهَا ﴾ فى الرعد [الرعد: ٣٥]، والرابع إلى الألف من قوله في الحج: ﴿ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ [الحج: ٦٧]، والخامس إلى الهاء من قوله فى الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والسادس إلى الواو من قوله فى الفتح: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: عملنا ذلك فى أربعة أشهر.

قالوا: وكان الحجاج يقرأ فى كلِّ ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثانى إلى ﴿ ولْيَتَلَطَّفْ ﴾ [الكهف: ١٩]، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن. وقد ذكر الشيخ أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان خلافاً فى هذا كله، والله أعلم[١].

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات فى المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد فى تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث فى مسند أحمدَ وسُنَنِ أبى داودَ وابن ماجَهْ وغيرهما [٢] عن أوس بن حُذَيفة أنَّه سَأَلَ أصحابَ رسول الله ﷺ فى حياته: كيف يُحَزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرةَ وثلاثَ عَشْرَةَ، وحزْبُ المُفَصَّل من قاف حتى يختم[٣].

قال القرطبى: أجمعوا أنه ليس فى القرآن شىء من التراكيب الأعجمية؟ وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شىء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلانى والطبرى وقالا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات[٤].

فصل

واختلفوا [٥] فى معنى السورة: ممَّ هى مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. قال النابغة:

ألم تر أنَّ الله أعطاكَ سورَةً ... تَرَى كُلَّ مَلْك دُونها يَتَذَبْذَبُ[٦]

فكأن القارئ يتنقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت

(١) انظر: تفسير القرطبى (١/ ٦٤).
(٢) فى ط: «غيرهما».
(٣) المسند (٤/ ٩) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٥).
(٤) تفسير القرطبى (١/ ٦٨).
(٥) فى ط: «واختلف».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٠٥).

سُورَةً لكونها قِطْعةً من القرآن وجزءًا منه، مأخوذ من أسآر الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. وقيل: لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سُورَةً.

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّى سورُ البلد لإحاطته بمنازِله ودُوره، والله أعلم.

وجمع السورة سُوَرٌ بفتح الواو، وقد تُجمع [١] على سُورَاتٍ وسُوْرَات.

وأما الآية فمن العلامَة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصاله، أى: هى بائنة من أختها. قال [٢] الله تعالى: ﴿إنَّ آيَةَ مُلْكِه﴾[البقرة: ٢٤٨]، وقال النابغة:

تَوَهَّمْتُ آيات لها فَعَرَفْتُها لستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابع[٣]

وقيل: لأنها جماعةٌ حروفٍ من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآيتهم، أى: بجماعتهم. قال الشاعر[٤]:

خرَجْنَا من النَّقبين لا حَىَّ مثلُنا بآيتنا نُزْجِى اللقاحَ المَطَافِلا

وقيل: سُمِّيت آيةً لأنها عَجَبٌ يَعْجز البَشر عن التكلّم بمثلها.

قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة مثل أَكَمَة وشَجَرَة، تحرَّكت الياءُ وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية، بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائى: آيِيَة على وزن آمنة، فَقُلبت ألفاً، ثم حُذفت لالتباسها.

وقال الفرَّاء: أصلها أَيَّة ـ بتشديد الياء ـ فَقُلِبَت الأولى ألفاً، كراهيةَ التشديد فصارت آية، وجمعُها: آىٌ وآياىٌ وآياتٌ.

وأما الكلمة فهى اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون [٥] عشرة أحرف: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور:٥٥]، و ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢]، وقد تكون الكلمة آية، مثل: والفجر، والضحى، والعَصْر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم ـ فى قول الكوفيين ـ و﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لايسمى هذه آيات بل يقول: هى فواتح السُّوَرِ. وقال أبو عَمْرو الدانىّ: لا أعلم كلمةً هى وحدها آيةٌ إلا قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ فى سورة الرحمن [الرحمن:٦٤].

آخر المقدمة

---

(١) فى ط: «يجمع». (٢) فى ط: «ومنه قول».

(٣) البيت فى تفسير القرطبى (١/ ٦٦).

(٤) البيت لبرج بن مسهر الطائى، وهو فى تفسير القرطبى (١/ ٦٦).

(٥) فى ط: «تكون».

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقاضي القضاة الامام أبي السعود

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبين له من شعائر الشرائع كل ماجل ودق ، أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج قرآناً عربياً غير ذى عوج ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ، ناطقاً بكل أمر رشيد هادياً إلى صراط العزيز الحميد آمراً بعبادة الصمد المعبود ، كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه الجلود ، تكاد الرواسى لهيبته تمور ويذوب منه الحديد ويميع صم الصخور ، حقيقاً بأن يسير به الجبال ، وييسر به كل صعب محال ، معجزاً ألجم كل مصقع من مهرة قحطان ، وبكت كل مفلق من سحرة البيان ، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ، نزله عليه على فترة من الرسل ، ليرشد الأمة إلى أقوم السبل ، فهداهم إلى الحق وهم فى ضلال مبين ، فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين ، فمن اتبع هداه فقد فاز بمناه ، وأما من عانده وعصاه واتخذ إلهه هواه فقد هام فى موامى الردى وتردى فى مهاوى الزور ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، صلى الله عليه وعلى آله الأخيار وصحبه الأبرار ماتناوبت الأنواء وتعاقبت الظلم والأضواء ، وعلى من تبعهم بإحسان مدى الدهور والأزمان .

وبعد : فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الهادى (أبو السعود محمد بن محمد العمادى) إن الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وما كان حرف منها مسطوراً والحكمة الكبرى فى تخمير طينة آدم ولم يكن شيئاً مذكوراً ليست إلا معرفة الصانع المجيد وعبادة البارىء المبدىء المعيد ، ولا سبيل إلى ذاك المطلب الجليل سوى الوقوف على مواقف التنزيل ، فإنه عز سلطانه وبهر برهانه وإن سطر آيات قدرته فى صحائف الأكوان ونصب رايات وحدته فى صفائح الأعراض والأعيان ، وجعل كل ذرة من ذرات العالم وكل قطرة من قطرات العلم وكل نقطة جرى عليها قلم الإبداع وكل حرف رقم فى لوح الإختراع مرآة لمشاهدة جماله ومطالعة صفات كماله حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون ، برهاناً جلياً لاريب فيه ومنهاجاً سوياً لا يضل من ينتحيه بل ناطقاً يتلو آيات ربه ، فهل من سامع واع ومجيب صادق ، فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويردجوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة بأوضح عبارة ويلوح أخرى

بألطف إشارة ، لكن الإستدلال بتلك الآيات والدلائل والإستشهاد بتيك الأمارات والمخايل والتنبيه لتلك الإشارات السرية والتفطن لمعانى تلك العبارات العبقرية وما فى تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكنوز آثار التعاجيب والعبر مما لا يطيق به عقول البشر إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر فإذن مدار المراد ليس إلا كلام رب العباد إذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينية والمفسر لمشكلات الآيات التكوينية ، والكاشف عن خفايا حظائر القدس والمطلع على خبايا سرائر الأنس وبه تكتسب الملكات الفاخرة وبه يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة كما وأنه أيضاً من علو الشأن وسمو المكان ونهاية الغموض والإعضال وصعوبة المأخذ وعزة المنال فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية أعز من بيض الأنوق وأبعد من مناط العيوق لا يتسنى العروج إلى معارجه الرفيعة ولا يتأتى الرقى إلى مدارجه المنيعة كيف لا وأنه مع كونه متضمناً لدقائق العلوم النظرية والعملية ومنطوياً على دقائق الفنون الخفية والجلية حاوياً لتفاصيل الأحكام الشرعية ومحيطاً بمناط الدلائل الأصلية والفرعية منبئاً عن أسرار الحقائق والنعوت مخبراً بأطوار الملك والملكوت عليه يدور فلك الأوامر والنواهى وإليه يستند معرفة الأشياء كما هى قد نسج على أغرب منوال وأبدع طراز واحتجبت طلعته بسبحات الإعجاز طويت حقائقه الآبية عن العقول وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول يرد عيون العقول سبحانه ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه .

ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير فى كل عصر من الأعصار وتولى لتيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير فى كل قطر من الأقطار فغاصوا فى لججه وخاضوا فى ثبجه فنظموا فرائده فى سلك التحرير وأبرزوا فوائده فى معرض التقرير وصنفوا كتباً جليلة الأقدار وألفوا زبراً جميلة الآثار .

أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعانى وتشييد المبانى وتبيين المرام وترتيب الأحكام حسبما بلغهم من سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام .

وأما المتأخرون المدققون فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة وإبداء خباياه الفائقة ليعاين الناس دلائل إعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانية والزبر العظيمة السبحانية فدونوا أسفاراً بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الأذهان لاسيما الكشاف وأنوار التنزيل المتفردان بالشأن الجليل والنعت الجميل فإن كلا منهما قد أحرز قصب السبق أى إحراز كأنه مرآة لاجتلاء وجه الإعجاز صحائفهما مرايا المزايا الحسان وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقيان ولقد كان فى سوابق الأيام وسوالف الدهور والأعوام أوان اشتغالى بمطالعتهما وممارستهما وزمان انتصابى لمفاوضتهما ومدارستهما يدور فى خلدى على استمرار آناء الليل وأطراف النهار أن أنظم درر فوائدهما فى سمط دقيق وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق وأضيف إليها ما ألفيته فى تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق وصادفته فى أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ماسنح الفكر العليل بالعناية الربانية وسمح به

النظر الكليل بالهداية السبحانية من عوارف معارف يمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب وغرائب رغائب ترنوا إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام فى مداحض الأقدام وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الأنام فى معارك أفكار يشتبه فيها الشؤن ومدارك أنظار يختلط فيها الظنون وأبرزمن وراء أستار الكمون من دقائق السر المخزون فى خزائن الكتاب المكنون ما تطمئن إليه النفوس وتقر به العيون من خفايا الرموز وخبايا الكنوز وأهديها إلى الخزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخرة لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض واصطفاه لسلطنتها فى الطول والعرض ألا وهو السلطان الأسعد الأعظم والخاقان الأمجد الأفخم مالك الإمامة العظمى والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى كابراً عن كابر رافع رايات الدين الأزهر موضح آيات الشرع الأنور مرغم أنوف الفراعنة والجبابرة معفر جباه القياصرة والأكاسرة فاتح بلاد المشارق والمغارب بنصر الله العزيز وجنده الغالب الهمام الذى شرق عزمه المنير فانتهى إلى المشرق الأسنى وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو دنا بخميس عرمرم متزاحم الأفواج وعسكر خضم متلاطم الأمواج فأصبح ما بين أفق الطلوع والغروب وما بين نقطتى الشمال والجنوب منتظما فى سلك ولاياته الواسعة ومندرجا تحت ظلال راياته الرائعة فأصبحت منابر الربع المسكون مشرقة بذكر اسمه الميمون فياله من ملك استوعب ملكه البر البسيط واستغرق فلكه وجه البحر المحيط فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه أو نصبت عليه ألويته وأعلامه مالك ممالك العالم ظل الله الظليل على كافة الأمم قاصم القياصرة وقاهر القروم سلطان العرب والعجم والروم وسلطان المشرقين وخاقان الخافقين الإمام المقتدر بالقدرة الربانية والخليفة المعتز بالعزة السبحانية المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين وحماية المقامين الجميلين المفخمين ناشر القوانين السلطانية عاشر الخواقين العثمانية السلطان ابن السلطان السلطان سليمان خان بن السلطان المظفر المنصور والخاقان الموقر المشهور صاحب المغازى المشهورة فى أقطار الأمصار والفتوحات المذكورة فى صحائف الأسفار السلطان سليم خان بن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان لازالت سلسلة سلطنته متسلسلة إلى انتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة فى روضة الرضوان .

وكنت أتردد فى ذلك بين إقدام وإحجام لقصور شأنى وعزة المرام أين الحضيض من الذرى شتان بين الثريا والثرى وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك واقتياد الجوزاء من بروج الأفلاك فمضت عليه الدهور والسنون وتغيرت الأطوار وتبدلت الشئون فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة فى قضاء البلاد وأخرى فى قضاء العساكر والأجناد فحال بينى وبين ما كنت أخال تراكم المهمات وتزاحم الأشغال وجموم العوارض والعلائق وهجوم الصوارف والعوائق والتردد إلى المغازى والأسفار والتنقل من دار إلى دار وكنت فى تضاعيف هاتيك الأمور أقدر فى نفسى أن أنتهز نهزة من الدهور ويتسنى لى القرار وتطمئن بى الدار وأظفر حينئذ بوقت خال أتبتل فيه إلى جناب ذى العظمة والجلال وأوجه إليه وجهى وأسلم له سرى وعلانيتى وأنظر إلى كل شىء بعين الشهود وأتعرف سر الحق فى كل موجود تلافيا لما قد فات واستعداداً لما هو آت وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه وأتولى لتكميل ما توجهت إليه برفاهة واطمئنان وحضور

قلب وفراغ جنان فبينما أنافى هذا الخيال إذ بدا لى مالم يخطر بالبال تحولت الأحوال والدهر حول فوقعت فى أمر أشق من الأول أمرت بحل مشكلات الأنام فيما شجر بينهم من النزاع والخصام فلقيت معضلة طويلة الذيول وصرت كالهارب من المطر إلى السيول فبلغ السيل الزبى وغمرنى أى غمر غوارب ماجرى بين زيد وعمرو فأضحيت فى ضيق المجال وسعة الأشغال أشهر من يضرب بها الأمثال فجعلت أتمثل بقول من قال:

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة * وأستمرض الأيام وهى صحائح

إلى أن تغشتنى وقيت حوادث * تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال ورأيت أن الفرصة على جناح الفوات وشمل الأسباب فى شرف الشتات وقد مسنى الكبر وتضاءلت القوى والقدر ودنا الأجل من الحلول وأشرفت شمس الحياة على الأفول عزمت على إنشاء ماكنت أنويه وتوجهت إلى إملاء ماظلت أبتغيه ناوياً أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وإنعامه ﴿إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم﴾ فشرعت فيه مع تفاقم المكاره على وتزاحم المشادة بين يدى متضرعا إلى رب العظمة والجبروت خلاق عالم الملك والملكوت فى أن يعصمنى عن الزيغ والزلل ويقينى مصارع السوء فى القول والعمل ويوفقنى لتحصيل ماأرومه وأرجوه ويهدينى إلى تكميله على أحسن الوجوه ويجعله خير عدة وعتاد أتمتع به يوم المعاد فيامن توجهت وجوه الذل والإبتهال نحو بابه المنيع ورفعت أيدى الضراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع أفض علينا شوارق أنوار التوفيق وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق وثبت أقدامنا على مناهج هداك وأنطقنا بما فيه أمرك ورضاك ولا تكلنا إلى أنفسنا فى لحظة ولا آن وخذ بناصيتنا إلى الخير حيث كان جئناك على جباه الإستكانة ضارعين ولأبواب فيضك قارعين أنت الملاذ فى كل أمر مهم وأنت المعاذ فى كل خطب ملم لارب غيرك ولاخير إلا خيرك بيدك مقاليد الأمور لك الخلق والأمر وإليك النشور ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة المفسر

حمداً لمن جعل روح معاني الأكوان تفسيراً لآيات قدرته. وصير نقوش أشباح الأعيان بياناً لبينات وحدته. وأظهر من غيب هويته قرآناً غدا فرقانه كشافاً عن فرق الكتب الإلهية الغياهب. وأبرز من سجف ألوهيته نوراً أشرق على مرايا الكائنات. بحسب مزايا الاستعدادات. فاتضحت من معالم العوالم المراتب. وصلاة وسلاماً على أول درة أضاءت من الكنز المخفي في ظلمة عماء القدم. فأبصرتها عين الوجود. وعلة إيجاد كل درة برأتها يد الحكيم إذ تردت في هوة العدم. فعادت ترفل بأردية كرم وجود مهبط الوحي الشفاهي الذي ارتفع رأس الروح الأمين بالهبوط إلى موطىء أقدامه ومعدن السر الإلهي. الذي انقطع فكر الملأ الأعلى دون ذكر الوصول إلى أدنى مقامه. فهو النبي الذي أبرزه مولاه من ظهور الكمون إلى حواشي متون الظهور. ليكون شرحاً لكتاب صفاته وتقريراً ورفعه بتخصيصه من بين العموم بمظهرية سره المستور. وأنزل عليه قرآناً عربياً غير ذي عوج ليكون للعالمين نذيراً.

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وعلى آله وأصحابه مطالع أنوار التنزيل ومغارب أسرار التأويل. الذين دخلوا عكاظ الحقائق بالوساطة المحمدية. فما برحوا حتى ربحوا فباعوا نفوساً وشروا نفيساً وقطعوا أسباب العلائق بالهمم الحقيقية. فما عرجوا حتى عرجوا فلقوا عزيزاً وألقوا خسيساً. فهم النجوم المشرقة بنور الهدى والرجوم المحرقة لشياطين الردى رضي الله عنهم وأرضاهم. ووالى متبعيهم وأولاهم، ما سرحت روح المعاني في رياض القرآن، وسبحت أشباح المباني في حياض العرفان.

«أما بعد» فيقول عيبة العيوب وذنوب الذنوب. أفقر العباد إليه عز شأنه مدرس دار السلطنة العلية، ومفتي بغداد المحمية أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي عفي عنه. إن العلوم وإن تباينت أصولها، وغربت وشرقت فصولها، واختلفت أحوالها. وأتهمت وأنجدت أقوالها. وتنوعت أبوابها. وأشأمت وأعرقت أصحابها وتغايرت مسائلها. وأيمنت وأيسرت وسائلها، فهي بأسرها مهمة ومعرفتها على العلات نعمة. إلا أن أعلاها قدراً، وأغلاها مهراً وأسناها مبنى، وأسماها معنى وأدقها فكراً وأرقها سراً، وأعرقها نسباً وأعرفها أباً وأقومها قيلاً وأقواها قبيلاً وأحلاها لساناً وأجلاها بياناً وأوضحها سبيلاً وأصحها دليلاً وأفصحها نطقاً. وأمنحها رفقاً العلوم الدينية. والفهوم اللدنية. فهي شمس ضحاها وبدر دجاها وخال وجنتها ولعس شفتها ودعج عيونها وغنج جفونها وحبب رضابها، وتنهد كعابها، ورقة كلامها، ولين قوامها.

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

فلا ينبغي لعاقل أن يستغرق النهار والليل إلا في غوص بحارها، أو يستنهض الرجل والخيل، إلا في سبر أغوارها. أو يصرف نفائس الأنفاس إلا في مهور أبكارها، أو ينفق بدر الأعمار إلا لتشوف بدر أسرارها.

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة على غير سلمى فهو دمع مضيع

وإن من ذلك علم التفسير الباحث عما أراده الله سبحانه بكلامه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فهو الحبل المتين والعروة الوثقى. والصراط المبين، والوزر الأقوى والأوقى، وإني ولله تعالى المنة مذ ميطت عني التمائم، ونيطت على رأسي العمائم لم أزل متطلباً لاستكشاف سره المكتوم، مترقباً لارتشاف رحيقه المختوم طالما فرقت نومي لجمع شوارده وفارقت قومي لوصال خرائده. فلو رأيتني وأنا أصافح بالجبين صفحات الكتاب من السهر، وأطالع ـ إن أعوز الشمع يوماً ـ على نور القمر، في كثير من ليالي الشهر وأمثالي إذ ذاك يرفلون في مطارف اللهو. ويرقلون في ميادين الزهو. ويؤثرون مسرات الأشباح على لذات الأرواح. ويهبون نفائس الأوقات، لنهب خسائس الشهوات. وأنا مع حداثة سني وضيق عطني لا تغرني حالهم ولا تغيرني أفعالهم. كأن لبنى لبانتي، ووصال سعدي سعادتي. حتى وقفت على كثير من حقائقه، ووفقت لحل وفير من دقائقه. وثقبت ـ والثناء لله تعالى ـ من دره بقلم فكري دراً مثمناً ولا بدع فأنا من فضل الله الشهاب وأبو الثناء. وقبل أن يكمل سني عشرين جعلت أصدح به وأصدع. وشرعت أدفع كثيراً من إشكالات الأشكال وأدفع وأتجاهر بما ألهمنيه ربي مما لم أظفر به في كتاب من دقائق التفسير. وأعلق على ما أغلق مما لم تعلق به ظفر كل ذي ذهن خطير. ولست أنا أول من منّ الله تعالى عليه بذلك، ولا آخر من سلك في هاتيك المسالك. فكم وكم للزمان ولد مثلي، وكم تفضل الفرد عز شأنه على كثير بأضعاف فضلي.

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذي الليالي كلها أخوات

إلا أن رياض هذه الأعصار عراها إعصار، وحياض تيك الأمصار اعتراها اعتصار. فصار العلم بالعيوق والعلماء أعز من بيض الأنوق، والفضل معلق بأجنحة النسور وميت حي الأدب لا يرجى له نشور.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولكن الملك المنان أبقى من فضله الكثير قليلاً من ذوي العرفان في هذه الأزمان، دينهم اقتناص الشوارد وديدنهم افتضاض أبكار الفوائد. يروون فيروون ويقدحون فيورون. لكل منهم مزية لا يستتر نورها ومرتبة لا ينتثر نورها. طالما اقتطفت من أزهارهم واقتبست من أنوارهم. وكم صدر منهم أودعت علمه صدري. وحبر فيهم أفنيت في فوائده حبري. ولم أزل مدة على هذه الحال لا أعبأ بما عبالي مما قيل أو يقال: كتاب الله لي أفضل مؤانس وسميري إذا احلولكت ظلمة الحنادس.

نعم السمير كتاب الله إن له حلاوة هي أحلى من جنى الضرب
به فنون المعاني قد جمعن فما تفتر من عجب إلا إلى عجب
أمر ونهي وأمثال وموعظة وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائف يجتليها كل ذي بصر وروضة يجتنيها كل ذي أدب

وكانت كثيراً ما تحدثني في القديم نفسي أن أحبس في قفص التحرير ما اصطاده الذهن بشبكة الفكر أو

اختطفه بأن الإلهام في جو حدسي. فأتعلل تارة بتشويش البال[1] بضيق الحال وأخرى بفرط الملال لسعة المجال. إلى أن رأيت في بعض ليالي الجمعة من رجب الأصم سنة الألف والمائتين والاثنتين والخمسين بعد هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رؤية لا أعدها أضغاث أحلام ولا أحسبها خيالات أوهام أن الله جل شأنه وعظم سلطانه أمرني بطي السماوات والأرض، ورتق فتقهما على الطول والعرض فرفعت يداً إلى السماء وخفضت الأخرى إلى مستقر الماء ثم انتبهت من نومتي، وأنا مستعظم رؤيتي، فجعلت أفتش لها عن تعبير فرأيت في بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير. فرددت حينئذ على النفس تعللها القديم وشرعت مستعيناً بالله تعالى العظيم، وكأني إن شاء الله تعالى عن قريب عند إتمامه بعون عالم سري ونجواي أنادي وأقول غير مبال بتشنيع جهول: هذا تأويل رؤياي، وكان الشروع في الليلة السادسة عشرة من شعبان المبارك من السنة المذكورة وهي السنة الرابعة والثلاثون من سني عمري جعلها الله تعالى بسني لطفه معمورة وقد تشرف الذهن المشتت بتأليفه وأحكمت غرف مغاني المعاني بمحكم ترصيفه، زمن خلافة خليفة الله الأعظم، وظله المبسوط على خليقته في العالم مجدد نظام القواعد المحمدية، ومحدد جهات العدالة الإسلامية سورة الحمد الذي أظهره الرحمن في صورة الملك لكسر سورة الكافرين، وآية السيف الذي عوده الفاطر والفتح والنصر وأيده بمرسلات الذاريات في كل عصر فويل للمنافقين، من نازعات أرواحهم إذا عبس صمصام عزمه المتين، حضرة مولانا السلطان ابن السلطان سلطان الثقلين وخادم الحرمين المجدد الغازي محمود خان العدلي ابن السلطان عبد الحميد خان أيده الرحمن وأبد ملكه ما دام الدوران آمين، وبعد أن أبرمت حبل النية ونشرت مطوي الأمنية وعرا المخاض قريحة الأذهان وقرب ظهور طفل التفسير للعيان جعلت أفكر ما اسمه وبماذا أدعوه إذا وضعته أمه فلم يظهر لي اسم تهتش له الضمائر وتبتش من سماعه الخواطر فعرضت الحال لدى حضرة وزير الوزراء ونور حديقة البهاء ونور حدقة الوزراء آية الله التي لا تنسخها آية، ورب النهى الذي ليس له نهاية وصاحب الأخلاق التي ملك بها القلوب ومعدن الأذواق التي يكاد أن يعلم معها الغيوب؛ مولانا علي رضا باشا لا زال له الرضا غطاء وفراشاً فسماه على الفور وبديهة ذهنه تغني عن الغور «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» فيا له اسم ما اسماه نسأل الله تعالى أن يطابقه مسماه وأحمد الله تعالى حمداً غضاً، وأصلي وأسلم على نبيه النبيه حتى يرضى. وقد آن وقت الشروع في المقصود مقدماً عليه عدة فوائد يليق أن تكتب بسواد العيون على صفحات الخدود فأقول: «الفائدة الأولى» في معنى التفسير والتأويل وبيان الحاجة إلى هذا العلم وشرفه. وأما معناهما فالتفسير تفعيل من الفسر وهو لغة البيان والكشف والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه، ويطلق التفسير على التعرية للانطلاق يقال فسرت الفرس إذا عريته لينطلق ولعله يرجع لمعنى الكشف كما لا يخفى بل كل تصاريف حروفه لا تخلو عن ذلك كما هو ظاهر لمن أمعن النظر. ورسموه بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك كمعرفة النسخ وسبب النزول وقصة توضح ما أبهم في القرآن ونحو ذلك. والتأويل من الأول وهو الرجوع والقول بأنه من الايالة وهي السياسة كأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه ليس بشيء واختلف في الفرق بين التفسير والتأويل فقال أبو عبيدة: هما بمعنى، وقال الراغب: التفسير أعم وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها في الكتب الإلهية وغيرها والتأويل في المعاني والجمل في

---

(١) أنكر جماعة من أهل اللغة مجيء مشوش وقالوا الصواب أن يقال هوشته فهو مهوش لأنه من الهوش وهو اختلاط الشيء. واثبته الجوهري فقال التشويش التخليط ووهمه صاحب القاموس. وقال ابن بري: إنه من كلام المولدين ولا أصل له في العربية. وقد اشتهر هذا اللفظ ووقع في كلام الزمخشري وغيره من أهل المعاني كقولهم هذا لف ونشر مشوش. ا هـ مصححه.

الكتب الإلهية خاصة؛ وقال الماتريدي: التفسير القطع بأن مراد الله تعالى كذا والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، وقيل: التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية. وقيل غير ذلك، وعندي أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه ما سمعتها وما لم تسمعها مخالفة للعرف اليوم إذ قد تعارف من غير نكير أن التأويل إشارة قدسية ومعارف سبحانية تنكشف من سجف العبارات للسالكين وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة فلا أظنك في مرية من رد هذه الأقوال أو بوجه ما فلا أراك ترضى إلا أن في كل كشف إرجاعاً وفي كل إرجاع كشفاً فافهم، وأما بيان الحاجة إليه فلأن فهم القرآن العظيم ـ المشتمل على الأحكام الشرعية التي هي مدار السعادة الأبدية وهو العروة الوثقى والصراط المستقيم ـ أمر عسير لا يهتدى إليه إلا بتوفيق من اللطيف الخبير حتى أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم على علو كعبهم في الفصاحة واستنارة بواطنهم بما أشرق عليها من مشكاة النبوة كانوا كثيراً ما يرجعون إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بالسؤال عن أشياء لم يعرجوا عليها ولم تصل أفهامهم إليها بل ربما التبس عليهم الحال ففهموا غير ما أراده الملك المتعال كما وقع لعدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود، ولا شك أنا محتاجون إلى ما كانوا محتاجين إليه وزيادة «وأما بيان شرفه» فلأن شرف العلم بشرف موضوعه وشرف معلومه وغايته وشدة الاحتياج إليه وهو حائز لجميعها، فإن موضوعه كلام الله تعالى وماذا عسى أن يقال فيه، ومعلومه مع أنه مراد الله تعالى الدال عليه كلامه جامع للعقائد الحقة والأحكام الشرعية وغيرها، وغايته الاعتصام بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والوصول إلى سعادة الدارين وشدة الاحتياج إليه ظاهرة مما تقدم بل هو رئيس جميع العلوم الدينية لكونها مأخوذة من الكتاب وهي تحتاج من حيث الثبوت أو من حيث الاعتداد إلى علم التفسير وهذا لا ينافي كون الكلام رئيسها أيضاً لأن علم التفسير لتوقفه على ثبوت كونه تعالى متكلماً يحتاج إلى الكلام والكلام لتوقف جميع مسائله من حيث الثبوت أو الاعتداد على الكتاب يتوقف على التفسير فيكون كل منهما رئيساً للآخر من وجه على أن رياسة التفسير بناء على ذلك الشرف مما لا ينتطح فيه كبشان، وأما الآثار الدالة على شرفه فكثيرة. أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة﴾ قال: المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، وأخرج أبو عبيدة عن الحسن قال: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيما أنزلت وما أراد بها، وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية لا أعرفها إلا أحزنتني لأني سمعت الله يقول: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» إلى غير ذلك.

«الفائدة الثانية» فيما يحتاجه التفسير ومعنى التفسير بالرأي ـ وحكم كلام السادة الصوفية في القرآن، فأما ما يحتاجه التفسير فأمور: «الأول» علم اللغة لأن به يعرف شرح مفردات الألفاظ ومعلولاتها بحسب الوضع ولا يكفي اليسير إذ قد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر فمن لم يكن عالماً بلغات العرب لا يحل له التفسير كما قاله مجاهد وينكل كما قاله مالك ـ وهذا مما لا شبهة فيه ـ نعم روي عن أحمد أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر فقال ما يعجبني ـ وهو ليس بنص في المنع عن بيان المدلول اللغوي للعارف كما لا يخفى. «الثاني» معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها وتركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو؛ أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال: حسن فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها ـ وفي قصة الأسود ما يغني عن الإطالة. «الثالث» علم المعاني والبيان والبديع، ويعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ـ وبالثاني خواصها من حيث اختلافها، وبالثالث وجوه تحسين

الكلام وهو الركن الأقوم واللازم الأعظم في هذا الشأن كما لا يخفى ذلك على من ذاق طعم العلوم ولو بطرف اللسان. «الرابع» تعيين مبهم وتبيين مجمل وسبب نزول ونسخ ويؤخذ ذلك من علم الحديث. «الخامس» معرفة الإجمال والتبيين والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد ودلالة الأمر والنهي وما أشبه هذا وأخذوه من أصول الفقه. «السادس» الكلام فيما يجوز على الله وما يجب له وما يستحيل عليه والنظر في النبوة ويؤخذ هذا من علم الكلام ولولاه يقع المفسر في ورطات. «السابع» علم القراءات لأنه به يعرف كيفية النطق بالقرآن، وبالقراءات ترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض هذا ـ وعد السيوطي مما يحتاج إليه المفسر علم التصريف وعلم الاشتقاق ـ وأنا أظن أن المهارة ببعض ما ذكرنا يترتب عليها ما يترتب عليهما من الثمرة وعد أيضاً علم الفقه ولم يعده غيره ولكل وجهة ـ وعد علم الموهبة أيضاً من ذلك. قال: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بالحديث «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم» ثم قال: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول هذا شيء ليس في قدرة الإنسان تحصيله وليس كما ظننت والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد إلى آخر ما قاله، وفيه أن علم الموهبة بعد تسليم أنه كسبي إنما يحتاج إليه في الاطلاع على الأسرار لا في أصل فهم معاني القرآن كما يفهمه كلام البرهان وكثير من المفسرين بصدد الثاني والواقفون على الأسرار ـ وقليل ما هم ـ لا يستطيعون التعبير عن كثير مما أفيض عليهم فضلاً عن تحريره وإقامة البرهان عليه على أن ذلك تأويل لا تفسير فلعل السيوطي أراد من عبارته معنى آخر يظهر لك بالتدبير فتدبر «وأما التفسير بالرأي» فالشائع المنع عنه واستدل عليه بما أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» وفي رواية عن أبي داود «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» ولا دليل في ذلك أما أولاً فلأن في صحة الحديث الأول مقالاً قال في المدخل في صحته نظر وإن صح فإنما أراد به ـ والله تعالى أعلم ـ فقد أخطأ الطريق إذ الطريق الرجوع في تفسير ألفاظه إلى أهل اللغة وفي نحو الناسخ والمنسوخ إلى الأخبار وفي بيان المراد منه إلى صاحب الشرع فإن لم يجد هناك وهنا فلا بأس بالفكرة ليستدل بما ورد على ما لم يرد أو أراد من قال بالقرآن قولاً يوافق هواه بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً له فيرد إليه بأي وجه فقد أخطأ فالباء على ذلك سببية أو يقال ذلك في المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله أو في الجزم بأن مراد الله تعالى كذا على القطع من غير دليل، وأما الحديث الثاني فله معنيان، الأول من قال في مشكل القرآن بما لا يعلم فهو متعرض لسخط الله تعالى، والثاني وصحح من قال: «في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده في النار» وأما ثانياً فلأن الأدلة على جواز الرأي والاجتهاد في القرآن كثيرة وهي تعارض ما يشعر بالمنع فقد قال تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء: ٨٣] وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: ٢٤] وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ [ص: ٢٩] وأخرج أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه» وقد دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لابن عباس بقوله «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه سئل هل خصكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بشيء؟ فقال: ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل في كتابه إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، والعجب كل العجب مما يزعم أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني التراكيب ولم ينظر إلى اختلاف التفاسير وتنوعها ولم يعلم أن ما ورد عنه صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك كالكبريت الأحمر فالذي ينبغي أن يعول عليه أن من كان متبحراً في علم اللسان مترقياً منه إلى ذوق العرفان وله في رياض العلوم الدينية أوفى مرتع، وفي حياضها أصفى مكرع يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد وقد غدا ذهنه لما أغلق من دقائق التحقيقات أحسن إقليد فذاك يجوز له أن يرتقي من علم

التفسير ذروته ويمتطي منه صهوته، وأما من صرف عمره بوساوس أرسطاطاليس واختار شوك القنافذ على ريش الطواويس فهو بمعزل عن فهم غوامض الكتاب وإدراك ما تضمنه من العجب العجاب، وأما كلام السادة الصوفية في القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلاً وإنما المراد الباطن فقط إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفي الشريعة بالكلية وحاشى سادتنا من ذلك كيف وقد حضوا على حفظ التفسير الظاهر وقالوا لا بد منه أولاً إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن قبل إحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب ومما يؤيد أن للقرآن ظاهراً وباطناً ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن فظهره التلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء. وقال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليتل القرآن، ومن المعلوم أن هذا لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر وقد قال بعض من يوثق به: لكل آية ستون ألف فهم، وروي عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع» قال ابن النقيب: إن ظاهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وباطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق، ومعنى قوله ولكل حرف حد أن لكل حرف منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه ومعنى قوله: ولكل حد مطلع أن لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعاً يتوصل به إلى معرفته ويوقف عن المراد به وقيل في رواية لكل آية ظهر وبطن وحد ومطلع والمذكور بوساطة الألفاظ وتأليفاتها وضعاً وإفادة وجعلها طرقاً إلى استنباط الأحكام الخمسة هو الظهر وروح الألفاظ أعني الكلام المعتلي عن المدارك الآلية بجواهر الروح القدسية هو البطن وإليه الإشارة بقول الأمير السابق. والحد إما بين الظهر والبطن يرتقى منه إليه وهو المدرك بالجمعية من الجمعية وإما بين البطن والمطلع فالمطلع مكان الاطلاع من الكلام النفسي إلى الاسم المتكلم المشار إليه بقول الصادق لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون، والحد بينهما يرتقى به من البطن إليه عند إدراك الرابطة بين الصفة والاسم واستهلاك صفة العبد تحت تجليات أنوار صفة المتكلم تعالى شأنه، وقيل الظهر التفسير والبطن التأويل والحد ما تتناهى إليه الفهوم من معنى الكلام والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام انتهى.

فلا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل بل أدنى ذرة من إيمان أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها المبدأ الفياض على بواطن من شاء من عباده ويا ليت شعري ماذا يصنع المنكر بقوله تعالى: ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ [يوسف: ١١١، الأنعام: ١٥٤، الأعراف: ١٤٥] وقوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ٣٨] ويا لله تعالى العجب كيف يقول باحتمال ديوان المتنبي وأبياته المعاني الكثيرة ولا يقول باشتمال قرآن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وآياته وهو كلام رب العالمين المنزل على خاتم المرسلين على ما شاء الله تعالى من المعاني المحتجبة وراء سرادقات تلك المباني ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ [النور: ١٦] بل ما من حادثة ترسم بقلم القضاء في لوح الزمان إلا وفي القرآن العظيم إشارة إليها فهو المشتمل على خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت.

وقد ذكر ابن خلكان في تاريخه أن السلطان صلاح الدين لما فتح مدينة حلب أنشد القاضي محيي الدين قصيدة بائية أجاد فيها كل الإجادة وكان من جملتها.

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال فسأل القاضي من أين لك هذا فقال: أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ [الروم: ١ ـ ٤] قال المؤرخ: فلم أزل أتطلب التفسير المذكور حتى وجدته على هذه الصورة وذكر له حساباً طويلاً وطريقاً في استخراجه وله نظائر كثيرة، ومن المشهور استنباط ابن الكمال فتح مصر على يد السلطان سليم من قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فالإنصاف كل الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز للدائرة المحمدية ما هم عليه واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل لكثرة العوائق والعلائق إليه.

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وسيأتي تتمة لهذا البحث إن شاء الله تعالى والله الهادي إلى سواء السبيل. «الفائدة الثالثة» اعلم أن لكتاب الله تعالى أسماء أنهاها شيدلة في البرهان خمسة وخمسين اسماً وذكر السيوطي بعد عدها في الإتقان وجوه تسميته بها ولم يذكر غير ذلك وعندي أنها كلها ترجع بعد التأمل الصادق إلى القرآن والفرقان رجوع أسماء الله تعالى إلى صفتي الجمال والجلال فهما الأصل فيها، وقد اختلف الناس في تحقيق لفظ القرآن، فالمروي عن الشافعي وبه قال جماعة أنه اسم علم غير مشتق خاص بهذا الكلام المنزل على النبي المرسل صلى الله تعالى عليه وسلم وهو معرفاً غير مهموز عنده كما حكاه عنه البيهقي والخطيب وغيرهما، والمنقول عن الأشعري وأقوام أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه وسمي به عندهم لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض، وقال الفراء هو مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ويشبه بعضها بعضاً وهو على هذين القولين بلا همز أيضاً ونونه أصلية، وقال الزجاج: هذا القول غلط والصواب أن ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ونقل حركتها إلى ما قبلها فهو عنده وصف مهموز على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته وسمي به لأنه جمع السور كما قال أبو عبيدة أو ثمرات الكتب السالفة كما قال الراغب أو لأن القارىء يظهره من فيه أخذاً من قولهم ما قرأت الناقة سلى قط[1] كما حكي عن قطرب وعند اللحياني وجماعة هو مصدر كالغفران سمي به المقروء تسمية المفعول بالمصدر، قال السيوطي: قلت والمختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي رضي الله تعالى عنه انتهى ـ وأنا متبرىء من حولي ـ أقول قول الزجاج أرق من وجه إذ الشائع فيه الهمز وبه قرأ السبعة ما عدا ابن كثير وقد وجه إسقاطها بما مر آنفاً ولم يوجه إثباتها وكأن قول السيوطي محض تقليد لإمام مذهبه حيث لم يذكر الدليل ولم يوضح السبيل، وعندي أنه في الأصل وصف أو مصدر كما قال الزجاج واللحياني لكنه نقل وجعل علماً شخصياً كما ذهب إليه الشافعي ومحققو الأصوليين وعليه لا يعرف القرآن لأن التعريف لا يكون إلا للحائق الكلية ولعل من عرفه بالكلام المنزل للإعجاز بسورة منه أراد تصوير مفهوم لفظ القرآن وكذا من قال كالغزالي إنه ما نقل بين دفتي المصحف تواتراً أراد تخصيص الاسم بأحد الأقسام الثلاثة مما نقل بين الدفتين ومما لم ينقل كالمنسوخ تلاوته نحو ـ إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ـ وما نقل ولم يتواتر نحو ـ ثلاثة أيام متتابعات ـ ليعلم أن ذلك هو الدليل وعليه الأحكام من نحو منع التلاوة والمس محدثاً وإلا فيرد على الأول إن أريد التمييز أن كونه للإعجاز ليس لازماً بيناً إذ لا يعرفه إلا الأفراد من العلماء فضلاً عن أن يكون ذاتياً فكيف يصح لتعريف الحقيقة وتمييزها وهو إنما يكون بالذاتيات أو باللوازم البينة،

---

(١) أي ما أسقطت ولداً أي ما حملت قط.

وأيضاً ان معرفة السورة منه متوقفة على معرفته فيدور. ويرد على الثاني مثل ثاني ما ورد على الأول إذ معرفة المصحف موقوفة على معرفة القرآن إذ ليس هو إلا ما كتب فيه القرآن فأخذه في تعريفه دور أيضاً، هذا وقد قال ساداتنا الصوفية أفاض الله تعالى علينا من فتوحاتهم القدسية: إن القرآن إشارة إلى الذات التي يضمحل بها جميع الصفات فهي المجلى المسمى بالأحدية أنزلها الحق تعالى شأنه على نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليكون مشهد الأحدية من الأكوان، ومعنى هذا الإنزال أن الحقيقة الأحدية المتعالية في ذراها ظهرت فيه صلى الله تعالى عليه وسلم بكمالها وما ادخر عنه شيء بل أفيض عليه الكل كرماً إلهيّاً ذاتياً ووصف القرآن في بعض الآيات بالكريم لذلك إذ أي كرم يضاهي هذا الكرم، وأنى تقاس هذه النعمة بسائر النعم، وأما القرآن الحكيم فهوية الحقائق الإلهية يعرج العبد بالتحقق بها في الذات شيئاً فشيئاً على ما اقتضته الحكمة وإلى ذلك أشار الحق تعالى بقوله: ﴿ورتلناه ترتيلا﴾ [الفرقان: ٣٢] وهذا الحكم لا ينقطع أبداً إذ لا يزال العبد في ترقّ والحق في تجلّ فسبحان من لا تقيده الأكوان وهو كل يوم في شأن، وأما القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر: ٨٧] فهو إشارة إلى الجملة الذاتية لا باعتبار النزول ولا باعتبار المكانة بل مطلق الأحدية الذاتية التي هي في مطلق الهوية الجامعة لجميع المراتب والصفات والشؤون والاعتبارات ولهذا قرن بالعظيم، وأما السبع المثاني فهو ما ظهر عليه في وجوده من التحقق بالصفات السبع، وأما قوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ [الرحمن: ٢] فهو إشارة إلى أن العبد إذا تجلى عليه الرحمن وجد لذة رحمانية تكسبه معرفة قرآنية فلا يعلم الحق إلا من طريق أسمائه وصفاته، وأما الفرقان عندهم فإشارة إلى حقيقة الأسماء والصفات على اختلاف تنوعاتها فباعتباراتها تتميز كل صفة واسم من غيرها فحصل الفرق في نفس الحق من حيث اسماؤه وصفاته فإن اسمه المنعم غير اسمه المنتقم وصفة الرضا غير صفة الغضب وإليه الإشارة بقوله: «سبقت رحمتي غضبي» وهي متفاوتة المراتب في الفضل نظراً إلى أعيانها لا باعتبار أن في شيء منها نقصاً أو مفضولية ولهذا حكمت بعضها على بعض كما يشير إليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك» فكانت المعافاة أفضل من العقوبة والرضا أفضل من السخط فأعاذه بالفاضل مما يليه، وكذا أعاذه بذاته من ذاته فكما أن الفرق حاصل في الأفعال كذلك في الصفات بل في نفس وأحدية الذات التي لا فرق فيها لكن من غريب شؤونها جمعها النقيضين. قال أبو سعيد: عرفت الله تعالى بجمعه بين الضدين، ولكونه صلى الله تعالى عليه وسلم مظهراً للقرآن والفرقان كان خاتم النبيين، وإمام المرسلين. لأنه ما ترك شيئاً يحتاج إليه إلا وقد جاء به فلا يجد الذي يأتي بعده من الكمال شيئاً مما ينبغي أن ينبه عليه. قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ [الإسراء: ١٢﴾. إلى غير ذلك من الآيات.

«وقد يقال»: القرآن والفرقان إشارتان إلى مقام الجمع والفرق بأقسامهما. قالوا: ولا بد للعبد الكامل منهما، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له. والجمع عندهم شهود الأشياء بالله تعالى والتبري من الحول والقوة إلا بالله وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية والفناء عما سوى الله تعالى وهو المرتبة الأحدية، والفرق أنواع؛ فرق أول وهو الاحتجاب بالخلق عن الحق وبقاء رسوم الخليقة بحالها؛ وفرق ثان وهو شهود قيام الخلق بالحق ورؤية الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة من غير احتجاب إحداهما عن الأخرى، وفرق الوصف وهو ظهور الذات الأحدية بأوصافها في الحضرة الواحدة، وفرق الجمع وهو تكثر الواحد بظهوره في المراتب التي هي ظهور شؤون الذات الأحدية وتلك الشؤون في الحقيقة اعتبارات محضة لا تحقق لها إلا عند بروز الواحد بصورها وكثيراً ما يطلقون القرآن

على العلم اللدني الإجمالي الجامع للحقائق كلها والفرقان على العلم التفصيلي الفارق بين الحق والباطل وكتاب الله تعالى جامع لذلك كله كما لا يخفى على أهله، وذكر الشيخ الأكبر قدس سره أن القرآن يتضمن الفرقان، والفرقان لا يتضمن القرآن لأن تفاصيل المراتب والأسماء المقتضية لها موجودة في الجمع والجمع لا يوجد في التفاصيل ولهذا ما اختص بالقرآن إلا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فليفهم. ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويزيل بعلمه جهلنا إنه على ما يشاء قدير. «الفائدة الرابعة» في تحقيق معنى أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق: «اعلم» أن هذه المسألة من أمهات المسائل الدينية والمباحث الكلامية كم زلت فيها أقدام وضلت عن الحق بها أقوام وهي وإن كانت مشروحة في كتب المتقدمين مبسوطة في زبر المتأخرين لكني بحول من عز حوله وفضل من غمرنا فضله أوردها في هذا الكتاب ليتذكر أولو الألباب بأسلوب عجيب وتحقيق غريب لا أظنك شنفت سمعك بمثل لآليه، ولا نورت بصرك بشبه بدر لياليه، فماء ولا كصدي ومرعى ولا كالسعدان.

وما كل زهر ينبت الروض طيب ولا كل كحل للنواظر إثمد

«فأقول» إن الإنسان له كلام بمعنى التكلم الذي هو مصدر وكلام بمعنى المتكلم به الذي هو الحاصل بالمصدر. ولفظ الكلام موضوع لغة للثاني قليلاً كان أو كثيراً حقيقة كان أو حكماً. وقد يستعمل استعمال المصدر كما ذكره الرضي وكل من المعنيين إما لفظي أو نفسي «فالأول» من اللفظي فعل الإنسان باللسان وما يساعده من المخارج «والثاني» منه كيفية في الصوت المحسوس «والأول» من النفسي فعل قلب الإنسان ونفسه الذي لم يبرز إلى الجوارح «والثاني» كيفية في النفس إذ لا صوت محسوساً عادة فيها وإنما هو صوت معنوي مخيل. أما الكلام اللفظي بمعنييه فمحل وفاق. وأما النفسي فمعناه الأول تكلم الإنسان بكلمات ذهنية وألفاظ مخيلة يرتبها في الذهن على وجه إذا تلفظ بها بصوت محسوس كانت عين كلماته اللفظية، ومعناه الثاني هو هذه الكلمات الذهنية والألفاظ المخيلة المرتبة ترتيباً ذهنياً منطبقاً عليه الترتيب الخارجي.

والدليل على أن للنفس كلاماً بالمعنيين الكتاب والسنة فمن الآيات قوله تعالى: ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرٌ مكاناً﴾ [يوسف: ٧٧] فإن «قال» بدل من «أسر» أو استئناف بياني كأنه قيل فماذا قال في نفسه في ذلك الإسرار فقيل: ﴿قال أنتم شرٌ مكاناً﴾. وعلى التقديرين فالآية دالة على أن للنفس كلاماً بالمعنى المصدري وقولاً بالمعنى الحاصل بالمصدر وهو بدل من أسر والجملة بعدها وقوله تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلي﴾ [الزخرف: ٨٠] وفسر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم السر بما أسره ابن آدم في نفسه. وقوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله تعالى: ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي يقولون في أنفسهم كما هو الأسرع انسياقاً إلى الذهن، والآيات في ذلك كثيرة. ومن الأحاديث ما رواه الطبراني عن أم سلمة أنها سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سأله رجل فقال: «إني لأحدث نفسي بالشيء لو تكلمت به لأحبطت أجري فقال: لا يلقى ذلك الكلام إلا مؤمن» فسمى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الشيء المحدث به كلاماً مع أنه كلمات ذهنية والأصل في الإطلاق الحقيقة ولا صارف عنها. وقوله تعالى في الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» الحديث. وفيه دليل على أن للعبد كلاماً نفسياً بالمعنيين، وللرب أيضاً كلاماً نفسياً كذلك ولكن أين التراب من رب الأرباب؟!

«فالمعنى الأول» للحق تعالى شأنه صفة أزلية منافية للآفة الباطنية التي هي بمنزلة الخرس في التكلم الإنساني اللفظي ليس من جنس الحروف والألفاظ أصلاً وهي واحدة بالذات تتعدد تعلقاتها بحسب تعدد المتكلم به، وحاصل الحديث من تعلق تكلمه بذكر اسمي تعلق تكلمي بذكر اسمه، والتعلق من الأمور النسبية التي لا يضر تجددها، وحدوث المتعلق إنما يلزم في التعلق التنجيزي ولا ننكره، وأما التعلق المعنوي التقديري ومتعلقة فأزليان، ومنه ينكشف وجه صحة نسبة السكوت عن أشياء رحمة غير نسيان كما في الحديث إذ معناه أن تكلمه الأزلي لم يتعلق ببيانها مع تحقق اتصافه أزلاً بالتكلم النفسي، وعدم هذا التعلق الخاص لا يستدعي انتفاء الكلام الأزلي كما لا يخفى.

«والمعنى الثاني» له تعالى شأنه كلمات غيبية وهي ألفاظ حكمية مجردة عن المواد مطلقاً نسبية كانت أو خيالية أو روحانية، وتلك الكلمات أزلية مترتبة من غير تعاقب في الوضع الغيبي العلمي لا في الزمان إذ لا زمان، والتعاقب بين الأشياء من توابع كونها زمانية ويقربه من بعض الوجوه وقوع البصر على سطور الصفحة المشتملة على كلمات مرتبة في الوضع الكتابي دفعة فهي مع كونها مترتبة لا تعاقب في ظهورها فجميع معلومات الله الذي هو نور السماوات والأرض مكشوفة له أزلاً كما هي مكشوفة له فيما لا يزال ثم تلك الكلمات الغيبية المترتبة ترتباً وضعياً أزلياً يقدر بينها التعاقب فيما لا يزال، والقرآن كلام الله تعالى المنزل بهذا المعنى فهو كلمات غيبية مجردة عن المواد مترتبة في علمه أزلاً غير متعاقبة تحقيقاً بل تقديراً عند تلاوة الألسنة الكونية الزمانية، ومعنى تنزيلها إظهار صورها في المواد الروحانية والخيالية والحسية من الألفاظ المسموعة والذهنية والمكتوبة، ومن هنا قال السنيون: القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وهو مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور مقروء بالألسن مسموع بالآذان غير حال في شيء منها وهو في جميع هذه المراتب قرآن حقيقة شرعية معلوم من الدين بالضرورة، فقولهم غير حال إشارة إلى مرتبته النفسية الأزلية فإنه من الشؤون الذاتية ولم تفارق الذات ولا تفارقها أبداً ولكن الله تعالى أظهر صورها في الخيال والحس فصارت كلمات مخيلة وملفوظة مسموعة ومكتوبة مرئية فظهر في تلك المظاهر من غير حلول إذ هو فرع الانفصال وليس فليس، فالقرآن كلامه تعالى غير مخلوق وإن تنزل في هذه المراتب الحادثة ولم يخرج عن كونه منسوباً إليه «أما» في مرتبة الخيال فلقوله ﷺ: «أغنى الناس حملة القرآن من جعله الله تعالى في جوفه» وأما في مرتبة اللفظ فلقوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ [الأحقاف: ٢٩] وأما في مرتبة الكتابة فلقوله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وقول الإمام أحمد: لم يزل الله متكلماً كيف شاء وإذا شاء بلا كيف إشارة إلى مرتبتين، فالأول إلى كلامه في مرتبة التجلي والتنزل إلى مظهر له كقوله ﷺ: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان» الحديث، والثاني إلى مرتبة الكلام النفسي إذ الكيف من توابع مراتب التنزلات والكلام النفسي في مرتبة الذات مجرد عن المادة فارتفع الكيف بارتفاعها «فالحاصل» لم يزل الله تعالى متكلماً وموصوفاً بالكلام من حيث تجلى ومن حيث لا، فمن حيث تجليه في مظهر لكلامه كيف وإذا شاء لم يتكلم بما اقتضاه مظهر تجليه فيكون متكلماً بلا كيف كما كان ولم يزل، والأشعري إذا حققت الحال وجدته قائلاً: بأن لله تعالى كلاماً بمعنى التكلم وكلاماً بمعنى المتكلم به وأنه بالمعنى الثاني لم يزل متصفاً بكونه أمراً ونهياً وخبراً فإنها أقسام المتكلم به وأن الكلام النفسي بالمعنى الثاني حروفه غير عارضة للصوت في الحق والخلق غير أنها في الحق كلمات غيبية مجردة عن المواد أصلاً إذ كان الله تعالى ولم يكن شيء غيره، وفي الخلق كلمات مخيلة ذهنية فهي في مادة خيالية، فكلمات الكلام النفسي في جنابه تعالى كلمات حقيقية لكنها ألفاظ حكمة ولا يشترط اللفظ الحقيقي في كون الكلمة حقيقية إذ قد أطلق الفاروق الكلمة على أجزاء مقالته المخيلة

في خبر يوم السقيفة[١] والأصل في الإطلاق الحقيقة، فالأجزاء كلمات حقيقية لغوية مع أنها ليست ألفاظاً كذلك إذ ليست حروفها عارضة لصوت واللفظ الحقيقي ما كانت حروفه عارضة وهو لكونه صورة اللفظ النفسي الحكمي دال عليه وهو دال في النفس على معناه بلا شبهة ولا انفكاك فيصدق على اللفظ النفسي بمعناه أنه مدلول اللفظ الحقيقي ومعناه، فتفسير المعنى النفسي المشهور عن الأشعري بمدلول اللفظ وحده كما نقله صاحب المواقف عن الجمهور لا ينافي تفسيره بمجموع اللفظ والمعنى كما فسره هو أيضاً وذلك بأن يحمل اللفظ في قوله على النفسي وفي قول الجمهور على الحقيقي، ولا شك حينئذ أن مجموع النفسي ومعناه من حيث المجموع يصدق عليه أنه مدلول اللفظ الحقيقي وحده لأن اللفظ الحقيقي لكونه صورة النفسي في مرتبة تنزله دال عليه، ويدل على أن المراد المجموع قول إمام الحرمين في الإرشاد: ذهب أهل الحق إلى إثبات الكلام القائم بالنفس وهو القول أي المقول الذي يدور في الخلد وهو اللفظ النفسي الدال على معناه بلا انفكاك ـ نعم عبارة صاحب المواقف غير واضحة في المقصود وله مقالة مفردة في ذلك.

ومحصولها كما قال السيد قدس سره أن لفظ المعنى يطلق تارة على مدلول اللفظ وأخرى على الأمر القائم بالغير فالشيخ لما قال الكلام النفسي هو المعنى النفسي فهم الأصحاب منه أن مراده مدلول اللفظ وحده وهو القديم عنده، وأما العبارات فإنما تسمى كلاماً مجازاً لدلالته على ما هو كلام حقيقي حتى صرحوا بأن الألفاظ خاصة حادثة على مذهبه أيضاً لكنها ليست كلامه حقيقة، وهذا الذي فهموه من كلام الشيخ له لوازم كثيرة فاسدة كعدم إكفار من أنكر كلامية ما بين دفتي المصحف مع أنه علم من الدين ضرورة كونه كلام الله تعالى حقيقة، وكعدم المعارضة والتحدي بكلام الله الحقيقي، وكعدم كون المقروء والمحفوظ كلامه حقيقة إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتفطن في الأحكام الدينية، فوجب حمل كلام الشيخ على أنه أراد به المعنى الثاني فيكون الكلام النفسي عنده أمراً شاملاً للفظ والمعنى جميعاً قائماً بذات الله تعالى وهو مكتوب في المصاحف مقروء بالألسن محفوظ في الصدور وهو غير الكتابة والقراءة والحفظ الحادثة «وما يقال» من أن الحروف والألفاظ مترتبة متعاقبة فجوابه أن ذلك الترتب إنما هو في التلفظ بسبب عدم مساعدة الآلة، فالتلفظ حادث والأدلة الدالة على الحدوث يجب حملها على حدوثه دون حدوث الملفوظ جمعاً بين الأدلة وهذا الذي ذكرناه وإن كان مخالفاً لما عليه متأخرو أصحابنا إلا أنه بعد التأمل يعرف حقيته انتهى «واعتراضه» الدواني بوجوه قال «أما أولاً» فلأن مذهب الشيخ أن كلامه تعالى واحد وليس بأمر ولا نهي ولا خبر وإنما يصير أحد هذه الأمور بحسب التعلق وهذه الأوصاف لا تنطبق على الكلام اللفظي وإنما يصح تطبيقه على المعنى المقابل للفظ بضرب من التكلف «وأما ثانياً» فلأن كون الحروف والألفاظ قائمة بذاته تعالى من غير ترتب يفضي إلى كون الأصوات مع كونها أعراضاً سيالة موجودة بوجود لا تكون فيه سيالة وهو سفسطة من قبيل أن يقال الحركة توجد في بعض الموضوعات من غير ترتب وتعاقب بين أجزائها «وأما ثالثاً» فلأنه يؤدي إلى أن يكون الفرق بين ما يقوم بالقارىء من الألفاظ وبين ما يقوم بذاته تعالى باجتماع الأجزاء وعدم اجتماعها بسبب قصور الآلة «فنقول» هذا الفرق إن أوجب اختلاف الحقيقة فلا يكون القائم بذاته من جنس الألفاظ وإن لم يوجب وكان ما يقوم بالقارىء وما

---

(١) حيث قال: فلما سكت أي خطيب الانصار: ـ أردت أن اتكلم وكنت زورت في نفسي مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر ـ إلى أن قال ـ فكان هو أعلم مني وأوقر والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها ـ الأثر بطوله ا هـ منه.

يقوم بذاته تعالى حقيقة واحدة والتفاوت بينهما إنما يكون باجتماعه وعدمه اللذين هما من عوارض الحقيقة الواحدة كان بعض صفاته الحقيقية مجانساً لصفات المخلوقات.

«وأما رابعاً» فلأن لزوم ما ذكره من المفاسد وهم، فإن تكفير من أنكر كون ما بين الدفتين كلام الله تعالى إنما هو إذا اعتقد أنه من مخترعات البشر أما إذا اعتقد أنه ليس كلام الله بمعنى أنه ليس بالحقيقة صفة قائمة بذاته بل هو دال على الصفة القائمة بذاته لا يجوز تكفيره أصلاً كيف وهو مذهب أكثر الأشاعرة ما خلا المصنف وموافقيه. وما علم من الدين من كون ما بين الدفتين كلام الله تعالى حقيقة إنما هو بمعنى كونه دالاً على ما هو كلام الله تعالى حقيقة لا على أنه صفة قائمة بذاته تعالى وكيف يدعي أن من ضروريات الدين مع أنه خلاف ما نقله عن الأصحاب وكيف يزعم أن هذا الجم الغفير من الأشاعرة أنكروا ما هو من ضروريات الدين حتى يلزم تكفيرهم حاشاهم عن ذلك «وأما خامساً» فلأن الأدلة الدالة على النسخ لا يمكن حملها على التلفظ بل ترجع إلى الملفوظ كيف وبعضها مما لا يتعلق النسخ بالتلفظ به كما نسخ حكمه وبقي تلاوته انتهى «والجواب» أما عن الأول فهو أن الحق عز اسمه له كلام بمعنى التكلم وكلام بمعنى المتكلم به. وما هو أمر واحد، المعنى الأول وهو صفة واحدة تتعدد تعلقاتها بحسب تعدد المتكلم به من الكتب والكلمات وأنها ليست من جنس الحروف والألفاظ أصلاً لا الحقيقية ولا الحكمية وما ذكر في الاعتراض ينطبق عليه بلا كلفة «والدليل» على أن المنعوت بهذه الأوصاف عند الشيخ هو المعنى الأول، نقل الإمام أن الكلام الأزلي لم يزل متصفاً بكونه أمراً نهياً خبراً ولا شك أن هذه أقسام المتكلم به وكل من كان قائلاً بانقسام الثاني كان المنعوت بالوحدة ذاتاً والتعدد تعلقاً المعنى الأول عنده جمعاً بين الكلامين «وأما» عن الثاني فهو أن ذلك إنما يلزم إذا أريد من اللفظ الحقيقي؛ وأما إذا أريد النفسي الحكمي فلا ورود له لأن الألفاظ النفسية كلها مجتمعة الأجزاء في الوجود العلمي مع كونها مترتبة كما ذكره هو نفسه وكلام صاحب المواقف محتمل للتأويل كما تقدم فليحمل عليه سعياً بالإصلاح مهما أمكن «وأما» الثالث فهو أن الإيراد مبني على ظن ان المراد باللفظ الحقيقي مع أنه محتمل لأن يراد النفسي كما يقتضيه ظاهر تشبيهه بالقائم بنفس الحافظ. «وأما» الرابع فهو أن الكلام النفسي عند أهل الحق هو مجموع اللفظ النفسي والمعنى، ولكن ظاهر كلام صاحب المواقف يدل على أنه فهم من ظاهر كلام بعض الأصحاب أن مرادهم بالمعنى هو المقابل للفظ مجرداً عن اللفظ مطلقاً وقد سمعهم يقولون: إن الكلام اللفظي ليس كلامه تعالى حقيقة بل مجازاً، فإذا انضم قولهم بنفي كونه كلاماً حقيقة شرعية إلى قولهم في ظنه أن النفسي هو المعنى المقابل للفظ لزم من هذا ما هو في معنى القول يكون اللفظي من مخترعات البشر ولا يخفى استلزامه للمفاسد ولكن لم يريدوا بالمجاز الشرعي فإن إطلاق كلام الله تعالى المسموع متواتر فلا يتأتى نفيه لأحد بل المراد أن الكلام إنما يتبادر منه ما هو وصف للمتكلم وقائم به قياماً يقتضيه حقيقة الكلام وذات المتكلم في الحق والخلق على الوجه اللائق بكل - وأما ما يتلى فهو حروف عارضة للصوت الحادث ولا شك أنه ليس قائماً بذاته سبحانه من حيث هو هو بل هو صورة من صور كلامه القديم القائم به تعالى ومظهر من مظاهر تنزلاته فهو دال على الحقيقي القائم فسمي كلاماً حقيقة شرعية لذلك وفيه إطلاق لاسم الحقيقة على الصورة فيكون مجازاً من هذا الوجه وإلى هذا يشير كلام التفتازاني فلا يلزم شيء من المفاسد واعتراض صاحب المواقف مبني على ظنه «وأما الخامس» فهو أن كلام صاحب المواقف ليس نصاً في أن الضمير راجع إلى التلفظ بل يحتمل أن يكون راجعاً إلى الملفوظ وذلك أنه قال المعنى الذي في النفس لا ترتب فيه كما هو قائم بنفس الحافظ ولا ترتب فيه وقد مر أن المراد به مجموع اللفظ النفسي والمعنى كما يقتضيه ظاهر التشبيه بالقائم بنفس الحافظ ولا شك أنه لا ترتب فيه أي لا تعاقب فيه في الوجود العلمي وحينئذ فقولهم نعم

الترتب إنما يحصل في التلفظ معناه أن الترتب في المعنى النفسي الذي هو مجموع اللفظ النفسي والمعنى إنما يحصل في التلفظ الخارجي لضرورة عدم مساعدة الآلة، فقوله: وهو الذي هو حادث أي الملفوظ بالتلفظ الخارجي الذي هو الصورة حادث لا اللفظ النفسي وتحمل الأدلة التي تدل على الحدوث على حدوثه أي الملفوظ بالتلفظ الخارجي وعلى هذا لا ورود للاعتراض أصلاً «ومنهم» ومن اعترض أيضاً بأنهم اشتركوا في المعجزة أن تكون فعل الله تعالى أو ما يقوم مقامه كالنزول فلا يكون القرآن اللفظي الذي هو معجزة قديماً صفة له تعالى ولا يخفى أن المعجزة هو القرآن في مرتبة تنزله إلى الألفاظ الحقيقية العربية فكونه لفظاً حقيقياً عربياً مجعول[١] بالنص فيكون معجزة بلا شبهة، والقديم على ما حقق هو القرآن اللفظي النفسي الذي هو مجموع اللفظ النفسي والمعنى، وهذا واضح لمن ساعدته العناية، وقد شنع على الشيخ الأشعري في هذا المقام أقوام تشابهت قلوبهم ـ واتحدت أغراضهم ـ وإن اختلفت أساليبهم ـ وها أنا بحوله تعالى راد لاعتراضاتهم بعد نقلها غير هياب ولا وكل وإن اتسع علم أهلها فالبعوضة قد تدمي مقلة الأسد ـ وفضل الله تعالى ليس مقصوراً على أحد.

«فأقول» قال تلميذ مولانا الدواني عفيف الدين الايجي ما حاصله أن هذا الذي تدعيه الأشاعرة من أن للكلام معنى آخر يسمى النفسي باطل فإنا إذا قلنا زيد قائم فهناك أربعة أشياء «الأول» العبارة الصادرة عنه «والثاني» مدلول هذه العبارة وما وضع له هذه الألفاظ من المعاني المقصودة بها «الثالث» علمه بثبوت تلك النسبة وانتفائها.

«الرابع» ثبوت تلك النسبة وانتفاؤها في الواقع، والأخيران ليسا كلاماً اتفاقاً، والأول لا يمكن أن يكون كلام الله حقيقة على مذهبهم فبقي الثاني وكذا نقول في الأمر والنهي ها هنا ثلاثة أمور «الأول» الإرادة والكراهة الحقيقية «الثاني» اللفظ الصادر عنه «الثالث» مفهوم لفظه ومعناه ـ والأول ليس كلاماً اتفاقاً ـ والثاني كذلك على مذهبهم فبقي الثالث وبه صرح أكثر محققيهم وكونه كلاماً نفسياً ثابتاً لله تعالى شأنه محكوماً عليه بأحكام مختلفة باطل من وجوه: «الأول» أنه مخالف للعرف واللغة فإن الكلام فيهما ليس إلا المركب من الحروف «الثاني» أنه لا يوافق الشرع إذ قد ورد فيما لا يحصى كتاباً وسنة أن الله تعالى ينادي عباده ولا ريب أن النداء لا يكون إلا بصوت بل قد صرح به في الأخبار الصحيحة[٢] وباب المجاز وإن لم يغلق بعد إلا أن حمل ما يزيد على نحو مائة ألف من الصرائح على خلاف معناها مما لا يقبله العقل السليم «الثالث» أن ما قالوه من كون هذا المعنى النفسي واحداً يخالف العقل فإنه لا شك أن مدلول اللفظ في الأمر يخالف ومدلوله في النهي ـ ومدلول الخبر يخالف مدلول الإنشاء بل مدلول أمر مخصوص غير مدلول أمر آخر وكذا في الخبر ـ ولا يرتاب عاقل أن مدلول اللفظ لا يمكن أن يكون غير القرآن وسائر الكتب السماوية فيلزم أن يكون كل واحد مشتملاً على ما اشتمل عليه الآخر وليس كذلك وكيف يكون معنى واحد خبراً وانشاء محتملاً للتصديق والتكذيب وغير محتمل وهو جمع بين النفي والإثبات انتهى.

«ولا يخفى» أن مبنى جميع اعتراضاته على فهمه أن مرادهم بالمعنى النفسي هو مدلول اللفظ وحده أي المعنى المجرد عن مقارنة اللفظ. مطلقاً ولو حكمياً وقد عرفت أنه ليس كذلك بل المراد به مجموع اللفظ النفسي والمعنى وهو الذي يدور في الخلد وتدل عليه العبارات كما صرح به إمام الحرمين ـ وعليه إذا قال القائل زيد قائم فهناك أربعة

---

(١) قال تعالى ﴿انا جعلناه قرآناً عربياً﴾ هـ منه.

(٢) منها ما رواه البخاري عن أبي سعيد قال ﷺ «قال الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت إن الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» الحديث ا هـ منه.

أشياء كما ذكر المعترض وشيء خامس تركه وهو المراد وهي هذه الجملة بشرط وجودها في الذهن بألفاظ مخيلة ذهنية دالة على معانيها في النفس وهذا يعنونه بالكلام النفسي فلا محذور «ونقول» على سبيل التفصيل «أما الأول» فجوابه أنه إنما تتم المخالفة إذا لم يكن عندهم مجموع اللفظ النفسي والمعنى فحيث كان لا مخالفة لأن الكلام حينئذ مركب من الحروف إلا أنها نفسية غيبية في الحق ـ خيالية في الخلق «وأما الثاني» فجوابه أن هذا الذي لا يحصى ليس فيه سوى أن الحق سبحانه وتعالى متكلم بكلام حروفه عارضة للصوت لا أنه لا يتكلم إلا به فلا ينتهض ما ذكر حجة على الشيخ بل إذا أمعنت النظر رأيت ذلك حجة له حيث بين ان الله تعالى لا يتكلم بالوحي لفظاً حقيقياً إلا على طبق ما في علمه وكلما كان كذلك كان الكلام اللفظي صورة من صور الكلام النفسي ودليلاً من أدلة ثبوتها ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ [الأحزاب: ٤].

«وأما الثالث» فجوابه أن المنعزت بأنه واحد بالذات تتعدد تعلقاته هو الكلام بمعنى صفة المتكلم ووحدته مما لا شك لعاقل فيها ـ وأما الكلام النفسي بمعنى المتكلم به فليس عنده واحداً بل نص في الإبانة على انقسامه إلى الخبر والأمر والنهي في الأزل فلا اعتراض ـ وقال النجم سليمان الطوفي: إنما كان الكلام حقيقة في العبارة مجازاً في مدلولها لوجهين «أحدهما» أن المتبادر إلى فهم أهل اللغة من إطلاق الكلام إنما هو العبارة والمبادرة دليل الحقيقة «الثاني» أن الكلام مشتق من الكلم لتأثيره في نفس السامع والمؤثر فيها إنما هو العبارات لا المعاني النفسية بالفعل ـ نعم هي مؤثرة للفائدة بالقوة، والعبارة مؤثرة بالفعل فكانت أولى بأن تكون حقيقة والأخرى مجازاً ـ وقال المخالفون: استعمل لغة في النفسي والعبارة «قلنا» نعم لكن بالاشتراك أو بالحقيقة فيما ذكرناه وبالمجاز فيما ذكرتموه والأول ممنوع ـ قالوا الأصل في الإطلاق الحقيقة قلنا والأصل عدم الاشتراك ـ ثم أن لفظ الكلام أكثر ما يستعمل في العبارات والكثرة دليل الحقيقة ـ وأما قوله تعالى: ﴿يقولون في أنفسهم﴾ [المجادلة: ٨] فمجاز دل على المعنى النفسي بقرينة «في أنفسهم» ولو أطلق لما فهم إلا العبارة، وأما قوله تعالى: ﴿وأسروا قولكم﴾ [الملك: ١٣] الآية فلا حجة فيه لأن الإسرار خلاف الجهر وكلاهما عبارة عن أن يكون أرفع صوتاً من الآخر ـ وأما بيت الأخطل فالمشهور أن البيان ـ وبتقدير أن يكون الكلام فهو مجاز عن مادته وهو التصورات المصححة له إذ من لم يتصور ما يقول لا يوجد كلاماً ثم هو مبالغة من هذا الشاعر بترجيح الفؤاد على اللسان انتهى وفيه ما لا يخفى.

أما أولاً فلأن ما ادعاه من التبادر إنما هو لكثرة استعماله في اللفظي لمسيس الحاجة إليه لا لكونه الموضوع له خاصة بدليل استعماله لغة وعرفاً في النفسي والأصل في الإطلاق الحقيقة ـ وقوله والأصل عدم الاشتراك قلنا: نعم إن أردت به الاشتراك اللفظي ونحن لا ندعيه وإنما ندعي الاشتراك المعنوي وذلك أن الكلام في اللغة بنقل النحويين ما يتكلم به قليلاً كان أو كثيراً حقيقة أو حكماً «وأما ثانياً» فلأن ما ادعاه من أن المؤثر في نفس السامع إنما هو العبارات لا المعاني النفسية الأمر فيه بالعكس بدليل أن الإنسان إذا سمع كلاماً لا يفهم معناه لا تؤثر ألفاظه في نفسه شيئاً وقد يتذكر الإنسان في حالة سروره كلاماً يحزنه ـ وفي حالة حزنه كلاماً يسره فيتأثر بهما ولا صوت ولا حرف هناك وإنما هي حروف وكلمات مخيلة نفسية وهو الذي عناه الشيخ بالكلام النفسي وعلى هذا فالسامع في قولهم ـ لتأثيره في نفس السامع ليس بقيد والتأثير في النفس مطلقاً معتبر في وجه التسمية «وأما ثالثاً» فلأن ما قاله في قوله تعالى: ﴿يقولون في أنفسهم﴾ من أنه مجاز دل على المعنى النفسي فيه بقرينة ﴿في أنفسهم﴾ ولو أطلق لما فهم إلا العبارة يرده قوله تعالى: ﴿يقولون بأفواههم﴾ [آل عمران: ١٦٧] وفي آية ﴿بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ [الفتح: ١١] إذ لو كان مجرد ذكر «في أنفسهم» قرينة على كون القول مجازاً في النفسي لكان ذكر «بأفواههم ـ وبألسنتهم» قرينة على

كونه مجازاً في العبارة واللازم باطل فكذا الملزوم ـ نعم التقييد دليل على أن القول مشترك معنى بين النفسي واللفظي وعين به المراد من فرديه فهو لنا لا علينا «وأما رابعاً» فلأن ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وأسروا﴾ [الملك: ١٣] الآية تحكم بحت لأن السر كما قال الزمخشري ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال ويساعده الكتاب والأثر واللغة كما لا يخفى على المتتبع «وأما خامساً» فلأن ما ذكره في بيت الأخطل خطل من وجوه «أما أولاً» فعلى تقدير أن يكون المشهور البيان بدل الكلام يكفينا في البيان لأنه[1] إما اسم مصدر بمعنى ما يبين به أو مصدر بمعنى التبيين وعلى الأول هو بمعنى الكلام ولا فرق بينهما إلا في اللفظ، وعلى الثاني هو مستلزم للكلام النفسي بمعنى المتكلم به إن كان المراد به التبيين القلبي أعني ترتيب القلب للكلمات الذهنية على وجه إذا عبر عنها باللسان فهم غيره ما قصده منها «وأما ثانياً» فلأن قوله وبتقدير أن يكون الخ إقرار بالكلام النفسي من غير شعور.

«وأما ثالثاً» فلأن دعوى المجاز تحكم مع كون الأصل في الإطلاق الحقيقة «وأما رابعاً» فلأن دعوى أن ذلك مبالغة من هذا الشاعر خلاف الواقع بل هو تحقيق من غير مبالغة كما يفهم مما سلف، فما ذكره هذا الشاعر كلمة حكمة سواء نطق بها على بينة من الأمر أو كانت منه رمية من غير رام فإن معناه موجود في حديث أبي سعيد «العينان دليلان والأذنان قمعان واللسان ترجمان ـ إلى أن قال ـ والقلب ملك فإذا صلح» الحديث وفي حديث أبي هريرة «القلب ملك وله جنود ـ إلى أن قال ـ واللسان ترجمان» الحديث فما قيل[2] إن هذا الشاعر نصراني عدو الله تعالى ورسوله فيجب اطراح كلام الله تعالى ورسوله تصحيحاً لكلامه أو حمله على المجاز صيانة لكلمة هذا الشاعر عنه، وأيضاً يحتاجون إلى إثبات هذا الشعر والشهرة غير كافية فقد فتش ابن الخشاب دواوين الأخطل العتيقة فلم يجد فيها البيت انتهى كلام أوهن وأوهى من بيت العنكبوت وإنه لأوهن البيوت «أما أولاً» فلأن كلام هذا العدو موافق لكلام الحبيب حتى لكلام المنكرين للكلام النفسي حيث اعترفوا به في عين إنكارهم «وأما ثانياً» فلأنا أغنانا الله تعالى ورسوله من فضله عن إثبات هذا الشعر «وأما ثالثاً» فلأن عدم وجدان ابن الخشاب لا يدل على انتفائه بالكلية كما لا يخفى، والحاصل أن الناس أكثروا القال والقيل في حق هذا الشيخ الجليل وكل ذلك من باب.

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

نعم البحث دقيق لا يرشد إليه إلا توفيق كم أسهر أناساً وأكثر وسواساً وأثار فتنة وأورث محنة وسجن أقواماً وأم إماماً.

مرام شط مرمى العقل فيه ... ودون مداه بيد لا تبيد

ولكن بفضل الله تعالى قد أتينا فيه بلب اللباب، وخلاصة ما ذكره الأصحاب، وقد اندفع به كثير مما أشكل على الأقوام، وخفي على أفهام ذوي الأفهام، ولا حاجة معه إلى ما قاله المولى المرحوم غني زاده في التخلص عن هاتيك الشبه مما نصه، ثم اعلم أني بعدما حررت البحث بعثني فرط الإنصاف إلى أنه لا ينبغي لذي الفطرة السليمة أن يدعي قدم اللفظ لاحتياجه إلى هذه التكلفات وكذا كون الكلام عبارة عن المعنى القديم لركاكة توصيف الذات به كيف ومعنى قصة نوح مثلاً ليس بشيء يمكن اتصاف الذات به إلا بتمحل بعيد، فالحق الذي لا محيد عنه هو أن المعاني كلها موجودة في العلم الأزلي بوجود علمي قديم لكن لما كان في ماهية بعضها داعية البروز في الخارج بوجود لفظي حادث حسبما يستدعيه حدوث الحوادث فيما لا يزال اقتضى الذات اقتضاء أزلياً إبراز ذلك البعض في

---

(١) فيه استخدام فلا تغفل ا هـ منه.

(٢) قائله الموفق بن قدامة ا هـ منه.

الخارج بذلك الوجود الحادث فيما لا يزال فهذا الاقتضاء صفة قديمة للذات هو بها في الأزل مسماة بالكلام النفسي وأثره الذي هو ظهور المعنى القديم باللفظ الحادث إنما يكون فيما لا يزال والمغايرة بينه وبين صفة العلم ظاهرة وهذا هو غاية الغايات في هذا الباب، والحمد لله على ما خصني بفهمه من بين أرباب الألباب انتهى.

وفيه أنه غاية الغايات في الجسارة على رب الأرباب وإحداث صفة قديمة ما أنزل الله تعالى بها من كتاب إذ لم يرد في كتاب الله تعالى ولا في سنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ولا روي عن صحابي ولا تابعي تسمية ذلك الاقتضاء كلاماً بل لا يقتضيه عقل ولا نقل على أنه لا يحتاج إليه عند من أخذت الغاية بيديه، هذا وإذا سمعت ما تلوناه، ووعيت ما حققناه فاسمع الآن تحقيق الحق في كيفية سماع موسى عليه السلام كلام الحق «فأقول» الذي انتهى إليه كلام أئمة الدين كالماتريدي والأشعري وغيرهما من المحققين أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت كما تدل عليه النصوص التي بلغت في الكثرة مبلغاً لا ينبغي معه تأويل، ولا يناسب في مقابلته قال وقيل، فقد قال تعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿نودي من شاطىء الوادي الأيمن﴾ [القصص: ٣٠] ﴿إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى﴾ [النازعات: ١٦]، ﴿نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ [النمل: ٨] واللائق بمقتضى اللغة والأحاديث أن يفسر النداء بالصوت(١) بل قد ورد إثبات الصوت لله تعالى شأنه في أحاديث لا تحصى، وأخبار لا تستقصى.

«روى» البخاري في الصحيح «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعدكما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان» ومن علم أن الله تعالى الحكيم أن يتجلى بما شاء وكيف شاء وأنه منزه في تجليه قريب في تعاليه لا تقيده المظاهر عند أرباب الأذواق إذ له الإطلاق الحقيقي حتى عن قيد الإطلاق زالت عنه إشكالات واتضحت لديه متشابهات(٢). ومما يدل على ثبوت التجلي في المظهر لله تعالى قول ابن عباس ترجمان القرآن في قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار﴾ كما في الدر المنثور يعني تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة، وفي رواية عنه كان الله في النور ونودي من النور، وفي صحيح مسلم حجابه النور، وفي رواية له حجابه النار ودفع الله سبحانه توهم التقييد بما ينافي التنزيه بقوله: ﴿وسبحان الله﴾ أي عن التقييد بالصورة والمكان والجهة وإن ناداك منها لكونه موصوفاً بصفة رب العالمين فلا يكون ظهوره مقيداً له بل هو المنزه عن التقييد حين الظهور ﴿يا موسى إنه﴾ أي المنادي المتجلي ﴿أنا الله العزيز﴾ فلا أتقيد لعزتي ولكني ﴿الحكيم﴾ [النمل: ٩] فاقتضت حكمتي الظهور والتجلي في صورة مطلوبك فالمسموع على هذا صوت وحرف سمعهما موسى عليه السلام من الله تعالى المتجلي بنوره في مظهر النار لما اقتضته الحكمة فهو عليه السلام كليم الله تعالى بلا واسطة لكن من وراء حجاب مظهر النار وهو عين تجلي الحق تعالى له، وأما ما شاع عن الأشعري من القول بسماع الكلام النفسي القائم بذات الله تعالى فهو من باب التجويز والإمكان لا أن موسى عليه السلام سمع ذلك بالفعل إذ هو خلاف البرهان، ومما يدل على جواز سماع الكلام النفسي بطريق خرق العادة قوله تعالى في الحديث القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به» الحديث، ومن الواضح أن الله تبارك وتعالى إذا كان بتجليه النوري المتعلق بالحروف غيبية

---

(١) قال في القاموس: النداء بالكسر والضم الصوت ا هـ منه

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ وحديث «إذا كان يوم الجمعة نزل ربنا تبارك وتعالى من عليين على كرسيه ـ إلى أن قال ـ ثم يصعد تبارك وتعالى على كرسيه، وحديث «فإذا الرب قد أشرف عليها من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة» إلى غير ذلك ا هـ منه.

كانت أو خيالية أو حسية سمع العبد على الوجه اللائق المجامع لـ ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] عند من يتحقق معنى الإطلاق الحقيقي صح أن يتعلق سمع العبد بكلام ليس حروفه عارضة لصوت لأنه بالله يسمع إذ ذاك والله سبحانه يسمع السر والنجوى.

والإمام الماتريدي أيضاً يجوز سماع ما ليس بصوت على وجه خرق العادة كما يدل عليه كلام صاحب التبصرة في كتاب التوحيد. فما نقله ابن الهمام عنه من القول بالاستحالة فمراده الاستحالة العادية فلا خلاف بين الشيخين عند التحقيق، ومعنى قول الأشعري أن كلام الله تعالى القائم بذاته يسمع عند تلاوة كل تال وقراءة كل قارىء أن المسموع أولاً وبالذات عند التلاوة إنما هو الكلام اللفظي الذي حروفه عارضة لصوت القارىء بلا شك لكن الكلمات اللفظية صور الكلمات الغيبية القائمة بذات الحق فالكلام النفسي مسموع بعين سماع الكلام اللفظي لأنه صورته لا من حيث الكلمات الغيبية فإنها لا تسمع إلا على طريق خرق العادة «وقول» الباقلاني إنما تسمع التلاوة دون المتلو والقراءة دون المقروء يمكن حمله على أنه أراد إنما يسمع أولاً وبالذات التلاوة أي المتلو اللفظي الذي حروفه عارضة لصوت التالي لا النفسي الذي حروفه غيبية مجردة عن المواد الحسية والخيالية فلا نزاع في التحقيق أيضاً.

والفرق بين سماع موسى عليه السلام كلام الله تعالى وسماعنا له على هذا أن موسى عليه السلام سمع من الله عز وجل بلا واسطة لكن من وراء حجاب ونحن إنما نسمعه من العبد التالي بعين سماع الكلام اللفظي المتلو بلسانه العارض حروفه لصوته لا من الله تعالى المتجلي من وراء حجاب العبد فلا يكون سماعاً من الله تعالى بلا واسطة وهذا واضح عند من له قدم راسخة في العرفان وظاهر عند من قال بالمظاهر مع تنزيه الملك الديان. وأنت إذا أمعنت النظر في قول أهل السنة القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق وهو مقروء بألسنتنا مسموع بآذاننا محفوظ في صدورنا مكتوب في مصاحفنا غير حال في شيء منها رأيته قولاً بالمظاهر ودالاً على أن تنزل القرآن القديم القائم بذات الله تعالى فيها غير قادح في قدمه لكونه غير حال في شيء منها مع كون كل منها قرآناً حقيقة شرعية بلا شبهة وهذا عين الدليل على أن تجلي القديم في مظهر حادث لا ينافي قدمه وتنزيهه وليس من باب الحلول ولا التجسيم، ولا قيام الحوادث بالقديم ولا ما يشاكل ذلك من شبهات تعرض لمن لا رسوخ له في هاتيك المسالك، ومنه يظهر معنى ظهور القرآن في صورة الرّجل الشاحب يلقى صاحبه حين ينشق عنه القبر وظهوره خصماً لمن حمله فخالف أمره وخصماً دون من حمله فحفظ الأمر بل من أحاط خبراً بأطراف ما ذكرناه وطاف فكره المتجرد عن مخبط الهوى في كعبة حرم ما حققناه اندفع عنه كل إشكال في هذا الباب ورأى أن تشنيع ابن تيمية وابن القيم وابن قدامة وابن قاضي الجبل والطوفي وأبي نصر وأمثالهم[1] صرير باب أو طنين ذباب وهم وإن كانوا فضلاء محققين وأجلاء مدققين لكنهم كثيراً

(١) وما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى في حق هؤلاء الأئمة مبالغ فيه. ولعله لم يطلع على مؤلفاتهم فإن للإمام ابن تيمية كتاباً شرح فيه النزول وبين صفة الكلام والنزول وغير ذلك من صفات الله تعالى وأنه لا فرق بينها في الاعتقاد بابقائها على ظاهرها بدون تحريف ولا تأويل ولا تصحيف وأورد كلام علماء السلف في ذلك. وللإمام ابن القيم أيضاً كتاب سماه اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية عنى بهؤلاء المؤولين لصفات الله بما لم يرد به دليل من كتاب ولا سنة ولا قول لصحابي ولا تابعي، وحاصل اعتقاد السلف في ذلك أن لله كلاماً هو صفته كما أخبر بذلك في كتابه وعلى لسان رسوله وأنه ليس كمثله شيء، والبحث في ذلك ليس من سنة السلف وأئمة الدين بل هو من المتكلمين الذين أشرب في قلوبهم نقل علوم اليونانيين زمن المأمون فأكسبهم خيالات وهمية في أذهانهم وفرضيات فاسدة واحتمالات ما أنزل الله بها من سلطان. نسأل الله إصلاح الأمة والعمل بما كان عليه سلفها: ا هـ

ما انحرفت أفكارهم واختلطت أنظارهم فوقعوا في علماء الأمة وأكابر الأئمة وبالغوا في التعنيف والتشنيع وتجاوزوا في التسخيف والتفظيع ولولا الخروج عن الصدد لوفيتهم الكيل صاعاً بصاع ولتقدمت إليهم بما قدموا باعاً بباع ولعلمتهم كيف يكون الهجاء بحروف الهجاء. ولعرفتهم إلام ينتهي المراء بلا مراء.

فلي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن رام تقويمي فإني مقوم ومن رام تعويجي فإني معوج

على أن العفو أقرب للتقوى والإغضاء مبنى الفتوة وعليه الفتوى. والسادة الذين تكلم فيهم هؤلاء إذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، وحيث تحرر الكلام في الكلام على مذهب أهل السنة واندفع عنه بفضل الله تعالى كل محنة ومهنة، فلا بأس بأن نحكي بعض الأقوال، كما حكى الله تعالى كثيراً من أقوال ذوي الضلال، وبعد أن رسخ الحق في قلبك، وتغلغل في سويدائه كلام ربك لا أخشى عليك من سماع باطل لا يزيدك إلا حقاً. وكاذب لا يورثك إلا صدقاً «فنقول» أما المعتزلة فاتفقوا كافة على أن معنى كونه تعالى متكلماً أنه خالق الكلام على وجه لا يعود إليه منه صفة حقيقية كما لا يعود إليه من خلق الأجسام وغيرها صفة حقيقية، واتفقوا أيضاً على أن كلام الرب تعالى مركب من الحروف والأصوات وأنه محدث مخلوق ثم اختلفوا فذهب الجبائي وابنه أبو هاشم إلى أنه حادث في محل، ثم زعم الجبائي أن الله تعالى يحدث عند قراءة كل قارىء كلاماً لنفسه في محل القراءة وخالفه الباقون، وذهب أبو الهذيل بن العلاف وأصحابه إلى أن بعضه في محل وهو قوله كن، وبعضه لا في محل كالأمر والنهي والخبر والاستخبار، وذهب الحسن بن محمد النجار إلى أن كلام الباري إذا قرىء فهو عرض وإذا كتب فهو جسم، وذهبت الإمامية والخوارج والحشوية إلى أن كلام الرب تعالى مركب من الحروف والأصوات، ثم اختلف هؤلاء فذهب الحشوية إلى أنه قديم أذلي قائم بذات الرب تعالى لكن منهم من زعم أنه من جنس كلام البشر وبعضهم قال لا بل الحرف حرفان والصوت صوتان قديم وحادث والقديم منهما ليس من جنس الحادث، وأما الكرامية فقالوا: إن الكلام قد يطلق على القدرة على التكلم وقد يطلق على الأقوال والعبارات وعلى كلا التقديرين فهو قائم بذات الله تعالى لكن إن كان بالاعتبار الأول فهو قديم متحد لا كثرة فيه وإن كان بالاعتبار الثاني فهو حادث متكثر، وأما الواقفية فقد أجمعوا على أن كلام الرب تعالى كائن بعد أن لم يكن لكن منهم من توقف في إطلاق اسم القديم والمخلوق عليه ومنهم من توقف في إطلاق اسم المخلوق وأطلق اسم الحادث ومن القائلين بالحدوث من قال ليس جوهراً ولا عرضاً، وذهب بعض المعترفين بالصانع إلى أنه لا يوصف بكونه متكلماً لا بكلام ولا بغير كلام والذي أوقع الناس في حيص بيص أنهم رأوا قياسين متعارضي النتيجة وهما كلام الله تعالى صفة له وكل ما هو صفة له فهو قديم فكلام الله تعالى قديم، وكلام الله تعالى مركب من حروف مرتبة متعاقبة في الوجود وكل ما هو كذلك فهو حادث فكلام الله تعالى حادث، فقوم[1] ذهبوا إلى أن كلامه تعالى حروف وأصوات وهي قديمة ومنعوا أن كل ما هو مؤلف من حروف وأصوات فهو حادث ونسب إليهم أشياء هم براء منها، وآخرون[2] قالوا بحدوث كلامه تعالى وأنه مؤلف من أصوات وحروف وهو قائم بغيره ومعنى كونه متكلماً عندهم أنه موجد لتلك الحروف والأصوات في جسم كاللوح أو ملك كجبريل أو غير ذلك فهم منعوا أن المؤلف من الحروف والأصوات صفة الله تعالى، وأناس[3] لما رأوا مخالفة الأولين

---

(١) هم الحنابلة ا هـ منه.

(٢) هم المعتزلة ا هـ منه.

(٣) هم الكرامية ا هـ منه.

للضرورة والظاهرة التي هي أشنع من مخالفة الدليل ومخالفة الآخرين فيما ذهبوا إليه للعرف واللغة ذهبوا إلى أن كلامه تعالى صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى فهم منعوا أن كل ما هو صفة له تعالى فهو قديم، وجمع قالوا: كلامه تعالى معنى واحد بسيط قائم بذاته تعالى قديم فهم منعوا أن كلامه تعالى مؤلف من الحروف والأصوات وكثر في حقهم القال والقيل والنزاع الطويل، وبعضهم تحير فوقف وحبس ذهنه في مسجد الدهشة واعتكف، وعندي القياسان صحيحان والنتيجتان صادقتان ولكل مقام مقال ولكل كلام أحوال ولا أظنك تحوجني إلى التفصيل بعد ما وعاه فكرك الجميل بل ولا تكلفني رد هذه الأقوال الشنيعة التي هي لديك إذا أخذت العناية بيديك كسراب بقيعة فليطر شحرور القلم إلى روضة أخرى وليغرد بفائدة لعلها أولى من الإطالة وأحرى والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب لا رب غيره.

«الفائدة الخامسة» في بيان المراد بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن أقول روى أحد وعشرون صحابياً[١] حديث نزول القرآن على سبعة أحرف حتى نص أو عبيدة على تواتره وفي مسند أبي يعلى أن عثمان رضي الله عنه قال على المنبر أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف لما قام فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك فقال وأنا أشهد معهم، واختلف في معناه على أقوال «أحدها» أنه من المشكل الذي لا يدرى لاشتراك الحرف[٢] وفيه أن مجرد الاشتراك لا يستدعي ذلك اللهم إلا أن يكون بالنظر إلى هذا القائل «ثانيها» ان المراد التكثير لا حقيقة العدد وقد جروا على تكثير الآحاد بالسبعة والعشرات بالسبعين والمئات بسبعمائة وسر التسبيع لا يخفى وإليه جنح عياض وفيه مع عدم ظهور معناه أن حديث أبيّ كما رواه النسائي «أن جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبريل اقرأ القرآن على حرف فقال ميكائيل استزده حتى بلغ سبعة أحرف» ونحوه من الأحاديث لاسيما حديث أبي بكرة الذي في آخره «فنظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة» أقوى دليل على إرادة الانحصار بل في جمع القلة نوع إشارة إلى عدم الكثرة كما لا يخفى «ثالثها» أن المراد بها سبع قراءات وفيه أن ذلك لا يوجد في كلمة واحدة إلا نادراً[٣] والقول أن كلمة تقرأ بوجه أو وجهين إلى سبع يشكل عليه ما قرىء على أكثر اللهم إلا أن يقال ورد ذلك مورد الغالب وفيه ما لا يخفى حتى قال السيوطي قد ظن كثير من القوم أن المراد بها القراءات السبعة وهو جهل قبيح فتدبر «رابعها» أن المراد بها سبعة أوجه من المعاني المتفقة على ألفاظ مختلفة نحو أقبل وتعال وهلم. وعجل وأسرع، وإليه ذهب ابن عيينة وجمع وأيد برواية حتى بلغ سبعة أحرف قال: كلها شاف كاف ما لم تختم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب، وبما حكي أن ابن مسعود أقرأ رجلاً ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] فقال الرجل طعام اليثيم فردها عليه فلم يستقم بها لسانه فقال أتستطيع أن تقول الفاجر؟ قال نعم قال فافعل، وفيه أن ذلك كان رخصة لعسر تلاوته بلفظ واحد على الأميين ثم نسخ وإلا لجازت روايته بالمعنى ولذهب التعبد بلفظه ولا تسعَ الخرقُ ولفاتَ كثيرٌ من الأسرار والأحكام وهذا يستدعي

---

(١) وهم أبيّ بن كعب وأنس وحذيفة وزيد بن أرقم وسمرة بن جندب وسليمان بن صبرة وابن عباس وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب وعمر بن أبي سلمة وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وهشام بن حكيم وأبو بكرة وأبو جهم وأبو سعيد الخدري وأبو طلحة الأنصاري وأبو هريرة وأم أيوب ا هـ منه.

(٢) أي لغة بين الكلمة والمعنى والجهة قاله ابن سعدان النحوي ا هـ منه.

(٣) مثل (عبد الطاغوت) (ولا تقل لهما أف) ا هـ منه.

نسخ الحديث وفيه بعد بل لا قائل به «خامسها» أن المراد بها كيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين وتحقيق، وفيه أن ذلك ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى، واللفظ الواحد بهذه الصفات باق على وحدته فليس فيه حينئذ جليل فائدة.

«سادسها» أن المراد سبعة أصناف وعليه كثيرون ثم اختلفوا في تعيينها فقيل: محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص، وقيل: إظهار الربوبية وإثبات الوحدانية وتعظيم الألوهية والتعبد لله ومجانبة الإشراك والترغيب في الثواب، والترهيب من العقاب، وقيل أمر ونهي ووعد ووعيد وإباحة وإرشاد واعتبار. وقيل غير ذلك والكل محتمل بل وأضعاف أمثاله إلا أنه لا مستند له ولا وجه للتخصيص.

«سابعها» أن المراد سبع لغات وإليه ذهب ثعلب وأبو عبيد والأزهري وآخرون واختاره ابن عطية وصححه البيهقي. واعترض بأن لغات العرب أكثر، وأجيب بأن المراد أفصحها وهي لغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر واستنكره ابن قتيبة قائلاً: لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش بدليل ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ [إبراهيم: ٤] وعليه يلتزم كون السبع في بطون قريش، وبه جزم أبو علي الأهوازي وليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات بل أنها مفرقة فيه ولعل بعضها أسعد من بعض وأكثر نصيباً. وقيل السبع في مضر خاصة لقول عمر رضي الله عنه: نزل القرآن بلغة مضر، وقال بعضهم: إنهم هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسيد بن خزيمة وقريش، وقيل أنزل أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من الفصحاء ثم أبيح للعرب أن تقرأه بلغاتها دفعاً للمشقة ولما كان فيهم من الحمية ولم يقع ذلك بالتشهي بل المرعي فيه السماع من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكيفية نزول القرآن على هذه السبع أن جبريل عليه السلام كان يأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في كل عرضة بحرف إلى أن تمت. قال السيوطي بعد نقل هذا القول وذكر ما له وما عليه وبعد هذا كله هو مردود بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهشام بن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة وقبيلة واحدة وقد اختلفت قراءتهما ومحال أن ينكر عليه عمر لغته فدل على أن المراد بالأحرف السبعة غير اللغات انتهى، ويا ليت شعري ادعى أحد من المسلمين أن معنى إنزال القرآن على هذه السبع من لغات هؤلاء العرب أنه أنزل كيفما كان وأنهم هم الذين هذبوه بلغاتهم ورشحوه بكلماتهم بعد الإذن لهم بذلك فإذاً لا تختلف أهل قبيلة واحدة في كلمة ولا يتنازع اثنان منهم فيها أبداً أم أن الله تعالى شأنه ظهر كلامه في مرايا هذه اللغات على حسب ما فيها من المزايا والنكات. فنزل بها وحيه. وأداها نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، ووعاها أصحابه فكم صحابي هو من قبيلة وعى كلمة نزلت بلغة قبيلة أخرى وكلاهما من السبع وليس له أن يغير ما وعى بل كثيراً ما يختلف صحابيان من قبيلة في الرواية عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكل من روايتيهما على غير لغتهما كل ذلك اتباعاً لما أنزل الله تعالى وتسليماً لما جاء به رسول الله ﷺ، وقد ينفي صحابي غير روايته وينكر رواية غيره وكل ذلك يدل على أن مرجع السبع الرواية لا الدراية فرد الإمام السيوطي لا أدري ماذا أرد منه وما الذي أسكت عنه، فها هو بين يديك، فاعمل ما شئت فيه، وسلام الله تعالى عليك، ومما ذكرناه علمت أن القلب يميل إلى هذا السابع فافهم، وقد حققنا بعض الكلام في هذا المقام في كتابنا الأجوبة العراقية، عن الأسئلة الإيرانية فارجع إليه إن أردته والله سبحانه وتعالى أعلم «الفائدة السادسة» في جمع القرآن وترتيبه، اعلم أن القرآن جمع أولاً بحضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أخرج الحاكم بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال: كنا عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نؤلف القرآن في الرقاع. وثانياً بحضرة أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقد أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت أيضاً قال «أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال

أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر بقراء القرآن[١] وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال عمر: هذا والله خير فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت الذي رأى عمر قال زيد قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب[٢] واللخاف وصدور الرجال ووجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره ﴿لقد جاءكم رسول﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر» وأخرج ابن أبي داود بسند رجاله ثقات مع انقطاع أن أبا بكر قال لعمر وزيد مع أنه كان حافظاً اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه، ولعل الغرض من الشاهدين أن يشهدا على أن ذلك كتب بين يدي الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو على أنه مما عرض عليه صلى الله تعالى عليه وسلم عام وفاته وإنما اكتفوا في آية التوبة بشهادة خزيمة لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل شهادته بشهادة رجلين والقول بأن المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة مما لا حجار له[٣] وما شاع أن علياً كرم الله وجه لما توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تخلف لجمعه فبعض طرقه ضعيف[٤]، وبعضها موضوع[٥] وما صح[٦] فمحمول كما قيل على الجمع في الصدر، وقيل كان جمعاً بصورة أخرى لغرض آخر، ويؤيده أنه قد كتب فيه الناسخ والمنسوخ فهو ككتاب علم، وقد أخرج ابن أبي داود بسند حسن عن عبد خير قال: سمعت علياً يقول أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رضي الله تعالى عنه رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله أي على الوجه الذي تقدم فلا ينافي ما في مختصر القرماني أن أول من جمعه عمر رضي الله تعالى عنه. وما روي عن أبي بريدة أنه قال أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فهو مع غرابته وانقطاعه محمول على أنه أحد الجامعين بأمر أبي بكر رضي الله تعالى عنه قاله الإمام السيوطي وهي عثرة منه لا يقال لصاحبها لعا لأن سالماً هذا قتل في وقعة اليمامة كما يدل عليه كلام الحافظ ابن حجر في إصابته ونص عليه السيوطي نفسه في إتقانه بعد هذا المبحث بأوراق ولا شك أن الأمر بالجمع وقع من الصديق بعد تلك الوقعة وهي التي كانت سبباً له كما يدل عليه حديث البخاري الذي قدمناه فسبحان من لا ينسى، وما اشتهر أن جامعه عثمان فهو على ظاهره باطل لأنه رضي الله تعالى عنه إنما حمل الناس في سنة خمس وعشرين[٧] على القراءة

---

(١) وقد روي انه قتل يوم اليمامة سبعون من القراء منهم سالم مولى أبي حذيفة ا هـ منه.

(٢) العسب جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض، واللخاف بكسر اللام وبخاء معجمة خفيفة اخره فاء جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء هي الحجارة الرقاق وقال الخطابي صفائح الحجارة ا هـ منه.

(٣) هذا القول لابن حجر قاله على سبيل الظن وهو من بعضه ا هـ منه.

(٤) وهو ما أخرجه أبو داود من طريق ابن سيرين ا هـ منه.

(٥) وهو ما أخرجه غير واحد من رواية أبي حيان التوحيدي أحد زنادقة الدنيا ا هـ منه.

(٦) كرواية أبي الضريس في فضائل علي رضي الله تعالى عنه ا هـ منه.

(٧) وقيل في حدود سنة ثلاثين ولا مستند له ا هـ منه.

بوجه واحد باختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة من اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فقد روى البخاري عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت[١] وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف[٢] مما نسخوا وأمر بما سواه من القراءات في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال زيد: ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣] ألحقناها في سورتها في المصحف. وقد ارتضى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أن المرتضى كرم الله تعالى وجهه قال على ما أخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة عنه: لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا. وفي رواية لو وليت لعملت بالمصحف الذي عمله عثمان، وما نقل عن ابن مسعود أنه قال لما أحرق مصحفه: لو ملكت كما ملكوا لصنعت بمصحفهم كما صنعوا بمصحفي كذب كسوء معاملة عثمان معه التي يزعمها الشيعة حين أخذ المصحف منه، وهذا الذي ذكرناه من فعل عثمان هو ما ذكره غير واحد من المحققين حتى صرحوا بأن عثمان لم يصنع شيئاً فيما جمعه أبو بكر من زيادة أو نقص أو تغيير ترتيب سوى أنه جمع الناس على القراءة بلغة قريش محتجاً بأن القرآن نزل بلغتهم.

ويشكل عليه ما مر آنفاً من قول زيد ففقدت آية من الأحزاب الخ فإنه بظاهره يستدعي أن في المصاحف العثمانية زيادة لم تكن في هاتيك الصحف والأمر في ذلك هين إذ مثل هذه الزيادة اليسيرة لا توجب مغايرة يعبأ بها ولعلها تشبه مسألة التضاريس، ولو كان هناك غيرها لذكر وليس فليس، ولا تقدح أيضاً في الجمع السابق إذ يحتمل أن يكون سقوطها منه من باب الغفلة وكثيراً ما تعتري السارحين في رياض حظائر قدس كلام رب العالمين فيذكرهم سبحانه بما غفلوا فيتداركون ما أغفلوا. وزيد هذا كان في الجمعين ولعله الفرد المعول عليه في البين لكن عراه في أولهما ما عراه. وفي ثانيهما ذكره من تكفل بحفظ الذكر فتدارك ما نساه.

وبعد انتشار هذه المصاحف بين هذه الأمة المحفوظة لاسيما الصدر الأول الذي حوى من الأكابر ما حوى وتصدر فيه للخلافة الراشدة على المرتضى. وهو باب مدينة العلم لكل عالم. والأسد الأشد الذي لا تأخذه في الله لومة لائم لا يبقى في ذهن مؤمن احتمال سقوط شيء بعد من القرآن وإلا لوقع الشك في كثير من ضروريات هذا الدين الواضح البرهان وزعمت الشيعة أن عثمان بل أبا بكر وعمر أيضاً حرفوه وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره، فقد روى الكليني منهم عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية[٣]

---

(١) وأخرج ابن أبي داود أنه جمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار اهـ منه.

(٢) فأرسل إلى مكة وإلى الشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحداً كما أخرج ذلك ابن أبي داود من طريق حمزة الزيات اهـ منه.

(٣) والمشهور عندنا أنه ستة آلاف وستمائة وست عشرة آية اهـ منه.

وروى محمد بن نصر عنه أنه قال كان ﴿في لم يكن﴾ اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، وروي عن سالم بن سليمة، قال قرأ رجل على أبي عبد الله ـ وأنا أسمعه ـ حروفاً من القرآن ليس ما يقرأها الناس فقال أبو عبد الله مه عن هذه القراءات واقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم فإذا قام القائم فاقرأ كتاب الله على حده، وروي عن محمد ابن جهم الهلالي وغيره عن أبي عبد الله ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ [النحل: ٩٢] ليس كلام الله بل محرف عن موضعه والمنزل ـ أئمة هي أزكى من أئمتكم ـ وذكر ابن شهراثوب المازندراني في كتاب المثالب له أن سورة الولاية أسقطت بتمامها وكذا أكثر سورة الأحزاب فإنها كانت مثل سورة الأنعام فأسقطوا منها فضائل أهل البيت، وكذا أسقطوا لفظ ـ ويلك من قبل لا تحزن إن الله معنا، وعن ولاية علي من بعد، وقفوهم إنهم مسؤولون، وبعلي بن أبي طالب من بعد، وكفى الله المؤمنين القتال، وآل محمد من بعد وسيعلم الذين ظلموا ـ إلى غير ذلك فالقرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم شرقاً وغرباً وهو كرة الإسلام ودائرة الأحكام مركزاً وقطباً أشد تحريفاً عند هؤلاء من التوراة والإنجيل وأضعف تأليفاً منهما وأجمع للأباطيل، وأنت تعلم أن هذا القول أوهى من بيت العنكبوت وأنه لأوهن البيوت ولا أراك في مرية من حماقة مدعيه وسفاهة مفتريه، ولما تفطن بعض علمائهم لما به جعله قولاً لبعض أصحابه قال الطبرسي في مجمع البيان(1) أما الزيادة فيه أي القرآن فمجمع على بطلانها، وأما النقصان فقد روي عن قوم من أصحابنا وقوم من حشوية العامة والصحيح خلافه وهو الذي نصره المرتضى واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات، وذكر في مواضع أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإن الغاية اشتدت والدواعي توفرت عى نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه لأن القرآن مفجر النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته فكيف يجوز أن يكون مغيراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد، وقال أيضاً: إن العلم بتفصيل القرآن وأبعاضه في صحة نقله كالعلم بجملته وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنفة ككتاب سيبويه والمزني فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلها ما يعلمونه من جملتها حتى لو أن مدخلاً أدخل في كتاب سيبويه بابا من النحو ليس من الكتاب لعرف وميزانه ملحوق وأنه ليس من أصل الكتاب وكذا القول في كتاب المزني ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء. وذكر أيضاً أن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان وأنه كان يعرض على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود وأبيّ بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عدة ختمات وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مثبور ولا مبثوث، وذكر أن من خالف ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهم فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع بصحته انتهى. وهو كلام دعاه إليه ظهور فساد مذهب أصحابه حتى للأطفال ـ والحمد لله على أن ظهر الحق وكفى الله المؤمنين القتال ـ إلا أن الرجل قد دس في الشهد سمّاً وأدخل الباطل في حمى الحق الأحمى «أما أولاً» فلأن نسبة ذلك إلى قوم من حشوية العامة الذين يعني بهم أهل السنة والجماعة فهو كذب أو سوء فهم لأنهم

(1) هو تفسير مطبوع في العجم.

أجمعوا على عدم وقوع النقص فيما تواتر قرآناً كما هو موجود بين الدفتين اليوم، نعم أسقط زمن الصديق ما لم يتواتر وما نسخت تلاوته وكان يقرأه من لم يبلغه النسخ وما لم يكن في العرضة الأخيرة ولم يأل جهداً رضي الله تعالى عنه في تحقيق ذلك إلا أنه لم ينتشر نوره في الآفاق إلا زمن ذي النورين فلهذا نسب إليه كما روي عن حميدة بنت يونس أن في مصحف عائشة رضي الله عنها ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] ـ وعلى الذين يصلون الصفوف الأول ـ وأن ذلك قبل أن يغير عثمان المصاحف فما أخرج أحمد عن أبيّ قال قال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك فقرأ عليّ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ [البينة: ١ ـ ٤] إن الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ومن يفعل ذلك فلن يكفره» ـ وفي رواية «ومن يعمل صالحاً فلن يكفره وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة» إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وفارقوا الكتاب لما جاءهم أولئك عند الله شر البرية ما كان الناس إلا أمة واحدة ثم أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين يأمرون الناس يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويعبدون الله وحده أولئك عند الله خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه» وفي رواية الحاكم «فقرأ فيها ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه يسأل ثانياً ولو سأل ثانياً فأعطيه يسأل ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» وما روي عنه أيضاً أنه كتب في مصحفه سورتي الخلع والحفد ـ اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق ـ فهو من ذلك القبيل ومثله كثير، وعليه يحمل ما رواه أبو عبيد عن ابن عمر قال: لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر، والروايات في هذا الباب أكثر من أن تحصى إلا أنها محمولة على ما ذكرناه، وأين ذلك مما يقوله الشيعي الجسور ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [النور: ٤٠].

وأما ثانياً فلأن قوله: إن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن الخ إن أراد به أنه مرتب الآي والسور كما هو اليوم وأنه يقرأه من حفظه في الصدر من الأصحاب كذلك لكنه كان مفرقاً في العسب واللخاف فمسلم إلا أنه خلاف الظاهر من سياق كلامه وسباقه وإن أراد أنه كان في العهد النبوي مقروءاً كما هو الآن لا غير وكان مرتباً ومجموعاً في مصحف واحد غير متفرق في العسب واللخاف فممنوع والدليل الذي استدل به لا يدل عليه كما لا يخفى، ويالله العجب كيف ذكر في هذا المعرض ختمات ابن مسعود وأبيّ على النبي ﷺ وجعل ذلك من أدلة مدعاه مع أن مروي كل منهما يخالف مروي الآخر وكلاهما يخالفان ما في المصحف العثماني فالسور مثلاً في مصحفنا مائة وأربع عشرة بإجماع من يعتدّ به وقيل ثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة وفي مصحف ابن مسعود مائة واثنتا عشرة سورة لأنه لم يكتب المعوذتين[1] بل صح عنه[2] أنه كان يحكهما من المصاحف ويقول ليستا من كتاب الله تعالى وإنما أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتعوذ بهما

---

(١) ولم يكتب الفاتحة أيضاً لكن لا لاعتقاد انها ليست من القرآن معاذ الله ولكن للاكتفاء بحفظها الوجوب قراءتها في الصلاة فلا يخشى ضياعها ا هـ منه.

(٢) كما أخرجه عبد الرحمن بن أحمد والطبراني عن النخعي ا هـ منه.

ولهذا عوذ بهما الحسن والحسين ولم يتابعه أحد من الصحابة على ذلك وقد صح أنه ﷺ قرأهما في الصلاة، فالظاهر أنهما غير متواترتين قرآناً عنده والقول بأنه إنما أنكر الكتابة وأراد بالكتاب المصحف ليتم التأويل مستبعد جداً بل لا يصح كما لا يخفى، وفي مصحف أبيّ خمس عشرة لأنه كتب في آخره بعد «العصر» سورتي الخلع والحفد وجعل سورة «الفيل وقريش» فيه سورة واحدة وترتيب كل أيضاً متغاير ومغاير لترتيب مصحفنا مغايرة لا سترة عليها فسورة «ن» في مصحف ابن مسعود بعد «الذاريات» و «لا أقسم بيوم القيامة» بعد «عم» «والنازعات» بعد «الطلاق» «والفجر» بعد «التحريم» إلى غير ذلك وسورة «بني إسرائيل» في مصحف أبيّ بعد «الكهف» و «الحجرات» بعد «ن» و «تبارك» بعد «الحجرات» «والنازعات» بعد «الواقعة» و «ألم نشرح» بعد «قل هو الله أحد» مع اختلاف كثير يظهر لمن رجع إلى الكتب المتقنة في هذا الباب، وكأن ران البغض غطى على قلب هذا البعض فقال ما قال ولم يتفكر في حقيقة الحال ولم يبال يوقع النبال قاصداً أن يستر بمنخل مختل كذبه نور ذي النورين الساطع عليه من برج شمس الكونين ومن بدر صحبه مع أن نسبة هذا الجمع إليهما من أوضح الأمور بل أشهر من المشهور، وهو شائع أيضاً عند الشيعة وليس لهم إلى إنكاره ذريعة ولكن مركب التعصب عثور ومذهب التعسف محذور، وإذا حققت ما ذكرناه ووعيت ما عليك تلوناه فاعلم أن ترتيب آية وسورة بتوقيف من النبي ﷺ أما ترتيب الآي فكونه توقيفياً مما لا شبهة فيه حتى نقل جمع منهم الزركشي[١] وأبو جعفر[٢] الإجماع عليه من غير خلاف بين المسلمين والنصوص متظافرة على ذلك.

وما يدل بظاهره من الآثار على أنه اجتهادي معارض ساقط عن درجة الاعتبار كالخبر الذي أخرجه ابن أبي داود بسنده عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال: أشهد أني سمعتهما من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ووعيتهما فقال عمرو أنا أشهد لقد سمعتهما ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوهما في آخرها ـ فإنه معارض بما لا يحصى مما يدل على خلافه، بل لابن أبي داود مخرجه خبر يعارضه أيضاً فقد أخرج أيضاً عن أبيّ أنهم جمعوا القرآن فلما انتهوا إلى الآية التي في سورة براءة ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧] ظنوا أن هذا آخر ما نزل فقال أبيّ: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرأني بعد هذا آيتين ﴿لقد جاءكم رسول﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة.

وأما ترتيب السور ففي كونه اجتهادياً أو توقيفياً خلاف والجمهور على الثاني[٣] قال أبو بكر الأنباري: أنزل الله تعالى القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً بالمستخبر فيوقف جبريل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على موضع الآية والسورة، فمن قدم أو أخر فقد أفسد[٤] نظم القرآن وقال الكرماني: ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ وعليه كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه وعرض عليه في السنة التي توفي فيها مرتين، وقال الطيبي

---

(١) في البرهان ا هـ منه.

(٢) في المناسبات ا هـ منه.

(٣) وهذا آخر قوله ا هـ منه.

(٤) وبعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله في سورة المنافقين ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾فإنها رأس ثلاث وستين سورة وعقبها بالتغابن للإشارة إلى ظهور التغابن بعد فقده ﷺ ا هـ منه.

مثله وهو المروي عن جمع غفير إلا أنه يشكل على هذا ما أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين[١] فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول دعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال.

فهذا يدل على أن الاجتهاد دخل في ترتيب السور ولهذا ذهب البيهقي إلى أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال وله انشرح صدر الإمام السيوطي لما ضاق ذرعاً عن الجواب، والذي ينشرح له صدر هذا الفقير هو ما انشرحت له صدور الجمع الغفير من أن ما بين اللوحين الآن موافق لما في اللوح من القرآن وحاشا أن يهمل صلى الله تعالى عليه وسلم أمر القرآن وهو نور نبوته وبرهان شريعته فلا بد إما من التصريح بمواضع الآي والسور وإما من الرمز إليهم بذلك وإجماع الصحابة في المآل على هذا الترتيب؛ وعدولهم عما كان أولاً من بعضهم على غيره من الأساليب، وهم الذين لا تلين قناتهم لباطل، ولا يصدهم عن اتباع الحق لوم لائم ولا قول قائل، أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علماً، ولم يدع عندهم خيالاً ولا وهماً، وعثمان رضي الله تعالى عنه وإن لم يقف على ما يفيده القطع في براءة والأنفال وفعل ما فعل بناء على ظنه إلا أن غيره وقف، وقبل ما فعله ولم يتوقف، وكم لعمر رضي الله تعالى عنه موافقات لربه أدى إليها ظنه فليكن لعثمان هذه الموافقة التي ظفر غيره بتحقيقها من النصوص أو الرموز فسكت على أن ذلك كان قبل ما فعل عثمان عند التحقيق ولكن لما رفعت الأقلام وجفت الصحف واجتمعت الكلمة في أيامه واقتدت المسلمون في سائر الآفاق بإمامه نسب ذلك إليه، وقصر من دونهم عليه والسؤال منه وجوابه ليسا قطعيين في الدلالة على الاستقلال لجواز أن يكون السؤال للاستخبار عن سر عدم المخالفة، والجواب لابدائه على ما خطر في البال، وبالجملة بعد إجماع الأمة على هذا المصحف لا ينبغي أن يصاخ إلى آحاد الأخبار ولا يشرأب إلى تطلع غرائب الآثار فافهم ذلك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك. «الفائدة السابعة» في بيان وجه إعجاز القرآن:

«اعلم» أن إعجاز القرآن مما لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه وأرى الاستدلال هنا عليه مما لا يحتاج إليه والشبه صرير باب أو طنين ذباب والأهم بالنسبة إلينا بيان وجه الإعجاز والكلام فيه على سبيل الإيجاز «فنقول»: قد اختلف الناس في ذلك فذهب بعض المعتزلة إلى أن وجه إعجازه اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من العرب في مطالعه وفواصله ومفاصله ورد بوجهين «الأول» أنا لا نسلم المخالفة فإن كثيراً من آياته على وزن أبيات العرب نحو قوله تعالى ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ [فاطر: ١٨] وقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢] ومثله كثير «الثاني» أنا لو سلمنا المخالفة لكن لا نسلم أنه لمجردها يكون معجزاً وإلا لكانت حماقات مسيلمة إذ هي على وزنه كذلك، وذهب الجاحظ إلى أنه اشتماله على البلاغة التي تتقاصر عنها سائر ضروب البلاغات ورد بوجوه «الأول» أنا إذا نظرنا إلى أبلغ الخطب وأجزل الشعر وقطعنا النظر عن الوزن وقسناه بقصار القرآن كان الأمر في التفاوت ملتبساً، والمعجز لا بد أن ينتهي إلى

---

(١) المئين ما تزيد على مائة آية أو تقاربها والمثاني هنا ما ولي المئين ا هـ منه.

حد لا يبقى معه لبس ولا ريبة «الثاني» أن القرآن غير خارج عن كلام العرب وما من أحد من بلغائهم إلا وقد كان مقدوراً له الإتيان بقليل من مثل ذلك والقادر على البعض قادر على الكل «الثالث» أن الصحابة اختلفوا في البعض ولو كان منتهياً إلى الإعجاز بلاغة لعرفوه وما اختلفوا «الرابع» أنهم طلبوا البينة ممن أتى بشيء منه ولو كانت بلاغته منتهية إلى حد الإعجاز ما طلبوها «الخامس» أن في كل عصر من تنتهي إليه البلاغة وذلك غير موجب للإعجاز ولا للدلالة على صدق مدعي الرسالة لجواز أن يكون هو من انتهت إليه، وقيل هو اشتماله على الاخبار بالغيب ورد، أما أولاً فبأن الإصابة في المرة والمرتين ليست من الخوارق والحد الذي يصير به الاخبار خارقاً غير مضبوط فإذاً لا يمتنع أن يقال ما اشتمل عليه القرآن لم يصل إليه، وأما ثانياً فبأنه يلزم أن يكون أخبار المنجمين والكهنة عن الأمور المغيبة مع كثرة إصابتها معجزة، وأما ثالثاً فبأنه يلزم أن تكون التوراة كذلك لاشتمالها كاشتماله. وأما رابعاً فبأنه يلزم أن يكون الخالي عن الاخبار بالغيب من القرآن غير معجز. وقيل هو كونه مع طوله وامتداده غير متناقض ولا مختلف وأبطل بوجهين «الأول» أنا لا نسلم عدم التناقض والاختلاف فيه أما التناقض فقوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ [يس: ٦٩] والبحور كلها فيه وقال تعالى: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: ١٠١] ثم قال: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ [الصافات: ٢٧، الطور: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ [الكهف: ٥٥] فحصر المانع في أحد السببين وقال ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٤] فحصر المانع في غيرهما إلى غير ذلك، وأما الاختلاف فكقوله تعالى «كالصوف المنفوش» بدل ﴿كالعهن المنفوش﴾ [القارعة: ٥] وقوله تعالى: «ضربت عليهم المسكنة والذلة» بدل قوله: ﴿الذلة المسكنة﴾ [البقرة: ٦١] وقوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ [الأحزاب: ٦] وهو أب لهم وقوله تعالى في خلق آدم مرة من تراب ومرة من حمأ ومرة من طين ومرة من صلصال على أن فيه تكراراً لفظياً ومعنوياً كما في الرحمن وقصة موسى مثلاً وتعرضاً لإيضاح الواضحات كما في قوله تعالى: ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ [البقرة: ١٩٦] وقال عثمان: إن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها «الثاني» أنا لو سلمنا السلامة من جميع ذلك لكنه ليس بإعجاز إذ هو موجود في كثير من الخطب والشعر ويظهر كلياً فيما يكون على مقدار بعض السور القصار بتقدير التحدي بها، وقيل هو موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى ورد بأنه معتاد في أكثر كلام البلغاء وينتقض أيضاً بكلام الرسول الغير المعجز وبالتوراة والإنجيل، وقيل إعجازه قدمه واعترض بأنه يستدعي أن يكون كل من صفاته تعالى كذلك وأيضاً الكلام القديم مما لا يمكن الوقوف عليه فلا يتصور التحدي به «وقال» الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني والنظام: إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته، وقال المرتضى: بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة واعترض بأربعة أوجه «الأول» أنه يستلزم أن يكون المعجز الصرفة لا القرآن وهو خلاف ما عليه إجماع المسلمين من قبل «الثاني» أن التحدي وقع بالقرآن على كل العرب فلو كان الإعجاز بالصرفة لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتاداً له والمعتاد لكل ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه فيلزم أن يكون القرآن كذلك وليس كذلك.

«الثالث» أنه يستلزم أن يكون مثل القرآن معتاداً من قبل لتحقق الصرفة من بعد فتجوز المعارضة بما وجد من كلامهم مثل القرآن قبلها «الرابع» وهو خاص بمذهب المرتضى أنه لو كان الإعجاز بفقدهم العلوم لتناطقوا به ولو تناطقوا لشاع إذ العادة جارية بالتحدث بالخوارق فحيث لم يكن دل على فساد الصرفة بهذا الاعتبار، واستدل بعضهم على

فساد القول بها بقوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن﴾ [الإسراء: ٨٨] الآية فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرهم ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم لأنه بمنزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره ولا بأس بانضمامه إلى ما ذكرناه، وأما الاكتفاء به في الاستدلال فلا أظنك ترضاه. وقال الآمدي وغيره الإعجاز بجملته[١] وبالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وارتضاه الكثير، وقولهم فيما قيل: لا نسلم المخالفة الخ يجاب عنه بأن ما ذكروه وإن كان على وزن الشعر إلا أنه لا يعد شعراً ولا قائله شاعراً لأن الشعر ما قصد وزنه وحيث لا قصد لا شعر وقد يعرض للبلغاء في سرد خطبهم المنسجمة مثل ذلك بل قد يتفق لمن لا يعرف الشعر رأساً من العوام كلمات متزنة نحو قول السيد لعبده مثلاً ادخل السوق واشتر اللحم واطبخ، ولهذا قال الوليد[١]: «لما قرأ عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن فكأنما رق له فاقترح عليه أبو جهل أن يقول فيه ما يبلغ قومه أنه منكر له وكاره ماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيدة ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ومغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليحطم ما تحته» وقولهم: إنا لو سلمنا الخ مسلم لكن لا يلزم أن لا يكون مع البلاغة والاخبار بالغيب معجزاً ومن هنا يعلم الجواب عن الاعتراض على أن وجه إعجازه بلاغته على أن الأوجه الخمسة التي ذكروها فيه باطلة.

«أما الأول» فلأن التفاوت بين لمن تحدى به من البلغاء ولذا لم يعارض وغيرهم عم عن ذلك لقصوره في الصناعة فلا اعتداد به ولا مضرة لثبوت الإعجاز بعجز أولئك ثم قياس أقصر سورة على ما ذكروه[٣] عدول عن سواء السبيل «وأما الثاني» فلأن القدرة على البعض لا تستلزم القدرة على الكل ولهذا نجد الكثير قادراً على بليغ فقرة أو فقرتين أو بيت أو بيتين ولا يقدر على وضع خطبة ولا نظم قصيدة.

«وأما الثالث» فلأن الصحابة لم يختلفوا فيما اختلفوا فيه أنه نازل على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من ربه أو أن بلاغته غير معجزة ولكنهم اختلفوا في أنه قرآن وذلك لا يضر فيما نحن بصدده.

«وأما الرابع» فلأن طلب البينة لما قدمناه في الفائدة السادسة أو للوضع والترتيب كما قيل أو لمزيد الاحتياط في الأمر الخطير «وأما الخامس» فلأن المعجز يظهر في كل زمان من جنس ما يغلب ويبلغ فيه الغاية القصوى ويوقف فيه على الحد المعتاد حتى إذا شوهد ما هو خارج عن الحد علم أنه من عند الله وإلا لم يتحقق عند القوم معجزة النبي ولظنوا أنهم لو كانوا من أهل تلك الصنعة أو متناهين فيها لأمكنهم أن يأتوا بمثلها والبلاغة قد بلغت في ذلك العهد حدها وكان فيها فخارهم حتى علقت السبع بباب الكعبة تحدياً بمعارضتها فلما أتى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بما عجزوا عن مثله مع كثرة المنازعة والتشاجر والافتراق علم أن ذلك من عند الله تعالى بلا ريب، واعتراضهم على كون الأخبار بالغيب معجزاً مكابرة فإن الاخبار عن الغائبات مع التكرر والإصابة غير معتاد ولا معنى لكونه معجزاً غير هذا وما ذكروه من الوجوه باطل.

«أما الأول» فلأنه لا يلزم من عدم كون الإصابة في المرة والمرتين من الخوارق أن لا تكون الإصابة في الكرات

---

(١) كون الإعجاز بجملته نسبة الإمام السيوطي لبعض المعتزلة وقد ورد التحدي بكل القرآن وبعشر سور وبسورة قيل ولو قصيرة لظاهر الاطلاق وقيل تبلغ مبلغاً يتبين فيه رتب ذوي البلاغة فأفهم وتدبر ا هـ منه.

(٢) والخبر طويل أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ا هـ منه.

(٣) على انه يكفينا في الغرض كون القرآن بجملته أو بسوره الطوال معجزاً فافهم ا هـ منه.

الكثيرة منها والضابط العرف ولا يخفى أن ما ورد من أخبار الغيب في القرآن مما يعد في نظر أهل العرف كثيراً لا تعتاد الإصابة فيه بجملته «وأما الثاني» فلأن أخبار المنجمين ما كان كاذباً منها لا احتجاج وما كان صادقاً وتكررت الإصابة فيه كالكسوف والخسوف غير وارد لأنه من الحساب المعتاد لمن يتعاطى صناعة التنجيم وأخبار القرآن بالغيوب ليست كذلك وأما أخبار الكهنة فالقول فيها كما في السحر.

«وأما الثالث» فلأن ما في التوراة من الأخبار بالغيب إن كان كثيراً خارقاً للعادة ووقع التحدي به فهو أيضاً معجز وآية صدق لمن أتى به ولا يضرنا التزام ذلك «وأما الرابع» فلأنه لا يرد على من يقول وجه الإعجاز مجموع ما تقدم أصلاً. ومن يقول وجهه مجرد الإخبار بالغيب يقول بأن الخالي من ذلك غير معجز وإنما الإعجاز في القرآن بجملته ويكفي ذلك في غرضه، والاعتراض على كون وجه الإعجاز عدم التناقض والاختلاف مع الطول والامتداد بوجهيه مدفوع «أما الأول» فلأن اشتمال القرآن على الشعر قد سبق جوابه فلا يناقض ﴿وما علمناه الشعر﴾ [يس: ٦٩] وأما الآيتان الأوليتان فقد أجاب عنهما ابن عباس حين سأله رجل عن آيات من هذا القبيل بأن نفى المسألة قبل النفخة الثانية وإثباتها فيما بعد، والسدي بأن نفى المسألة عند تشاغلهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط وإثباتها فيما عداها وابن مسعود بأن المسألة المنفية طلب بعضهم العفو من بعض والمثبتة على ظاهر معناها فلا منافاة. وأما الآيتان الأخريتان فمعنى الأولى منهما ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾ [الإسراء: ٩٤، الكهف: ٥٥] إلا إرادة الله أن تأتيهم سنة الأولين من نحو الخسف أو يأتيهم العذاب قبلاً في الآخرة ولا شك أن إرادة الله تعالى مانعة من وقوع ما ينافي المراد، فهذا حصر في السبب الحقيقي. ومعنى الثانية «وما منع الناس أن يؤمنوا» إلا استغراب بعثة البشر رسولاً وهو مدلول القول التزاماً والدال لا يناسب المانعية والمدلول ليس مانعاً حقيقياً بل عادي لجواز وجود الإيمان معه فهو حصر في المانع العادي فلا تناقض وسيأتي لهذا إن شاء الله تعالى زيادة تحقيق.

وكذا لأمثاله مما يضيق عنه هذا المبحث، وأما الاختلاف المذكور فليس هو المنفي في قوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢] لأن المراد به أحد أمرين، الأول الاختلاف المناقض للبلاغة، والثاني الاختلاف فيما أخبر عنه من قصص الماضين وسير الأولين مع أمية من جاء به وعدم دراسته للعلوم ومطالعته للكتب ولا شك أنه لم يوجد في القرآن شيء من هذه الاختلافات على أن أمثال بعض ما ذكر من الاختلاف ليس بقرآن لأنه لم يتواتر وأمثال البعض الآخر اختلاف مقال لاختلاف الأحوال، والمرجع إلى جوهر واحد وهو التراب في خلق آدم مثلاً ومنه تدرجت تلك الأحوال وأي ضرر في ذلك، وأما التكرار اللفظي والمعنوي فلا يخلو عن فائدة لا تحصل من غير تكرار كبيان اتساع العبارة وإظهار البلاغة وزيادة التأكيد والمبالغة إلى غير ذلك مما قد أمعن المفسرون في تحقيقه وبيانه وستراه بحوله تعالى، وأما ما يتوهم فيه أنه من قبيل إيضاح الواضحات فليس يخلو عن درء احتمال ورفع خيال، فإنه لو لم يقل فيما ذكر من الآية ﴿تلك عشرة كاملة﴾ [البقرة: ١٩٦] لتوهم ولو على بعد أن المراد وتمام ﴿سبعة إذا رجعتم﴾ [البقرة: ١٩٦] بل في ذلك غير هذا أسرار ستأتيك بعون باريك، وأما قول عثمان إن في القرآن لحناً الخ فهو مشكل جداً إذ كيف يظن بالصحابة أولاً اللحن في الكلام فضلاً عن القرآن وهم هم ثم كيف يظن بهم ثانياً اجتماعهم على الخطأ وكتابته ثم كيف يظن بهم ثالثاً عدم التنبه والرجوع ثم كيف يظن بعثمان عدم تغييره وكيف يتركه لتقيمه العرب وإذا كان الذين تولوا جمعه لم يقيموه وهم الخيار فكيف يقيمه غيرهم فلعمري إن هذا مما يستحيل عقلاً وشرعاً وعادة.

فالحق إن ذلك لا يصح عن عثمان والخبر ضعيف مضطرب منقطع. وقد أجابوا عنه بأجوبة لا أراها تقابل مؤنة

نقلها والذي أراه أن رواة هذا الخبر سمعوا شيئاً ولم يتقنوه فحرفوه فلزم الإشكال وحل الداء العضال وهو ما روي بالسند عن عبد الله بن عبد الأعلى قال: لما فرغ من المصحف أتي به عثمان فنظر فيه فقال أحسنتم وأجملتم أرى شيئاً سنقيمه بألسنتنا، وهذا لا إشكال فيه لأنه عرض عليه عقيب الفراغ من كتابته فرأى فيه ما كتب على غير لسان قريش ثم وفى بذلك عند العرض والتقويم ولم يترك فيه شيئاً ولا أحسبك في مرية من ذلك. نعم يبقى ما روي بسند صحيح على شرط الشيخين عن هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن لحن القرآن عن قوله تعالى: ﴿إن هذان لساحران﴾ [طه: ٦٣] وعن قوله: ﴿والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾ [النساء: ١٦٢] وعن قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾ [المائدة: ٦٩]؟ فقالت يا ابن أخي هذا عمل الكتاب أخطؤوا في الكتاب، وكذا ما روي عن سعيد بن جبير كان يقرأ ﴿والمقيمين الصلاة﴾ ويقول هو لحن من الكاتب ويجاب عن الأول بأن معنى قولها أخطؤوا أي في اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه لا أن الذي كتبوه من ذلك خطأ لا يجوز فإن ما لا يجوز مردود وإن طالت مدة وقوعه، وهذا الذي رأته عائشة وكم لها من رأي رضي الله تعالى عنها. وعن الثاني بأن معنى قوله لحن من الكاتب لغة وقراءة له وفي الآية قراءة أخرى وللنحويين في توجيه هذه القراءات كلام طويل ستسمعه فيما بعد إن شاء الله تعالى. وأما الوجه الثاني «فلأن من ذهب» إلى أن وجه الإعجاز عدم التناقض والاختلاف مع الطول والامتداد يقول القرآن بجملته معجز. لذلك فسلامة كثير من الخطب والشعر من ذلك وظهور ذلك كلياً فيما يكون على مقدار بعض السور القصار لا يضره شيئاً كما لا يخفى فتدبر.

وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن وأتوا بوجوه شتى الكثير منها خواصه وفضائله مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأنه لا يمله تاليه بل يزداد حباً له بالترديد مع أن الكلام يعادي إذا أعيد وكونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى وقد يظهر كلها في آية وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب ولا ضير ولا عيب فما يبقى كاف وفي الغرض واف.

نجوم سماء كلما انقضّ كوكب ... بدا كوكب تأوي إليه كواكب

أما بيان كون النظم معجزاً فلأن مراتب تأليف الكلام على ما قيل خمس «الأولى» ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض فتحصل الكلمات الثلاث الاسم والفعل والحرف «والثانية» تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض فتحصل الجمل المفيدة وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم وقضاء حوائجهم ويقال له: المنثور «والثالثة» ضم ذلك إلى بعض ضماً له مباد ومقاطع ومداخل ومخارج ويقال له المنظوم «والرابعة» أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له المسجع «والخامسة» أن يحصل له مع ذلك وزن ويقال له إن قصد الشعر والمنظوم إما محاورة ويقال له الخطابة وإما مكاتبة ويقال له الرسالة فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام ولكل من ذلك نظم مخصوص والقرآن جامع لمحاسن الجميع بنظم مكتس أبهى حلل، ومتعر عن كل خلل، ومشتمل على خواص ما شامها سواه، ومزايا ما سامها عند أهل النقد نظم إلا إياه.

من كل لفظ تكاد الأذن تجعله ... رباً ويعبده القرطاس والقلم

ويؤيد ذلك أنه لا يصح أن يقال له رسالة أو خطابة أو سجع كما يصح أن يقال هو كلام، والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم بلا ترديد وهذا مما لا خفاء فيه على الرجال حتى على الوليد، وأما بيان ذلك في البلاغة فهو أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في البيان متفاوتة، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب

السهل، ومنها الجاري الطلق الرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود فالأول أعلاها والثاني أوسطها والثالث أدناها وأقربها وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام أوفرحصة وأخذت من كل نوع أعظم شعبة فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة وهما كالمتضادين فكان اجتماع الأمرين فيه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة ومنزلة جليلة وقد خص بذلك القرآن كما لا يخفى[1] على ذوي الفطر السليمة ومن كان له في علم البلاغة إتقان. وأما بيان إعجاز اشتماله على الإخبار بالغيب فلأنه تضمن ما يحكم العرف بكثرته من أخبار القرون الماضية والأمم البادية والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك وتتبعه فيورده القرآن على وجهه ويأتي به على نصه، ومن المعلوم أن من أتى به أمي لا يقرأ ولا يكتب صلى الله تعالى عليه وسلم مع الإعلام بما في ضمائر كثيرين من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله تعالى: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ [آل عمران: ١٢٢] وقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله﴾ [المجادلة: ٨] والإعلان بالحوادث المستقبلة في الأعصار الآتية كقوله تعالى: ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ [الروم: ١ ـ ٤] وأخبار أقوام في قضايا أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا كقوله تعالى خطاباً لليهود ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً﴾ [البقرة: ٩٤] فما تمناه أحد منهم إلى أضعاف مضاعفة من مثل ذلك قد اشتمل القرآن عليها واختص من بين الكتب بها حتى أن أقصر سورة فيه وهي الكوثر تشير إلى أربعة أخبار عن الغيب مع أنها ثلاث آيات «الأول» في قوله تعالى ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] إذا أريد به كما في بعض الروايات كثرة الأتباع «والثاني» في قوله «وانحر» حيث أريد به كما هو الظاهر الأمر بالنحر فهو إشارة إلى اليسار حتى يمكنه الإقدام عليه «والثالث والرابع» في قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ٣] حيث صرح ورمز بأن شانئك لا أنت أبتر لا عقب له فكان كما أخبر ولا شك عند كل عاقل أن مجموع ما ذكرنا يعجز عنه البشر وأما إعجاز موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى فلأنه اشتمل على توحيد الله تعالى وتنزيهه والدعاء إلى طاعته وبيان طرق عبادته من تحليل وتحريم ووعظ وتعليم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وإشارة إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساويها واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى أولى منه ولا أليق ولا يتصور احرى من ذاك ولا أخلق جامعاً بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه وامتثال ما أمر به واجتناب ما نهي عنه مع إشارة أنيقة ورموز دقيقة وأسرار جزيلة وحكم جليلة ستقف إن شاء الله تعالى على الكثير منها بحيث لا تبقى في شك من رد من يقول بأن ذلك معتاد في أكثر كلام البلغاء وأنه ينتقض بالتوراة والإنجيل وبكلام الرسول الغير المعجز فأين الثريا من يد المتناول.

وما كل مخضوب البنان بثينة ... ولا كل مصقول الحديد يماني

فهذه الأوجه الأربعة هي الظاهرة في وجه إعجاز القرآن والمشهور عند الجمهور الاقتصار على بلاغته وفصاحته حيث بلغت الرتبة العليا والغاية القصوى التي لم تكد تخفى على أهل هذا الشأن حتى النساء كما يحكى أن الأصمعي وقف متعجباً من امرأة تنشد شعراً فقالت أتعجب من هذا أين أنت من قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص: ٧]؟ فقد

(١) وقال السكاكي اعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن والملاحظة وطيب النغم ولا يدرك تفصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا بإتقان علم المعاني والبيان والتمرن فيهما فليفهم ا هـ منه.

جمع أمرين ونهيين وبشارتين أي مع ما فيه مما يدرك بالذوق؛ وبعضهم جعل المدار النظم المخصوص والباقي تابع له قائلاً إن الإعجاز المتعلق بالفصاحة والبلاغة لا يتعلق بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى فإن الألفاظ ألفاظهم كما قال تعالى ﴿قرآنا عربيا﴾ [الزخرف: ٣، يوسف: ٢، طه: ١١٣، الزمر: ٢٨، فصلت: ٣، الشورى: ٧] ﴿بلسان عربي﴾ [الشعراء: ١٩٥] ولا بمعانيه فإن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدمة كما قال تعالى: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: ١٩٦] وما فيه من المعارف الإلهية وبيان المبدأ والمعاد والإخبار بالغيب فإعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن بل لكونه حاصلاً من غير سبق تعليم وتعلم ولكون الإخبار بالغيب إخباراً بما لا يعتاد سواء كان بهذا النظم أو بغيره مورداً بالعربية أو بلغة أخرى بعبارة أو إشارة، فإذا هو متعلق بالنظم المخصوص الذي هو صورة القرآن وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره كالخاتم والقرط والسوار إذا كان الكل من ذهب مثلاً فإن الاسم مختلف والعنصر واحد وكالخاتم المتخذ من ذهب وفضة وحديد يسمى خاتماً والعنصر مختلف فظهر أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بنظمه المخصوص وإعجاز نظمه قد سلف بيانه وأنت تعلم ما فيه وإن كان قريباً إلى الحق، وأبعد الأقوال عندي كونه بالصرفة المحضة حتى أن قول المرتضى فيها غير مرتضى كما لا يخفى على من أنصفه ذهنه واتسع عطنه، وأبعد من ذلك كونه بالقدم كما هو قريب ممن هو حديث عهد بما تقدم ـ وسيأتي إن شاء الله تعالى ـ تتمة لهذا الكلام من بيان اختلاف الناس أيضاً في تفاوت مراتب الفصاحة والبلاغة في آياته ويتضح لك ما هو الحق الحقيق بالقبول والله تعالى المبتغى والمسؤول، ولنقتصر من الفوائد على هذا المقدار وفي السبعة ما لا يحصى من الأسرار، وهذا أوان تقبيل شفاه الأقلام، حروف سبحان كلام الله تعالى العلام.